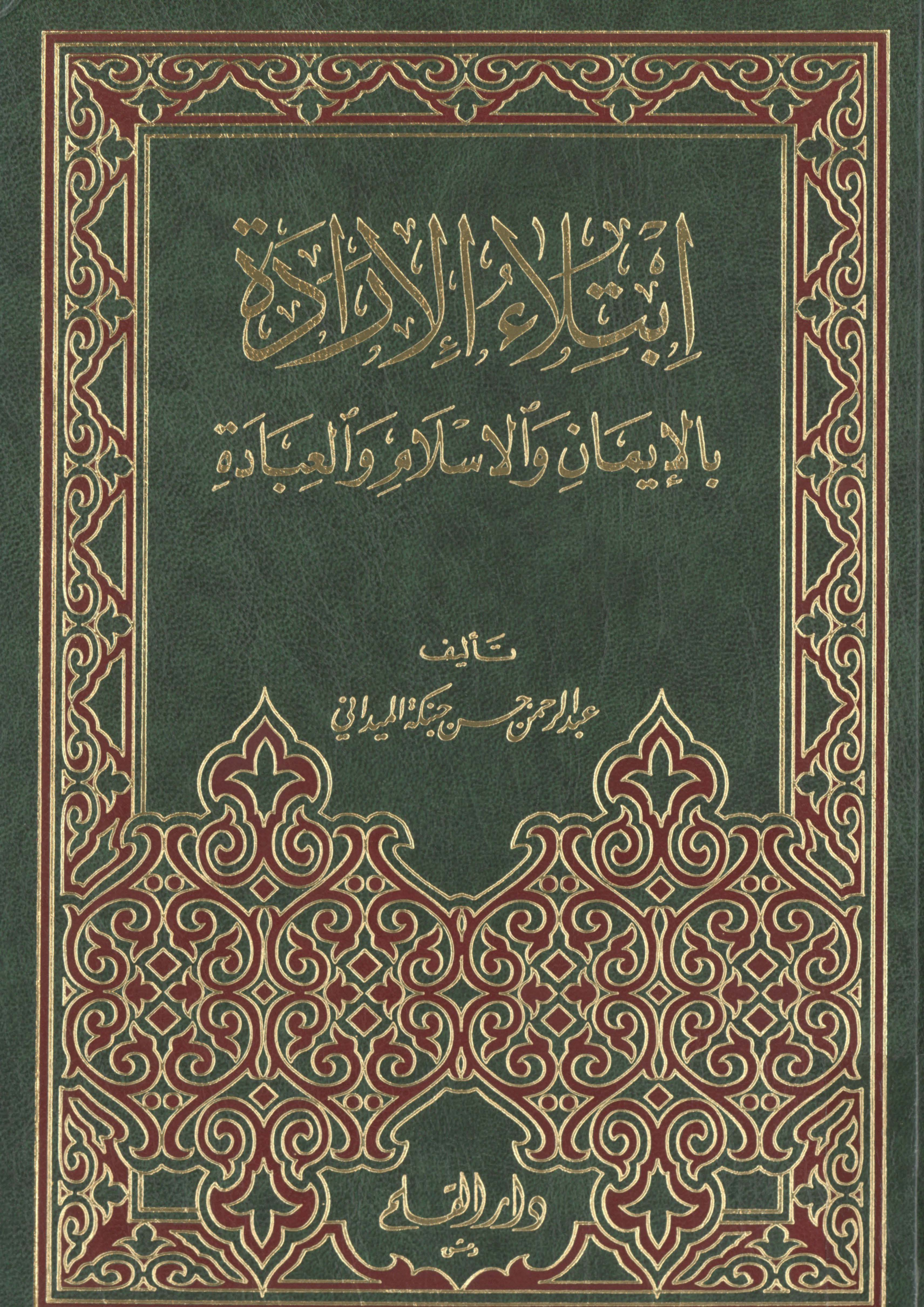
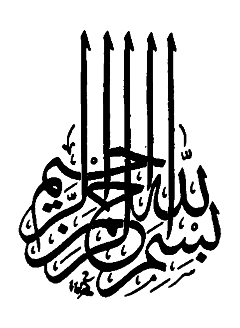

ابتلاء الإرادة
بالإيمان والإسلام والعبادة
تأليف
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
دار القلم
دمشق




ابتلاء الإرادة
بالإيمان والإسلام والعبادة


بسم الله الرحمن الرحيم

ابتلاء الإرادة

بالإيمان والإسلام والعبادة

تأليف

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

الطّبْعَة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧
بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربيّة السّعوديّة
من دار البشير بجدة
جدة: ٢١٤٦٣ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الكتاب

الحمد لله الخالق البارىء المصوّر الأزلي الأبديّ الحيّ القيوم العليم الحكيم، الذي بيده المُلْك وهو على كلّ شيءٍ قدير، خلَقَ الموتَ والحياة، والّلذّات والآلام، والمنافع والمضارّ، وطريق الخير وطريق الشرّ، ليبلُوَ ذوي الإرادات الحرّة أيُّهم أحْسَنُ عملاً، وأيُّهم دُونَ ذلك حتّى أسْفَل سافلين، ثُمّ ليجزيهم يوم الجزاء، على ما اختاروا في رحلة الابتلاء.

والصلاة والسَّلامُ الأزْكَيَان الأتمّان على المصطفين الأخيار، الأنبياء والمرسَلِينَ الأطْهَار، الذين حَمَلُوا رسالاتِ الله لعباده في القرون تباعاً مبشّرين ومنذرين، ومبلّغين دين الإسلام الّذي اصطفاه الله للنّاس أجمعين، وأنزلَهُ على وَفْق سُنَّةِ التكامل بحَسَب حاجاتِ البشر في تكامل علاقاتهم الاجتماعيّة وتَنَاميها، حتّى ختم رسالاته بما أنزلَ على خاتم رُسُله وأشرفهم وأفْضَلِهم سيدنا وقائدنا وحبيبنا النبيّ الأمّيّ الرسول العربيّ رَسُولِ الله للنَّاس أجمعين، محمّد بن عبدالله، عليه أفضل الصلاة والتسليم، وعلى آله وصَحْبِه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمّا بعد: فَهذِه منظومَةٌ فِكْرِيَّةٌ تكشف الشجرةَ الحِكْمِيَّةَ الرّبانيّة الّتي تمَّ بمُقتَضى أُصولها وفروعها تَرْتِيبُ خطة الْخَلْقِ وفقَ العناصر التالية:

العنصر الأول: خَلْقُ السّماوات والأرض وما بينهما.

العنصر الثاني: خَلْقُ النَّاسِ وابتلاؤُهم في ظروف الحياة الدنيا، بعد تَهْيِئَةِ ما يَلْزَمُهُمْ للعيش فيها، ومَنْحِهِمْ كُلَّ الشروط اللازمة لابتلائهم على أحْسَنِ وجْهٍ حَكيم.

العنصر الثالث: إنزالُ الدِّين المختار المصطفى للّذين يُوضَعُون موضع الابتلاء بحسب حاجات الناس في القرون.

العنصر الرابع: إمَاتَةُ الممتَحَنينَ وإقامَةُ بَرْزَخٍ فَاصِلٍ بين الموت والحياة الأخرى الّتي يَكُونُ فيها عَوْدٌ للأجساد بَعْدَ فناء أَجْسَادِ الحياة الأولى.

واقتضى هذا الْعُنْصُرُ خطّةَ إنْهاءِ ظُرُوف الحياةِ الدُّنيا كُلِّها، وتَغْيِيرَ نظامِهَا القائم، وإماتَةَ جميع الأحياء في السماوات والأرض.

العنصر الخامس: الْبَعْثُ لحياة أُخْرى يكونُ فيها الحسابُ وفَصْلُ الْقَضاء، ومجازاةُ الّذينَ مَرُّوا رحلة امتحانهم على حَسَب أعمالهم.

العنصر السادس: إعداد دَارَيْنِ عُظْمَيَيْن:

الجنّة: وهي دَارُ نَعِيمٍ للمتقين بحَسب درجاتهم، وهي ذات مراتب ودرجاتٍ متصاعدات.

ففي أدناها درجاتُ مرتبة المتّقين، وفي أوْسَطِها درجاتُ مرتبة الأبرار، وفي أعلاها درجاتُ مرتبة المحسنين حتَّى الفردوس الأعلى.

النّار: وهي دارُ عذابِ العاصين والفجار والطّاغين والكفّار والمنافقين، وهي ذاتُ منازلَ ودركاتٍ متسفّلات.

ففي أسفل منازلها دركاتُ أشَدِ الكافرين كُفْراً وإجراماً وبغياً وطغياناً ونفاقاً.

وفي أوسط منازلها دَرَكاتُ الفجّار ومتوسطي البغي والعدوان.

وفي أهون منازلها دَرَكاتُ المشركين بلا طُغْيَان ولا عدوان، وأهونُها دركاتُ العصاةِ المسرفين على أنفسهم دون إشراك بربهم، إذْ يُعَذّبون على قدر

معاصيهم، ثم يُخْرَجُونَ لينالُوا ثواب إيمانهم في الجنة.

إنّ الشجرة الحِكْمِيَّةَ الَّتي كَشَفَتَها بيانات هذه المنظومة الفكريّة الّتي اشتمل عليها هذا الكتاب، قد فَتَحَ اللهُ عليّ بها من خلال تَدبُّري بأناةٍ وَتفكُّرٍ طويلٍ لِنُصُوصِ كتاب الله عزّ وجلّ، مع ما كان لديَّ من مَخْزُونٍ عِلْمِيٍّ حَوْلَ أُسُس العقيدة الإسلامية ومفاهيمها، وأُسُس الفقه الإسلاميّ ومفاهيمه، الّتي شَحَنَتْهَا في ذاكرتي قراءاتي لمستنبطات علماء المسلمين في كُتُب العقائد وكتب الفقه الإسلامي والأخلاق، وما تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الباحثُونَ من قَبْلِي حَوْلَ فلسفَةِ أُسُسِ الدين، ومفاهيم عقائده وقواعده وشرائع.

وهذه المنظومة الفكريّة تتناول ما يلي:

أولاً: نَظَرات النّاس إلى الكَوْن والحياةِ ما طابق منها الحقّ وما انحرف عنه.

ثانياً: إرادات الله وإرادات الْعِبَادِ والمطلوب منهم في ابتلائهم.

ثالثاً: الابتلاء والتسخير والعلاقة بينهما.

رابعاً: كلّ ما يمكن العلم به إمّا طاهر، وإمّا نجس، وإمّا خليط منهما.

خامساً: الرّبوبيّة والعبوديّة.

سادساً: السَّمْع والطاعة.

سابعاً: العبادة «أُسُسُها وفلسفَتُها ومفاهيمها وذكر الله فيها».

ثامناً: أثر العقيدة في تطبيق الشريعة.

تاسعاً: خصائص الشريعة الإسلامية.

واقتضى إتقان التصنيف بَحْثَ هذه العناصر التسعة وتفصيل فروعها في تسعة فصول، يُعانِقُ كُلُّ لاحقٍ منها الفصل السابق له، ويستَدْعي كلُّ سابِقٍ الفصل اللاحق له، إذْ تستثير مضامينُه أسئلةً تتطلّبُ أجوبةً عليها، فيأتي اللّاحِقُ مشتملاً على الأجوبة المناسبة المقنعة إن شاء الله، ورأيتُ أنْ أضع لهذه المنظومة الفكرية عنوان: «ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة» مشيراً إلى

أنّ العبادة بعمومها قد تشمل الإيمان والإسلام في عموم مفهومها إلَّا أن هذا ليس واضحاً في أذهان عامة الناس، فاقتضى هذا الأمر النصَّ على الإيمان والإسلام في العنوان العامّ مع النص على العبادة وحَسُن تقديمهما لأن العبادة أعمّ منهما.

والحمد لله على توفيقه وفتحه، وأسأل الله ذا الفضل العظيم أن ينفع ويهدي به ذوي البصائر السليمة النظيفة، والعقول الواعية الحصيفة.

اللّهُمّ رَبّنا أَرِنا الحقّ حقّاً وارْزُقْنَا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرمة في ١٣ جمادى الأولى ١٤١٤ هجرية

و ٢٨ تشرين الأول ١٩٩٣ ميلادية.

الفصـــل الأول

نظرات النّاس إلى الكون والحياة
ما طابق منها الحقّ وما انحرف عنه



(١)

مقدمـة

تقتضينا منطقيّة البحث أن نبدأ بالنظرة المثالية الصحيحة إلى الكون والحياة ، وهي الّتي تمثّل صراط الله المستقيم ، صراطَ الحقّ والهُدَى ، وهي التي آمَن بها الممتازون في المراتب العليّة من البشر الذين أنْعَمَ الله عليهم من النبيين والصدّيقين ، والعلماءُ الأفذاذ الّذين لم يَصُدَّهم عن الحقِّ كِبْرٌ ولا إعجاب بالنفس ، ولم يَصْرِفْهُمْ عن اتِّباع سبيل الهدى أَهْواءٌ أو شهوات ، أو نَزَعَاتٌ جانحات ، أو نزغات مفسدات .

ثُمَّ نَـنْظُر في سُبُل الانحراف عنها الّتي اتّخذها وَتَشَبَّثَ بها أصْحَابُ مَذَاهِبِ الكُفْرِ المختلفة ، من أشَدِّها إغراقاً وتَسَفُّلاً إلى الحضيض ، حتَّى أخَفِّهَا انْحِرافاً وَخُرُوجاً عنِ صراط الحقّ والْهُدَى ، وما بينهما من دركاتٍ مُتَفاوتات في نِسَبِ بُعْدِها وانحطَاطها .

ونَسْتَفِيدُ منهجيّة هذا الانطلاق في البحث من قول الله عزَّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦] :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ . . . ﴾

إنّ الدراسة الواعية البصيرة لقضيّةٍ ذاتِ صُوَرٍ مختلفة في الواقع أو في الفكر، ينبغي أنْ تَبْدَأ بتحديد الصورة المثالية ، وتَجْعَلَها النموذجَ الأسمى ، ثُمَّ

تُقَارن بها وتقيسَ علَيْها سائر الصُّور الواقعيّة أو الفكريّة .

إنَّهُ قَبْلَ أنْ تُعْرَفَ صورةُ الإنسان الكامل يكونُ من الصَّعْبِ تحديد الصُّوَر المشوّهة قليلاً أو كثيراً .

فلنفترض أنّ إنساناً نشأ في وادي القرود ، وهذا الإنسان لم يُشَاهِدْ بشراً مثله ، ولم يتعرّف على حُسْنِ قَوَامه عن طريق مِرْآةٍ ، ولا على خصائصه المفضّلة ، ولا على أنواع سلوك الناس الّتي تمتاز بكمالها وحُسْن مقاصدها على سُلوك القرود ، فإنّه لابُدَّ أنْ يَرَى نفسه مُخَالفاً للقرود ، ولابدّ أن يَحْزَنَ في نفسه لأنّه لا يملك صفات القرود ولا حركاتها ، فهو يحاول أن يُقلّدها حتّى لا يكون غريباً شاذّاً مشوّهاً بالنسبة إليها .

ويحدّثنا علماء النفس عن بعض أفرادٍ من الناس نَشَؤُوا بين الوحوش ، وأرضَعَتْهُمْ إناثٌ من الوحوش ، فكان سلوكهم عند كِبَرِهم كَسُلوكِ الوحوشِ الّتِي نشؤوا بينها ، فمنهم من كان يَعْوِي عواء الذئاب ويمشي مثلها ، ومنهم من كان يعوي عواء الكلاب ويمشي مثلها ، ومنهم من كان يَسْلُك سُلُوكَ الظّباء ، إلى غير ذلك .

(٢)

النظرة المثالية الصحيحة إلى الكون والحياة

إنَّ النَّظرة المثاليّة إلى الكون تدلُّ أولي الألْبَابِ المتفكِّرين على أنَّ الكون يشتمل على آياتٍ مُفَصَّلاتٍ تَدُلُّ مُنْفَردةً ومجتمعةً على أنَّ لَهُ خالقاً ، ربّاً قديراً عليماً حكيماً يفعل ما يشاء ويختار ، سميعاً بصيراً عَدْلاً ، يخلُقُ بالحقّ والعدل ، لا يَعْزُبُ عن علمه مثقالُ ذرّة في الأرض ولا في السماوات ، وهو المهيمن بسلطانه على كُلِّ شيء ، وبيده وبحكمته تصريفُ كلّ شيءٍ ، ومقاليدُ كلّ شيء ، خَلَقَ الْخَلْقَ مُتْقناً مُحْكماً بديعاً تَذْهَشُ كلّ العقول من عظيم إتقانه وإحكامه وإبداعه ، من أصغر ذَرّةٍ فيه إلى أكْبَر مَجَرَّة ، وتَحَارُ الأفكار في دقائق

صُنْعِه ، وفي إمداد كلِّ شيءٍ منْهُ بما يلائمه ، ممّا يُهَيِّئ له أصل الوجود ، واستمرار البقاء .

وأنّه سبحانه يُمْسِكُ السَّماواتِ والأرْضَ وكلَّ شيءٍ فيهما بالبقاء إلى مَا يشاء من آجال ، فإذا انتهت آجالها التي قدّرها لَهَا رَفَع عنْها إمداده وإمساكَهُ لهَا بالبَقاء ، فَعَادت إلى أصْلِها وهو العَدَم ، وضرب لنا مثلاً لها فيما خلَقَ : الطّاقَةَ الكهربائيّة التي تُمِدُّ المصابيح الكهربائيّة بالنّور ، إذْ يبقى النور مُتَتابِعَ الوجود ما دامَتِ الطاقة الكهربائيّة تُمِدُّهُ بوَقُودِه ، وفي اللّحظة التي ينقطع عنه الوَقُود ، يكونُ عَدَماً ولا يبقى له وجود ، وكذلك كلُّ آلة تعمَلُ بطاقَةٍ ذاتِ إمدادٍ بِقُوتِ العملِ تقف عن العمل متى انقَطَعَ عنها قُوتُ عَمَلِها .

الطّاقةُ في الأشياء هي قُوتُ البَقَاء ، كما أنَّ الأغْذِيَةَ قُوتُ بقَاءِ الحياة في الأحياء ، والرّبُّ الذي خلَقَ على غيْرِ مثالٍ سبَقَ هو على كُلِّ شيءٍ مُقيتٌ ، كما قالَ عزَّ وجَلَّ في سورة [النساء/٤] :

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾

إنّ دراسة هذا الكون مع التفكُّر فيه ، مهما تعمَّقَ الباحثونَ في بحوثهم ، وطرحوا فرضيات مختلفات ، لابُدَّ أن توصل إلى هذه الحقيقة مهما كابر فيها المكابرون ، وعاند المعاندون .

فالكون أثَرُ خَلْقٍ تَدُلُّ صفاتُهُ وخصائصه على عظيم صفات خالقه .

هذه النظرة المثاليّة إلى الكون هي الحقيقة التي علَّمها الأنبياء والمرسلون بما أوحى الله إليهم . وهي النهاية التي انتهى إليها أفذاذ الفلاسفة والمتفكرين من نوابغ الأمم والشعوب ، والّتي انتهى إليها كبار علماء الكون الّذين تفرغوا للبحوث العلميّة متجرّدين من الأهواء الخاصة ، يَنْشُدُونَ الحقيقة أيْنَ وَجَدُوها .

وهي الفطرة التي تُحسُّ بها فِطَرُ النفوس ، وتَمِيلُ إليها بمشاعر داخليّة قد

تكونُ غامضةً في زَحْمَةِ حرَكَة الحياة ، ولكنها تنتبه وتصحُو عند الأزماتِ المُلِحَّة ، والضرورات التي لا تُسعفُ فيها الوسائل الكونيّة ، كما حصل لفرعون حين أدركه الغرق فقال : آمنتُ بربِّ موسى وهارون ، لكنّه آمَنَ حين لا ينفعه إيمانه .

أمّا ظاهرة الحياة وهي الظّاهرة العجيبة الّتي إذا وُجِدتْ في المادّة كانت لها صفاتٌ وخصائصُ مُذْهشة ، وإذا سُلِبَتْ مِنْها دون مُلاحظة نقصٍ مادّيّ ملموسٍ فقَدَ ذلك الجسم المادّي صفاتِه وخصائِصَه ، وصار مادّةً يستَهْلِكُها الفناء حتى يُعيدها تُراباً . فالنَّظرَةُ المثاليّةُ إليها تهدي إلى حقيقتين :

الحقيقة الأولى : أنَّ الحياة هِبَةٌ مباشِرَةٌ من الرَّبّ الخالق، خارجَةٌ عن إطار الكَوْنِ المادّي ، فهي من أمر الله ، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة [الإسراء/١٧] :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ ٨٥

وقد عَجزَ المعاندون من علماء الطبيعة عن أن يُوجِدوا أدْنى مُستوىً من الحياة في مادّة لا حياة فيها في أبْسِط خليّةٍ ، لأنّ الحياة سِرٌّ من أمرِ التكوين الرَّبّانِي ، لا تظهر إلاّ ضمنَ النظام الذي جعله الله للأحياء ، فلا تُشْتَقُّ الحياة إلا من الحياة نفسها ، ولا يظهر الأحياء إلا سلالة من الأحياء ، باستثناء معجزات الأنبياء الّتي تُبَرهِنُ على أنّ الحياة من أمْرِ الخالق العليم الحكيم الذي هو على كلِّ شيءٍ قدير .

وقد انتهى عُلَماءِ الأحياء في الغرب والشرق إلى قرار أخير : هو أنّ الحياة لا تُوجَدُ إلا مشتقّةً من الحياة .

فالحياة أيضاً آيةٌ من آيات الله في كونه الدالاّتِ على جَليلِ صفاته ، وعظيم قدرته .

هذه هي النظرة المثالية إلى قضيّة وُجودها .

الحقيقة الثانية : تتضَمَّنُ الإجابة على السُّؤال التالي : ماهي الحكمةُ من خَلْقِ الحياة والموت ؟

إنّ النظرة المثاليّة تكشف أنَّ حكمة الله في خَلْقِ الحياة والموتِ بالنسبة إلى الإنسان هي وَضْعُهُ مَوْضِعَ الامتحان في هذه الحياة الدنيا ، فإذا اجتاز رحْلَة حياته بنجاحٍ كانَ مَصيرُهُ في الحياة الأخرى بعد البعث إلى جنة عظيمة له فيها كلّ ما يشتهي ويدّعي ، خالداً فيها مخلّداً أبداً ، لا يَهْرَمُ فيها ولا يشيخ ، ولا يمرض ولا يضعف ، ولا تتناقَصُ قُوّاته ، ولا يتعرَّضُ فيها لعاهات ، بل كُلُّ ما فيها نعيمٌ ولذاتٌ ورضوانٌ من الله أكبر . وإذا اجتاز رحلة امتحانه كافراً بربّه أو جاحداً لحقّه عليه في العبادة ، أو جاحداً كتُبه أو رُسُلَه ، أو شيئاً ممّا أنزل الله بيقين لعباده من قضايا إيمانيّة ، أو قضايا تكليفيّة ، كان مصيره في الحياة الأخرى بعد البعث إلى دار العذاب الأليم خالداً فيها مخلّداً أبداً . وإذا اجتاز رحلة امتحانه مؤمناً عاصياً كان عُرضَةً للعقوبات التي استحقَّها على مقدار معاصيه ، ويغفر الله ما يشاء لمن يشاء ، وذلك بمقتضى حكمته وعلمه بما في نفوس عباده ، فالجزاء الرَّبّانيُّ يدور على مِحْوَرَي العَدْلِ والفضل .

وأمّا حياةُ الأحياء الدُّنيا من دونِ الإنسان الممتحن المكلّف فَهِي من آياتِ الله في كونه الدّالّاتِ على عظيم صفاتِه ، ولها في الوجود وظائفُ جليلة ، وهي مسخّرة للنّاس من ضمن ما سخّر الله لهم من أشياء في الأرض وفي السماء تسخيراً مقروناً بحقوق لها وتكاليف تجاهها .

إنّ الله عزّ وجلّ لم يخْلُق الناس في هذه الحياة الدنيا عبثاً ولا باطلاً ، ولم يخْلُقْ كونَه لَعِباً ولَهْواً ، بلْ كلُّ خلْقِه وأمْرِه وتصاريفه في كونه لحكمة ، ولا مجال لتصوُّر العبث أو الظلم أو اللَّهْو أو اللّعبِ في شيءٍ من ذلك ، وهو سبحانه العليم الحكيم القدير الذي يفعَلُ ما يشاءُ ويختار ، خَلْقُهُ فَيْض ، وعطاؤه فضْلٌ ، وعقابُه عَدْل .

وقد خلَقَ الله الناس على أحسَن تقويم ، وجعل حياتهم الأولى في هذه

الحياة الدنيا داخل أحداثٍ مُتداخِلَةٍ متشابكةٍ ، وصُوَرٍ كثيرةٍ مختلفة الصفات ، ليبلوهم أيُّهُمْ أحْسَنُ عملاً ، فَمَنْ هُو دُونَ ذلكَ ، حتى أسْوئهم عملاً ، وأحطِّهم دركةً في أسْفل سافِلينَ ، ليجزيَهُمْ في الحياة الأخرى على مقادير أعمالهم .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [الملك/٦٧] :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

فالنظرة المثاليّة دلّت على أنّ هذه الحياة الدنيا إنّما هي رحلة امتحان ، والممتَحَنُ فيها إمّا أنْ يسعى إلى سعادته يوم الدين ، وإمّا أن يسعى إلى شقائه وتعاسته وعذابٍ أليم .

والذين هم في الامتحان الربّاني مُكَلَّفُون ، ليسوا أحراراً في رفْضِ التكليف ، وذلك لأنّهم قبل الظُّهورِ إلى عالم الامتحان ، إذْ كانوا في عالم الذّر قدْ خُيّروا كما جاء به البيان في القرآن المجيد ، بقول الله عزّ وجَلَّ في سورة [الأحزاب/٣٣] :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

فجاء هذا البيان مُؤيّداً للنظرة المثاليّة ومُتَمّماً لمفاهيمَ يصعُبُ على الفكر أن يتوصَّلَ إليها بنفسه .

وأشهد الله بني آدم على أنفسهم بأنّه ربُّهُمْ وهم في عالم الذّرّ ، كما أبان سبحانه في سورة [الأعراف/ ٧] بقوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

وَجاء هذا البيان الديني مؤيِّداً للنظرة المثاليّة ، ومُتَمّماً لمفاهيمَ يَصعُبُ على الفكر أنْ يتوصّل إليها بنفسه .

فربوبيّة الله مَغْرُوزة في فِطَر نفوس الناس ، وإنْ نَسِيَ النّاسُ حدَث الإشهاد الذي أخبر الله عنه للتعريف به .

ومعرفة حقّ الأمانة والإقرار بهذا الحقّ ، والاستعداد للوفاء به ، أمُورٌ مغروزةٌ أيضاً في فِطَر نفوس الناس ، وإنْ نَسُوا حَدَثَ عرض الأمانَةِ وقبولِهم لهذا العرض ، وتحمُّلِهم المسؤولية تُجاهَه ، للظفر بالخلود في دار النعيم بعد رحلة الامتحان .

أمّا الإشهادُ على الرُّبُوبيّة فقد تمَّ في عَالَم الذّرّ بعد منح الله الوحدات الذريّة التي نَمَتْ مِنْهَا الكائناتُ البشريّةُ بعد ذلك الصفاتِ التي تُؤَهِّلُها لإدراك الخطاب ، ولمعرفة معنى رُبُوبيّة الله للعباد ، ولشهود أدلّةِ هذه الرُّبُوبية ، وبعد أنْ شهدت لله بأنَّهُ هُو رَبُّها ، أي : خالِقُها ومُمِدُّهَا بغِذاءِ البقاء والنَّماء ، مَسَحَ من ذاكِرَتِها هذا الحدث ، وأبقى في عُمْقِ فِطْرَتِها ما يَهْدِيها إلى إدْراك رُبُوبيّته والتماس عَوْنه ومَدَدِه ، والخضوع له .

وأمّا تَحمُّلُ الإنسان الأمانةَ ودخولُه رِحْلَةَ الامتحان طائعاً غيرَ مُكْرَه ، لكنّه ظهر عند التنفيذ وهو في رحلة الامتحان أنّه ظلومٌ جَهُولٌ ، لَمْ يُؤَدِّ من الأمانَة الّتي حَمَلَها ، واسْتَعَدَّ أنْ يُؤَدِّيَ حُقُوقَهَا ما يَجِبُ عَلَيْهِ فيها ، فيحتاج شيئاً من الشرح .

يتساءل المتسائل عن الأمانة الّتي عرضها الله عزَّ وجلّ على السماوات والأرض والجبال والإنسان ، فأبَتِ السماوات والأرض والجبال أنْ تحملها ، وأشفَقْنَ (أي : خِفْنَ وَحَذِرْنَ) من مسؤوليّة حملها ، ومن التكليف الذي يرافقه ، ومن الحساب والجزاء اللَّذَيْنِ يَتْبَعَانِ ذلك ، وحَمَلَها الإنسان ، واستعدّ أنْ يتحمّلَ التَّبِعَة مِنْ حِسَابٍ وَجزاءٍ ؟

أقول : لا بُدَّ للإجابة على هذا التساؤل من تحليل للصفات الَّتي تتمتَّعُ بها هذه الكائنات ، ولعناصر الأمانة لإدراكِ الأُمُور الَّتي جعلت السماوات والأرض والجبال تأبَى حَمْلَها ، والَّتي جعلَتِ الإنسان يَقْبَلُ حَمْلَها ، ويَستَعِدُّ لتحمُّلِ

التكليفِ حَوْلها ، وَتَبِعَةِ الْحِسَابِ والجزاءِ بَعْدَ ذلك .

إنّ العَرْضَ يستلزم إدْراك المعروض عليه حقيقة معنى ما يُعْرَضُ عليه ، أي : فهمَه والعلم به ، إذا كان الأمْرُ على الحقيقة لا على المجاز ، وهو الأمر الذي يستدعيه ظاهر البيان القرآني .

والفهم لشيءٍ ما يستلزم وجود أداة الفهم ، أو جهاز الفهم لدى الفاهم ، والاستعداد لإدْراك وسيلة التفهيم ، والإدْراكُ قد يكون صفة للمخلوق ، دون أن تكون له صفات الشهوة والإحساس باللّذةِ والألم ونحو ذلك ، ودون أن تكون له إرادة واختيارٌ وقُدْرةٌ على تنفيذ شيءٍ ممّا يريد .

وهل يشترط له نوع حياة أو لا ؟. هذا أمرٌ من أُمور الغيب عنا ، ومن الصعب علينا البتُّ فيه .

وقد أخبرنا الله عزّ وجلّ أنَّ كُلَّ شيءٍ يُسَبّح بحَمْدِهِ ، ولكن لا نَفْقَهُ تسبيحهم ، فهل هو بدلالة الحال ، أو هو تَسبيحٌ معه نوع إدْراكٍ خلقه الله للأشياء ؟.

الاحتمالان قائمان ، والثاني منهما غير مستحيلٍ ، والله على كُلِّ شيءٍ قدير ، والعلوم الحديثة قد كشفت لنا من خصائص الخلايا وأعمالها ووظائفها ، وما تؤدّيه من أعمالٍ متقنة ما يُذْهِش العقول ، وكأنَّ لها إدْراكاً ، وتحمل إنذاراتٍ ورسائل ، وترجع بالمطلوب على أحسن وجه ، فسبحان الخالق العليم الحكيم ، الذي هو على كلِّ شيءٍ قدير .

بناءً على هذا نقول :

حين عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال وعلى الإنسان الأوّل وفيه ذُرّيّتُه ، أو على الإنسان الشامل لكلّ أفراد النوع وهم في عالم الذّرّ ، لابُدَّ أنْ يكون هؤلاء قد أدْركوا ما عُرِض عليهم وفهموه ، حتى أبى حَمْلَ الأمانة مَنْ أباهُ ، وقَبِلَ حَمْلَهَا مَنْ قَبِله .

ويُمْكنُ أن نُصَوِّر هذا العَرْضَ والحِوارَ الذي جرى حوله تخيُّلاً ، واستنباطاً من وجيز البيان :

العرض : أتريدين أيَّتُها السماوات والأرْض والجبال أن تَحمِلِي الأمانة ؟ أتُريدُ أيُّها الإنسان أن تَحمِلَ الأمانَةَ ؟

المعروض عليهم : ما هي الأمانة الّتي نَحْمِلُها ؟

العرض : تُجْعَلُ لكُمْ إرادةٌ حُرّة ، وسلطةٌ على بعض ما يوضَعُ في ذواتكُمْ مِن قوىً وطاقاتٍ وأشياء أمانةً عندكم ، على سبيل الإعارة للانتفاع أو الوديعة ، وَيُؤْذَنُ لكم بالتصرّف فيها بإرادات حُرَّةٍ لكم ، وبالتصرّف فيما حولكم من الكون ، ممّا تَصِلُ قدراتُكم إليه أو إلى مفاتيحه .

المعروض عليهم : هذا التصرّف من صفات الخالق المالك ، وكيف نَتَصرَّف وليس لدينا رغبات ولا شهوات ، ولا حاجاتٌ ولا أهواء ، ولا نستطيع أن تكون لنا صفاتُ الرّبِّ الحكيم ؟

العرض : تُخْلَقُ فيكم رغبات وشهوات ، وحاجاتٌ وأهواءُ ولذّاتٌ وآلام

المعروض عليهم : وهَلْ يُباحُ لنا أن نتصرّف بإراداتنا الحرّة ، وفق رغباتنا وشهواتنا وحاجاتنا وأهوائنا دون مسؤولية ؟

العرض : يُعطى لكُمُ التمكينُ من التصرّف ، لكن لا على سبيل إباحة كلّ شيء .

المعروض عليهم : كيف نتصرّف إذَنْ ؟

العرض : يُوَجّه لكُمُ التكليفُ لِفِعْلِ أشياء وترك أشياء على خلاف رغباتكم وشهواتكم وأهوائكم ، ويُباح لكم أشياء لتلبية مطالب حاجاتكم وشهواتكم .

المعروض عليهم : فإذا خالَفْنَا الأوامر والنواهي وعَصَيْنا فلم نؤدّ التكاليف ؟

العرض : أنتم إذن ملاحقون بالمحاسبة والجزاء على اختياراتكم .

المعروض عليهم : هذا تكريم وتشريفٌ ، مقرونٌ بتكليفٍ ومسؤوليّة ، وبعْدَهُ حسابٌ وجزاءٌ ، ولكن هل يبقى في ذاكراتنا هذا العرض وهذا الحوار ؟

العرض : يُطوى من ذاكراتكم هذا العرض وهذا الحوار ، وتُطوى من ذاكراتكم هذه المعرفة الحاضرة بخالقكم ، ويبقى فيكم ما يشدُّكم إلى معرفته والإيمان به إيماناً غيبيّاً ، وإلى معرفة الغاية من وجود الأمانة الكبرى تحت سلطتكم ، وتُرسَلُ إليكم الرُّسُل ، وتُنَزَّلُ إليكم الكتب ، لتعريفكم وبيان المطلوب منكم ، وإنذاركم وتحذيركم ، وتبشير من آمَنَ وأطاع منكم ، ويخبرونكم بما جرى في هذا العرض .

المعروض عليهم : وما هو نوع الجزاء ؟

العرض : عذاب أليم أبديّ بالحريق في دار عذابٍ ، على الكفر بالرّب الخالق والإشراك به ، وجحود ربوبيّته أو ألوهيته ، وعذابٌ دون ذلك بالعدل حسب المعاصي والإساءات .

ونعيم أبدي في جنات نعيم خالدة ، على الإيمان بالخالق إيماناً غيبيّاً ، والإسلام له ، ودرجاتٌ من النعيم بعضها فوق بعضٍ ، بقدر ما يقدّم كلُّ واحد منكم من صالح الأعمال ، مع احتمال غُفْرانٍ أو عَفْوٍ عن سيئاتٍ دون الشرك بحسب مشيئة بارئكم .

السماوات والأرض والجبال : هذه مُخَاطرة مخيفة نأبى قبولها ، ما دامَ الأمْرُ عَرْضاً لا جَبْرَ فيه ، فنحن لذلكَ نأبى حَمْلَ هذِهِ الأمانة .

الإنسان : قَبلْتُ هذا العرض ، فأنا أحمِلُ هذِهِ الأمانة الكبرى ، وأتحمَّلُ تَبِعَتَهَا ، وتَحْلُو عندي هذه المخاطرة ، ويشدُّني إليها الطَّمَعُ بِمَقَام التكريم ، وببلوغ المجد العظيم .

العرض : خُذِ الأمانة أيُّها الإنسان ، وستَدْخُل رحلة الامتحان في الوقت

المقدّر لدخولك عبر الحياة الدنيا ، منذُ بلوغك سنّ التكليف حتى وفاتك ، ثُمَّ تكونُ لك حياة أخرى لمحاسبتك ومجازاتك[١].

(٣)

ثمرة النظرة المثالية إلى الكون والحياة

بعد النظرة المثالية إلى الكون والحياة التي سبق شرحها ، نلاحظ أنّ كُلَّ مَنْ يدخُلُ رحلة الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا بشروطه ، فهو مكلّفٌ أنْ يُؤمِنَ بالله إيماناً صادقاً ، موافقاً للحقّ والواقع ، على ما يقضي به برهانُ العقل ، وهو ما جاء على ألسنة رُسُل الله ، وتنزّلت به كتُبه ، من كونه تبارك وتعالى متّصفاً بكلّ صفات الكمال ، ومُنَزَّهاً عن كلِّ صفات النقصان ، ومنها تَوْحِيدُهُ في ربوبيته ، وتوحيده في آلهيته ، وأنّه لا والد له ولا ولد ولا صاحبة ، وأنْ يؤمن باليوم الآخر يوم الحساب والجزاء والدينونة ، وأن يؤمن بكتُب الله المنزّلة ، الّتي فيها بيانُ الدّين الذي اصطفاه الله للناس ، وأنْ يؤمن برُسُلِ الله المبلّغين عن الله رسالاته للناس ، وأنْ يُؤمِنَ بسائر النبيّين الذين اصطفاهم الله بوَحْيِه ، وأنْ يُؤمِنَ بملائكته ، وأن يؤمن بقضاء الله وقدره خيرِه وشرّه .

ويجبُ عليه بعد الإيمان الصحيح الخالي من الشوائب أن يَعْبُد الله في حياته لا يُشْرِكُ بعبادته أحداً ، وأن تكون عبادته على وفق صراط الله المستقيم ، المبيَّن في رسالاته للناس، وعليه أن يَتّبع آخِر تنزيل مِنْهُ بَلّغَهُ آخر رسولٍ لاحقٍ، حتّى خاتمِ الأنبياء والمرسلين.

ثُمّ تكونُ درجةُ الممتحَنِ المكلَّفِ عند الله بحسب قُوّةِ إيمانه ويقينه بالله ، وبما صحّ وثبت عنه ، وبحسب مقدار الأعمال الصالحات المرضيات لله ، من أعمالٍ ظاهرة ، وأعمالٍ باطنة .

---

(١) انظر تتمة شرح هذا الموضوع في شرح الحديث «السابع عشر» من كتاب «روائع من أقوال الرسول» للمؤلف.

أمّا درجات الجنّات يوم الدين فهي متفاضلاتٌ على مقادير تفاضُل الناس في الإيمان والعمل الصالح .

وقد أمَرَ الله عزّ وجلّ بمستوىً من الإيمان ، وبمقدارٍ من العمل الصالح ، تكليفاً وإلزاماً .

وأمَرَ بمستويَاتٍ أسمى مِنَ الإيمان ، وبمقادير أكثر وأحْسَنَ من الأعمال الصالحات ترغيباً ونَدْباً .

ونهى الله عزّ وجلّ عن الكفر كُلّياً ، وعن الإشراك به نهياً من الدرجة القصوى ، فمن كفر بالله ولو بالإشراك به في ربوبيته أو إلَهيَّته ، ومات على ذلك لم يغفر الله عزّ وجلّ له .

قال الله عزّ وجل في سورة [النساء/٤] :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾

ومَنْ عصى الله من دون الإشراك به ، في أوامره ونواهيه الإلزاميّة الجازمة، استحقّ من عقاب الله بالعدل على مقدار معاصيه ، فجزاءُ كُلِّ سَيِّئةٍ بمثْلِها .

وعقوبَةُ الإشراكِ بالله وسَائِرِ دَرَكاتِ الكُفْرِ الّتي هيَ أشدُّ مِنَ الشِّرْكِ ، الْخُلُودُ الأبَدِيُّ في عذابِ النّار يوم الدّين ، وهذا من العدل ، لأنّ الكافر لو جعله الله عزّ وجلّ خالداً في الحياة الدنيا لبقي كافراً أبداً ، فاستحقّ بالعدل الخلود في العذاب .

وعقوبَةُ المعاصي من دون الإشراك بالله عزّ وجلّ تكون على مقاديرها كمّاً وكَيفاً ، ويغفر الله ما يشاء منها برحمته على وفق حكمته ، وبحسَبِ عِلْمِهِ بأحْوال عَبْده .

فالإنسان في الحياة الدنيا مخلوقٌ مُمْتَحنٌ مُكلّف ، وليس مخلوقاً متروكاً لكامل حرّيّته ، يختار ما يشاء ، ويفعَلُ ما يشاء ، دُونَ مسؤوليّة عمّا يعْتَقد بإرادته غير المجبورة ، وعمّا يعْمَلُ من عَمَلٍ ظاهرٍ أو باطنٍ ، بإرادته غير المجبورة ، ودون حسابٍ ولا جزاء ، بل هو مُلاحَقٌ بالمسؤوليّة والحساب والجزاء بالثواب أو بالعقاب .

وحرّيّتُه المطلقة إنّما تكونُ فيما أباح الله له فقط ، وله أيضاً حُرّيَّةٌ أُخرى في ترك ماهو أحسن له وأفضل دون عقاب ، ولكنَّه يحرم نفسه من الثواب العظيم ، والأجر الجسيم ، إذا اختار أن يترُكَ مَاهو الأحسن والأفضل ، وليسَ من حقّه بعد ذلك أن يقول : لِمَ لا أنالُ من النّعيم والأجْر العظيم مثل ما نال أولئِك الذين فُضِّلوا عليَّ يَوْمَ الدّين في الأجر والثواب ؟

فجوابُه : أُولئكَ اختاروا لأنفسهم في الحياة الدنيا ماهو الأفضَلُ والأحسَنُ ممّا فيه رضوان الله عزّ وجلّ ، وأنتَ لم تختَرْ لنفسِكَ ذلك ، بل آثَرْتَ مَتَاعَ الحياة الدنيا على الدرجات الحسنيات في الآخرة ، فحَرَمْتَ نَفْسَكَ هذا الفضل العظيم من الرّبّ الكريم .

وقد خلَقَ الله عزّ وجلّ النّاسَ متفاضِلين في الصفات والخصائص ، وجَعَلَ مسؤُوليّة كُلّ فردٍ حين يَصِلُ إلى درجة التكليف محدودةً بحدود ما وهبه الله من صفاتٍ وخصائص ، ضِمْنَ الأُطُر العامَّةِ للتكليف ، فلَمْ يخْلُق الناس متساوين في الذكاء والغباء ، ولا متساوين في القوّة والضعف ، ولا متساوين في الخصائص والصفات النفسيّة والجسديّة ، ولا متساوين في الوظيفة الاجتماعيّة ، فالرجل له وظيفة ، والمرأة لها وظيفة ، وكلّ ذي اختصاص له وظيفة تلائم اختصاصه .

إنَّ نظام الله في الخلق قائم على قاعدة التفاضل لا على قاعدة التساوي ، وبهذا يتّضح لكلّ ذي نظر أنّ التفاضُلَ في الخصائص والصفات يلائمه مبدأ العدل ولا يُلائمه مبدأ المساواة ، إنَّ مبدأ المساواة مع التفاضل في الخصائص

والصفات والوظائف الاجتماعيّة ظُلْمٌ وإفساد في الأرض عريض ، لذلك قام الإسلام على مبدأ العدل المستند إلى قاعدة الحقّ ، وحثّ ترغيباً على الإحسان ، وتكفّل الله للمحسنين بالثواب الجزيل ، فمن سامح بحقه أو تنازل عنه كان مُحْسِناً ، وعوّض الله عليه تعويضاً مضاعفاً ، فالعدل والإحسان أصلان في الدين . قال الله عزّ وجلّ في سورة [النحل/١٦] :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

* * *

(٤)

نظرات الناس المنحرفة عن صراط الحقّ إلى الكون والحياة

النظرة المثالية السّابقة هي نظرة أهل الحقّ الذين يمثّلون الأمّة الرّبّانيّة الواحدة ، منذ عهد آدم حتّى آخر رسالات الله للناس ، فالذين يؤمنون بهذه الرسالة ويتّبعون ما جاء به خاتم المرسَلِين هم المتابعون لمسيرة الأمّة الرّبّانيّة على صراط الله المستقيم .

أما من كفر بها ولم يتّبع ما جاء فيها فقد أخرج نفسه بإرادته عن صراط الله ، وعن الانتماء إلى الأمّة الرّبانيّة الواحدة ، وكان من الذين رفَضُوا اتّباعَ ما أمر الله باتّباعه ، والإيمانَ بما أمر الله بالإيمانِ به .

ولابُدَّ أن نُدْرك أنَّ خُطُوط الانحراف عن صراط الله الحقّ في النظرة إلى الكون والحياة تختلف فيما بينها في مقادير الانحراف ، فمنها ما يأخذ البُعْد الأقصى ، إذْ يختار خطّاً مناقضاً مناقضةً تامّةً لصراط الله الحقّ ، ومنها ما يكونُ دُونَ ذلك ، وتقتربُ خُطُوط الانحراف شيئاً فشيئاً حتّى أدناها ، وهو الشرك الّذي لا يغفر الله لمن مات علَيْه ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

* فخطّ الانحراف الأقصى وهو المناقض مناقضةً تامَّةً لصراط الله الحقّ ، هو الخطّ الذي اختاره الملاحدة لأنفسهم ، الذين لا يُؤمنون بربّ خالق لهذا الكون ، ويرون أنّه لا إله ، وأنّ الكون مادّة ، وأنَّ المادّة تفاعلت عناصِرُها الأولى مع نفسها تفاعُلاً ذاتِياً ارتقائِياً ، حتى ظهرت النباتات ، ثمّ ظهرت الحياة ، ثم تنامَتْ سلسلتها الارتقائيّة حتّى ظهرت الحياة الإنسانيّة .

فليس في الوجود بحسب نظرِ هؤلاء الملاحدة حكمةٌ لحكيم ، ولا تدبير لمدبّر مُهَيْمن مسيطر ، وليس فيه محاسبة على فعل خير أو شرّ ، ولا ثواب ولا عقاب ، ولا ظواهر عَدْل ، إلا ما يكون من البشرِ إلى البشر أنفسهم .

فهؤلاء الملاحدة يسعون بمقتضى نظرتهم إلى الكون والحياة سعياً حثيثاً حتّى يتخلّصوا منْ منافسيهم وخصومهم بالتسابق إلى الجريمة ، والتكالبِ على الاستئثار بزينة الحياة الدنيا .

ولا همّ لهم إلا انتهاب اللّذّات ، والاستغراق في الاستمتاع بالشهوات ، ونيلُ أكبر مقدارِ من متاع الحياة الدنيا ، ثمّ تفترسهم الأمراض والأوجاع ، أو يقهرهم المنافسون الأشدُّ منهم قوّةً أو حيلةً من ملاحدةٍ أشباههم ، ويُذِيقونَهُم أشدّ العذاب في الحياة الدنيا ، ولَعَذَاب الله في الآخرة أشَدُّ وأبقى .

وسارت تجربة الماركسيّين في هذا الحضيض المغْمُورِ بأقْذر ما في الوجود من قذارات ، وكان لابُدّ أن تنتهيَ تجربتُهُمْ إلى الخيبة في الحياة الدنيا ، لمنافاتها للفطرة الّتي فطر الله النفوس وأنظمة الكون عليها ، قبل أن ينالوا جزاءهم في حضيض الجحيم يوم الدين ، خالدين في الشقاء والعذاب الأليم خلوداً أبدياً .

وسبقهم في التاريخ ملاحدة آخرون ، عُرِفَ بعضُهم بالزنادقة ، وكان منهم مُنَظَّماتٌ شرّيرة ، اشتَدَّ عُنفُوانها ، واستشرت جرائمها وشُرورُها وقباحاتها ،

وعانت مجتمعاتٌ صالحاتٌ من ويلاتها ، وألوانِ فَسَادها وإفسادها ، ثمّ انتهى مَصِيرُها إلى الخيبة والشَّتات .

وفي كلّ بلاد الدنيا ملاحدةٌ أفراد ، يتقلّبُونَ في الشهوات وطلب الاستمتاع بلذّاتِ الحياة الدنيا ، ثمّ ينتهون إلى الخيبة قبل الممات ، فالعذاب الأليم يوم الدين، ومن أشَدّ ما يعانونه في الحياة الدنيا ما هم فيه من عذاب نفسي ، كالقلق والاضطراب ، والحرمان من طمأنينة النَّفْس وراحة القلب ، وكضيق الصدر ، والشعور بالسّجن النفسيّ ، والشُّعور بالتَكدّر والغمّ والْهَمّ ، وآلام الحقد والحسد ، ومشاعر الكراهية والبغض ، والحزن والأسى ، والرغبة بالانتحار ، إلى غير ذلك(١).

ولا تُوجَد طمأنينة القلب وراحة النفس ، والشعور بالأمن الداخليّ ، والتفاؤل بالظفر بالسعادة ، إلا عند المؤمنين بالله واليوم الآخر ، الّذين يطمعون بغفران الله وثوابه وجنته يوم الدين .

وأقرب خطوط الانحراف عن صراط الإيمان بالحق في النظرة إلى الكَوْن والحياة ، خَطُّ اتِّخاذِ شريكٍ لله في إلَهيَّته ، أي : اتّخاذ شريكٍ معبودٍ مع الله ، ولو من دون اعتقاد مشاركته لله في رُبوبيَّتِه ، وأخَفُّ مفاهيم الشِّركِ لدَى أصناف المشركين أن يَعْبُدوا شركاءهم بغية أن يتقرّبوا إلى الرّبّ الخالق بوساطتهم ، ويقولون كما أبان الله في سورة [الزمر/ ٣٩] بقوله تعالى :

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾

والأصل في ظهور هذا الشرك أنّ عُصَاة الناس يَقِيسون الله عزّ وجلّ على المُلوكِ وذوي السلطان من البشر .

---

(١) انظر الفصل الخامس «عقوبة العذاب النفسي للملحدين» من القسم الثالث من كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف.

إنّهم يرون أن إرضاء ذَوِي القُرْبِ من الملوك والسلاطين يَنْفَعُهم ، إذْ يتَوَسَّطُون لهـم أو يشفعون لهم عند الملوك وأصحاب السلطان ، فيُحقِّقُون بوساطتهم مطالبَهُمْ لديهم ، ومنها إعفاؤهم من عقوبات جرائمهم ، وهذا ما يشجّعهم على الاستمرار في ارتكاب مخالفة الأوامر السُّلْطانيّة ، وارتكاب الجرائم .

وبما أنّ إرضاء الوسطاء ببعض ما يحبّون أهون على النفوس من التزام الأوامر السلطانيّة ومجانبة ارتكاب الجرائم ، فإنَّهم يستطيعون بهذا الإرضاء أنْ يُوَفّقُوا بين رغباتهم المختلفات بأهون الأمور وأيسَرها على نفوسهم .

هذا القياسُ الفاسد هو الذي ولّد أخَفَّ دَرَكاتِ الشرك ، وهو عبادة بعض الرُّسل أو الأنبياء أو الصُّلحاء من عِبَاد الله ، برجاء أنْ يُقربُوهم إلى الله زُلْفى ، مع أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل التعامُلَ معه بالإيمان والطاعة وسائر صنوف العبادات تعامُلاً مباشراً ، فلم يجعلْ وُسَطاءَ يُتَقَرَّبُ إليها ، تكون هي الوسيطة أو الشافعة عند الله ، وذلك لأنّ الله عزّ وجلّ مُطَّلِعٌ على عباده ، لا تخفى عليه منهم خافية ، علانيتُهُمْ وسِرُّهُمْ بالنسبة إليه سواء .

وقد يتوهَّـمُ بعضُ ذَوِي النزعات الشركيّـة أن وساطة العباد عنـد الله كالرُّسُل مثلاً مقبولةٌ في أكثر من شفاعة الدّعاء ، قياساً على أنَّ الله عزّ وجلّ قد اتّخذ الرُّسُل وُسَطاء لتبليغ رسالاته لعباده ، وهذا توهُّمٌ باطل ، وذلك لأنّ الله عزّ وجلّ قد جعل بعض الملائكة وبعض البشر رُسُل تبليغٍ لرسالاته لعباده ، بسبب كون البشر ليسوا مستعدّين لتقبُّل الوحْي الرّبّاني مباشرة ، إذِ اقتضَتْ حكمة الله أن يَضَعَهُمْ موضع الامتحان بالطاعة وأنواع العبادات الأخرى بَعْدَ الإيمان بالغيب ، وذلك على تفاوت استعداداتهم التي فطرهم عليها ، ولو جعلهم الله مستعدّيـن جميعاً لاستقبـال الوحي الرّبّانيّ مباشرةً لَمـا توافرَتْ شروط الامتحان الأمثل ، ولسقطـت عناصر أساسيّة من عناصر الإيمان بالغيب .

أمّا تَعامُلُ المُمْتَحِنينَ من العباد مع الله عزّ وجلّ فَلا حاجَةَ فيه لِوساطةٍ ما ، إذِ الله عزّ وجلّ شهيدٌ على كلِّ شيءٍ ، عليم بكلِّ شيءٍ ، سميعٌ بَصِيرٌ خبير .

والإذْنُ بالْوُسَطاء يُفْسِدُ جَوهَر الابْتِلاء ، ويُدْخِلِ مفاهِيمَ الشّرك بالله ، بَدْءاً بأقْرَب دَرَكاتِهِ إلى الإيمان ، فما هو أَشدُّ منها وأبْعَد ، حتّى دَرَكَةِ الشّرْك بالله في رُبُوبيّته ، الشّاملة للخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، والنفع ، والضرّ ، والحساب والجزاء على أعمال العباد الظاهرة والباطنة ، مما فيه تعامل مع الله ، إذْ لَهُ حُكْمٌ ديني بالإلزام بالفعل أو الترك ، أو الترغيب بالفعل أو الترك .

* وبعد خطّ الانحراف الأقرب تأتي خطوط انحرافٍ بعضُها أشدّ وأبعَد من بعض ، فالتقرّب إلى غير الله ببعض أنواع العبادة (وهو الشرك في الإلّهيّة) دون اتّخاذ المعبود شريكاً لله في رُبُوبيَّته (أي : في الخلْق والرزق وتحقيق المطالب الغيبيّة وغير ذلك ممّا يدخُلُ في سلطان الرّبّ) يُولّد مع الزّمن مفاهيم مشاركة الله في رُبوبيّته وسلطانِه في كونه .

والخطوة الأولى تبدأ بتوهُّم أنّ الله عزّ وجلَّ قد منح بعض عباده قدرات ربُوبيّة ، وسلطاتِ تصرُّفٍ في الكون ، فهؤلاءِ يخلقون كَخَلْقِ الله ، ويتصرَّفُون برُبوبيّةٍ كتَصَرُّفِ الله ، ومن تَصَرُّفاتِ هذه الرّبوبيّة أن يُشَرِّعوا للنّاس تشريعات حلال وحرام وواجب ومندوب ومكروه ، دون أن ينزل بها وحْيٌ من عند الله ، وبهذا يتخذهم المؤمنون بهم أرباباً من دون الله ، ينفذون أحكامهم وشرائِعَهُمْ كأنَّها شرائعُ الله لعباده ، مع أنّ مقتضى كون العباد في الحياة الدّنيا عباداً لله عزّ وجلّ يعبدونه بشرائعه أن لا تكون لهم أحكام دينيّة تشريعيّة إلا ما أنزله الله بالوحي ، أو أذن به فيما أنزل بالوحي .

ثم إنّ مشاركة الله في رُبوبيّته في معتقداتِ ذوي الانحراف عن صراط الله المستقيم قد ولّدت مفاهيم قابليّة الرّبّ الخالق الأزليّ الأبديّ لأنْ ينفصل عنه

أجزاء تَحْمِلُ عنه صفات الربوبيّة أو بعض صفاتها ، ومن هنا دخلت أوهام جَعْلِ بَعْضِ عباد الله ممّا خلق بنات الله ، أو أبناء الله ، وقَبِلوا أن تَحْمِلَ بعض النِّسَاءِ في بَطْنِها ابناً لله ، متذرّعين بذريعَةِ أنّ الله جعله ينشأ في بطنها دون تلقيح من أبٍ من الناس .

ثم قَفَزَ الانحراف إلى فكرة تعدّد الأرباب الأزليين ، فمنها فكرة الأصْلَيْنِ الأزليَّيْنِ عند الْمُثنِّين ، ثم فكرة الأصول الثلاثة عند أهل التثليث ، ثُمّ فكرة الأعداد الكثيرة من الأرباب ، مشاركين في أصل الرُّبوبيّة ، أو من دون الرّبّ الأعلى .

واتُّخِذَت لهذه الأرباب أشكالٌ وثنيّةٌ ماديّة من عناصر الأرض ، منها أحجار ، ومنها أشجار ، ومنها حيوانات ، ومنها أخشابٌ مصنوعة ومنها غير ذلك ، وعَبَدَتْ أُمَمٌ هذه الأوثان من دون الله ، لتحقيق مصالحهم الدنيويّة عن طريق عبادة أربابهم ، أو آلهتهم من دون الله .

وأبْعَدَ معظمُ المشركين عن تصوّراتهم فكرةَ البعث بعد الموت ، وفكرة اليوم الآخر ، وعقيدةَ الدينونة والجزاء ، التي هي الأصل الثاني من أصول الدين الكبرى ، وأدخل لهم محرّفُو الدّين مفاهيم تجعلُهم لا يَرَوْنَ الوجود والكون والحياة إلا من منظار هذه الحياة الدنيا فقط ، وشَغَلهم المحرّفون بركام العداء والحقد ضدَّ أتباع الدين الحقّ ، وضدّ أصحاب المذاهب الأخرى المحرَّفة عن الأصول الصحيحة الّتي أنزلَها الله في كلّ رسالاته للناس ، وضدّ أصحاب المذاهب الوضعيّة الّتي اخترعها البشر ابتداءً .

وتنوعت في الناس العقائد الخرافيّة ، حتّى الماديّون الذين لا يؤمنون بالغيبيّات الحقّ ، لَهُمْ غَيْبِيّاتٌ باطلاتٌ يؤمنون بها ، يخدعُهُم بها شياطين الإنس والجنّ .

فمنهم من يستسلم إلى السَّحرة ، والسِّحْرُ من الأمور الغيبيّة ، ومنهم من

يطلُب قراءة مستقبله عن طريق قُرّاء الأكُفّ ، ومنهم مَنْ يُصَدِّقُ قُرّاءَ وقارئات فناجين القهوة ، إلى غير ذلك من أمُورٍ لا تُصَدَّقُ إلا بَعْدَ التصديق بوجود أُمورٍ غيبيّةٍ عن الحواسّ .

وتتشعّبُ المتاهات الهابطات إلى الحضيض بلا حدود ، بسبب الانحراف عن الصراط الحقّ الذي أبانه دين الله الحقّ ، والباعث لكل ذلك أمْران نفسيّان جانحانِ أو أحدهما :

الأمر الأول : الكِبْرُ والعجب بالنفس ، وهو ما أبانه الله عزّ وجلّ بقوله في سورة [غافر/٤٠] بشأن الّذين يجادلون في آيات الله بغير سلطانٍ من الحق أتاهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٥٦ ﴾

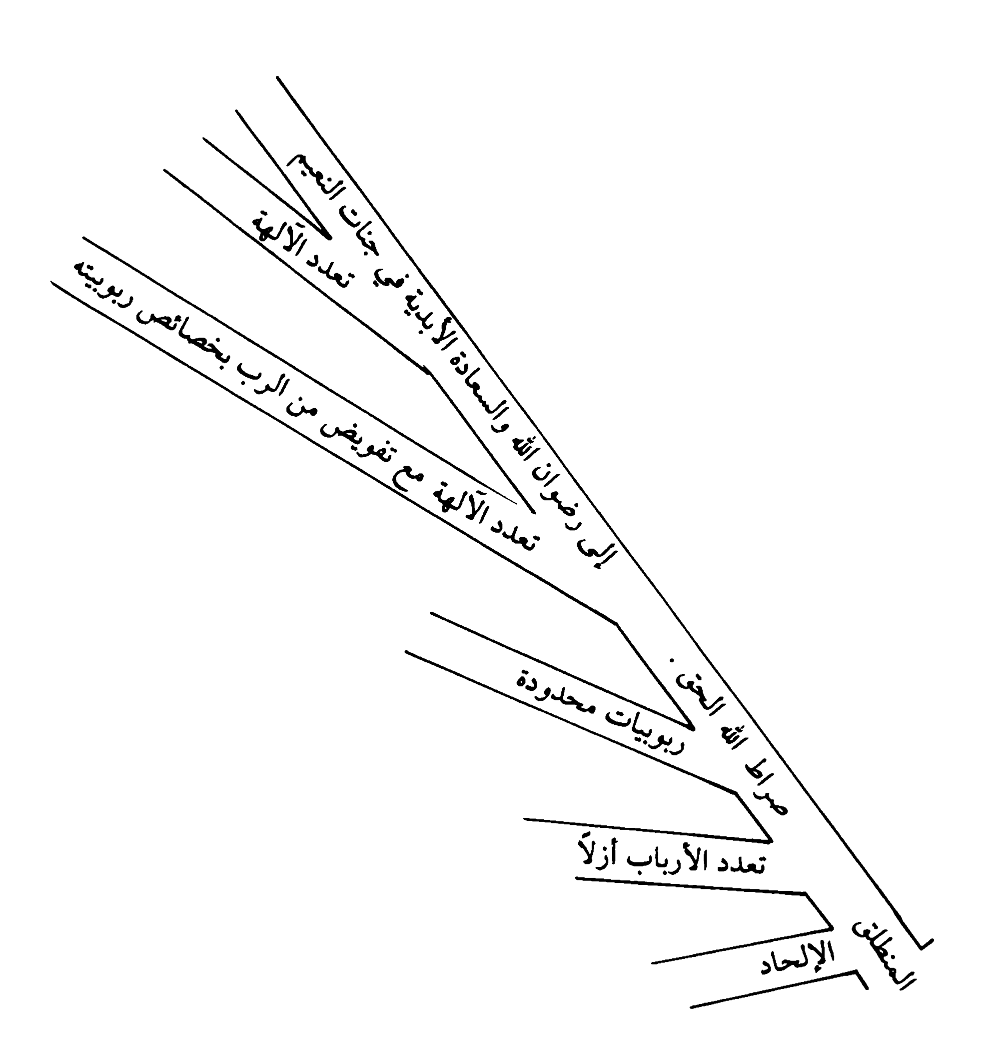
إنَّهُمْ يَسْتكبِرُونَ عن عبادة الله الرَّبّ الذي خَلَقَهُمْ ويُمِدُّهُمْ دَواماً بعَطاءات رُبوبيَّته ، ويستكبرون عن الخضوع له ، وقد تجدُهُمْ مع ذلك يذلُّون ويخضعون لبعض عباده من أجل شهوات أنفسهم ومطالب أهوائهم .

الأمر الثاني : الرَّغبة في الفجور ، وهو الانطلاق العنيف الثائر الوقِح في المعاصي والمخالفات والجرائم والقباحات دون أن يشْعُر المنطلقون بوخز الضمير ، ودون أن يخْشَوا عقاباً أو يحسُبُوا له حساباً ، وهو ما أبانه الله عزّ وجلّ بقوله في سورة [القيامة/٧٥] :

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ ﴾ .

أي : إنَّ دافع الرغبَة في الفجور فيما يأتي من الأزمنة في حياته ، هو الذي يجعله يسأل سُؤال استبعادٍ وإنكارٍ ليَوْم القيامة الذي يكونُ فيه الحسابُ والجزاء .

وأُمَثِّلُ لصراط الله الحقّ بطريقٍ صاعـدة ، وللسُّبُل المنحرفة بمسالك نازلة تختلف في مستويات بُعْدِها بحسب بُعْدِ مفاهيمها عن الصراط الحق :





الفصل الثاني

إرادة الله عزّ وجلّ
وإرادات العباد والمطلوب منهم في ابتلائهم

وفيه خمس فقرات :

(١) تعريف الإرادة «المشيئة» .

(٢) أقسام الإرادة .

(٣) دخول كلّ أقسام الإرادة تحت عنوان « القضاء والقدر » .

(٤) نظرات تدبُّريّة إلى قول الله عزّ وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ ليَعْبُدُون ﴾ .

* الغاية من خلق الإنس والجنّ الابتلاء .

(٥) نصوص الإرادة والمشيئة في القرآن .



(١)

تعريف الإرادة «المشيئة»

أولاً : الإرادة باعتبارها صفة من صفات البشر هي في داخلنا شيء نجهل حقيقته التكوينيّة ، إلا أننا نُدْرك من آثارها أنّها إذا توجَّهتْ جازمة لاختيار أمرٍ اخترناه ، أو للقيام بِعَملٍ من الأعمال تحرّكَتْ القوى المسخّرة لها في ذواتنا لتنفيذ ذلك العمل .

فإذا توجَّهَتْ للإبصار فتحنا أجفاننا وأبْصَرْنا ، أو للَّمْسِ لَمَسْنَا ، أو للتذوق تذوَّقْنا ، أو للكلام تكلَّمنا ، أو للْمَشْي مَشَيْنا ، أو لتحريك الأيدي في أيّ عمل نُريده مما نستطيعه فعلناهُ ، وهكذا إلى سائر أعمالنا الإرادية الظاهرة والباطنة .

أمّا مالا نَسْتطيعُ من الأعمالِ فإنّنا نُلاحظ أنّ إراداتنا تَكُفُّ عن توجيه أوامرها لِلْمُسَخَّراتِ لها في ذواتنا من أجلِ القيام بها ، ولو كانت ممّا نَرْغَب فيه أو نشتهيه ، ويظلُّ توجُّه نفوسنا لها في حدود الأماني .

ثانياً : الإرادة باعتبارها صفةً من صفات الرّبّ جلّ وعلا ، هي صفةٌ من صفات نفسه من شأنها أن تتعلّق بأحد الممكنات العقلية ليكون مراداً للتّنْجيز .

ومن خصائص إرادة الرّبّ سبحانه أنّها لا تتعلَّق بمستحيلٍ عقلاً ، ولا بما هو منافٍ للحكمة ، وذلك لأنَّ الله عزّ وجلَّ عليمٌ بكلِّ شيءٍ ، وهو حكيم ، فلا يُريد إلا ما تقتضيه حكمته .

(٢)

أقسام الإرادة

تنقسم الإرادة بالنظر إلى ما تتعلّق به انقساماً أوليّاً إلى قسمين :

القسم الأول : الإرادة التقريريّة ، وهي التي يتمُّ بها تقرير المراد ، ومن آثار هذه الإرادة ما يُعرفُ بعنوان « القضاء والقدر » فالقَدَر يتناول تحديد المقادير للشيءِ المراد ، والقضاء هو إمضاء المراد بعد تحديد كُلّ مقاديره ، والمراد من الإمضاء البتُّ لا التنفيذ ، فهو كالتوقيع على قرار بناء قَصْرٍ بمقتضى المقادير والصفات المرافقة للقرار ، ثمّ يأتي التنفيذ بعد ذلك على وفق القرار .

القسم الثاني : الإرادة التَّنْجيزيّة ، وهي التي إذا تعلّقت بالمراد صدر من الله عزّ وجلّ الأمْرُ بالتنجيز ، فيتحَقَّقُ المراد على وفْقِ الأمر ، ولا يُمْكن تخلُّفُ ذلِكَ بحالٍ من الأحوال ، إذْ لا يُوجَدُ معارض يُوقِفُ سلطانَ إرادة الله وقُدْرَتِه وأمْرِه التَّنْجِيزي .

هذا ما دلّ عليه العقل والبيانات القرآنية ، فمنها ما يلي :

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

(٢) وقوله عزّ وجل في سورة [آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول] حكاية لِمَا قاله لمريمَ عليها السلام إذْ قالَتْ : « أنّى يكُونُ لي وَلَدٌ ولَمْ يَمْسَسْني بَشَرٌ »

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

(٣) وقوله تعالى في سورة [النحل/ ١٦مصحف/ ٧٠ نزول] :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

وكلٌّ من هذين القسمين : « الإرادة التقريريّة - والإرادة التنجيزية » ينقسم إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : الإرادة التكوينيّة .

القسم الثاني : الإرادة التشريعية .

القسم الثالث : الإرادة التكليفيّة والإرشادية .

القسم الرابع : الإرادة القضائيّة .

وفيما يلي شرح هذه الإرادات الأربع .

أوّلاً : شرح الإرادة التكوينيّة :

الإرادة التكوينيّة هي الإرادة الّتي تتعلّق بتكوين وإيجاد مخلوقٍ ممّا تتعلّق إرادة الله بخلْقه وإيجاده ، سواءٌ أكان إيجاداً من العدم الكلّي ، أو كان صُنْعاً من الموجودات التي سبق أن أوجدها سبحانه .

أمّا التقريريّة من هذه الإرادة فَتَتِمُّ بالتقرير والإمضاء على ما يُعْرَفُ بعنوان « القضاء والقدر » السابقين للإيجاد ، قَبْلَ بَدْءِ تَنْفيذ عمليّاتِ الخلق ، الَّتي تأتي في أزمانها وأمكنتها المقرّرة لها . وبتقرير المراد لا يبقى من الإرادة التقريريّة التكوينيّة شيء لم يتحقّق .

وأمّا التنجيزيَّةُ من هذه الإرادة فتتمُّ بتنجيز التكوين الفعلي ، الذي يَتِمُّ بأمْرِ : « كُنْ » فيكون .

وبتنجيز المراد وإيجاده في الواقع لا يبقى من الإرادة التنجيزيّة التكوينيَّةِ شَيءٌ لم يتحقق .

وأُنبّهُ على أنّ إرادةَ اللّهِ التكوينيّة قد تُريد إيجاد مخلوقات مَجْبُورَة لا اختيار لها ، كالكواكب والنجوم ، والذّرّات ، والخلايا ، والنباتات ، والأجساد الحيّة الخاضعة لقوانين جبريّةٍ لا تحيدُ عنها ، وقد تُريد أنْ تُوجِدَ مَخْلُوقاتٍ ذوات إرادات حُرَّة ، وأنْ تُسَخَّرَ لها أشياء في الكون تستطيع أن تتصرّف فيها بعض

تصرُّفِ وَفق ما تريد ، ضمن قوانينِه التي وضعها لهذه المسخّرات ، لغاية امتحان هذه المخلوقات المريدة ، وعرفنا من هذه المخلوقات الإنس بالمشاهدة والتجربة ، وأعلمنا الله عزّ وجلّ بمخلوقات أخرى هم الجنّ ، هذان النوعان يشتملان على أفراد ذوي إرادات حُرّة ، خلقهم الله ليبلوهم أيهم أحسن عملاً .

وبهذا يتبيّن لنا أنّ مَنْحَ هذه المخلوقات المريدة إراداتِهَا الحرّةَ ، وتسخيرَ المسخَّرَاتِ لَهَا فِي الكون ، هو من آثار إرادة الله التكوينيّة .

وحين يمنح الله عَبْدَه بمشيئته إرادةً حُرَّةً من صَلاحيَّاتِها أن تَشَاءَ وتختارَ ، ليمتحنه في اختياراته ، ثمّ يحاسبه ويجازيَه ، فإنّه سبحانه لا يَجعَلُ إرادة العبد موجّهةً بالجَبرِ لمشيئة الخير والطاعة ، ولا لمشيئة الشرّ والمعصية .

فإذا شاء الْعَبْدُ الخيرَ والطاعةَ يَسَّرَ له المسخّرات في ذاته وفي الكون من حوله ، وزاده معونةً وتوفيقاً .

وإذا شاء العَبْدُ الشَّرَّ والمعصية يسَّرَ له المسخّرات أيضاً في ذاته وفي الكون من حوله ، وربّما وضع أمامه بعض العقبات إذا عَلِمَ أنّ في نفسه شيئاً من الخير ، وأنّ الحكمة تقتضي مساعدته على إيقاظه وتنبيهه .

ومعلوم أنّ كُلَّ المسخّراتِ في الكون تعمل أعمالَها وتحقِّقُ آثارها بخلق الله وقضائه وقدره ، ضمن قوانينه الثابتة الّتي وضَعَها لها .

ثانياً : شرح الإرادة التشريعية :

الإرادة التشريعيّة هي الإرادة الّتي تتعلَّق بتشريع الأحكام للمخلوقات المريدة ، ذوات الإرادات الحرّة ، التي خلقها الله ليبلُوها ، ثُمَّ ليُحَاسبها على اختياراتها ، ثُمَّ ليجازيها .

أمّا التقريريّة من هذه الإرادة فَتَتِمُّ بتقرير وإمضاء الأحكام التشريعية التي اصطفتها الإرادة ، وهي تدخل تحت عنوان « القضاء والقدر » السابقين لإعلان القرار وبيانه .

ويصاحب هذا التقرير التشريعي خطّةَ الخلق قَبْلَ إيجاد المخلوقات التي اصطفى الله الأحكام التشريعيّة لها .

وبتقرير المراد لا يبقى من هذه الإرادة التقريرية التشريعيّة شيء لم يتحقَّقْ .

وأمّا التنجيزيّة من هذه الإرادة فَتَتِمُّ بتَنْجِيز التشريع الذي يَتَحقَّقُ في الواقع بتوجيه الأمر به .

ثمّ يكون إنزالُه على الرُسُل ، وتبليغُهُ للّذين يُكَلّفون العمل به ، أو يكون به إرشادُهم ونُصْحُهم أن يعملوا به ليفلحوا .

وبتوجيه الأمر بعد بَثِّ التشريع لا يبقى من هذه الإرادة التنجيزيّة التشريعيّة شيءٌ لم يتحقَّق .

ثالثاً : شرح الإرادة التكليفيّة والإرشادية :

الإرادة التكليفيّة والإرشاديّة هي الإرادة التي تتعلّق بتوجيه الأوامر والنواحي الإلزامية تكليفاً مع اقترانها بالوعد على الطاعة والوعيد على المعصية ، وبتوجيه المطالب الإرشادية التي تتضمّن النُّصْحَ بما هو الأفضل والأحسن ، مع اقترانها بالوعد بالأجر الجزيل على الأخذ بها ، وبالحرمان منه عند عدم الأخذ بها .

وكُلٌّ من التكليف الإلزامي ، والإرشادِ النُّصْحِيّ يُوجّه لذوي الإرادات الحرّة الموضوعين موضع الامتحان الذي يَسْتَتْبِعُ الحسابَ والجزاء .

أمّا التقريريّة من هذه الإرادة فتَتِمُّ بتقرير توجيه الأوامر والنواهي الإلزاميّة ، وتوجيه المطالب الإرشاديّة النُّصحيَّة وإمضائها .

وبتقرير المراد لا يبقى من هذه الإرادة شيء لم يتحقق .

وأمّا التنجيزيَّةُ من هذه الإرادة فتتمُّ بتوجيه هذه الأوامر والنواهي والمطالب فعلاً ، ويَتْبَعُ ذلك إنزالُها إلى الرُسلِ وتبليغُها للمتحنين .

وبتوجيه الأوامر والنواهي والمطالب فعلاً لا يبقى من هذه الإرادة التكليفيّة والإرشادية التنجيزيّة شيءٌ لم يتحقّق .

رابعاً : شرح الإرادة القضائيّة :

الإرادة القضائية هي الإرادة الّتي تتعلّق بمحاسبة الذين أنهَوْا رِحلَةَ امتحانهم لفصل القضاء بشأنهم .

وهذه الإرادة تعتمد في أقضيتها المقرونة بحكمة الله عزّ وجلّ ورحمته وفضله على قاعدتي الفضل والعدْل .

فالحكمُ بالنجاة من العذاب مع استحقاق الأجر العظيم في جنّاتِ النّعيم يعتمد على قاعدة فضل الله ورحمته .

والحكم بالعقاب مهما كان شأنه خفيفاً أو شديداً يعتمد على قاعدة عَدْلِ الله الذي لا يظلم مثقال ذرّة .

* أمّا التقريريّة من هذه الإرادة فتَتِمُّ بتقرير توجيه الحكم المراد ، لفصل القضاء به وإمضائه .

وبتقرير الحكم المراد لا يبقى من هذه الإرادة التقريريّة القضائيّة شيءٌ لم يتحقّق .

* وأمّا التنجيزيّةُ من هذه الإرادة القضائيّة فتتِمُّ بتَوجِيه الحكم فعلاً وإمضائه وفَصْلِ القضاء به ، وهذه الإرادة لا رادّ لها ، ولا معقب على حكم الله فيها .

وبتوجيهِ الحكم فِعلاً وفَصْلِ القضاء به لا يبقى من هذه الإرادة التنجيزيَّة القضائية شيءٌ لَمْ يتحقَّقْ .

ثمّ يأتي بعد ذلك إعلان الحكم وتَبْليغُه .

أمّا تنفيذ الجزاء بالثواب أو بالعقاب الذي تضمَّنَهُ القضاء ، فيتِمُّ بإرادة تكوينيّة ، وهي القسم الأول من أقسام الإرادات الأربع التي سبق شرحها .

(٣)

دخول كلّ أقسام الإرادة تحت عنوان « القضاء والقدر »

كلُّ أقسام الإرادة التي سبق شرحها تدخل تحت عنوان « القضاء والقدر » .

(١) فمن قضاء الله وقدره التّكوينُ الجبريّ ، وهو الذي تمَّ بمقتضاه خَلْقُ الكون ، بما فيه من أشياء وأحياء وقوى وقوانين وسُنَنٍ ثابتة وتصاريف ومتغيّرات ، وخوارقِ عادات .

ويدخل في هذا التكوين الجبريّ مَنْحُ جِهَازِ الاختيار في العباد الذين شاء الله أنْ يَمْنَحَهُمُ الإرادات الحرَّة لِيَبْلُوهُمْ فيما آتاهم .

ولولا أن مَنَحَهُمُ الله هذا الجهاز بتكوينِهِ الجبري ما استطاع أحدٌ منهم أن تكون له إرادة مختارة، ولا أنْ يُحَرّك مُسَخَّراً مِنَ المسخّراتِ في ذاته أو في الكون من حوله .

فأصل وجود جهاز الاختيار في الإنسان ، والتمكينُ من استعماله : كِلاهُما بخلق الله وتكوينه الجبْرِي .

أمّا استعمال الإنسان لهذا الجهاز في اختيار مُرادَاتِه فَهُوَ من كسبه دون جبر ، وقد جعله الله كذلك لأنّه وضعه في هذِه الحياة الدُّنيا موضع الامتحان ، ومثل الإنس في هذا الجنّ .

(٢) ومن قضاء الله وقَدَرِه تَشريعُ الشرائعِ ووضْعُ الأحكام ، لعباده الذين منحَهُمُ الإرادات الحرَّة ليبلُوَهم في ظُروفِ الحياة الدّنيا ، ضمن حدود الاستطاعات التي جعَلَها لهم .

وهذه تَتِمُّ بإرادة الله التشريعيّة ، لا يتوقَّفُ شيءٌ منها على إرادات العباد المخيّرين .

(٣) ومن قضاء الله وقدره مطلوبُ الله من عباده الممتحنين في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا ، سواءٌ أكان مطلوباً إلزامياً مقروناً بالوعد والوعيد ، أو مطلوباً إرشاديّاً مقروناً بالوعد فقط .

أما حُكْمُ الإباحة فساحة تكريميَّةٌ حُرَّةٌ متروكة للعباد بمقتضى الإرادة التشريعيّة .

ومطلوب الله من عباده يتمُّ بالإرادة التكليفيّة والإرشاديَّة كما سبق به البيان .

وتتحقّقُ هذه الإرادة ويَتمُّ في إطارها قضاءُ اللّهِ وقَدَرُه ببتِّ المطلوب من العباد وإمضائه ، ويبقى على العباد أن يحقِّقُوا مطلوب الله منهم في رحلة امتحانهم لتحقيق نجاتهم وسعادتهم ، ولا تَضُرُّ معصيتُهُمْ رَبَّهُمْ بشيء ، ولا يُعَطِّلُون من إرادة الله فيهم شيئاً ، فما تقتضيه مطلوبات الله من ذوي الإرادات الحرّة يتوقّف تحقيقه عليهم إرادةً وعملاً ، ولو كان تحقيقه مراداً لله عزّ وجلّ لتحقّق جَبْراً ، ولسقط الاختيار ، ولحصل التناقض ، إذ كيف يكون جبرٌ وتخييرٌ في وقت واحد ، ويستحيل أن تكون إرادة الله عاجزة عن تحقيق مرادها .

(٤) ومن قضاء الله وقدره محاسبةُ عباده المكلّفين ، وفصلُ القضاء بشأنهم ، بعد انتهاء مُدَّة امتحانهم في الحياة الدنيا لمجازاتهم ، ويُلحقُ بهذا بعض الجزاءات التربويّة والتذكيريّة والإكراميّة وهم في رحلة الامتحان .

وأحكام الجزاء تُبَتُّ بالإرادة القضائيّة الّتِي تَتِمُّ ببتِّ الحُكم الْجَزَائي ، ولا يَبقى منها شيءٌ لم يتحقَّقْ ، وأمّا تنفيذ الجزاء فيكونُ بعد ذلك بمقتضى إرادة الله التكوينيّة التي يكون بعدها أمرُ الله التكويني ، أو أمر الله التكليفي لمن لا يعصي ، وهم الملائكة الموكلون بمهمات تنفيذ أوامر الله ، وأمر الله التكويني قد يكون من خلال الأسباب .

وبهذا يظهر لنا بوضوحٍ أنّ كلَّ أقسام إراداتِ الله ، التي اكتشفناها

بالتحليل ، من خلال النظر إلى ما تتعلَّقُ بهِ مِنْ مُرَادات تَدْخُلُ تَحتَ عُنْوان « القضاء والقدر » إذِ القضاء هو الإمضاء والبَتُّ ، والقَدَرُ هو تقدير عناصر الشيء المراد من كلّ ما له مقادير في ذاته أو صفاته أو زمانه أو مكانه أو ما يتعلّق به .

محصِّلَة هذا البيان التحليلي:

بهذا البيان التحليلي لأقسام الإرادة السَّنِيَّةِ لربِّ البريَّة ، يظهر لنا أمران مهمّان :

الأمر الأوّل : أنّه لاشيء من إرادات الله عزّ وجلّ على اختلاف أقسامها يتوقَّف تنجيزُه على أعمال العباد الاختيارية ، إذْ كُلُّ قِسْمٍ منها يتمُّ تنجيزه من قِبَلِ الله عزّ وجلَّ دُون مُعَارِض .

ولم يجعَلِ الله شيئاً من مُرَاداته متوقّفاً تحقيقُهُ على أفعال العباد الاختياريّة ، فإذا لم يفعَلُوه فقد عارضوا مُرادَ الله فيهم ، أو عطَّلُوا إرادة الله فيهم ، هذا وهْمٌ باطل .

إنّه من المستحيل عقلاً وشرعاً تَوَقُّفُ تحقيقِ إرادة الله على إرادةِ أحدٍ من عباده ، إنْ شاء حقَّقَها وإنْ شاء لم يُحَقِّقْها ، بل مُراداتُ الله في كونه تامَّةٌ مُنَجَّزَةٌ ضِمنَ حُدُودِها ، وعند أقصى مداها .

الأمر الثاني : يُلاحَظُ أنَّ كثيراً من الناس يسقُطُون في غلط فاحِشٍ على الله عزّ وجلّ ، إذ يقُولُون : أراد الله من العباد أن يعبُدوهُ فلم يُحَقِّقُوا إرادة الله فيهم ، ويستشهِدونَ بقول الله عزّ وجلّ في سورة [الذاريات/٥١] :

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ .

متوهِّمين أنّ اللّام في : ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ هي لامُ التعليل ، وبناءً على هذا التوهُّم يرونَ أنَّ الله خلق الجنّ والإنس لأنه أراد من خلقه لهم أن يعبدوه ، وحينما يلاحظون أنّ أكثر الجنّ والإنسِ كَفَرَةٌ ، أو عصاةٌ لله عزّ وجلّ يتوهمونَ

أنهمْ عاندوا إرادة الله فيهم ولم يحقّقوها .

هذا القول باطل مُنافٍ لحقيقة صفة الإرادة الرّبّانيّة ولوازمها ، فَمَنْ هذا الذي يستطيع أنْ يُعَارض أو يُعانِد إرادةَ الله فيه ؟! وهو الذي أبان في نصوص متعدّدة أنّه لَو شاء لآمَنَ مَنْ في الأرضِ كلُّهُمْ جميعاً ، ولو شاء لجمع الناس على الهدى ، ولو شاء ما أشرك المشركون ، ولو شاءَ لجعلَ الناسَ أُمةً واحدة مجتمعين على دين الله الحقّ ، أي : لو شاء لسلَبَ الناس إراداتهم الحرّة فجعلهم مجبورين ، ولو جعلهم مجبورين غير مخيّرين لكان من مقتضى حكمته أن يكونوا جميعاً مؤمنين عابدين له ، كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرُون . فالله يُبيِّنُ من خلال هذه النصوص أنّه ما أراد أن يكونوا جميعاً عابدين ، ولو أراد لفعل ، وذلك لأنّه أراد أن يجعلهم مخيّرين ممتَحَنِين ، ليبلُوَهُمْ فيما آتاهم .

وأستعرض من النصوص التي أشرت إليها ما يلي :

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة [يونس/١٠ مصحف/١٥ نزول] خطاباً لرسوله :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

إنّ دُخول حرف "لو" على فعل "شاء" يدُلُّ على أنّ هذه المشيئة لم تحصُلْ ، ومعلومٌ أنّ الإيمان هو العبادة الأولى ، وهو القاعدة العظمى لكلّ العبادات ، فإذا لم يكن إيمانُ مَنْ في الأرض أمراً تعلّقَتْ به إرادةُ الله فأيَّةُ عبادةٍ بَعدَهُ يُقالُ بشأنِها : إنّ الله قدْ أرادَ من عباده أن يعبدوه بها فلم يطيعوا إرادتَه .

هذا غلط فاحشٌ في فهم معنى الإرادة التي هي صفةٌ من صفات الله ، وغلَطٌ في تَصوُّرِ آثارها .

(٢) وقول الله عزّ وجل في سورة [النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول] :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

أي : ولو شاء لجعلَكُمْ أُمّةً واحِدَةً مُؤمنَةً مُسْلِمَةً ، وذلكَ بأنْ يجعلكم مجبورين غير مخيّرين ، إذْ لو سلبكم إراداتكم الحرّة لكانْ من حكمته أن تكونوا مجبورين على الإيمان والإسلام ، لكنّه أراد سبحانه أن يجعلَكُمْ ذوي إرادات حُرَّةٍ مخيّرين ، حتَّى يختار كُلُّ ممتحَنٍ منكم ما يشاء من إيمانٍ وكفر وطاعة ومعصية ، ثم ليحاسبكم ويفصل القضاء بينكم ، وبفَصْل القضاء هذا يُضِلُّ مَنْ يشاءُ بمقتضى عدْلِه وحكمته ، ويَهدِي من يشاءُ بمقتضى فضله وحكمته ، ولكنّه لا يَفْصِلُ بينكم القضاء إلا بعد أن يسألكم عمّا كنتُمْ تعملون في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا .

(٣) وقول الله عزّ وجل لرسوله في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

إلى نصوص أخرى تشتَمِلُ على بيان هذه الحقيقة بأساليب مختلفة ، وهي متكاملة الدلالات فيما بينها .

وبناء على هذا فعلى متدبّر قول الله عزّ وجلّ في سورة [الذاريات/٥١ مصحف/٦٧ نزول] :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

أن يُحسِنَ تَدَبُّرَها بما يتلاءم مع أصل العقيدة الإيمانيّة من جهة ، وبما يتلاءم مع مفاهيم النصوص القرآنيّة الأخرى من جهة مقابلة .

(٤)

نظرات تدبّرية إلى قول الله تعالى : ﴿ ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ لِيَعْبُدون ﴾

دخل التحريف في مفاهيم الدين على أهل الأديان السابقة ، بدءاً من عبادة الوثن الأكبر الذي هو رمز الإلّه الأكبر ، فالأوثان التي كانوا ينحتونها رموزاً لما يَعْبُدونَ من دون الإلّه الأكبر ، كَصُور الأنبياء ، والصالحين ، والملائكة ، والجنّ ، وغير ذلك .

أمّا القرابين من الذبائح فكانوا يذبحونها عند نُصُبِهِم الّتي ابتدعوها ، ثُمّ دخل التحريف في مفهوم القرابين حتّى صار المشركون والخرافيّون يعتقدون أنّ معبوداتهم من الإلّه الأكبر وهو الله حتى الآلهة من دونه لَهُم رزقٌ من أرواح الذبائح أو دمائها أو لحومها . فكان لابُدَّ من بيان فساد هذه العقائد وضلالها وكفرها بحقيقة الله الربّ الخالق المنزّه عن الحاجة والأكل والشرب وسائر صفات النقص التي تتصف بها المخلوقات ، فأنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة [الذاريات/٥١ مصحف/٦٧ نزول] :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

ثُمَّ أنزل بمناسَبَة بيان ذبائح الهدي في الحج قوله في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

فأبان سبحانه أن مَنْسَك ذَبائح الهَدْي والأضاحي إنّما شُرِعَ للتعبير عن عبادة الله ، ومناسبةً لذكره وتكبيرِه وتعظيمه ، ولم تُشْرَعْ لفائدة تَصِلُ منها إلى الله سبحانه وتعالى ، إذْ لا يَصِلُ إلى الله منها شيءٌ .

لكِنْ يَصِلُ إلى الله تَقوى قلوبِ العابدين الذين يقدّمون في سبيل الله

ما يُعبِّرون به عن إيمانهم بربّهم ، وطاعتهم له ، وبَذْلِهِمْ في سبيل مرضاته .

فمن علم الله منه أنّه يقوم بعبادته لربّه في رحلة امتحانه ، بدافع تقوى الله وابتغاء مرضاته ، أو يتطوّع بعملٍ من أعمال البرّ ، أو بعمل من أعمال الإحسان ، فإنّ الله عزّ وجلّ يُثيبه على عمله ثواباً جزيلاً يوم الدين ، مع ما قد يُكْرِمه به في الحياة الدنيا . وبهذا تكون العبادة لمصلحة العابد ، ولسعادته في دنياه وآخرته ، وليس للمعبود الرّبّ جلّ جلالُه منها شيءٌ ينفعه أو يزيد في مُلكه .

وبياناً لهذه الحقيقة نزل النصّ الذي في سورة (الذاريات) وهي سورة مكيّة التنزيل ، ثم جاء البيان الواضح الصريح في النصّ الذي جاء في سورة (الحج) وهي سورة مدنيّة التنزيل .

لقد أبان النصّ الذي في سورة (الذاريات) أنّ المطلوب من العباد في رحلة امتحانهم أن يَعْبُدُوا رَبَّهم ، لا أن يقدّموا له رزقاً أو طعاماً ، لأنَّهُ صَمَدٌ غَنِيٌّ ، وهو الذي يرزقهم ويُطْعمهم ، وهو القويّ المَتِين بذاتِه ، الذي لا يحتاج إمداداً من غيره بما يقوِّيه ، كالمخلوقات التي جعلَها الرّبّ بحاجة دواماً إلى مايُمدُّها بأقواتها التي تُبْقيها في الوجود ، كما قال الله عز وجلّ في سورة [النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول]:

﴿ . . . وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ۝٨٥ ﴾ .

مُّقِيتاً : أي : مُمِدّاً له بالقوت، وهذا أحد معاني اسم الله. المقيت.

الغاية من خلق الإنس والجنّ الابتلاء :

لقد أبانت النصوص الكثيرة على سبيل القطع أنّ الله عزّ وجلّ خلَق الجنّ والإنس ليَبْلُوهم في ظروف هذه الحياة الدنيا ، إذ مَنَحَهُمْ شروط الامتحان الأمثل : (الإرادة الحرّة - القوة الإدراكيّة الكافية لمعرفة الحقّ والباطل والخير والشر والكافية لهذا الامتحان - الأهواء والشهوات والغرائز ومطالب الحياة المختلفة - العواطف المختلفة الميّالة للخير والشرّ - الوجدان النزّاع للحقّ

والخير والفضيلة - النفس الأمّارة بالسوء - المسخّرات المطيعة لإرادته بقضاء الله وقدره ، إلى غير ذلك ممّا يلزم للامتحان الأمثل) .

والامتحان يستلزم المراقبة والتسجيل ، ثُمَّ المحاسبة ، ثمَّ الجزاء ، وقد أخَّر الله المحاسبة والجزاء لحياةٍ أخرى بعدَ هذه الحياة ، وجعل لها ظروفاً خاصة يَتِمُّ بها الحسابُ وفصْلُ القضاء ، وتنفيذُ الجَزاء .

هذه هي الغاية من الخلقِ، ونجد الدّليل عليها في نصوص كثيرة، منها ما يلي :

(١) قولُ الله عزّ وجلّ في سورة [المُلْك/٦٧ مصحف/٧٧ نزول] :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ .

لِيَبْلُوَكُمْ : أي : لأجلِ أنْ يمتحِنكُمْ ، والامتحانُ يستلزم في حكمة الحكيم المراقبة والتسجيل ، ثُمَّ المحاسبة وفصْل القضاء ، ثُمَّ الجزاء بالثواب ، أو بالعقاب ، على قَدْرِ الكَسْب في رحلة الابتلاء .

هذه اللّام لام التعليل بوضوح ، وقد تحقَّقَتْ إرادة الله في وضع الإنس والجنّ موضع الابتلاء ، فلم يبقَ منها شيءٌ لم يتحقَّقْ .

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة [الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول] :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾ .

إنّ الابتلاءَ يقتضي وضعَ عقباتٍ للممتَحَن ، ومن أهمِّ هذه العقبات وضْعُ زِيناتٍ تشتهيها النفوس وترغَبُ فيها على خلاف المطلوب في الامتحان ، ليكون الامتحان كاشفاً ، فالذي تتّجهُ إرادته لتحقيق المطلوب في الامتحان ، فهو الذي يحقّق النجاح ، ويستحِقُّ الجزاء بالثواب العظيم ، والذي تتّجه إرادته لتحقيق مطلوب نفسه وشهوته وهواه ، ولا يكترث للمطلوب منه في امتحانه ، يسقط خائباً خاسراً ويستحق الجزاء بالعقاب على مقدار مخالفاته لما كان مطلوباً منه في امتحانه .

ونلاحظ هنا أنّ إرادة الله عزّ وجلّ في جعل ما على الأرض زينة لها ، لِيَمتحِن النّاس بهذه الزينة قد تحقَّقَتْ كاملة ، فلمْ يبقَ منها شيءٌ لمْ يتحقَّقْ .

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

دلَّتْ هذِهِ الآيَةُ على أنّ الله جعلَ النَّاس أجيالاً مُتَتَابعَةً يَخْلُفُ بَعْضُها بَعْضاً في سُكْنَى الأرض والانتفاع مما فيها ، وجَعَلَهُمْ مُتَفَاضِلِينَ في الخَصَائِصِ والْهِبَاتِ فَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهم ، أي : لِيمتَحِنَهم .

فاللاّم في: [ليبْلُوَكُمْ] هي للتعليل ، أي : فالغاية هي الامتحان وما يستتبع هذا الامتحان .

(٤) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة [الإنسان/٧٦ مصحف/٩٨ نزول] :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ .

ونلاحظ هنا أنَّ إرادة الله لتحقيق هذه الغاية قد تَمَّتْ ، فلمْ يبقَ منها شيءٌ لم يتحقَّقْ ، وتوابِعُها سَيأتي حتماً تحقيقُها .

وهكذا سائر النصوص التي تبيّن غاية الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا ، وهي كثيرة متكاملة فيما بينها في بيان العناصر المُهِمَّة التي جُعِلَتْ في هذه الحياة لامتحان الناس .

وهنا يتساءل الباحث المتفكّر عن كلمةٍ كُلِّيَةٍ جامعة تكونُ عنواناً لكُلِّ مطلُوبِ الرّبّ عزّ وجلّ من عباده الممتَحَنين في رحْلَةِ امتحانهم ؟؟ .

ويأتي الجواب القرآنيّ على هذا التساؤلِ بأنّ العنوانَ الجامع لكلّ مطلوب الرّبّ من عباده في رحلة امتحانهم هو عبادتُهُمْ له .

وعبادة الله : يدخل فيها الإيمان به ، وطاعَتُه ، ومجانبةُ معصيته ، والعملُ بوصاياه ، والتَّقَرُّبُ إليه بما يحبُّ مِنْ أعمالٍ نعملُهَا ، أَوْ أشْياءَ نتركُها ولو لَمْ يكلّفنا ذلِكَ على سبيل الإلزام .

فمن النصوص التي أبانت هذا المطلوب في رحلة الامتحان ، وهو أن يَعبُدَ الممتَحَنُون رَبَّهُمُ ما جاء في سورة [الذاريات/٥١] :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

أي : وما خلقت الجنّ والإنْسَ مُمْتحنين في هذه الحياة الدنيا إلا لأطْلُبَ منهم في رحلةِ امتحانهم أنْ يعبُدُوني ، فأنا لا أطلُبُ منهُمْ شيئاً لمنفعَتِي ، ولِزِيادَةِ شيءٍ في مُلْكِي ، ولكن أطلُبُ منهمْ مَا يَدُلُّ على استحقاقِهِمْ الخلودَ في السعادة، بدار النعيم التي أعددتُها للمتقين فمن فوقهم وهم الأبرارُ والمحسنون، أمّا من كفر بربّه فله الخلودُ في دار العذاب .

فاللام في عبارة [لِيَعْبُدُونِ] ليست تَعْلِيلِيَّةً لبيان الغاية من الخلق ، بل هي لبيان المطلوب في رحلة امتحان المخلوقين لغاية امتحانهم .

ولو كانت هذه اللاّم للتعليل، ولبيان الغاية من الخلق ، ما استطاع أَحَدٌ من الجنّ والإنْسِ أنْ يَعْصِيَ الله في شيء ، لأنّ مُرادَ الله يستحيل أن يتخلّف .

إنّ مُرادَ الله هو امتحانُهُمْ وهذا قد تَمَّ وتَحَقَّقَ ، ومُرادُ الله في أن يطلُبَ مِنهُم أنْ يَعْبُدوهُ قد تحقَّقَ ، فقدْ شرع لهم الشرائع ، ووضع لهم الأحكام ، ووجَّهَ لهم مطلوبه منهم ، وبلّغَهُمْ شرائعه وأحكامه ووصاياه في كتُبِه ، وعلى ألسنة رُسُلِهِ .

وأراد الله أن يكشِفَ بالامتحان إيمان الصادقين ، وإسلام الطائعين المنقادين ، وكُفْرَ المجرمين ، ومعاصِيَ الفاسقين ، ومُرادُ الله فيهم يجري تحقيقه على الوجهْ الأمثل ، لا يتخلّف منه شيء .

فكُفْرُ الكافِرين ، ومَعَاصي العاصين ، أُمورٌ تُخَالِفُ مطلوبَ اللهُ منهم ،

ولا تخالف مُرادَ الله فيهم ، إذ مُرادُ الله امتحانهم ، لكشف أحوالهم الإراديّة ، في دائرة عبوديّتهم الاختياريّة له ، وهذا المُرادُ يتحقَّقُ على الوجْهِ الأمثل ، بطاعة من يختارون لأنفسهم الطاعة ، ومعصيةِ من يختارون لأنفسهم المعصية .

إنَّ مَعَاصِيَ العباد الموضوعين موضع الامتحان لا تُعانِد شيئاً من إرادة الله فيهم ، إنّما تخالفُ مطلوب الله منهم ، ضمن إرادته تَخْيِيرَهُمْ لامتحانِهم ، وقد علمنا أنّ هذه الإرادة الرَّبَّانيّة هي من قِسْمِ الإرادة التكوينيّة .

وعلى هذا فإنّ باستطاعتنا أنْ نقول : إنّ اللاَّم في عبارة [لِيَعْبُدونِ] في النّصّ الذي جاء في سورة (الذاريَات) هي « لام » الطلب ، لا « لام » التعليل التي لبيان الغاية من الخلق .

فما يجري على ألسنة كثيرين ، من أنّ الله أراد من الإنس والجنِّ أن يَعْبُدُوهُ ، لأنَّه خَلَقَهُمْ لأَجْلِ عبادته ، فتمرَّد العُصَاةُ منهُمْ على مُرادِ الله فيهم ، غَلَطٌ فاحِشٌ جدّاً على الله عزّ وجلّ في صفةِ مشيئته ، إنّ هذا التعبير يجري على ألسنتهم دون إدْراكٍ منهم لِخُطُورتِه ، إذْ ينسبون إلى الله عزّ وجلّ العجز عن تنفيذ مُراده وهم لا يشعرون ، وسببُه الغلط في فهم معنى اللام في : [ليعبدون] .

وقد أدْرك شيوخُ مفسّري السَّلف أنَّ الآية لا يصحُّ فهمها على ما يتبادر من ظاهرها فهماً سطحيّاً ، متغاضين عن الإشكالات الاعتقادية التي تلزم عن هذا الفهم ، فقالوا فيها أقوالاً نقلها الطبريّ في تفسيره ، ومعظم هذه الأقوال لا يجعل العبادة علّة لمراد الله من خلْقِ الجنّ والإنس .

* فقال بعضهم : ومَا خلقتُ السعداء من الجنّ والإنس إلا لعبادتي ، والأشقياء منهم لمعصيتي .

فقدّر صاحبُ هذا القول تقديرات غير مذكورة في الآية ليكون المعنى منسجماً مع العقيدة .

* وقال زيد بن أسلم في تفسير الآية : ما جُبِلُوا عليه من الشقاء والسعادة .

ويلاحظ أنّه قد أخرج العبادة عن معناها إلى معنى الجبْرِ وسَلْبِ الاختيار .

* وقال سفيان : « مَنْ خُلِقَ للعبادة » أي : وما خلقْتُ مَنْ خُلِقَ للعبادة من الإنس والجنّ إلا ليعبُدون .

فخصَّ المراد من الجنّ والإنس بالعابدين فقط ، دون العصاة ، وهو تفسير مستبعد .

* ورُوِيَ عن ابن عبّاسٍ في تفسير الآية قولُه : « إلا ليُقِرُّوا بالعبادة طَوْعاً وَكَرْهاً » .

فوسّع مفهوم العبادة فجعله شاملاً لِمَا كان من الطاعة عملاً اختيارياً ، ولِمَا كان منها أمْراً جبريّاً ، أيْ : أثراً لإرادة الله التكوينيّة النافذة في الخلائق كلّها بصورة جبريّة .

لكِنَّ هذا المفهوم الواسع الذي يشمل العبادة الجبريّة غير خاصٍّ بالجنِّ والإنْسِ ، مع أنّ الآية تميّز الجنّ والإنس عن سائر المخلوقات كما هو ظاهر .

وكلُّ هذه الأقوال تعتمد على مفاهيم اجتهاديّة خاصّة ، إذ لا أثَرَ في شيءٍ منها عن الرسولﷺ .

* وأمَرَّ بعد ذلك كثيرٌ من المفسّرين المعنى السطحيّ ، دون أن يلاحظوا ما فيه من إشكالات اعتقادية .

* وأخرج أصحابُ مذهبِ عَدَمِ تعليلِ أفعال الله بحِكَم وغايات ، العبارة في الآية عن كُلِّ دلالةٍ تُفيدُ تعليلاً ما ، كما فعلُوا في سائر النصوص التي يتّضِحُ فيها تعليل خَلْقِ الجن والإنسِ بحكمَةِ الابتلاء .

وقد جرَّ هؤلاء إلى مذهبهم تصوُّرُ أنّ كُلَّ تَعليلٍ لأفعالِ الله يمثّلُ حاجةً في ذات الله ، ونقصاً في كمالاته .

وغَفَلوا عن أنَّ مقتضى الكمال في صفات الله عزّ وجلّ أنْ تكون أفعاله

حكيمةً ، لا مجرّد تنفيذ إرادة مطلقة غير مقترنةٍ بحكمة ، وغَلَوا غُلُوّاً باطلاً في مفهوم كونه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ، مع التفريط في مفهوم كونه سبحانه وتعالى حكيماً ، على الرغم من أنَّ الحكمة هي من صفات الله عزّ وجلّ المقترنة بالإرادة الحرّة التي هي من صفاته ، والواجب أن نعطي كُلاًّ من الصفتين حقَّها .

وانتصاراً لكون الله عزّ وجل يفعل ما يشاء دون النظر إلى كونه حكيماً صار ملتزمو هذا المذهب يلْوُون أعناق كثيرٍ من النصوص عن أصل دلالاتها الصحيحة ، المتسقة مع جميع صفات الله عزّ وجلّ وكمالاته .

إنّ من كمال صفة الإرادة أن تكون إرادةً حكيمة تَضَعُ الأشياء في مواضعها كما تكشفها صفة العلم الشامل ، فإجراءاتُها الحكيمة اختياراتٌ يَقْتَضيها كمالُها ، فَمِنْ كمالها في ذاتها أن تكون اختياراتُها حكيمة ، والاختيارات الحكيمة إنّما تكون حكيمةً إذا كانت ذوات غاياتٍ رفيعةٍ .

وهذا منزع غلط الأشعريّة في هذه المسألة ، أمّا غلط المعتزلة في مقابل غلط الأشعريّة هذا فَهُو أنَّهُمْ أوجبوا على الله عزّ وجلّ اختيار الأحسن والأصلح ، مع أنّ الأحسن والأصلح هما من أثر كمال إرادته وحكمته ، وليسا من أَثَرِ إيجابٍ من أيّة جهة أخرى .

إنّ الله عزّ وجل بإرادته وحكمته العليّة لا يظلم أحداً مثقال ذَرّة ، مع أنّ إرادته مطلقة لا سلطان عليها ولا مُقَيّد لها من غير صفاته ، فلا شيء يُوجِبُ عليها ، لكنّه تعالى يوجبُ على نَفْسِه ويُحَرّمُ على نفسه ، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح :

« يا عِبَادي ، إنّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي وجَعَلْتُهُ بينكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا » .

بعد هذا التحليل نجد أنفسنا مُلْزَمينَ بأن نفهم الآية وفق الفهم الذي سبق بيانه ، وألُمُّ أطرافه بالشرح الختاميّ التالي :

نضع الواقع ومجموعة دلالات النصوص الأخرى ، ثمَّ نفهم الآية في ضوء كلّ ذلك .

أولاً : بالإرادة التكوينيّة تمَّ خَلْقُ الإنسان لامتحانه مزوّداً بشروط الامتحان الأمثل ، وهي : « الإرادة الحرّة - القوّة المفكّرة القادرة على إدراك الحقّ والباطل والخير والشرّ والفضيلة والرذيلة والقادرة أيضاً على إدْراك التكاليف والوصايا والنّصائح - الاستطاعة لتحريك المسخّراتِ في ذاته وفي الكون من حوله ، فتجري المسخّرات ضمن قوانينها بقضاء الله وقدره وخلقه لتحقيق النتائج المرادة الخاضعة لنظام الأسباب والمسبَّبات - العِلْمُ بما يُطْلَبُ من الإنسان في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا » إلى سائر شروط الامتحان الأمثل .

ثانياً : وبالإرادة التشريعية الرّبّانيّة قد شرع الله الشرائع ووضع الأحكام واصطفى الدّين للّذين خلقهم ليبلُوَهم ، وقد تحقّق المراد بهذه الإرادة تامّاً غير منقوص ، فأتمَّ الله لعباده الدّين الذي اصطفاه لهم ، وأكمله لهم .

ثالثاً : وبالإرادة التكليفيّة والإرشاديّة الرّبّانيّة وجَّهَ الله عزّ وجلّ لعباده الذين خلقهم ليبلُوَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا ، أوامره ونواهيه ووصاياه وإرشاداته ، وقد تحقّق المرادُ بهذه الإرادة تامّاً غير منقوص .

رابعاً : وبالإرادة التكوينيّة الرّبّانيّة أنزل الله بيانات دينهِ الذي اصطفاه لعباده الذين خلقهم ليبلُوهم ، وأنزل أوامره ونواهيه ووصاياه وإرشاداته ، في كتُبه وعلى ألسنة رُسُله ، ووضعها بينهم ليتبلَّغُوها ويعملوا بها في رحلة امتحانهم ، وقد تحقَّقَ المرادُ بهذه الإرادة تامّاً غير منقوص .

خامساً : بقي على العباد الذين خلقهم الله ليَبْلُوهم أن يَتَّبِعُوا شرائع الله وأحكام دينه الذي اصطفاه لهم ، ويُطيعوا أوامره ونواهيه ، ويعملوا بوصاياه ونصائحه بإراداتهم الحرّة ، لا بالجَبْرِ القدريّ .

هذا الاتّباع ، وهذه الطاعة ، وهذا العمل ، هو العبادة المطلوبة منهم في رحلة امتحانهم .

فكلٌّ من عَبَد ومَنْ لم يعبُدْ قدْ حَقَّقَ الله مُرادَهُ فيه بابتلائه وكشْفِ سَرِيرته ، ودَرَجةِ ارتقائه في عبوديّته لربّه ، أو دَرَكَةِ انحطاطه استكباراً وجحوداً وفجوراً ومعصية .

فلا يصحُّ بعد هذا البيان التحليليّ أن يُقالَ : إنّ الله أراد أن يخْلُقَ الجنّ والإنس ليعبدوه ، فلم يُحقّقْ أكثرُهُمْ مُرادَ الله فيه ، لا في حدود الإرادة التكوينيّة ، ولا في حدود الإرادة التشريعيّة ، ولا في حدود الإرادة التكفيليّة والإرشاديّة .

إنّما يُقالُ: إنَّهُمْ عَصَوْا وخالَفُوا ما هو المطلوب منهم في رحلة امتحانهم .

ولهذا يجب أن نفهم قول الله عزّ وجلّ :

﴿ ومَا خَلَقْتُ الجنّ والإنْسَ إلا ليَعْبُدونَ ﴾

فهماً سوياً نَسْتَبْعِدُ فيه كلَّ معنىً لا يصِحُّ الأخذ به كما اكتشفنا في التحليل السابق ، وكلَّ معنى يلزم عنه فكرة غير صحيحة .

وأقربُ المعاني التي تلائم النصّ منضمّاً إلى سائر النصوص ، ومنضمّاً إلى مفاهيم العقيدة الإيمانيّة الإسلاميّة ، هو أنّ المطلوبَ من الجنّ والإنس بعد أن خلَقَهُمُ الله ليبلوهم ، هو أن يعبدوا رَبّهم ، وليس المطلوب منهم أن يقدّموا لله الرزق أو الطعام كما يفعل أهل الشرك بآلِهتهم إذْ يقدّمون لها الأرزاق والأطعمة والقرابين ، ويعتقدون أنّها تحتاجُ في ذواتها إلى أرواح الذبائح أو دمائها أو لحومها ، فالله عزّ وجلّ منزّهٌ عن كلّ ذلك ، وتعالى الله علُوّاً كبيراً .

والعبادَةُ التي هي مطلوب الله من عباده الّذين خلقَهُم ليبلُوَهُمْ مطلوبٌ حكيم ، إذْ هي تدلُّ على طهارة قلب العابد ، وطهارة عمله ، وصدق اعترافه بعبوديته لربّه ، وإذْعانه لها .

والعابد الصادق في عبادته يَدُلُّ باختياره الحرّ على أنّه بريء من الجحود والكنود ، وبريء من الشرك ، وبريء من الفجور ، وعلى مقدار طاعته وتقرّبه إلى ربّه بمحابّه ومراضيه بعد ذلك يكشِفُ عن مدى إقباله على ربّه وقُرْبِه منه ، واستحقاقه للمنازل الرفيعة .

ولئلا يفهم العابدون لربّهم أنّ عبادتهم له تقدّم لله نفعاً أو تزيد في ملكه شيئاً ، وأنّ كفرَ الكافرين وجحودَ الجاحدين ومعصيةَ العاصين تضرُّ الله شيئاً ، أو تنقصُ من مُلْكِ الله شيئاً ، فقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مُسْلمٌ عن أبي ذَرّ ، عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربّه ، أنّ الله عزّ وجلّ قال :

« يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخطِئُونَ باللَّيْلِ والنَّهَارِ ، وأَنَا أغفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعَاً ، فاسْتَغْفِرُوني أَغفِرْ لَكُمْ .

يَا عِبَادِي ، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني ، ولَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني .

يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنْسِكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلى أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنكُمْ ، ما زَادَ ذَلِكَ في مُلْكِي شَيْئاً .

يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنْسِكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلى أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً .

يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَه» .

فالعابدون لربّهم يُعَبّرون بعباداتهم له عن أهليّاتهم لدرجات النعيم يوم الدّين في دار المنعَّمِين ، وغَيْرُ العابدين لربّهم في رحلة امتحانهم يُعَبِّرُونَ عن اسحقاقهم لدركات العذاب يوم الدين في دار العذاب لمستحقيه من الكفرة المجرمين ، والعصاة المذنبين .

بقي أن نفهم معنى اللام في عبارة : [ليعبدون] ضمن مفاهيم اللام الجارّة في اللغة العربية ، وهي هنا جارّة للمصدر المؤوّل من أن المضمرة وفعل

«يَعْبُدوني» والتقدير : لعبادتي .

أقول : تُستعمل اللام الجارّة في معانٍ عديدةٍ استنبطها النحويّون من الاستعمالات العربيّة ، والاستعمالات القرآنية ، وقد أوصلها ابن هشام في كتابه «مغني اللّبيب» إلى اثنين وعشرين معنىً، جمعاً من كلام النحويين والمفسّرين، وهي كما يلي :

(١) الاستحقاق — (٢) الاختصاص — (٣) المِلْك
(٤) التمليك — (٥) شبه التمليك — (٦) التعليل
(٧) توكيد النفي — (٨) بمعنى « إلى » — (٩) بمعنى « على »
(١٠) بمعنى « في » — (١١) بمعنى « عند » — (١٢) بمعنى « بعد »
(١٣) بمعنى « مع » — (١٤) بمعنى « من » — (١٥) التبليغ
(١٦) بمعنى « عن » — (١٧) الصيرورة–العاقبة- المآل — (١٨) القسم والتعجب معاً
(١٩) التعجب فقط — (٢٠) التعدية — (٢١) التوكيد وهي اللام الزائدة
(٢٢) التبيين .

وأمام هذا الجمّ الغفير لمعاني اللام الجارّة ، فإنَّنا لا نجد أنفسنا مُلْزَمين بأنّ اللام الجارّة في عبارة : [ليَعْبُدُون] من قول الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنْسَ إلا ليعبُدُون ﴾ دالَّة على تعليل الغاية من الخلق ، كيف تكونُ للتعليل ، وعباداتهم هي أثَرُ إراداتهم لا أثر إرادة الله عزّ وجلّ . أمّا أثر إرادة الله فيهم فهي التخيير لا الجبر ، ولازم التخيير أن يريدوا هم .

* فيمكن أن نفهمها بمعنى الاستحقاق ، وعليه فيكون المعنى : وما خلقت الجنّ والإنسَ إلا مستحقاً أن يَعبُدوني .

* ويمكن أن نفهمها بمعنى الاختصاص ، أي : وما خلقت الجنّ والإنْسَ إلا مختصّاً بأن يَعْبُدوني .

* ويظهر لي أنّ اللام هذه هي بمعنى « الطلب » وعليه يكون المعنى

كما يلي : ومَا خلقت الجنّ والإنسَ ممتَحَنِينَ في رحلة امتحانهم في الحياة الدّنيا إلا لأطلُبَ منهم أنْ يعبُدُوني ، ما أُريدُ منهم من رِزقٍ وما أُريد أن يطعموني .

وبهذا ينحلُّ الإشكال ، ويتّضح المعنى ، ويتَبَيَّنُ خطأ العبارة التي يردّدها كثيرون إذْ يقولونَ : أراد الله منا أن نَعْبُدَهُ ، فإذا لَمْ نَعْبُدْهُ لم نُحقِّقْ مُرادَ الله فينا . إنّها مقولة باطلة ذاتُ معنىً لا يليقُ أن توصف به إرادة الله عزّ وجلّ ، وقد تعالى الله وتنزَّه عن مضمونها .

(٥)

نصوص الإرادة والمشيئة في القرآن

الإرادة والمشيئة هما بمعنى واحد ، وقد دلّت النصوص القرآنية الّتي اشتملت على لفظتي الإرادة والمشيئة أو مشتقّاتهما ، على أنّ كلّ ما شاءه الله أو أراده ، فَعَلَهُ لا محالة ، وعلى أنّه لو شاء شيئاً أو أراده لفَعَلَه ، وعلى أنّ كلّ شيء لم يشأه الله أو لَمْ يُرِدْهُ لمْ يفعَلْه ، وعلى أنّ كلّ شيء شاءَ الله أو أراد أنْ لا يكونَ فإنَّه لا يُمْكِنُ أنْ يكون . وأنّ كلّ شيء شاء الله أو أراد أن يكون فإنّه لا بُدَّ أن يكون ، فإرادة الله نافذة حتماً في كلّ ما يشاء وجوداً وعدماً .

أمّا المحبّة فقد يحبّ الله من عبده الذي وهبه الإرادة الحرّة أو يحبُّ له أنْ يعمَلَ عمَلاً أو يَتْرُك عملاً ، إلا أنّ العبد قد لا يحقّق بإرادته ما يحبّ الله منه أو يحبُّ له ، وقد يكره من عبده الذي وهبه الإرادة الحرّة أو يكره له أن يعمل عملاً أو يترك عملاً ، إلا أنّ العبد قد يعمل بإرادته الحرّة ما يكره الله منه أو يكْرَهُ له .

فالله عزّ وجلَّ يُحِبُّ لعبادِه أن يعمَلُوا الصّالحات وأن يتركوا السيئات ، ويكرَهُ لعباده أن يعمَلُوا السيئات ويتركوا الصالحات ، إلا أنّ المحبّة ليس من لوازمها تنفيذ المحبوب مالم تقترن المحبّةُ بالإرادة ، وكذلك الكراهية ليس من

لوازمها منع وجود المكروه مالم تقترن الكراهية بالإرادة .

والرضا الذي يقابله السخط والغضب كالمحبّة والكراهية ، صفاتٌ ليس من لوازمها تنفيذ أو تحقيق مطلوباتها ما لم تقترن بالإرادة .

فالله عزّ وجل يرضى لعباده أن يشكروه ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ويغضبُ الله على الكافرين والمجرمين ، بسبب كفرهم وإجرامهم .

فلا بُدَّ من التفريق بين الصفات ، وبين الكلمات التي تدلُّ عليها ، حتى لا تختلط المعاني ببعضها ، وحتى لا تنكسر الحدود فيما بينها ، فكسْرُ الحدود بين المعاني وبين الألفاظ التي تدلُّ عليها يؤدّي إلى تحريف الدّين ، وإفساد مفاهيمه ، وقد يَسْرِي ذلك إلى كفريّات لا يمكن ضبط غاياتها ، وهذا ما حصل عند أهل الكتاب « اليهود والنصارى » .

لقد أطلقوا كلمة « الأب » على الله عزّ وجلّ للدلالة على عطفه ورحمته بعباده ، لكنّ هذا الإطلاق جرَّ إلى مفاهيم قابليّة الله - سبحانه وتعالى - لانفصال جزءٍ منه ، ثمّ إلى جعل هذا الجزء المنفصل منه ابناً له ، ثمّ إلّهاً معه ، ثمّ مشاركاً له في الرُّبوبيّة.

استعراض نصوص الإرادة من القرآن

(١) ﴿ . . . قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا . . . ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة/٥]

أي : إنْ أراد نفَّذ فلم يملك أحدٌ منعَ تنفيذ مُراد الله .

(٢) ﴿ . . . وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ . . . ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد/١٣]

دلالة هذا النص جليّة .

(٣) ﴿ . . . فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا . . . ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف/١٨]

أي : فأتمَّ الله مُراده ، فأمر الخضر بإقامة الجدار المائل الذي كاد أن ينقض ، ليبلغ الغلامان ، ويستخرجا من الجدار كنزهما الذي خبّأه لهما أبوهما .

(٤) ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً . . . ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب/٣٣]

أي : هو ينفذ مراده ولا أحد يمنع من تنفيذه .

(٥) ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس/٣٦]

دلالة هذا النص جليّة .

(٦) ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ . . . ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر/٣٩]

أي : لكنَّهُ لم يُرِدْ فلم يتخذ ولداً بالتبنّي مما يخلُق ، أمّا انفصال ولَدٍ حقيقيّ منه فهو مستحيل .

(٧) ﴿ . . . قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا . . . ﴿١١﴾ ﴾ [الفتح/٤٨]

أي : فكلّ ما يُريده بكُمْ نَافِذٌ لا محالة من ضَرّ أو نفع .

(٨) ﴿ . . . قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ . . . ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر/٣٩]

أي : فمراد الله نافِذٌ في عباده لا تَرُدُّ شيئاً مِنْهُ آلهةُ المشركين ، ولا غَيرُها .

(٩) ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء/١٧]

أي : وإذا أردْنا أن نُهْلِكَ قَرْيَةً بسبب استحقاق أَهْلها الإهلاك المعجّل ،

لما في نفوسهم من كُفْرٍ وعنادٍ ورغبةٍ في الفُجور ، فإنَّنا لا نُعجِّلُ بإهْلاكهم لمجرَّد ما تنطوي عليه نفوسُهم من شرّ ، بل لا بدّ من إدانَتِهِمْ بأعمالٍ ماديَّةٍ يعملُونَها يظهر بها فسقهم وينكشِفُ بها ما في نفوسهم من شرّ ، لذلك فإنَّنا نأمُرُ المُترفينَ منهم وهم عِلْيَتُهم بالصالحات وترك السّيئات ، ويكون عامّتهم داخلين في عُمُوم الأمر ، فيفْسُق الملأُ والعامّة ، فيحِقُّ عليهم القول الرّبّاني بإهلاكهم المعجّل في الدنيا ، بسبب كفرهم وفسقهم الفاحش ، فيَتِمُّ تنفيذ مراد الله في القرية فيُدَمّرها تدميراً شديداً ، عقوبة معجّلة لها ، ولَعَذابُ الآخرة أشدّ .

(١٠) ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[الأنبياء/٢١]

أي : لكن لم نُردْ ذلك فلم نفعله ، فما خلقنا الخلْقَ لَعِباً ولا لَهْواً ولا عبثاً .

(١١) ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل/١٦٤]

دلالة هذا النصّ جليّة .

(١٢) ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال/ ٨] .

أي : تريدون عرض الدنيا بإمساك الأسْرى لتحصيل الفِدْية منهم ، والله يُرِيدُ الآخِـرَةَ لَكُمْ فشَرَع لتحقيق مُرَادِه منع الأنبياء وأتباعهم من أخْذِ الأسْرى ، حتّى تكونَ لهم الغلَبَةُ المستقِرَّةُ في الأرض .

هذه إرادة تشريعيَّةٌ تَمَّتْ بِتَشرِيع الحكم ، ولم يبْق شيءٌ منها معلقاً على تنفيذِ المكلّفين .

(١٣) ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ . . . ﴾[الإسراء/١٧]

أي : نفَّذْنا من عاجل متاع الحياة الدنيا ما نشاءُ منهُ ، لمن نُرِيد التعجيل له منهم . فمشيئة الله وإرادتهُ نافذةٌ لا محالة .

(١٤) ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص/٢٨]

وقد حقّق الله مُرادَهُ فيما سبقَ ، ويجري تحقيقه في تتابع القرون حتى تَقُوم السّاعة ، بشرط أن يحقّقوا في أنفسهم مطلوب الله منهم .

(١٥) ﴿ . . . وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة/ ٥]

الفِتْنَةُ : في هذه الآية هي بمعنى التعريض لأنواع التعذيب . وقد وردت بشأنَ صنف من المنافقين مَرَدُوا على النفاق .

أي : ومن يُرِدِ الله تَعذِيبَهُ عذّبه لا محالة ، وأولئك البعداءُ الذين مردوا على النفاق لَمْ يُرِدِ الله أن يحكُمَ بطهارة قلوبهم ، لِمَا فيها من رجْس الكُفْرِ والنفاق ، فلا أحدَ يستطيع أن يحكُمَ بطهارة قلوبهم على خلاف حكم الله فيمنَعَ عنهم عذاب الله .

لذلك كان لهم في الدنيا خِزْيٌ بما ينالون من خيبةٍ وذُلّ ، وكان لهم في الآخرة عذاب عظيم ، إذْ موقعهم الدَّرْكُ الأسفل من النار ، كما جاء في نصٍّ آخر .

(١٦) ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام/٦]

أي : فمن يرد الله أن يَحْكُمَ لَهُ بالهداية بعد امتحانه في الحياة الدّنيا ، أو أن يوفّقه حتَّى يكون سلوكُهُ مَهْدِياً على صراط العمل الإسلاميّ بسبب صدق إيمانه بربّه ، يشْرَحْ صَدْرَهُ للْعمَلِ بشرائع الإسلام وأحكامه ، فيندفع للتطبيقات الإسلامية على مقدار قوّة إيمانه .

ومن يُرِد الله أن يحكُمَ عليه بالضلالة بسبب إصراره على الكُفرِ ومُعاندته للحقّ ، يجعَلْ صدْرَهُ ضيّقاً حَرَجاً لا يُطيقُ ممارسة التطبيقات الإسلاميّة المعبّرة عن الخضوع لله والطاعة له .

ورِجْسُ ضِيقِ الصَّدْرِ هذا يَجْعَلُهُ الله على كُلِّ الَّـذيـن لا يُؤمِنُونَ مهما تواترت عليهم أدلّة الإيمان وبراهينُه .

(١٧) ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس/١٠]

أي : مُرادُ الله نافِذٌ لا مَحَالة ، ومَشِيئتُهُ نافِذَةٌ لا محالة .

(١٨) ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة/٢]

أي : يُريد الله بكُم اليُسْرَ ولا يُرِيد بكُمُ العُسْرَ في التكاليف الدينيّة ، ومنها الصَّوم ، وقد حقَّقَ الله مُرادَهُ فأنزل أحكام التيسير ، ومنها الإذن للمسافر والمريض بالفطر في يوم الصوم من شهر رمضان ، وأمَرَ بالقضاء بعد ذلك ، حين يكون الصيام حالة القضاء يسيراً غير عسير ، أي : في غير سفر ولا مرض .

(١٩) ﴿ . . . وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة/٢]

أي : ولو شاء الله أن لا يقتتلوا لم يمكّنهُمْ من التقاتل ، لأنّ مشيئته عزّ وجلّ نافِذَةٌ لا محالة ، وكلُّ ما يُريدُه الله يفعلُه ، لأنّ إرادته نافِذَةٌ لا محالة .

(٢٠) ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [آل عمران/٣]

أي : إنّ الذين يسارعون في الكفر بإراداتهم الحرّة التي مُنِحَتْ لهم ،

ويعانِدونَ الحقّ، ويُصرُّونَ على مواقفِهم العدائية لدين الله ولرسوله وللمؤمنين ، يُريدُ الله أنْ لا يجعل لهم حظّاً من نعيمِ الجنّة في الآخرة ولا حظاً من النجاة ، وإرادة الله نافذة فيهم لا محالة .

(٢١) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾
[النساء/٤]

أي : يُريد الله تفصيل أحكام دينه لكُمْ في كتابه ، ليبيّن لكم وليَهْدِيَكم سُنَنَ الّذين من قبلكم ، فهو يُفَصِّلُها تباعاً ، وهو يحقِّق بما يفصّل مُرادَه ، فإرادَتُه نافذة ، ومرادُهُ يتحقَّق في الأوقات المحدّدة المقرّرة بقضائه وقدره .

ويريد الله أن يتوبَ عليكم إذا استغفرتم وتُبْتُمْ إليه بعد معاصيكم ومخالفاتكم ، فإذا استغفرتم وتُبْتُم حقّقَ مُرادهُ فتاب عليكم .

هذه إرادة من الله مشروطة بأن يحقق الْعِبادُ بإراداتهم واختياراتهم الحرَّة التوبة والاستغفار، فإذا حَقَّقُوا مطلوبَ الله منهم حقَّق الله مراده، فتاب عليهم وغَفَرَ لهم ، فإرادَتُه نافذة .

ويُريد الله أنْ يخفِّف عنكم من ثقل التكاليف الدينيّة ، ويخفّف عن ظهوركم من أثقال أوزاركم بالمغفرة والعفو ، وقد حقّق الله مُراده فيما أنزل من تشريعات وتكاليف إبّانَ نزول سورة (النساء) وبعد ذلك حتى آخر ما نزل من قرآن . ويحقّق الله مراده دواماً فيغفر ويعفو لمن يريد أن يغفر له ويعفو عنه .

(٢٢) ﴿ . . . إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . . . ﴿١﴾ ﴾ [المائدة/٥]

يقال لغة : حَكَمَ الشيءَ وأحْكَمَهُ إذا منعه من الفساد . وكذلك يقال

حَكَمَ الرَّجُلَ وأَحْكَمَهُ وحَكَّمَهُ . ومن لوازم المنع من الفساد إتقانُ ما يَحْكُمُهُ .

والحكيم : المتقن للأمور الذي يبلُغُ الغاية في إتقانها .

فما يريدُهُ الله عزّ وجلّ من مُرادٍ يُتْقِنُه ، ويُنَجّزُه خالياً من الخلل والفساد ، ومنها الشرائع والتكاليف والأحكام .

(٢٣) ﴿ . . . مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ ﴾ [المائدة/٥]

أي : ما يُريد الله مِنْ تكاليفِ طهارةٍ بالوضوءِ أو الغُسْل ، أو رمزهما البدليّ عند العُذْرِ وهو التَّيَمُّم ، إلى غيرها من مُراداتٍ تكليفيّة ، ليَجْعَلَ عليكم بهذه التكاليف من حَرَجٍ يُخرِجُكُمْ به مهما قلّ ، ولكن يريد أن يكلّفكُم هذه التكاليف التطهيريّة ليُطَهِّرَكُمْ من الأرجاسِ والأوساخ ، ويريد إنزالَ الأحكام عليكم بالتتابع التدريجي ليُتِمَّ نِعْمتَهُ عليكم ، وهي نِعْمَةُ شرائعِ وأحكام الإسلام كُلّهِ التي فيها مصالحكم في الدنيا وسعادتكم في الآخرة ، بدليل أنَّه لَمَّا أتمَّها في حَجَّةِ الوداع أنزل قوله الذي في سورة [المائدة/٥] أيضاً :

﴿ . . . ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ . . . ۝٣ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون ﴾ أي : منتظرين منكُمْ أن تَشْكُروا بالقيام بما نكلّفكُمْ إيَّاه ، لنجزيكُمُ الجزاء الأوفى على شكركم ، ولنزيدكم من الفضل والنعمة .

وظاهر أنّ مراد الله في هذا قد تحقَّقَ ببيان الأحكام والشرائع ، ويتحقَّقُ بما يمنح عباده الشاكرين من عطاءات فضله على الدوام .

(٢٤) ﴿ . . . فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ . . . ۝٤٩ ﴾ [المائدة/٥]

وظاهر أنَّ مُرادَ الله متحقّقٌ في هذا لا مَحالة .

(٢٥) ﴿... وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ [الأنفال/٨]

ومُرادُ الله في هذا متحقِّق لا محالة .

(٢٦) ﴿... إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾ [هود/١١]

دلالة هذا النصّ جليّة .

(٢٧) ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤﴾ [الحج/٢٢]

دلالة هذا النص جليّة .

(٢٨) ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ [الأحزاب/ ٣٣]

أي : إنَّمَا يُريدُ إلزامَكُنَّ بهذِهِ الأحْكام الّتي فيها بَعْضُ الشّدّةِ أكثر من إلزام غَيْرِكُنَّ ، لِيُذْهِبَ عَنْكُنَّ إذا التَزَمْتُنَّ بها الرِّجْسَ يا أَهْلَ بَيْتِ النَّبيّ ، وليُطَهِّرَكم تَطْهيراً كثيراً .

ومُرادُ الله بإنزال الأحكام قد تحقَّق ، ومُرادُهُ المشروط بالْتزامِهِنَّ بتطبيق ما فرضه عليهنّ لابُدَّ أن يتحقّق .

(٢٩) ﴿... وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١﴾ [غافر/٤٠]

فهو سبحانه لا يظلم أحداً ، لأنه لا يريد ظلماً للعباد ، فمرادُهُ متحقّق .

(٣٠) ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج/٨٥]

دلالة هذا النصّ جليّة .

* * *

خلاصة استعراض نصوص المشيئة

استعرضت النصوص القرآنية التي تشتمل على فعل المشيئة منسوباً إلى الله عزّ وجل فوجدت أنّها على ثلاث فئات :

الفئة الأولى :

هي الفئة التي يكون فعل المشيئة فيها فعل شرط ، ويأتي جواب الشرط في الجملة متوقفاً تحققه على تحقُّق فعل الشرط وهو فِعْل المشيئة (شاءَ - يَشَاء) .

وكلُّ النصوص التي من هذه الفئة تدلُّ دلالة قطعيّة على أنَّه إذا تحقّقَتْ مشيئة الله تحقّقَ المُراد حتماً ، فلا قُوَّة تقف دون تحقيقها .

ومن هذه الفئة النصوص التالية :

* قول الله عز وجل في سورة [المائدة/٥] :

﴿ . . . وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ . . . ﴿٤٨﴾ . . . ﴾

أي : ولو شاء الله أنْ يجعلكم أمّة واحدةً لجعلكُمْ أمةً واحدةً مجبورين على طاعته ، ولكن شاء أنْ يجعلكم مخيّرين ذوي إرادات حُرَّةٍ ، وزوّدكم بكلِّ شروط الامتحان الأمثل ، ليبْلُوَكُمْ فيما آتاكمْ من هباتٍ واستودعَكُمْ من أمانات ، وكلّفكُمْ من تكاليف .

* وقول الله عز وجلّ في سورة [الأحزاب/٣٣] :

﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ . . . ﴿٢٤﴾ ﴾

أي : إنْ شاء بحكمتهِ أن يُعذِّبَ المُنافقِينَ في الحياة الدنيا عذّبهم ، وإن شاء أن يؤخّر تعذيبَهمْ إلى يوم الدين فقط أخّره .

* وقول الله عز وجل في سورة [عبس/٨٠] :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾

أي : ثُمَّ إذا شاءَ إنشارَ الإنسان بعد إماتته وإفنائه ، وبَعْثَه إلى الحياة الأخرى أنشَرَهُ ، أي أحياهُ وبعثه من تراب الأرض .

* وقول الله عزّ وجل في سورة [الإنسان/٧٦] :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾

دلالة هذا النصّ جليّة .

* وقول الله عز وجل في سُورة [يس/٣٦] :

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

فلا صَريخ لهم : الصريخ هو المُغيثُ الذي يستجيب للصّراخ .

دلالة هذا النصّ جليّة .

وعلى هذا النمط يكون تَدَبُّر سائرِ نُصُوص هذه الفئة .

الفئة الثانية :

هي الفئة التي تَدُلُّ على أنّه لا يُوجَدُ شيءٌ في الكونِ إلا أن يشاء الله إيجاده أوْ يأذن بوجوده ، فهي تدلُّ على أنّ مشيئة الله نافِذَةٌ حتماً ، وأنَّه إذا لمْ يشأ وُجُودَ شيءٍ لمْ يوجَدُ حتماً .

ومن هذه الفئة النصوص التالية :

* قول الله عزّ وجل في سورة [البقرة/٢] :

﴿ . . . وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ . . . ﴿٢٥٥﴾ ﴾

* وقول الله عز وجل في سورة [الأعراف/٧] خطاباً لرسوله :

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ . . . ﴿١٨٨﴾ ﴾

أي : لا أملِكُ لِنفسي جَلْبَ نَفْعٍ ولا دَفْعَ ضُرٍّ إلا أنْ يشاءَ الله ذلكَ ، فمشيئة الله نافذة بلا معارضٍ يمنعها أو يدفعها .

* وقول الله عزّ وجلّ في سورة [الإنسان/٧٦] :

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾

أي : وما تكونُ لكمْ سُلطَةُ مشيئةٍ إلا أن يمنحكُمُ الله هذهِ السلطة وجهازَها في أنفسكم ، حتى تشاءُوا بها ما تُريدون ضمن حكمة اختباركم في رحلة الحياة الدنيا .

فمنْحَةُ هذهِ المشيئة لكُمْ هي من مشيئته .

وعلى هذا النمط يكون تدبُّر سائر نصوص هذه الفئة .

الفئة الثالثة :

هي الفئة التي فيها بيانُ أنَّ ما يشاؤُه الله يفعله ، لا رادَّ لمشيئته المقضيّة فيه .

ومن هذه الفئة النصوص التالية :

* قول الله عزّ وجلّ في سورة [الشورى/٤٢] :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

فدَلّ هذا النّصّ على أن ما يشاؤه الله يفعله فيكونُ أمراً واقعاً .

* وقول الله عز وجل في سورة [الفتح/٤٨] :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

أي : فهو سبحانه يحقِّقُ مَغفرَته لمنْ يشاءُ بحكمتِهِ أن يغفِرَ له ، ويحقِّقُ تعذيبه لِمَنْ يشاءُ بِعَدْلِهِ أنْ يُعذِّبَه .

* وقول الله عز وجل في سورة [آل عمران/٣] بشأن دُعاء زكريّا عليه السلام أن يهبه ذُرّية طيبة مع أنه شيخ كبير السن وامرأته عاقر ، فبشرته الملائكة

بيحيى عليه السلام ، فتعجّب فقال الله له .

﴿ . . . كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

أي : فمشيئته نافِذَةٌ لا محالة .

وكذلك قال لمريم عليها السلام إذْ قالت : ﴿ . . رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ . . . ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿ . . . قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

أي : فمشيئة الله نافذةٌ لا محالة .

وعلى هذا النمط يكون تَدَبُّر سائر نصوص هذِهِ الفئة .

الخلاصة :

من استعراض نصوص الإرادة ونصوص المشيئة في القرآن المجيد تبيَّن لنا أن كُلَّ شيءٍ قد شاء الله وجوده فلا بُدَّ أنْ يوجدَ على وفق قضاء الله وقدره فيه ، بكل الصفات التي قدَّرَها بمشيئته وقضاها ، وأنّ كلّ شيء شاء الله أن لا يوجد فلا يمكن أن يوجد ولو اجتمعت قوى كلّ الخلائق لإيجاده .



* * *

الفَصْــل الثَّــالِث

الابتلاء والتسخير والعلاقة بينهما

وفيه خمس مقولات :

المقـولة الأولى : تعريفات وبيانات تأسيسيّة .

المقـولة الثانية : نظرات تحليلية حولَ حِكَمِ الله في النِّعم والمصائب .

المقـولة الثالثة : استعراض نصوص « الابتلاء » بنظرات تدبُّرية إليها .

المقـولة الرابعة : استعراض نصوص « الفتنة » بنظرات تدبُّرية إليها .

المقولة الخامسة : استعراض نصوص « التسخير » بنظرات تدبُّريةٍ إليها .



المقولة الأولى:

تعريفات وبيانات تأسيسية

جاء في النصوص الإسلامية استعمال كلمتي الابتلاء والفتنة بمعنى الاختبار والامتحان ، وبيان أن الله عز وجل خلق الناس ليبلُوَهم في ظروف هذه الحياة الدنيا .

وجاء فيها بيان أن الله سخّر للناس مسخّراتٍ تظهر فيها اختياراتهم في امتحان الله لهم .

وعلينا قبل شرح ذلك أن ننظر في تعريفات كلمات : « الابتلاء والفتنة والتسخير ومشتقاتها » وننظر في العلاقة بين الابتلاء والتسخير .

أوّلاً : الابتلاء :

مادّة الابتلاء تدلُّ في أصل معناها على معنى الامتحان والاختبار لكشف ما لدى المُبتلى مِنْ صفاتٍ كامناتٍ ، بعملٍ إراديّ ذي أثرٍ يُدْرَكُ في النفس أو في حركاتٍ وتصرفاتٍ الجسد الإرادية .

قال أهل اللغة : بَلَوْتُ الرَّجُلَ بَلْواً وبَلاءً ، وابتليتُه ابتلاءً ، أي : اختبرته .

وبَلاهُ يَبْلُوهُ بَلْواً إذا جرَّبَهُ واختبَرَهُ . وابتلاهُ الله ، أي : امتحنه .

ويقالُ : بُلِيَ بالشيءِ بَلاءً ، وابتُلِيَ به ابتلاءً .

والاسم : البَلوى ، والبِلْوَة ، والبِلْيَة ، والبَلِيَّة ، والبلاء . كلُّها بمعنى

الامتحان والاختبار ، فعلى هذا المعنى تدور مادة الابتلاء ومشتقاتها في أكثر استعمالاتها .

وقد يُراد من مادة الابتلاء والبلاء مُطلقُ الكشف مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة [الطارق/٨٦ مصحف/٣٦ نزول] بشأن خلق الإنسان ورَجعِه يوم الدين :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ ﴾

أي : يومَ تُكشَفُ السَّرائر التي كانت النفوس تُسِرُّها في الحياة الدنيا من نيّات ومقاصد وغيرِها من أعمال القلوب كالحسد والحُبّ والكراهية ، للمحاسبة والجزاء .

وقد يُراد من مادة الابتلاء الوسيلة التي يكون بها الامتحان ولاسيما إذا كانت من المصائب الشديدة ، فيقال فيها : بلاء عظيم .

وقد يأتي فعل : « أبلى بَلاءً » بمعنى اجتهد في العمل والبذل ، وبمعنى « أنعم » . يقال : أبلاه الله ، إذا أنعم عليه وأكرمه ، ومنه : ﴿ ولِيُبلِيَ المؤمنينَ مِنهُ بلاءً حسناً ﴾ أي : ولينعم عليهم بالنصر والغنيمة .

ابتلاء الإرادة :

وابتلاء الإرادة الحرّة : هو امتحانُها لكشف ما تختار من عَمَلٍ إراديٍّ ظاهر أو باطن في رحلة الحياة الدنيا ، إذْ وهَبها الله عز وجل للمخلوق مصحوبةً بالصفات التي تؤهّله لأن يكون في هذه الحياة الدنيا مخلوقاً ممتحناً مختبراً .

وبعد الامتحان يأتي الحسابُ والجزاء ، وإلا كان الامتحان عبثاً ، والله عزّ وجلّ مُنزَّهٌ عن العبث .

المبتَلَى به :

والمبتلى به كُلُّ ما يخضع لإرادة المخلوق الحرّة من عمل باطنٍ أو ظاهر ، ومن الباطن أعمالُ القلوب والنفوس الإراديّة كالحبّ والكراهية والحسد .

موادّ الابتلاء :

وموادّ الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا كلُّ ما فيها ممّا يَسُرُّ ويَلَذُّ فِعلُه أو تركه ، أو مَسّه أو الإصابة به ، أو الخلاصُ منه ، وكلُّ ما فيها ممّا يَسُوءُ أو يُؤْلم أو يَشُقُّ فِعلُه أو تركُه ، أو مَسُّه أو الإصابة به ، أو الحرمانُ منه .

المطلوب في الابتلاء :

والمطلوب من العبد فيما هو مبتلىً به حَمْدُ الله والثناءُ عليه فيما يَسُرُّ وفيما لا يَسُرّ ، وطاعةُ الله والعملُ بمراضيه فيما تحبُّ النفس وفيما لا تحبُّ على ما يُريدُ جلَّ جلالُه في مقاديره ، وفي أوامره ونواهيه الإلزاميّة أو الترغيبيّة .

والمؤلماتُ وكلّ ما يَشُقُّ على النفس تكشِفُ مقادير الصبر لدى العبد المبتلى ، والسّارّاتُ وكلُّ ما فيه مُتعَةٌ للنفس تكشِفُ مقادير الشكر لله لدى العبدِ المبتلى ، مع مِقدار الحمد لله في كلٍّ منهما ، والتزام طاعته وعدم معصيته .

* * *

ثانياً : الفتنة :

الفتنة : هي في الأصل الصهرُ بالنار للمعدِنِ ، كالذهب والفضة ، لتمييز الرديء من الجيّد .

تقول لغةً : فتَنَ الصائغُ الذهبَ يَفْتِنُه فَتناً وفُتُوناً ، أي : أذابه بالنار ليختَبره .

ثُمَّ صارت مادّة هذه الكلمة تدلُّ على مطلق الابتلاء والامتحان والاختبار ، فهي كلماتٌ مترادفات .

وبما أنّ اختبار الإرادة يكون غالباً بما تكْرَهُ النفوس من مصاعب ومشقات ، أو يخالِفُ أهواءها وشهواتها ، فإنّ جنس الألم الذي يُحْدِثُه مَسُّ النار باقٍ في دلالة المادّة ، مع دلالتها على مطلق الاختبار .

ومن التوسّعات اللغوية في دلالة هذه المادّة ما يلي :

(١) إطلاقُها على الإحراق بالنار أو على مطلق التعذيب ، أو على التعذيب بالنار ، عقاباً أو انتقاماً ، أو عدواناً وظُلماً ، ويَسقُط معنى الاختبار حينئذٍ .

(٢) وإطلاقُها على فتنة الرَّجُل مثلاً بالمرأة ، إذا أحبَّها فَوَلَّهَتْهُ ، لأنّ في ذلك معنى اختباره بها ، واكتوائه بنار حُبّها والشَّغَف بها .

(٣) وإطلاقُها على الإعجاب بالشيء ، لأنّ الإعجاب ببعض الأشياء قد يُورّطُ صاحبَهُ فيوقِعُه بما تُكرَهُ عاقبتُه .

(٤) وإطلاقُها على الضلال وارتكاب الإثم ، لأنّ مَنْ زُيِّنَ له الضلالُ فوقع في الخطيئة ، استحقّ العقاب فناله ما يكْرَه ، ورُبّما استحقّ العذاب بالنّار .

ومن هذا يقال : فتَنَ الشيطانُ الإنسانَ إذا أغراهُ بوساوسه وتسويلاته ، فاستجاب لخداعه وغروره ، حتى أضلّه فأغواه ، وعرّضه لعذاب الله ، ولهذا يُسمَّى الشيطان فاتِناً وفتَّاناً ، وكذلِكَ كلّ مُضِلٍّ من الإنس والجنّ ، أو مؤثّرٍ أثراً يصرِف عن صراط الله ، أو يُكَرِّهُ الناس به .

(٥) ويُقالُ لِمَنْ أصابته فتنةٌ ما ذهب بها مَالُه وعقلُه : إنسانٌ مفتون ، أي : مجنون ، وفي هذا يُقالُ : فُتِنَ فهو مفتُون ، مثل : جُنَّ فهو مجنونه .

(٦) وتُطلق الفتنة على مُجَرَّد إزالة الإنسان عمّا كان عليه من أمرِ محمود العاقبة إلى أمرِ مكرُوهِ العاقبة .

(٧) وتُطلَقُ الفتنة على الاضطراب وبلبلة الأفكار وتعارُضها في المجتمع ، ومناصرة كلّ فريق لما زُيّن له ، وهذه الفتنة تُقارنُ الأحداث المثيرة للجمهور العامّ ، وهي بمثابة نارٍ تشتعل في النفوس .

(٨) وتُطلَق الفتنة على الادّعاء الكاذب ، بُغْيَةَ الاعتذار أو التضليل ،

والمعنى فيها الرَّغبةُ بتضليل المخاطب عن الحقّ ، وتحويله عن وجه الصواب .

* * *

ثالثاً : التسخير :

التسخير : تطويع المخلوق بالجَبْرِ لِلْعمَلِ والتحرُّك على وفق إرادة المسخِّر ، ويأتي بمعنى تذليل المخلوقِ لعمل ما أو أمرٍ ما ، وجعله مطاوعاً لما يرادُ منه ضِمْن قانون تسخيره ، وهذه المطاوعة قد تكونُ بالطّبع ، كتسخير الماء والهواء والنار وعناصر الأرض وسائر الأشياء التي لا حياة لها . وقد تكون بالقوة مع التذليل كتسخير العجماوات للإنسان . وقد تكون بالاختيار الحرّ لما في المطاوعة من مصلحةٍ للمطاوع أو تَخَلُّصٍ ممّا يكْره ، كتسخير بعض الناس لبعض ، ولو ملكوا تحقيق مصالحهم دون أن يكونوا مُسَخَّرين لما أطاعوا .

والتسخير الجبريّ قد يكون ضمن سُنّةٍ ثابتة ، كَسُنَنِ الله وقوانين خلقه في كونه . وقد يكون دون سُنّةٍ ثابتةٍ ، مثل المعجزات وخوارق العادات ، ومنها تسخير عصا موسى عليه السلام ، فيما أجرى الله فيها من معجزات .

والتسخير كلّه لا يخرج عن دائرة التحرّك ضِمْن إرادة الرّب الخالق وخَلْقِه دواماً .

وقد سخّر الله للنَّاس قِسْماً من طاقاتهم في ذواتهم ، وسخّر لهم كثيراً من مخلوقاته في كَوْنه ، في الأرض وفي السَّماوات ، وهُم يَستَفيدون من المسخّرات لهم أو يُحرِّكونَها بإراداتهم الحرّة التي منحهم الله إيّاها ، وأعطاها بقضائه وقَدَره وقُدْرتِه القُدْرَة على أن تشاء بحُرّيَّة ، ليختبر اختياراتها ، وحينما تَشاءُ إرادةُ الإنسان شيئاً فإنّها لا تكون مَجْبُورة في ذلك الشيء الذي شاءته ، لأنَّها مُمَكَّنَةٌ بإرادة الله وقضائِه وقَدَره من أنْ تشاء بحرّيّة دون جَبْر .

* * *

العلاقة بين الابتلاء والتسخير :

* لقد شاء الله الرّبّ الخالق العزيز العليم الحكيم أن يخلُق الإنسان في أحْسَنِ تقويم ، مُزَوّداً بالصفات الّتي تؤهّله لأنْ يكون ممتحناً في ظروف هذه الحياة الدنيا ، وأنْ يكون مناطُ المسؤولية فيه جهازَ إرادته الحرّة ، المصحوبة بالإدْراك العلمي الكافي للتكليف ، والمصحوبة بالأهواء والشهوات ونزعات الخير ونزغات الشرّ ، والمُمَكَّنَةِ من توجيه طاقاته لفعل ما تختار من خَيْرٍ وشَرٍّ ، وطاعةٍ أو معصية .

* وإذْ تَمَّتْ بهذا مشيئةُ الرب الخالق العزيز العليم الحكيم ، فقد اقتضى هذا الأمر أن يُسَخَّرَ للإنسان بقضائه وقَدَرِه وخَلْقِه ضمن سُنَنٍ ثابتةٍ قِسْماً من طاقات العمل والحركة في داخل جَسَدِه ، وأن يُسَخَّرَ لَهُ في الكَوْنِ من حوله مُسَخَّراتٍ كثيرات ، تعمَلُ له بطاقاتها وتُطيعُه ، لتحقيق ما يُريدُ من خيرٍ أو شرٍّ ، متى اهتدى بما وَهَبَهُ الرّبُّ من حَوْلٍ وحيلَةٍ وفِكْرٍ ، إلى مفاتيح ماهي مسخّرةٌ فيه ، ضمنَ سُنَنِ الله وقوانينه فيها ، وأحسَنَ استخدامَ هذهِ المفاتيح على الوجه الذي تعمَلُ به وتتحرَّكُ ، موجّهةً طاقاتها المؤثراتِ ، باعتبارها أسباباً تعمَلُ بقضاء الله وقدرِهِ وسُنَنِه الثابتة فيما هي مُسَخَّرةٌ فيه من عَمَلٍ في هذا الكون ، وتحدُثُ بها المُحْدَثاتُ التي قضى الله وقدّر في سُنَنِه أنْ تَحْدُثَ بها .

فبالتمكين من الاختيار الحرّ وبالتسخير تمّتْ شروط الابتلاء الأمثل في ظروف هذه الحياة الدنيا ، وكلٌّ منهما لا يوجَدُ إلا بخلقِ الله عزّ وجل ، المسبوق بقضائه وقدره وعلمه الشامل وحكمته الجليلة .

* * *

المقولة الثانية :

نظرات تحليليّة
حول حِكَم الله في النِّعَم والمَصائب

كلٌّ من مارس العيش في هذه الحياة الدنيا ، وكان ذا إدْراك واعٍ ، فلابُدَّ أن يُشاهِدَ فيها أشياءَ وأحداثاً ومقاديرَ وتصاريفَ ، وعلاقاتٍ اجتماعية ، وصراعاتٍ ومُنافَسَات مختلفات الصور والأشكال والتأثير في النفوس ، ولدى تصنيفها يُلاحِظُ أنها تَرجِعُ إلى صِنفين :

الصنف الأول : صنف تجتمع أفرادُه في جدول ما تُحِبُّ النفسُ الإنسانيةُ وتُسَرُّ به ، على اختلاف الصّور ، وتفاوت الدرجات ، من أعلى ما تُحِبُّ مِنْ محابَّ وأعظمِها درجةً وأشدها إمتاعاً وإسعاداً ، حتى أدناها درجةً وأقلّها إمتاعاً للنفس أو الجسد ، بما يَلَذُّ أو يَسُرّ .

ويُطلِقُ الناس على ما يَدخلُ في هذا الصنف اسم « النِّعَم » مفردُها « نِعْمة » وقد يُسمّيها الناسُ « خيراً » مع أنّها ربّما كانت جالبةَ شرّ ، أو سبباً لنزول شرّ ، وعلى هذا المعنى جاء استعمال لفظ الخير في بعض النصوص ، كاستعماله بمعنى المال على وفق استعمال العرب له .

الصنف الثاني : صنفٌ تجتمع أفرادُه في جدولِ ما تكرهُ النَّفْس الإنسانية وتَستاءُ به ، على اختلاف الصور ، وتفاوُتِ الدّركات ، من أشدِّ ما تكرهُ النفسُ من مكاره ، وأخسِّها دَرَكَةً ، حتى أوّلِ دَرَكاتِ المكروهاتِ ، وأخَفِّها إيلاماً للنفس أو الجسد .

ويُطلِقُ الناس على ما يدخل في هذا الصنف اسم « المصائب » مفردها « مصيبة » وقد يُسمّيها الناس « شرّاً » مع أنها ربما كانت جالبةَ خيرٍ ، أو سبباً للحصول على خيرٍ عظيم ، وعلى هذا المعنى جاء استعمال لفظ الشرّ في بعض النصوص على وفق استعمال العرب له .

وتتداخَلُ أفراد هذين الصنفين « النّعم والمصائب » في ظروف هذه الحياة الدنيا ، ويَمُرُّ الإنسانُ في رحلة حياته يُقَلِّبُه الله عزّ وجلّ بحكمته على أفرادهما ، ما قويَ منها وكثُرَتْ نسبتُه كمّاً وكيفاً ، وما ضَعُفَ منها وقَلَّتْ نسبتُهُ كمّاً وكيفاً ، وما كان بين ذلك .

ويخضَعُ التَّقَلُّبُ على هذين الصنفين لنوعين من مقادير الله عز وجل :

الأول : مقاديرُ الله ذاتُ السُّنَن العامّة ، التي تُصيب الجميع ضمن مجاري حكمته العامة ، ثم يكون الجزاء بالعدل ، أو الثوابُ بالفضل يوم الدين .

الثاني : مقاديرُ الله التي يختص بها في الحياة الدنيا من يشاء على ما يشاء ، بحسب حكمته وعلمه بخلقه ، إنه جلّ جلالُه عليم حكيم ، كإيتاء الله المُلْكَ بعض عباده ، وكإغنائه بعضهم وإفقاره بعضهم ، إلى غير ذلك من صور ومفردات يَصعُبُ حصرها .

أنواع حكمة الله في النّعم والمصائب :

من استقرأ النصوص من القرآن والسُّنَّة ، وتأمّل تأمُّلاً دقيقاً بمنظارٍ إيمانيّ في لطائِف حِكَم الله عزّ وجل فيما تَجْري به مقاديره ، من نِعَمٍ ومصائب ، ضِمنَ ظروف الحياة الدنيا ، اكتشف أن حِكَمَ الله في مقاديرِ النِّعم والمصائب التي يُقَلِّبُ عبادَهُ ضمن أفرادهما ذوات النِّسب المختلفة شدّةً وضَعفاً ، تَرْجِعُ إلى ثلاث حِكَمٍ كُبْرى ، قد تجتمع كلُّها أو بعضُها وقَدْ تَفْتَرِق .

الحكمة الأولى : « الابتلاء » :

وهو امتحانُ الموضوعِ في الحياة الدنيا موضع الاختبار ، ليجري بمقتضى نتائجه الحسابُ والجزاءُ يوم الدين .

وهذه الحكمة تختصّ بالمُمْتَحَنين المكلَّفين ، وهي في الحقيقة أولى الحِكَم وأجَلُّها وأعظمها .

* فمن حكمة الله عزّ وجلّ في الامتحانِ بالنعمة كَشْفُ ما لدى الممتَحَنِ

منْ حَمْدِ لله المنعِم ، وشكرٍ له على نعمته التي تفضّل بها عليه ، ومن الشكرِ القيامُ بطاعةِ الله فيما أنعم به عليه ، واستخدامُ النعمةِ في مراضيه عزّ وجلّ ، وعدم استخدامها في معصيته ، ليجزِيَهُ على حَمْدِهِ وشُكرِهِ ثواباً عظيماً ، ويجعله به من المتقين إذا فَعَل الواجبات وترك المحرّمات ، فمن الأبرار فالمحسنين إذا توسّع في القُرَباتِ بفعل المندوبات وترك المكروهات ، وأحسن عمله كأنه يشاهد ربّه .

* ومن حكمة الله عزّ وجل في الامتحان بالمصيبة كَشْفُ ما لدى الإنسان من حَمْدِ لله المُبْتَلِي ، وصَبرٍ على ما اختار له في امتحانه ممّا يكرَهُه من أمورٍ مؤلمة أو غير سارّة ، ليجزيَه على حَمْدِهِ وصبرِهِ ثواباً عظيماً ، وقد يرفَعُهُ الصَّبْرُ غيرُ الواجب إلى منازل الأبرار فالمحسنين .

وكلٌّ من الابتلاء بالنِّعَم والمصائب يدخُلُ في مفهوم الخيرِ المطلقِ ، إذ هو وسيلةٌ لتحقيق التمييز بين الطيّب والخبيث من النُّفوس ، وهذا التمييز هو من الخير ، والله عزّ وجلّ لا يَصْدُرُ عنه إلا الخير ، والشرُّ المُطلَق المحض لا يكون من الله ولا يصدُرُ عنه سبحانه ، لكن قد يَصدُرُ عنه ما يُسمّيه الناسُ في عُرْفِهم شرّاً ، إذ هو وسيلة مؤقّتة لتحقيق الخير العظيم الجليل .

الحكمة الثانية : « التربية والتأديب » :

هذه الحكمة تشملُ المكلّفين ومن هم خارج دائرة التكليف ، كالأطفال الذين لم يبلُغوا مبلغ الامتحان والتكليف .

فالنّعم والمصائب التي يتعرّض لها كلُّ الناس صغاراً وكباراً، ضمْن مجاري سُنَنِ الله وقوانينه العامّة ، قد تكون الحكمة منها تربيةَ وتأديبَ مَنْ تنزل بهم .

إنّ مما يُدْرِكه الحكماء من المربّين المؤدّبين أنَّهم قد يُرَبُّون مَنْ يتولَّوْن تربيتهم وتأديبهم ، بما يُحِبُّون أحياناً ، وبما يكْرَهونَ أحياناً أخرى ، وما يكرهون قد يكون هو خيراً لهم ، وما يحبُّون قد يكون هو شرّاً لهم ، لو عقلوا وتدبَّروا النتائج والعواقب .

إنَّ الناشى الذي لا يتعرَّضُ لما يكرهُه ولما يؤلِمُه ، لا يكون في المستقبل رجلاً قادراً على تحمُّلِ ما قد يواجه من مصائب الحياة ومؤلماتها .

وإنّ الناشيء الذي لا يذوق طَعْم ما يحبُّ أحياناً ثم طعم ما يكره أحياناً ، لا يكون إنساناً سَوِيّاً ، قادراً على أن يُواجِه ألوان تصاريف الله في كونه ضمن سُنَنِه العامّة .

ونلاحظ أن الضُّبَّاط العسكريّين الذين يُشْرِفون على تربية وتأديب الجنود ، قد يحمِّلون جنودهم أعباءً شديدة ، ويكلفونهم القيام بأعمالٍ شاقَّة جداً ، مما يكرَهون من أعباءٍ وأعمالٍ شاقّة ، نظراً إلى أن هذه الأعباء والأعمال الشاقة ضروريةٌ لتدريبهم وتربيتهم وتأديبهم ، حتى يكونوا جنوداً صالحين قادرين على مواجهة الأعداء في الحرب ، وحتى تكون أجسادُهم ونفوسهم قادرة على مواجهة الصعوبات الجسديّة والمشقاتِ الجسدية والنفسية .

فمن سُنَن الله في خَلْقِه أن اكتساب القُوّة في مختَلِفات الأمور الجسديّة والنفسية إنما يكون بالتدريبات والممارسات طوال أزمان تناسِبُ أحوالَها ، واستعداداتِ النفوس لاكتسابها .

ومُدرِّبُ الرياضة البدنية يُحَمِّل من يُشْرِفُ على تربيتهم وتدريبهم مشقّاتٍ ذواتِ شدّة تكرَهُها النفوس ، ثُمَّ يُذيقُهم حلاوة القدرة على اجتياز العقبات والصعوبات ، أو حلاوة السَّبْق على المنافسين .

وفي كلٍّ من الصورتين المكروهة والمحبوبة للنفوس تدريباتٌ يجبُ أن يتعرّض لها ممارسُ الرياضة أو مُمتهِنُها .

ومن التربية اللازمة في ظروف هذه الحياة الدنيا التربيةُ على أن يَذُوقَ الإنسان الشِّبَع أحياناً ، والجوعَ أحياناً أخرى ، والصحةَ أحياناً والمرضَ أحياناً أخرى ، والسَّرَّاءَ أحياناً والضَّرَّاءَ أحياناً أخرى ، وهكذا إلى سائر النّعم والمصائب .

ولله حِكَمٌ لطيفةٌ في عباده ، إذ يُعطي كُلَّ فردٍ من وسائل التربية والتأديب وصُورِهما ما يُلائِم ما فَطَرَهُ تبارك وتعالى عليه نَفْساً وفِكْراً وجسَداً .

وكلٌّ مِن التربية والتدريب بالنِّعَم والمصائب يَدخُل في مفهوم الخير المطلق ، إذ هو وسيلة لازمةٌ لتحقيق فضيلةٍ جسدية أو نفسية ، ونِسبَةُ الشرِّ في المصائب تنحصر في مشاعر الألم المؤقت ، أو كراهيةِ النفس المؤقتة ، أمّا الخير الذي ينجم عنها فهو خيرٌ أعظم وأجلّ وأبقى .

الحكمة الثالثة : « الجزاء المعجَّلُ بالثّواب أو بالعقاب » :

* قد يمنَحُ الله بعض عباده بعضَ نِعَمِه في الحياة الدنيا ثواباً لهم على ما قدّموا من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ ، أو على ما تحمَّلوهُ ابتغاء مرضاته من مشاقّ وآلامٍ وجهادٍ وصبرٍ وبذلٍ وتضحيةٍ ونحو ذلك من خيراتٍ ، أو على صبرهِمْ على ما ابتلاهم به من مصائب ، أو على شُكْرِهم لله فيما أولاهُمْ من نِعَمٍ وأفاض عليهم من خيراتٍ حسانٍ .

ففي منحهم بعضَ الثواب المعجّل إكرامٌ لهم ، وتثبيتٌ لهمْ على الحقّ ، كما يذوقون به نموذجاً مصغراً يُحاكي ما أعدَّ لهم من أجرٍ عظيم ، وثوابٍ جزيلٍ يوم الدّين ، في جنّاتِ النعيم .

* وقد يُذيق الله عز وجل الكافرين والعصاة بمعاصٍ دون الكُفر ، مسّاً من مكاره الحياة الدنيا وآلامها ، أو يُنزِلُ بهمْ مصائبَ ذواتِ آلامٍ شديدةٍ ، عُقوبةً لهم على ما قَدَّموا من أعمال سيِّئة .

وهذه العقوبات قد تكون عقوباتِ تذكيرٍ لهم لعلهم يرجعون ، أو عقوباتِ تكفير لخطاياهم ، وقد تكون جُزءاً من عقاب الله الأخير لهم ، ثُمّ يُعَذِّبُهُم الله يومَ الدِّينِ العذابَ الأكبرَ ، ومنه ما أبانَهُ الله بقوله تبارك وتعالى في سورة [الزّمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول] :

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ

﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ومن حِكَمِ تَعْجيل العقاب للمجرمين وظالمي أنفسهم تقديمُ أمثلةٍ ونماذج من عقاب الله عز وجل للكافرين والعصاة ، ليعتبر بها غيرُهُمْ من معاصري زمانهم الذين لم تبلُغْ حالُهمْ إلى مستوى إنزال العقاب بهم ، أو من الذين سيأتون بعدهم من القرون القادمات .

ففي العقوبات المعجَّلات لمستحقّيها من المذنبين عِبَرٌ يعتَبِرُ بها أولوا الألباب ، وعظاتٌ يتعظون بها .

* * *

المقولة الثالثة :

استعراض نصوص « الابتلاء »

بنظرات تدبّريّة إليها

النصّ الأول :

جاء في سورة [القلم/٦٨ مصحف/٢ نزول] ثاني سورة مكيّة نصٌّ مدنيٌّ مضافٌ إليها ، أبان الله فيه أنّه ابتلى أهل مكّة بعطاءات النّعم ، إلا أنهم كفروا بنعمة الله عليهم فلم يؤمنوا بالرسول محمّد ﷺ ولا بما أنزل الله عليه فسلَبَهُمْ النعمة عقاباً لهم ، وقد جاء هذا البيان ضمن تشبيه حالهم بحالِ أصحاب الجنة إذْ أقسمُوا أن يقطعوا ثمرها في الصّباح وأن يَحْرِموا المساكين حقوقهم ، فطاف عليها طائف من الرّبّ مُهلِكٌ لها وهم نائمون ، فأصبحت هالكة تالفة ، فلمّا رأوها كذلك أقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، واعترفوا بأنهم كانوا ظالمين طاغين ، وقد جاء في أوّل عرض القصة قول الله عز وجل :

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

وجاء في آخرها :

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

النص الثاني :

قول الله عز وجل في سورة [الفجر/٨٩ مصحف/١٠ نزول]:

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا . . . ﴾

فقدَرَ عليه رزقه : أي : فضيّقهُ عليه ولم يجعله واسعاً .

أبان هذا النص أنّ فيوضَ عطاءات المال ووفرة الرزق ليست تكريماً من الله لعبده ، وأنّ تضييق العطاء وتقتيره وتقديره ليس إهانة من الله لعبده ، بل كلٌّ منهما ابتلاء من الله لعبده .

فأكْرَمَه : بمعنى فوسّع عليه الرّزْق .

رَبِّي أكْرَمَنِ : أي : شرَّفَنِي وأعْظَمَني .

كلاَّ: أي : ليس التخصيص بفيوض النعم وكثرة العطايا تكريماً ، وليس التخصيص بالتقدير والتضييق إهانةً ، بل كلٌّ منهما للابتلاء ، كما جاء في قوله تعالى في كلٍّ منهما : ﴿ إِذَا مَا ابتَلاهُ ﴾ .

النص الثالث :

قول الله عزّ وجلّ لبني إسرائيل في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] :

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

وفي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبكُمْ عَظيمٌ : أي : وفي ذلكم التمكين الذي مكّن ربُّكُمْ به آلَ فرعون من أن يسوموكم سُوءَ العذاب ابتلاءُ عظيم بمصائبَ شديدة من مصائب الحياة الدنيا التي يكون سببُها الناس بعضهم لبعض .

ثم أنجاكم منه بعبور البحر وإغراق أعدائكم في مكان عبوركم .

ونظير هذا النّصّ ما جاء في الآية (٤٩) من سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] وفي الآية (٦) من سورة [إبراهيم/١٤ مصحف/٧٢ نزول].

النص الرابع :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] المكية خطاباً لرسوله بشأن بني إسرائيل ، في نصٍّ مدنيّ التنزيل مضمُوم لها :

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

لقد حرّم الله على بني إسرائيل العملَ يوم السبت ، وكان قسمٌ مِنْهُمْ يسكنون قرية عند خليج العقبة ، يقال هي : « إيلة » . وكان من مهْنَتِهم صيدُ السمك ، وكانوا كثيري الفسق ، فامتحنهم الله بأمر شديدٍ على نفوسهم ، فجعل حيتان البحر تأتي قريباً من شاطىء قريتهم ظاهرةً وافرة يوم السبت ، أمّا سائر الأيام فلا تأتيهم فيها ، بل تظلُّ في الغَمْر البعيد ، وهم يعلمون أن العمل في يوم السبت من الكبائر الكبرى في أحكام شريعتهم ، وهو من الإصر الذي كان عليهم بسبب ظلمهم .

فخالفوا حكم شريعتهم ، وعصَوْا أمْرَ ربّهم ، فوعظهم واعظون منهم ، فما استجابوا فأخذهم الله بعذاب بئيس ، تذكيراً لهم لعلّهم يرجعون ، فما ارعَوَوْا بل عَتَوْا عن أمر ربّهم فمسخهم الله على أشكال القردة خاسئين .

النص الخامس :

جاء في سورة [النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول] عرض لقطات من قصة سليمان عليه السّلام ، ومنها ما كان بينه وبين « بلقيس » ملكة اليمن ، وكيف أحضر له الذي عنده علم من الكتاب عرشها قبل أن يَرْتَدَّ إليه طرفُه ، ولمّا وجَدَ عرشها حاضراً عنده قال :

﴿ . . . . هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

عَلِم سليمان عليه السلام أنّ نعمة الله عليه بإحضار عرش ملكة سبأ القادمة إليه تابعةً طائعة ، إنما كانت لابتلائه وامتحانه أيشْكُرُ ربَّهُ أم يكفره ، ولم يَرَهَا نعمةَ مكافأةٍ ولا ثوابٍ ولا تكريم ، وهكذا فهم الرّسُل ، والأنبياء ، والمخلصين من عباد الله العلماءِ الصالحين .

النص السادس :

جاء في سورة [يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول] في وصف يوم الحشر :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ . . . ﴿٣٠﴾ ﴾

تَبْلُو : في هذه الآية بمعنى تكشف ، أي : تكشف في سجلّ أعمالها فتشاهد ما سبق أن أسلفت في الحياة الدنيا ، إذْ لا يوجد امتحان يوم الدين ، فالبلاء هنا بمعنى الكشف ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف : « تَتْلُو » من التلاوة ، أي : تتابع مافي كتاب أعمالها من مُسَجَّلاتٍ عليها .

النص السابع :

قول الله عز وجل في سورة [هود/١١ مصحف/٥٢ نزول] :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . . . ﴿٧﴾ ﴾

دلَّ هذا النصّ على أن الله عزّ وجلَّ خلق السماوات والأرض وخلق الناس ، لِيَمْتَحِنَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا أيُّهم أحسنُ عملاً ، أي : فمن هو دون ذلك حتى أخسّهم في الدّركاتِ وأسفلهم ، والامتحان يستلزم عقلاً الحسابَ والجزاء .

النص الثامن :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾

دلَّ هذا النّصّ على بعضِ مَوَادّ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا ، وهو تفاضل درجاتِ عطاءِ الله لعباده ، وهذا يشمَل كلّ ما آتى الله عبادَهُ من أشياء مادّيّة ، وأشياء معنوية ، ومما هو مشاهد في الناس أنّهم يتفاضلون في الصفات الفكرية وفي الصفات النفسيّة ، وفي الصفات الجسديّة ، وفي مقاديرِ الأرزاق ، وفي المنازل الاجتماعيّة ، إلى غير ذلك من أمور يتفاضلون فيها ، وكلُّ إنسان مُمْتَحَنٌ من خلال عطاءات الله له ، وبمقدار عطاءات الله له ، ومُمْتَحَنٌ فيما هو مسؤول عنه تُجاه عطاءات الله لغيره ، كعَدَمِ الحسد .

النص التاسع :

جاء في سورة [الصافات/٣٧ مصحف/٥٦ نزول] بيان قصة امتحان سيدنا إبراهيم عليه السلام بأمرِه أن يَذْبَح ولدَهُ إسماعيل ، وكان هذا بلاءً من الله عظيماً مُبيناً ، فاستجاب عليه السلام لأمرِ الله ، وأطاعَ إسماعيل عليه السلام ، وعندَ بَدْءِ التنفيذ فداه الله عزّ وجلَّ بِذبحٍ عظيم ، قال الله تعالى فيها :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المُبين : أي : الامتحان الواضح بِمُصيبةٍ واضحة.

ووصف الله إبراهيم وإسماعيل بأنهما من المحسنين إمّا لأنّ الأمر بالذبح لم يكُنْ تكليفاً واجباً ، بل كان ندباً ، وإمَّا لأنّ مرتبة الإحسان بالنسبة إلى الرّسل تشتمل على أوامر واجبة عليهم ، إذ هي في الأصل من مرتبة الإحسان بالنسبة إلى غيرهم فلو أُمِرُوا بها لم يكن أمْرَ إلزام .

النص العاشر :

جاء في سورة [الدخان/٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول] عرض لقطات من قصة بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام ، ومنها قول الله عز وجلّ :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

أي : ما فيه امتحان واختبار لهم مبين ، وقد اشتملت هذه الآيات على نِعَمٍ كثيرة ، منها ما أنزل الله عليهم من المنّ والسَّلْوى ، ومنها الاثنتا عشرة عيناً التي فجّرها لهم من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه ، ومنها تظْليلُهم من حرّ الشمس بالغمام .

واشتملت هذه الآيات على مالم يكونوا يُحبُّون ، فمنها زلزلة الأرض من تحتهم في رحلة الاعتذار من عبادة العجل الذهبي ، التي اختار لها موسى عليه السلام صفوة قومه سبعين رجلاً . ومنها رفْعُ الجبل فوقهم كأنّه ظُلَّة ليأخذوا ما آتاهُمُ الله من شريعة بقوة .

فالبلاء في هذا النصّ على أصل معناه ، وهو الامتحان والاختبار .

النص الحادي عشر :

قول الله عز وجلّ في سورة [الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول] :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾

في هذه الآية بيانُ أن جميعَ ما على الأرض ، ممّا هو مُزَيَّنٌ للناس ، من مآكل ومشاربَ وقصورٍ وممتلكاتٍ ومراكب ومُمْتِعاتٍ وأشياءَ فيها للأنفس لذّات ، هي موادّ لامتحان الإنسان في ظروف هذه الحياة الدنيا ، فمن نال منها شيئاً فقد ابتُلِيَ بالنعمة ، ومَنْ سُلِبَ شيئاً منها أو حُرِمَهُ ، فقد ابتُلِيَ بالمصيبة ، أو بما يكرَهُ ، أو بما يخالف هواه .

النص الثاني عشر :

جاء في سورة [النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول] الأمْرُ بالوفاء بالعهد ،

والنهي عن نقض الأيمان بالله بعد توكيدها ، وجاء بعد هذا قول الله عزّ وجل :

﴿ . . . إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ . . . ﴿٩٢﴾ ﴾

أي : يمتحنكم ويختبركم في الوفاء بعهودكم ، وعَدَم نقضكم لأيمانكم .

النص الثالث عشر :

قول الله عز وجل في سورة [الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول] :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

المرادُ من الشرّ في هذه الآية المصائب والمكاره ، كمصيبة الموت ، والمرادُ من الخير النِّعَمُ ومَحَابُّ النفوس ، وليس المراد منهما الخير الحقيقي المطلق ، والشرّ الحقيقي المطلق ، بل الخير والشر في مفهوم الناس .

ونَبْلُوكم : أي : ونختبركم ونمتحنكم .

فِتْنَةً : أي : اختباراً وامتحاناً .

فدلّت هذه الآية على أنّ من امتحان الله لعباده امتحانَهم بالمصائب وبما يكرهون ، وبالنعم وبما يُحِبُّون .

النصّ الرابع عشر :

جاء في سورة [المؤمنون/٢٣ مصحف/٧٤ نزول] عَرْضُ لقطاتٍ من قصةِ نوح عليه السلام وقومه ، وما واجهوه به من تكذيب ، وبأنه رجُلٌ به جِنَّةٌ ، وأنّ الله عز وجل أوحى إليه بأن يصنع الفُلْكَ ، وأنه قضى بإغراق كُفَّار قومه ، وقال تعالى في آخر عرض اللّقطات :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

أي : لَمُخْتبِرين نوحاً وقومه في الأحداث التي جَرَت .

النص الخامس عشر :

قول الله عز وجل في سورة [الملك/٦٧ مصحف/٧٧ نزول]:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

فدلّ هذا النصّ على أنّ الغاية من خلق الموت والحياة في ظروف هذه الحياة الدنيا ابتلاءُ الناس أيُّهم أحسَنُ عملاً ، والابتلاء يستلزم عقلاً الحسابَ والجزاء ، ويكونان في الحياة الأخرى بعد الموت .

وهو العزيز الغفور : أي : وهو سبحانه وتعالى القويُّ الغالب الذي يُعاقِب الكفرة والعاصين ، ويَغفِرُ للمذنبين من المؤمنين ، إذْ هو غفور كثيرُ الغفران .

النص السادس عشر :

قول الله عز وجل في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

فدلّ هذا النصّ على أن الله عز وجل يمتَحِنُ عباده بشيءٍ من مصائب الخوف والجوع ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ، وأنّ المطلوب منهم في هذه المصائب الصَّبْرُ ، وأن يقولوا : إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

وجاء فيها أنّ طالوت ملكَ بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام لما خرج بهم إلى الجهاد في سبيل الله قال لهم :

﴿ . . . إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ . . . ﴿٢٤٩﴾ ﴾

أي : إن الله مُمتَحِنُكُمْ بِنَهرٍ ستصِلُونَ إليه ، والمطلوبُ منكم أن لا تشربوا منه ، فمن شرب منه فلا يُتابع معي المسير إلى الجهاد باستثناء من اغترف غرفة بيده .

النص السابع عشر :

جاء في سورة [آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول] عَرْضُ بعض أحداث ووقائع غزوة أُحُد ، ومنها معصية الرّماة وطمَعُهُمْ بحيازة الغنائم ، وفي هذا العرض خاطب الله المؤمنين بقولِهِ :

﴿ . . . ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ . . . . ﴿١٥٢﴾ ﴾

أي : ليختبر صِدْقَ إيمانكم وثَباتكم على الحقّ .

وعلَّمَ الله رسوله ما يقولُهُ للمنافقين الذين اعترضوا على الخروج ، فقال له :

﴿ . . . قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾

أي : وليكْشِفَ الله ما في صدوركم من شكٍّ أو نفاق .

النص الثامن عشر :

وجاء في سورة [الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول] عرض بعض أحداث ووقائع غزوة الأحزاب ، وما تعرّض له المؤمنون من خوف شديد ، وما دارت في نفوسهم من ظُنُون ، وقال الله عز وجل في أثناء هذا العرض :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

أي : هنالك امتُحِنَ المؤمِنُونَ امتحاناً قاسياً شديداً ، بما تعرَّضوا له من شدَّةٍ وخوفٍ زلزلَ قلوبهم ونفوسهم .

النص التاسع عشر :

قوله الله عز وجل في سورة [محمد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول] خطاباً للذين آمنوا :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ

﴿ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾

أثْخَنْتُموهم : أي : أوقعتم فيهم قتلاً كثيراً ، وغلَبْتُموهم وتمكّنتُمْ منهم تمكُّناً تامّاً .

أبان هذا النصّ للمؤمنين أنَّ الله يدعوهم إلى قتال الكافرين ليس لأنه بحاجةٍ إلى نُصْرتِهِمْ له ، إذ لو يشاءُ لانتصَرَ من الكافِرين دُونَ أن يدعو المؤمنين إلى قتالهم ، فأمْرُ إهلاكهم هيّنٌ عليه ، ولكنّه سبحانه يدعو المؤمنين إلى قتال الكافرين ليَبْلُو بعضَهُمْ ببعض ، إذ ينكشف في القتال المجاهدون الصابِرُون ، والضعفاء المتخاذلون ، والمنهزمون ، ويَظْهَرُ الصَّادِقون من غير الصادقين .

والذين قُتِلوا في سبيل الله من المؤمنين فَلَنْ يُضِيعَ الله أعمالَهُم .

فالقتال في سبيل الله مادّةٌ من موادّ الامتحان في ظروف الحياة الدّنيا .

وشَرَحَ الله عز وجلّ الابتلاء بالقتال في سبيله بقوله في الآية (٣١) من السورة :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾

ونَبْلُوا أخبارَكم : أي : ونكشِفَ بالواقع العملي أخبارَكُمْ التي هي آثار اختياراتِكُمُ الإراديّة في مجالات الجهاد في سبيل الله ، ولاسيما الجهادُ بالقتال .

النصّ العشرون :

قول الله عز وجل في سورة [الإنسان/٧٦ مصحف/٩٨ نزول] :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

أمشاج : أي: أخلاط من عناصِرَ ذاتِ صفاتٍ مختلفات .

نَبْتَليه : أي : مُبْتَلِينَ مختبرينَ له مستقبلاً حينما يبلغ مبلغ المسؤولية

والتكليف ، فالجملة حاليّة من قبيل الحال المقدرة ، والحال المقدّرة تشبه في المعنى ما تدخل عليه لام التعليل ، ففي نحو : « ادخلوها خالدين » نلاحظ أنه بمنزلة ادْخلوها لتَخلُدوا ، أو لتكونوا خالدين فيها .

النص الحادي والعشرين :

قول الله عز وجل في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول) :

﴿ . . . وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

أي : ولَوْ شاء الله أن يجعلَكُمْ أمَّةً واحِدَة لَسَلَبَكُم إراداتِكم الحرَّة فكنتُمْ مجبُورين ، وعندئذٍ يجعَلُكُمْ أمَّةً واحدةً مَهْدِيّين جميعاً ، كالملائكة ، لا تَعْصُونَ الله ما أمرَكُمْ وتفعلُونَ ما تُؤْمَرُونَ ، لكن ما شاء الله ذلك بل شاءَ أن يمنحَكُمْ إراداتٍ حُرَّةً كرَّمكُمْ بها لِيَبْلُوكُمْ فيما آتاكم من قوى وطاقاتٍ ومُسَخَّرات .

وإذ كُنتُم مُمْتَحَنين فيما آتاكم رَبكُم ، فاستبقوا الخيرَاتِ لتنالوا عند الله ثواب أعمالكم ، ولتحموا أنفُسَكُم من عذاب الله وعقابه باجتناب الكفر والفسوق والعصيان ، فإنكم بعد رحلة امتحانكم يكون رُجوعكُم جميعاً إلى الله وحده ، ويوم الدين يُنبِّئُكم الله بما كنتُمْ فيه تختلفون من عقائدَ ومفاهيم ومذاهب وأعمالٍ وغير ذلك ، ويحاسبُكم ويجازيكم على مكتسباتكم الإرادية .

النص الثاني والعشرون :

قول الله عز وجل في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ . . . ﴿٩٥﴾ ﴾

حرّم الله عزّ وجلّ على المُحْرِم بالحج أو بالعمرة الصَّيد ، وأبانَ الله

للمؤمنين في هذا النّصّ أنه سيَمْتحِنُهم بشيءٍ من الصَّيْدِ يأتي إليهم وهُمْ مُحرِمُون ، حتَّى تستطيع أيديهم أن تتناول بعضه ، لكونه صغيراً أو ضعيفاً ، وأمّا بعضُهُ الآخر فيستطيعون أن يتناولوا منه برماحهم ، فمن اتقى الله لم يتناول من الصيد شيئاً وهو مُحْرِمٌ ، ومن عصى واعتدى فله عذابٌ أليم .

رُوي أن هذا النصّ نَزَلَ عام الحديبية ، وقد ابتلى الله المؤمنين حينئذٍ بأنّ الصيد كان يأتيهم إلى منازلهم وهم مُحْرِمُون ، ليكشف بهذا الامتحان مَنْ يُطيعُ منهم ومن يَعْصي .

* * *

في السنة :

وجاء في السنة استعمال مادّة « البلاء » بمعنى الامتحان ، والأكثر فيها استعمالها في الامتحان بالمصائب .

* روى الترمذي وابن ماجه والدارمي عن سَعْدٍ ، قال : سئل النبي ﷺ : أيُّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال :

« الأنبياءُ ، ثُمّ الأمْثَلُ فالأمثل ، يُبْتلى الرَّجُلُ على حَسَب دينهِ ، فإنْ كان صُلْباً في دينهِ اشتَدَّ بَلاؤُه ، وإن كان في دينهِ رِقَّةٌ هُوِّنَ عليه ، فما يزالُ كذلِكَ حتى يمشي على الأرضِ ما لَهُ ذنبٌ » .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح (المشكاة ١٥٦٢) .

* وروى البخاري عن أنس قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « قال الله سبحانه وتعالى : « إذا ابتليتُ عبدي بحَبيبتَيْهِ ثمَّ صَبرَ عوَّضْتُهُ مِنهما الجنّة » يريد : عَيْنَيْه . .

* وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَثَلُ المؤمِنِ كمَثَل الزَّرْعِ لا تزالُ الرِّيحُ تُميلُهُ ولا يزالُ المؤمِنُ يُصيبُهُ البلاء ، ومَثَلُ المُنافِقِ كمَثَلِ شجرةِ الأرزَةِ لا تهتَزُّ حتى تُستحْصَدَ » .

المقولة الرابعة :

استعراض نصوص « الفتنة » بنظرات تدبُّريّة إليها

النصّ الأول :

جاء في سورة [المدّثر/٧٤ مصحف/٤ نزول] الحديث عن « سَقَرَ » اسم علَمٌ من أسماء جهنّم دارِ العذابِ يوم الدين ، سُمِّيت بهذا الاسم لِبُعْدِ قعرِها ، ولشدّة حَرِّها المذيب للأجسام . فالسَّقْرُ في اللغة يأتي بمعنى البُعد ، ويأتي بمعنى شدّة الحرّ ، يقال : سَقَرَتْهُ الشمسُ إذا ضربتْ دماغهُ وأذابته ، وجاء فيها عن « سَقَرَ » أنَّ عليها تِسعَةَ عشر مُعَذِّباً لتعذيب أهلها .

فقال أبو الأشدَّيْنِ الجُمَحيُّ وكانَ قوياً شديد البأس : أنا أكفيكُمْ سبعةَ عشرَ ، واكفوني أنتم اثنين ، فأنزل الله قوله في السورة :

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةًۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًاۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾

* أي : وما جعلنا عددَ المُشرِفين على تعذيب المعذَّبين في سقَر مُحدَّداً بمقدارٍ قليلٍ هو تسعةَ عشر إلا امتحاناً فيه إغراءُ الذينَ كفروا بالاستهانة بهذا العدد القليل ، حتى قال أبو الأشدَّين ما قال ، وهذا الامتحانُ الإغرائي أحدُ معاني الفتنة ، وأحدُ صُور الابتلاء .

* ولدفع توهُّم أنَّ هؤلاء التسعة عشر أمثالُ البشر ، أبان الله عز وجل أنَّهم ملائكة ، والمشركونَ يعلَمُونَ أنّ الملائكة أصحاب قوىً عظيمة ، فمنهم مَنْ يُدَمِّرُ المُدُنَ ويَنْسِف الجبال نسفاً .

* وأضاف في أواخر الآية قوله : ﴿ وَمَا يعلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ ﴾ أي :

إنّ هؤلاء التسعة عشر من الملائكة الذين هُمُ المشرفون على تعذيبِ المعذّبين في سَقَرَهُمْ بعضُ جُنُودِ رَبّك ، أمّا سائر جنوده فهُمْ كثيرون جدّاً ، ولا يعلَمُهُم جميعاً ولا يعلم أعدادهم إلا الله وحده .

* وهذه الفتنة نَفْسُها تجعلُ الذين أُوتوا الكتاب من علماء اليهود والنصارى يستَيْقِنُون بأنّ القرآن حقٌّ وأنّ الرسول محمداً صادقٌ فيما يُبَلِّغُ عن ربّه ، إذْ هُمْ يعلمون من كُتبهم هذا الْعَدَد ، ولكنّ الذين كفروا منهم يجحدون ولا يعتَرِفُون في ألسنتهم بما استيقنته قلوبهم ، وفي بيان استيقانهم قال الله عز وجل : ﴿ لِيَستَيْقِنَ الذين أُوتُوا الكتاب] وهذه العبارة بدَلٌ من عبارة ﴿ فِتْنَةً للذينَ كَفَرُوا ﴾ في الآية .

* وهذه الفتنة نفسُها تجعل الذين آمنوا يَزدادون إيماناً ، إذْ تُثيرَ فيهم الخوف من عذاب الله الشديد يوم الدين ، فقال الله عز وجل : ﴿ ويزدادَ الَّذين آمنوا إيماناً ﴾ .

* وتشكيكُ المشكِّكينَ من المشركين في توهُّماتهم حول هذا الموضوع لا يُؤَثِّرُ على يقين عُلماءِ أهل الكتاب ، ولا على الذين آمنوا ، إذْ هي لا تجعل قلوبَهُمْ ترتاب ، فقال الله عز وجل : ﴿ ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتابَ والمُؤمِنُونَ ﴾ . .

ولكنَّ الذينَ في قُلُوبهم مرضُ النفاق أو ما هو قريبٌ منه ، وكذلك سائر الكافرين من غير طارحي التشكيك السابق ، فإنّهم كما أبان الله عز وجل يقولون : ﴿ ماذا أرادَ الله بِهَذا مَثلاً؟ ﴾ أي : إنهم يتأثرون بتشكيكات المشكِّكين من المشركين ، فيقولون : إذا كان التسعة عشر الذين ذكرهم الله في القرآن قد جعلهم مثلاً من جنوده الكثيرين الذين يُعذِّبون مُستحقّي العذاب من عباده ، فما هو المراد من بيان كونِهِمْ تِسعةَ عشر ؟ وهلْ لهذا العدد سِرٌّ خاصٌّ حتى يُختارَ دون غيرِه من الأعداد ؟ .

* وهكذا يطرحون تساؤلاتِ لا علاقة لها بأصل الموضوع ، إذ البيان يدور

حول إنذار المكذّبين بالرسول وبالقرآن وبيوم الدين ، بأنهم سيُعذَّبونَ يوم الدين في سَقَر التي يُشْرِفُ على التعذيب فيها تسعةَ عشر . إنه لو كان المشرف على تعذيبهم فيها ملكاً واحداً أو أكثر إلى ما لا حصر له ، فإنَّ ذلك لا يُغيِّر من أصل القضية شيئاً ، إذ يكفي مَلَكٌ واحد يُعْطيه الله القدرة على تعذيب كلّ الكائنات الحية لو شاء الله ذلك ، بل يكفي أمْرُ الله بالتعذيب دون وساطة أحدٍ من مخلوقاته .

* أما السؤال عن الحكمة الرّبانيّة من تحديد عدّة « التسعة عشر » فهو يجرُّ أسئلة لا حصر لها ، حول أنظمة الله عز وجل في الأعداد التي جعلَها ضمن أنظمته التكوينيّة للكائنات كلّها ، كأعداد السماوات السَّبْع ، وأعداد أبواب جهنم ، وأعداد أبواب الجنّة ، إلى غير ذلك من كلّ ما هو خاضعٌ لأنظمة عددية ، مما يلاحظه العلماء في العناصر الكونية ، وفي الذرّات ، وفي الخلايا ، وفي الحواس ، وفي أنظمة العظام والسُّلاميّات والأسنان إلى ما لا تستطيع الخلائق حصره .

* وأخيراً فإنَّ هذه الفتنة الاختباريّة ينتج عنها ظهورُ فريقين من الممتَحَنِين :

الأول : فريق يَضِلُّ باختياره الحرّ ، فيُضِلُّهُ الله بحِكْمَتِه ، أي : يحكُمُ عليه بالضَّلال ، استناداً إلى واقع حاله ، وحُكْمُ الله عزّ وجلّ بضلال هذا الفريق يتمّ بمشيئته المطلقة ، التي لا يجبره عليها شيءٌ ، لكن تقتضيها حكمتُهُ ، ومعلومٌ أنّ حكمته من صفاته سبحانه .

الثاني : فريقٌ يهتدي إلى الحقّ ويؤمن باختياره الحرّ ، فيهديه الله بحكمته ، أي : يحكُم له بالهداية ، استناداً إلى واقع حاله ، وحكمُ الله بهداية هذا الفريق يتمّ بمشيئته المطلقة ، التي لا يجبره عليها شيءٌ ، لكن تقتضيها حِكمَتُه ، ومعلومٌ أن حكمته من صفاته سبحانه .

فقال الله عزّ وجلّ : ﴿ كَذٰلِكَ ﴾ أي : كذلك الحكم على الذين كفروا في

هذه الفتنة الاختباريّة في موضوع الملائكة التسعة عشر بالضلال ، والحكم لِلّذين آمنوا بالهداية ، والّذيـنَ دلَّ عليهما ذكرُ فريق بعنوان : « الذين كفروا » وذكرُ فريقٍ آخرَ بعنوان : « الذينَ آمنوا » : ﴿ يُضِلُّ الله من يشاءُ ويَهْدي من يشاءُ ﴾ أي : في سائر صُور الاختبار في الحياة الدنيا للمكلّفين من ذَوي الإراداتِ الحرَّة الموضوعين موضع الابتلاء فيها .

قول الله عز وجل في آخر الآية : ﴿ وما هِيَ إلا ذِكرى للبَشَر ﴾ أي : وما سَقَرُ إذْ نتحدَّث عنها وعن صفاتها إلا ذكرى للبشر ، أي : لغرض أن يكونَ العِلْمُ بها لدى المؤمنين المتقين مُسْتقِرّاً في ذاكراتهم ، يستدعُونَهُ عند المناسبات ، فإذا تذكّرُوها كانت دافعةً لهم عن طريق اختيارهمُ الحرّ إلى أن يتّقُوا المعاصيَ والمخالفات التي تجعلُ مُرْتكبيها يستحقُّونَ عذابَ الله فيها .

النص الثاني :

وجاء في سورة [القمر/٥٤ مصحف/٣٧ نزول] عرض لقطاتٍ من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود ، وجاء فيها بيان امتحان الله لهم بإجابة طلبهم أن يُخْرِجَ لهم بدعاء رسولهم ناقةً وصفُوها من صخرة عيّنوها ، ولمّا أجاب الله طلبهم جعل للناقة في حياتها بينهم شروطاً قاسيةً عليهم في طعامها وشرابها فتنةً لهم ، أي : امتحاناً قاسياً ، فلم يصبروا على شروطها فعقروها فأهلكهم الله ، قال الله عز وجلَّ فيها ، حكايةً لما خاطب به صالحاً عليه السلام :

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾

فِتْنَةً لَّهُمْ : أي : امتحاناً واختباراً .

قِسمةٌ بينهم : أي : بينهم وبين الناقة لهم شِرْبٌ معلوم ، ولها شِربُ يوم معلوم .

فتعاطَى : أي : فتطاول قائماً على أطراف أصابع قدميْه ورافعاً يديه إلى الشيء ، ليتناوله أو لِيُصيبه .

فَعَقَر : عَقْرُ الناقة أو البعير : قطع إحدى قوائمه ليسقُط فيُنحَر . فدَلّ تعاطيه حتى يَصِلَ إلى قطع إحدى قوائمها على أنّها ناقة عظيمة جداً ، إذْ مكان عَقْرِها من إحدى قوائمها أعلى من قامَةِ عاقِرِها ماداً يديهِ وواقفاً على أطراف أصابعه ، وهذا يدلُّ على أنّ نِصْفَ قائمتها أطولُ من مِتْرَيْن تقريباً .

كَهَشِيم الْمُحتَظِر : أي : كأعواد الحطب التي يجمعها من يُريد إقامَة حَظيرَة لدوابّه أو أنعامه .

فدلَّ هذا النص على أن الله عز وجل امتحن قوم صالح بهذه الناقة التي أخرجها لهم بطريقة خارقة للعادة ، وجعل شروط حياتها فيهم شروطاً قاسية عليهم ، فسقطوا في الامتحان وأصَرُّوا على كفرهم فأهلكهم ، وأنجى صالحاً والذين آمنوا معه .

النص الثالث :

وفي سورة [ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول] أبان الله عز وجل أنَّه فتَنَ ، أي : امتحنَ كلّاً من داود وابنه سليمان عليهما السلام ، ودلَّ دَاودَ على أنّه لم يعمَلْ ماكان ينبغي له ، عن طريق الخصمَيْن اللّذَين استفتيَاهُ إذْ دخلا عليه وهو في خلوته ، وهما من الملائكة جاءوا على صورة بشَر متعدّيَيْنِ الأسوارَ المحصنة المحروسة . فقال تعالى فيها :

﴿ . . . وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

أما سُليمان عليه السلام فقال تعالى بشأنه :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فتَنَّا سُليمانَ : أي : امتحنَّاه ، وكان ماامتحنه الله به شديداً على نفسه ،

فقد رأى فيه أنّ مُلْكَهُ قد انتُزِعَ مِنه .

النص الرابع :

في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) جاء بيان خطاب الله عز وجل بني آدم منذ عهد آدم وإلى أن تقوم الساعة ، فحذَّرهم من أن يفتِنَهُم الشيطان كما فَتَنَ أبويهم فأخرجهُما من الجنة ، والفِتنةُ هنا هي بمعنى الإغواء والإغراء للإخراج عن صراط الله المستقيم ، وهذا المعنى لا يخرُجُ عن أصلِ معنى الامتحان لأنَّ ما يُغريهم الشيطانُ به هو من العناصر التي جعلَهَا الله في كونه للابتلاء والاختبار .

قال الله عزّ وجلّ فيها :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٧) ﴾

النص الخامس :

وفي سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] أيضاً عرضَ الله عز وجل ضمن قصة موسى وبني إسرائيل بياناً عن الميقات الثاني ميقات الاعتذار الذي اختار موسى عليه السلام له خلاصة قومه وصفوتَهُمْ وكانوا سبعين رجلاً ، فلمّا حضروا إلى جانب جبل الطُّور أخذَتْهُمُ الرَّجفةُ الإنذارية التأديبيّة ، فخافَ موسى عليه السلام أن تكون هذه الرجفة لإهلاكهم ، فأسرَع دون رَوِيّة إذْ جعلَ الله في طبعِهِ حِدَّةً تغلبه ، فقال : « رَبِّ لو شِئْتَ أهلَكْتَهُمْ مِنْ قبلُ وإيايَ أتُهْلِكُنا بما فعَلَ السُّفهاءُ مِنّا ؟ » .

وعَقِبَ ذلكَ مُباشرةً فَاءَ إلى رُشدِه ، وتَنبَّهَ إلى تَسرُّعِهِ في الاعتراض الذي انطلَقَ بحِدَّتِه دون رَوِيّة ، فتجاوز ما قال مُستدركاً كأنَّهُ لم يقُلْه ، فقال : « إنْ هيَ إلا فِتنَتُكَ تُضِلُّ بها من تشاءُ وتَهدي من تشاءُ أنتَ وَلِيُّنَا» ودعا ربَّهُ بعدَ ذلك .

أي : ما كُلُّ ما نحنُ فيه أنا وقومي وسائرُ الناس إلا امتحانٌ منك ، فمن ضلّ باختياره الحرّ حكمَتْ عليه بالضّلال بمشيئتك الحكيمة ، ومن اهتدى باختياره الحرّ حكمتَ لَهُ بالهداية بمشيئتك الحكيمة .

قال الله عز وجل فيها :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ . . . (١٥٦) ﴾

إنّا هُدْنا إليك : أي : إنَّا تُبنا ورجَعنا إليكَ ، يقال لغة : هادَ يَهودُ هَوْداً ، إذا تابَ وأنابَ ورجَعَ إلى صراط الحقّ والهُدى .

النص السّادس :

قول الله عز وجل في سورة [الجنّ/٧٢ مصحف/٤٠ نزول) :

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ . . . (١٧) ﴾

ماءً غَدَقاً : أي : ماءً كثيراً .

لنفتِنَهُمْ فيه : أي : لنبتليَهُمْ ونمتحنَهُمْ فيه .

الماء : هو العنصر اللازم بحسب نظام الله في الخلق لكلّ شيءٍ حيٍّ ، من نباتات وحيوانات ، فالامتحان بالماء هو امتحان به مباشرةً لحاجات الأحياء إليه في شرابها وطعامها وطهارتها ونظافتها وأنواع مُتعتِها وزينتها ، وامتحانٌ بكلّ ما يخلُق الله منه من نباتٍ وحيوان .

النص السابع :

وجاء في سورة [الفرقان/٢٥ مصحف/٤٢ نزول] بيان اعتراض المشركين على بشريّةِ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وتكذيبهم له ، وتقديم

مقترحات رأوا أنها لازمة حتى يُسلِّموا بأنه رسولٌ صادقٌ أرسلهُ الله حقاً ، وربما أحزَنَ الرسولَ هذا الأمرُ ، فقال الله عز وجل له فيها مسلّياً ومبيناً له أنه مُمتَحَنٌ كسائر الممتحنين، فعلاقات الناس بعضهم ببعض إحدى موادّ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا فقال الله عزّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

النص الثامن :

وجاء في سورة [طه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول] عرض لقطات من قصة موسى وقومه ، وفي هذا العرض أبانَ الله عز وجلّ أنهُ قال لموسى عليه السلام إذ كلّمه بجانب الطور ، وكلَّفه أن يذهب رسولاً إلى فرعون وقومه وهو راجعٌ بأهله من أهل مدين :

﴿ . . . وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ . . . ﴾

أي : وامتحنَّاكَ امتحاناً شديداً ، فنجحْتَ في الامتحان .

وجاء في هذا العرض بيان أنّ الله عز وجل قال لموسى عليه السلام في لقاء الميقات الأول بعد خروجه مع قومه من مصر ، وإهلاك فرعون وجنوده :

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ ﴾

أي : قد امتحنّاهم ، بعِجلٍ ذهبيٍّ له خُوار صنعهُ السامِريُّ لهم ، وأوهمهم أنه هو إله موسى .

لكنَّ هارون عليه السلام قال لهم كما أخبرنا الله فيها :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾

إنما فُتنتُمْ به : أي : ما فُتنتم فتنةَ إغراءٍ فخرجتمْ عن صراطِ الهُدى إلا بهذا العجل الذهبيّ الذي صنعه لكم السامريّ .

النص التاسع :

قول الله عز وجل في سورة [طه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول] أيضاً خطاباً لرسوله فكلّ داعٍ إلى الله من بعده وكلّ مؤمنٍ :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

أي : ولا تَنظُرْ نظَرَ تطلُّعٍ وحسدٍ وتَشَهٍّ ، إلى ما متَّعْنا به أزواجاً (أي : أصنافاً) منهم حالة كون ما متّعناهم به زهرةَ الحياة الدنيا التي هي سريعة الزوال لا بقاء لها كزهر الأشجار ، لنَفْتِنَهُم فيه ، أي : لنختبرهُمْ أيشكُرُون ويطيعون الله فيه ، أم يَعصُونَ ولا يشكرون . وبعد الامتحان الحساب والجزاء .

ورزقُ ربّكَ خيرٌ وأبقى مما يعطيه الناس من فضول أموالهم ، أو ورزق ربك في الآخرة في الجنة خيرٌ ممّا أوتُوه في الدنيا وأبقى في جنسه أو نوعه ، لأنّ رزقه يومئذ لا ينفد .

النص العاشر :

وعرض الله عز وجل في سورة [النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول] لقطاتٍ من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود ، وجاء فيها أن ثموداً قالوا له كما جاء في قوله الله فيها :

﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

اطَّيَّرْنا : أي : تَطَيَّرنا ، بمعنى تشاءمْنا بك وبمن معك ، إذ نزلتْ بهم عوامل قحط وجَدْبٍ ومصائب في الأموال والأنفس ، فزعموا أن ما نزل بهم قد كان بسبب دعوة صالح لهم إلى الدين الذي جاءهم به ، ومخالفة العقيدة الوثنية .

قال طائركم عند الله : الطائر : يأتي بمعنى الحظ والنصيب من الخير أو الشرّ ، سواءٌ أكان ابتلاءً ابتداءً ، أو تربيةً وتأديباً ، أو جزاءً للتذكير والإنذار . ويأتي بمعنى ما يتفاءلُ به الإنسان أو يتشاءم .

فقول صالح عليه السلام لهم : « طائرُكم عند الله » أي : حظُّكمْ من الخير أو من الشر عند الله ، فهو الذي يُنزله بكم بحكمته ، إما لامتحانكم ، أو لتأديبكم وتربيتكم أو ليجزيكم على أعمالكم جزاءً معجَّلاً للتذكير والإنذار بالعذاب الأكبر .

بل أنتُمْ قومٌ تُفتَنون : أي : تُمنحون وتُختبَرون بما كرهتم ممّا تشاءَمتُم به . أو تُفتنون بمعنى تُصرفون عن معرفة الحق بإغراء الشيطان إذ يوحي إليكم أنّ ما نزل بكم قد كان بسبب رسولكم والذين آمنوا معه ، والمعنى على هذا أنهم امتُحِنوا فأغراهم الشيطان فصرفهم عن الحق والإيمان به .

النص الحادي عشر :

قول الله عز وجل في سورة [الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول] خطاباً لرسوله محمد ﷺ :

﴿ . . . وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

وما جعلنا الرُّؤيا التي أريناكَ : هي ما شاهده الرسولُ صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء شهوداً ببصره .

إلا فِتنةً للناس : أي : إلا امتحاناً واختباراً ، فمن كان صادق الإيمان بالله ورسوله لم يُشكَّ بأن ما جرى للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليلة أسرِيَ به حقٌّ وصِدق ، ومن كان كافراً وتأكّدَ له أن ما يخبِرُ به الرسولُ حقٌّ وصِدقٌ مطابقٌ للواقع زعَمَ أنهُ سِحرٌ ، ولم يُصَدِّقْ بأن الله قد أسرى به فعلاً إسراءً بالجسد والروح معاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة .

والشجرة الملعونةَ في القُرآنِ : هي شجرة الزَّقُّوم التي تنبتُ في أصلِ الجحيم ، وقد جعلها الله في جهنمَ طعامَ الأثيم ، وهي أيضاً فِتنةٌ ، ونفهم من كونها فتنةً معنيين :

الأول : أنّ الإخبار بها امتحانٌ يُقابله المؤمنون بالتصديق ، إيماناً بأنّ الله قادرٌ على أن يُنبت في داخل النار شجراً ، فيزيدون إيماناً وتسليماً ، ويقابله الكافرون بالتكذيب قائلين : كيفَ تنبتُ أشجارٌ في داخل النار ، زاعمين أن النظام الذي يُشاهدونه للنبات في الأرض نظامٌ واجب بطبعه ، وليس نظاماً وضعه الله له ، فيزيدون بتكذيبهم كُفراً .

الثاني : أنّ شجرة الزقُّوم نفسها يعذبُ الله بها الظالمين في الجحيم يوم الدين ، وقد سبقَ أن عرفنا أن التحريق والتعذيبَ من المعاني التي تدلُّ عليها مادّة الفتنة ، وعلى هذا المعنى يُحمَل قول الله عز وجل بشأن شجرة الزقوم في سورة [الصّافات/٣٧ مصحف/٥٦ نزول] :

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾

لَشَوباً من حَميم : أي : لسائلاً مخلوطاً من عناصر في ماءٍ شديد الحرارة .

النص الثاني عشر :

قول الله عز وجل في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم لم تكُن فِتنتُهُمْ : الفتنةُ هنا هي بمعنى الادّعاء الكاذب ، بغية الاعتذار والتهرُّبِ من الإدانةِ بشركهم الذي كان منهم في الحياة الدنيا ، فالنص يتحدث عن حالهم يوم الحساب والجزاء في الآخرة .

قالوا : هذه الآية مدنية مضمومة إلى سورةٍ مكيّة .

النص الثالث عشر :

طلب كبراء مشركي مكة من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطرُد عن مجالسه فقراءَ المؤمنين حتى يتَّبعُوه ، ازدراءً منهم لهؤلاء المؤمنين الفقراء والضعفاء ، واستكباراً عن أن يتساوَوا معهم في المجلس ، فأنزل الله عز وجل على رسوله قوله في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ما عليك من حِسابهمْ من شيء وما مِن حسابِكَ عليهمْ من شيءٍ : أي : ما عليك من حساب الناس من شيء إذا كفروا ولم يؤمنوا ، بل كلُّ واحد منهم يحاسَبُ عن نفسه ، فلا تَطرُدِ الفقراء طمعاً بإيمان الكبراء الأغنياء لتتخلص من مسؤولية محاسبتِكَ على عدم إيمانهم ، إذ لا تحمِلُ أنت من حسابهم شيئاً ، وبما أنك تقوم بواجب التبليغ فإن عليهم أن يتبلَّغوا ويشاركوا في مجالس التبليغ سائرَ طالبي الهداية .

وأنت مسؤول عن تبليغ دين الله للجميع على سواء ، فقراء الناس وأغنيائهم ، ضعفاء الناس وساداتهم ، فإذا طردتَ الفقراءَ والضعفاءَ وأبعدتهم عن مجالسك استجابةً لطلب الأغنياء والكبراء ، فإنك تعرّض نفسك للمحاسبة والمؤاخذة على إبعادهم عن مجالس العلم الديني ، الذي أمرك ربُّك بتبليغه للناس دون تمييز ولا تخصيص ، وإن أغنياء المشركين وكبراءَهم الذين تُريد إرضاءهم والاستجابة لطلبهم ليُسلموا لا يحملون عنك من مسؤولية الحساب شيئاً ، بل سَتُدان وحدكَ بطرد الفقراء والضعفاء وعدمِ تبليغهم دين ربّهم .

وعلى هاتين القاعدتين من قواعد المسؤولية والمحاسبة جاء التفريعُ بقول الله عز وجل لرسوله : ﴿ فتطرُدَهمْ فتكونَ من الظالمينَ ﴾ أي : فطرد الفقراء بعد بيان هاتين القاعدتين ظُلمٌ ، فلا تستجبْ لطلب الأغنياء والكبراء فتطرُدَ

الفقراءَ والضعفاءَ فتكونَ بطردهم من الظالمين .

بعد هذا أبان الله أن من سُنَّتِه في الاجتماع البشري امتحانَ الناس بعضهم ببعض ، ومنه امتحان الأغنياء والكبراء بالفقراء والضعفاء ، وبالعكس ، فقال الله عز وجل : ﴿ وكذلك فتنّا بعضَهُمْ ببعضٍ ﴾ أي : وكذلك الامتحان الذي جرى لأغنياء المشركين وكبرائهم تُجاهَ فقراءِ المؤمنين وضعفائهم ، فتنّا « = امتحنا » بعض الناس ببعض ، ليقول الأغنياء والكبراء أهؤلاء الفقراء والضعفاء مَنَّ الله عليهم من بيننا ؟!! وجاء الجواب الرّباني : أليس الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين ؟!!

النص الرابع عشر :

قول الله عز وجل في سورة [الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول] :

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

خوَّلناهُ نِعمةً مِنّا : وهبناهُ وملّكناهُ نعمةً منّا .

بل هي فِتْنة : أي : بل النعمة التي وهبناها له وملّكناه إياها إنما هي فتنة ، أي : ابتلاء وامتحان .

فمن خلائق الإنسان أنه إذا مسَّهُ ضُرٌّ دعا ربّه ، ثم إذا أنعم الله عليه بنعمة زعم أنه إنما أصابها بعلمه ومهارته وقُدرته على كسب المال ، وتحصيلِ ما يلذُّه ويُمتعه ويَسُرُّه .

فردّ الله عليه بأنّ ما خوَّله إياه من نعمة إنما كان لابتلائه واختباره ، كما أنه لم يكن بعلمه ومهارته ، بل بعطاءٍ من الله له .

وهذه الحقائق لا يعلمها أكثر الناس، بسبب تعلُّقهمْ بالأسباب دون مُسببها .

النص الخامس عشر :

تحدّث الله عز وجل عن الكافرين إبانَ نزول القرآن ، وأنذرهم بعذاب

كبير ، يومَ تأتي السماءُ بدخانٍ مُبينٍ يغشى الناسَ هذا عذابٌ أليمٌ ، وأعقبهُ بقوله عز وجل في سورة [الدخان/٤٤ مصحف/٦٤ نزول] :

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

أي : ولقـدْ امتحنَّا قبلهم قومَ فِرعونَ ، فكذّبوا رسول ربهم ، فأهلكهم الله .

النص السادس عشر :

قول الله عز وجل في سورة [الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول] :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

سبق في مادة (الابتلاء) شرح هذه الآية .

وفي أواخر هذه السورة علّم الله رسولَهُ أن يُنذرَ من يتولى عن دعوته ، وأن يُبيّن لهم أنه لا يدري أقريب أم بعيدٌ ما يُوعَدون ، وأنه لا يدري لعلَّ الله قضى بأن يؤخّر أجلَ تعذيبهم ليُطيلَ مُدَّة امتحانهم ، ويمتّعهم في الحياة الدنيا إلى حين ، فقال الله عز وجل فيها :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾

فتنةٌ لكمْ : أي : ابتلاءٌ لكم وامتحان .

النص السابع عشر :

قول الله عز وجل في سورة [العنكبوت/٢٩ مصحف/٤٩ نزول] :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

أي : أحسِبَ الناس الذين آمنوا أن يقولوا : آمنَّا وهم لا يُمتَحنونَ بما

يكرهون من صنوف بلاء ، ولقد امتحنّا بصنوف من البلاء الذين آمنوا من قبلهم ، إذْ هذا الامتحان هو من السّنن الربانية الثابتة في كل الأمم الحاضرة والماضية والآتية ، لهذا جاء في النص : ﴿ أحسِبَ النّاس ؟ ﴾ وهو استفهام إنكاريّ .

النص الثامن عشر :

وجاء في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] بيانُ أنَّ الله عزّ وجلَّ أنزلَ على المَلَكيْنِ ببابلَ هاروتَ وماروتَ علماً ذا تأثيرٍ غيبيّ شبيهٍ بتأثير السِّحْرِ ، وأنَّهُما كانا يُعلّمانِ هذا العِلْمَ ، وما يعلّمانِ منْ أحدٍ حتى يقولا إنما نحْنُ فِتنةٌ فلا تكفُرْ ، أي : إنما نُعَلِّمُ عِلْماً فيه امتحانٌ لمن يتعلَّمُهُ إذْ قدْ يُستعمَلُ في الخيرِ والتأليف بين المرءِ وزوجِه ، وقد يُستعمَل في الشّرّ والتفريق بين المرءِ وزوجه ، والأعمال التي تُستخدمُ لتحقيق المقاصد بمقتضى هذا العِلْم منها أعمالٌ صالحةٌ ليس فيها معصية لله عز وجل ، ومنها أعمالٌ فاسدَةٌ فيها معصيةٌ لله من مستوىً يُوصِلُ إلى الكفر ، وكانا يُحذّران المتعلّم من الكفر ومن كلّ ما يوصل إليه .

لكنّ الذين كانوا يتعلّمونَ مِنهما كانوا يتعلَّمُونَ منهما ما يَضُرُّ ولا ينفع لفساد نفوس الناس .

فقال الله عز وجل فيها في معرض الكلام على فريق من اليهود :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) ﴾

فدلَّ هذا النصّ على أنّه مامن وسيلة في الكَونِ ظاهِرَةٍ كالوسائل الماديّة المشهودة للناس بالحواس الظاهرة ووسائلها ، أو خفيّة كأعمالِ السّحر وأعمالِ

شبيهةٍ بالسّحر ، وهي ماكان يُعلّمه الملكان هاروت وماروت ، إلاّ وهي قابلة لأن تُستعمَل في الخيرِ ولأن تستعمَل في الشّر ، إلا أنَّ الناس بالنسبة إلى الوسائل الخفية تغلبهم نزعات الإثم والعدوان فيستعملون الوسائل الخفية في الشر ، وربما استعملوا منها ما فيه كُفْرٌ أو يُوصِلُ إلى الكُفر .

وامتحانُ من يتعلَّمُها امتحانٌ صعْبٌ جداً قلَّما ينجو منه أحد ، ولذلك حرَّم الإسلام السّحر ، وجاء في بيان الرسول صلى الله عليه وسلم أن الساحر يُقتَل ، وقد تعلّم فريق من اليهود السِّحرَ فكفروا وصنعوا شروراً كثيرة ، واستخدموه في الإضرار بعباد الله ، وهُمْ آمِنونَ من التعرّض للإدانة من قبل الحكام من البشر ، لكنّ الله يتولى معاقبتهم ، فالساحر لا يُفلح حيثُ أتى .

النص التاسع عشر :

وفي سورة [الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول] خاطب الله عز وجل الذين آمنوا بقوله :

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

واتَّقُوا فِتنَةً : أي : واتقوا عِقاباً مؤلماً لكم لا يَقتَصرُ على إصابة الظالمين منكم فقط ، بل يَعُمُّ الظالمين وغيرهم ، فيكون للظالمينَ عقاباً ، ويكون لغير الظالمين امتحاناً واختباراً ، أو تربيةً وتأديباً .

فلفظ الفتنة في هذا النص مستعمل بمعنى العقاب بدليل ماجاء في الآية من أنها لا تُصيبُ الذين ظلموا خاصة ، ومن تذييلها بقوله تعالى : ﴿ واعلَموا أنَّ الله شديدُ العقابِ ﴾ .

النص العشرون :

قول الله عز وجل في سورة [الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول] أيضاً خطاباً للذينَ آمنوا :

﴿ وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

فِتْنَةٌ : أي : إنما أموالكم وأولادُكم من عناصر امتحانكم وابتلائكم في ظروف الحياة الدنيا ، فإذا التزمتُمْ بطاعة الله عز وجل كانَ لكم عندهُ أجرٌ عظيم .

ونظيره ما جاء في الآية (١٥) من سورة [التغابن/٦٤ مصحف/١٠٨ نزول] .

النص الحادي والعشرون :

ماجاء في الآية (٩١) من سورة [النِّساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] فلفظ الفتنة الوارد فيها هو بمعنى الابتلاء والاختبار .

النص الثاني والعشرون :

قول الله عز وجل في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾

وإنْ أصابتهُ فتنةٌ : أي : وإنْ أصابتهُ مصيبةٌ لاختباره وابتلائِهِ .

وجاء في الآية (٥٣) منها لفظ الفتنة بمعنى الاختبار والابتلاء .

النص الثالث والعشرون :

قول الله عز وجل في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] خطاباً لرسوله :

﴿ . . . وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا . . . ﴿٤١﴾ ﴾

أي : ومن يُردِ الله امتحانَهُ في ظروف هذه الحياة الدّنيا لكشفِ ما في نفسه من خيرٍ وطاعة ، أو شرٍّ ومعصية ، فلنْ تملِكَ لَهُ من الله شيئاً لهدايته هداية جبريَّة ، لأنّ من شروط الامتحان منحَ الإرادة الحرّة .

خاتمة :

بهذا العرض الاستقرائي التَّدَبُّرِيّ ظهَرَ لنا التطابُق بين ماجاء من مادّة « الابتلاء » ومادة « الفتنة » في أنّ معظمه مُستعمَلٌ للدلالة على معنى الامتحان والاختبار ، وأنَّ كُلَّ مافي الحياة الدّنيا ممّا يخضع سُلوكُ الإنسان تُجاهه للإرادة الحرّة هو مادّةٌ من موادّ الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا ، سواءٌ أكان هذا السلوك سلوكاً ظاهراً بالأعمال الجسدية ، أو سلوكاً باطناً بالأعمال النفسية أو القلبيّة أو الفِكريّة .

* * *

المقولة الخامسة :

استعراض نصوص « التسخير »
بنظرات تدبُّرِيَّةٍ إليها

أوّلاً :

جاء في سورة [ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول] بيان أنّ الله عز وجل سخّر الجبال مع داود عليه السلام يُسَبِّحنَ بالعشيّ والإشراق ، وسخر لهُ الطيرَ محشورةً كلما ذهبتْ لأرزاقها آبتْ إليه مُطيعةً له . فقال تعالى فيها :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾

ومثله ما جاء في الآية (٧٩) من سورة [الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول] .

إنَّ ما سخَّرَهُ الله لَهُ يعمَلُ أعمالَه بخلقِ الله وإلهامه وتوجيهه ، وباعتبار كونه مُسخَّراً فإنّه يُطيع بالتسخير الرَّبّاني لما يريد منه داود عليه السلام .

وجاء فيها أنّ الله عز وجلّ سخَّرَ لسليمان عليه السلام الريح تجري بأمره رخاءً حيث أراد ، وسخّر الشياطين له يعمَلُونَ بالبناء والغوص في البحار ، فقال

الله عز وجل فيها بشأنِ سليمان عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾

ثانياً :

وجاء في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] بيانُ أن الله عز وجلَّ جعلَ الشمس والقمرَ والنجوم مسخّراتٍ بأمرِه سبحانه ، أي : مسخّراتٍ لمنافع الناس في الأرض ، فقال تعالى فيها :

﴿ . . . وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . . ﴿٥٤﴾ ﴾

ثالثاً :

وجاء في سورة [فاطر/٣٥ مصحف/٤٣ نزول] في الآية (١٣) منها بيان أن الله عز وجل سخّر الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجري لأجلٍ مُسمّى .

وكذلك جاء في الآية (٦١) من سورة [العنكبوت/٢٩ مصحف/٨٥ نزول] وفي الآية (٢) من سورة [الرعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول] .

رابعاً :

وجاء في سورة [لقمان/٣١ مصحف/٥٧ نزول] بيان أنّ الله عز وجل سخّرَ لنا ما في السّماواتِ وما في الأرض ، فقال تعالى فيها :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً . . . ﴿٢٠﴾ ﴾

أسْبَغَ : أي : أوسَعَ وطوّل .

وجاء في الآية (٢٩) منها امتنان الله على النّاس بتسخير الشمس والقمر لمصالحهم .

وجاء تكرير هذا الامتنان في الآية (٥) من سورة [الزّمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول] .

خامساً :

وعلّمنا الله عز وجل في سورة [الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول] كيف نُسَبِّحُ الله ونُثني على تسخيرِه ، حينما نركب مَراكِبَ حيوانيّة أو مراكب نصنعُها كالفُلكِ ، فنقول : سبحانَ الذي سخَّر لنا هذا وما كُنَّا لهُ مُقرِنين ، فقال تعالى فيها في بيان بعضِ ما امتنَّ به على عباده :

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وما كُنَّا له مُقْرِنين : أي : وما كُنَّا له مطيقين لولا تسخير الله ذلك لنا .

سادساً :

وجاء في سورة [الجاثية / ٤٥ مصحف/٦٥ نزول] بيان أن الله عز وجلّ سخَّرَ لنا البحرَ وسخَّرَ لنا ما في السماواتِ وما في الأرضِ جميعاً منه ، فقال الله عزّ وجلّ فيها :

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

سابعاً :

وجاء في سورة [النّحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول] امتنان الله على عباده بطائفة مما سخّر لهم في السّماء والأرض ، فقال تعالى فيها :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وقال تعالى فيها :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ثامناً :

وجاء في الآيتين (٣٢ - ٣٣) من سورة [إبراهيم/١٤ مصحف/٧٢ نزول] بيان أن الله سخّر لنا الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخَّرَ لنا الأنهارَ ، والشمسَ والقمرَ دَائبينِ ، والليلَ والنهارَ .

تاسعاً :

وجاء في الآية (٧) من سورة [الحاقّة/٦٩ مصحف/٧٨ نزول] أن الله سخّر الريح الباردة العاتية لإهلاك ثمود قوم النبيّ صالح عليه السلام ، ونفهم من هذا التسخير أنه تسخير للنبيّ والذين آمنوا معه ضدّ أعدائهم الكفرة من قومهم .

عاشراً :

وفي الآية (١٦٤) من سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] بيان تسخير الله السَّحابَ بينَ السماءِ والأرض .

أحد عشر :

وجاء في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] قول الله عز وجل :

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

صَوَافَّ : أي : قائمةً على ثلاث قوائم ويَدُها اليُسرى معقُولةٌ بعِقال .

فإذا وجَبَتْ جُنُوبُها : أي : سقطت إلى الأرض بعد نَحرِها ، وصارتْ صالحةً لتقطيع لحمها والأكل منها .

القانع: السائل الذي يَطلُب المعروف، أو الّذي يقنع بما يُعطىٰ، دون أن يَسْأل أو الذي يتعرّض للعطاء.

الْمُعْتَرّ: الّذي يتعرّض لأخذ المعروف دون أن يَسْأَل، ويأتي أيضاً في اللّغة بمعنى الفقير.

والمعنى : وأطعموا الفقير والسَّائل والمتعرّض لأخذ المعروف .

كَذَلِكَ: أي: كتسخيرها في تطويعها للنّحْر والأكل من لحومها.

سَخَّرَها لكم : في حملكم وحَمْلِ أثقالكم عليها ، وخدمتكم في أعمال كثيرة ، فالخالق لها هو الله ، والممدّ لها بالحياة والقوّة هو الله ، والمطوِّعُ لها لإرادات الناس فيها هو الله .

خاتمة :

من الملاحظ في نصوص « التسخير » أنّ بعض المسخَّرات قد جاء ذكرها مكرّراً في عددٍ من النصوص القرآنية ، لتكرير الامتنان بها والتذكير بآيات الله وآلائه في كونه ، باعتبارها أدِلَّةً تَهدي المتفكر إلى الإيمان ، ومع تحقيق هذا الغرض فقد جاء ذكر المكرَّرات منها في مناسبات مختلفات استدعت ذكرها ، مع ما في كلّ نص من إضافاتٍ من أفكار ومفاهيم ، وفق منهج التكامل في النصوص القرآنية حول موضوعٍ واحد .

* * *



الفصل الرّابع

كلُّ ما يمكن العلم به

إمّا طاهر ، وإمّا نجس ، وإمّا خليط منهما

وفيه مقولتان :

المقولة الأولى : نظرات تحليليّة جذريّة في الطاهرات والنَّجِسات والمتنَجِّسات وحكمةِ الله في الخلق .

المقولة الثانية : استعراض نصوص الطهارات والنجاسات بنظرات تدبّرية .



المقولة الأولى :

نظراتٌ تحليليّة جَذْرِيَّة

في الطّاهرات والنّجِسات والمتَنَجِّسات وحكمةِ الله في الخلق

(١)

الطاهرات والنَّجِساتُ والمتنجّسات

* الطهارات قسمان : طهاراتٌ ماديّة ، وطهاراتٌ معنويّة .

* والنّجاساتُ في المفاهيم الإسلامية المأخوذة من دلالات نصوص القرآن والسُّنة قسمان أيضاً :

القسم الأول : النجاساتُ المادّيّة التي تُصيبُ الأجساد .

القسم الثاني : النجاساتُ المعنوية التي تصيبُ أجهزة التفكير والنفوسَ والقلوبَ وتَظهَرُ في السلوك .

(١) **فالنجاسات المادّية** : هي الأشياء المستقذرة المؤذية والسّامّة والضارة ، التي تعيشُ فيها الحُوَينات الضارّةُ المؤذية لأجساد الأحياء ، وتُعرَفُ بأسماء مختلفة ، مثل : « ميكروبات ضارّة - فيروسات - طُفيليّات - فُطور » وإذا كبرت هذه صارت بعض أصناف الحشرات .

وقِسْمٌ من هذه النجاسات المادّية لا يجوز شرعاً التلطُّخ بها عن قصد ، بل يجب التطهُّرُ منها للصّلاة والطواف ، ويجب تطهير أمكنة الصلاة منها ، بأوامر

شرعيّة نَعْبُدُ الله بطاعتها ، وهي النجاسات التي بيَّنَها الفقهاء بالتفصيل ، كالعذرات والأبوال ، وهي ذوات دركات متفاوتات شدّة وضعفاً .

وقِسْمٌ من هذه النجاسات المادّية يجب التحرُّزُ منها ، ويجبُ التَّطَهُّر منها صِحّياً ، لحماية الأجساد ممّا تُسبّبه من أمراض وأسقامٍ للأجساد الحيّة ، وإنْ كانت الصلاةُ تَصِحُّ بها ، لكنَّ مفاهيم الدين العامة تأمُر بالتَّطهُّرِ من كلّ ما يُؤذِي أو يَضُرُّ ، بعموم قاعدةِ « لا ضررَ ولا ضِرَار » وتأمُر بالوقاية ممّا يُسبِّب المرض .

ومعلوم أن من الوقاية التحرّز من الميكروبات والفيروسات الضارّة ، والتطهُّر منها عند الإصابة بها .

وهذه النجاسات ذوات دركات متفاوتات شدة وضعفاً .

(٢) **والنجاسات المعنوية** : **هي** الأفكار والعقائد الباطلة ، والأخلاق السيّئة ، والنيّاتُ والأعمال السيئة التي فيها شرٌّ أو ضُرٌّ أو ظُلْمٌ أو عُدوانٌ ، أو أذىً ، من السلوك النفسِيّ الباطن ، أو من السلوك الجسديّ الظاهر .

فكُلُّ مافيه باطلٌ ، أو شرٌّ ، أو قُبْحٌ ، من فِكْرٍ أو اعتقادٍ ، أو خُلُقٍ ، أو إرادةٍ جازمة ، أو سلوكٍ نفسيٍّ أو جسدِيٍّ هو رِجْسٌ ونَجَسٌ .

(٣) **أما الطاهرات الطيّبات** : **فهي** كُلُّ ما هو بريءٌ خالٍ من النجاسات المادّيّة ، ومن النجاسات المعنوية .

فالطيّبُ في اللّغة : هو ما خلا من الأذى والخَبَث ، ومَنْ تخلَّى عن الرذائل وتحلَّى بالفضائل .

والطيّب : **هو الطاهر** . **ويُقالُ** : **تُرْبةٌ طيبة ، إذا كانت جيّدةً تصْلُح للنّبات . ويقال : امرأة طيّبة ، إذا كانت عفيفة طاهرة حصاناً .**

(٤) **وأمّا المتنجّسات** : **فهي** الأشياء الطاهرة التي أصابتها نجاسة من النجاسات ، أو خالطتها ، وهي تكون في المادّيات وفي المعنويات .

فالماء المتنجّس هو ماء طاهر في الأصل ، لكن وقعَتْ فيه نجاسة مادّيّة ، فتنجّسَ بها .

والثوب المتنجّس هو ثوب طاهر في الأصل لكن أصابته نجاسَةٌ مادّية ، فصار مُتَنَجِّساً بها في الموضع الذي أصابته .

والمؤمن الزاني هو إنسان طاهر في الأصل إلا أنّه تنجّس بارتكابه كبيرة الزنا ، وهي من النجاسات المعنوية ، ومثل الزنا سائر الكبائر .

والمؤمن ذو الخُلق السّيّء إنسانٌ طاهر في جوهره متنجّس بسوء الخلق ، وسوء الخلق من النجاسات المعنويّة .

أمّا الكافر فهو نجسُ النفس لا تتحوّل نَفسُه إلى الطهارة إلا بالإيمان ، ونجاستُهُ نجاسةٌ معنوية ، أما جسده فإذا لم يكن متنجّساً بنجاسة مادّية فهو جَسَدٌ طاهرٌ طهارةً مادّية ، وإذا أصابته نجاسة مادّيّة كان مُتَنجساً بها نجاسة مادّية .

وإذا جمع الكافر مع كُفْره نجاساتٍ سُلُوكيّة من ظلم وعدوان وبغي في الأرض وفسادٍ وإفساد ، فهو نجِسُ النفس ، ومتنجّسٌ بنجاسات أخرى مضافة إلى نجاسته في ذاتِ نفسِه .

والنجاسات المعنوية ذواتُ دركاتٍ متفاوات في نِسْبة مافيها من عناصر نَجِسة ، فمنها ماهو قويّ شديدٌ كثير النسبة ، ومنها ماهو دون ذلك .

* * *

(٢)

نظرات في حكمة الله

أولاً : لقد شاءت إرادة اللهِ العَليِّ الأعلى القُدُّوس العليم الحكيم بمقتضى عِلمه الشامل ، وحكمته السّامية أن يخلُق خلقاً ذوي إَراداتٍ حُرَّاتٍ ، ليبلُوهم في الحياة الدّنيا أيُهُمْ أحسَنُ عَملاً ، وأيُهُمْ دونَ ذلك حتى أسفَل سافِلين .

ومن المعلوم في خِبَراتِ الناس أنَّ الابتلاء لا بُدَّ لَهُ من تهيئةِ ظُروفٍ له تشتَمِلُ على ما يحسُنُ فِعلُه ، لكنَّهُ شاقٌّ على النفوس أو مكروه لها ، وتشتمل على ما يَقْبُحُ فعله ، لكنَّهُ مُحبَّبٌ للنفوس ، أو غير شاقٍّ عليها في أدنى الأحوال .

والأمورُ الحسنةُ الشّاقّة على النفوس أو المكروهة لها كثيرةٌ جدّاً ، والأمور السيّئَةُ القبيحةُ المحبَّبَةُ للنفوس أو التي يسهُل على النفوس فِعلُها كثيرةٌ جداً ، وكُلٌّ من هذِهِ وهذهِ ذواتُ درجاتٍ أو دَرَكاتٍ متفاوتاتٍ في الحُسْنِ والرِّفعة ، أو القُبْحِ والخِسَّة .

ولمَّا كان الاختيار من الحَسَنة أو القبيحة سلوكاً نفسياً داخلياً ، ذا أثر في السلوك الباطن أو في السلوك الظاهر ، كان من المناسب وضعُ الحسنة في نَجْدٍ ، أي : في طريقٍ واسعٍ له مسالك ، في صراط واحد ، لأن الحقّ واحد ، ووضع القبيحة في نجد آخر ، أي : في طريق آخر واسعٍ له مسالِكُ وسُبُلٌ شتَّى ، لأنّ الباطل متعدِّد لا يجمعه صراط واحد .

وقد نبّه القرآن المجيد على نَجْدَي الابتلاء في الحياة الدنيا ، فقال الله عز وجلَّ في سورة [البلد/٩٠ مصحف/٣٥ نزول] في معرض الحديث عن الإنسان :

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ .

هذان النجدان أحدهما نَجْدٌ صاعد ، والآخرُ نجدٌ نازل .

* أمّا النَّجْدُ الصاعد فهو صاعد إلى مرضاة الله فجنَّة الخُلْد ، وهو يشتمل على أعمال الخير المختلفة ، في السلوك النفسيّ الإرادي ، أو في السلوك الذي تظهر آثاره في الأعمال الجَسَدِيّة ، وهي تقع في درجاتٍ متفاوتاتٍ في الشرف والفضل والحُسْن ، ولها صُورٌ مختلفات الأجناس والأنواع والأصناف .

ويدخل في أعمال الخير الإيمان ، وصدق النيّة في ابتغاء مرضاة الله عزّ

وجلّ الرَّبُّ الخالق المُمْتحِن لعباده .

وتدخل فيها الأعمال الحسنة الصالحة من السلوك النفسِيّ كحُبِّ الخير ، وحُبِّ الحق ، والحب في الله والبغض في الله ، وكالغَيْرَة من أجلِ انتصار الإسلام والمسلمين ، وكالشفقة على الفقراء والمساكين ، والعطف على ذوي الحاجات ، إلى غير ذلك من أعمال القلوب والنفوس الحسنة الفاضلة .

وتدخل فيها جميع الأعمال الحسنة الصالحة ، من السُّلوك الذي تظهر آثاره في العمل الجسدِيّ الظاهر ، كالصلاة والصيام والزكاة والإنفاق في سبيل الله ، والدّعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإعمار المساجد والمدارس والمؤسّسات النافعات ، ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، إلى غير ذلك من كل عمَلٍ جسدِيٍّ أمَرَ الله به أمْرَ إلزام ، أو أمرَ ترغيب .

ويدخل فيها تركُ الأعمال الظاهرة أو الباطنة التي نهى الله عنها نهي إلزام أو نهي ترغيب ، ابتغاءَ مرضاة الله عز وجل .

* وأما النجدُ النازل فهو نجدٌ نازلٌ إلى سخط الله وعذابه ، فإلى دار العذاب التي أعدّها للظالمين والمجرمين ، وهو يشتمل على أعمال الشر المختلفة ، في السلوك النفسي الإرادي ، أو في السلوك الذي تظهر آثاره في الأعمال الجسدية ، وهي تقعُ في دركاتٍ متنازلات في القبح والخسّة بحسَب ما فيها من شرٍّ وإجرام ، ولها صُوَرٌ مختلفات الأجناس والأنواع والأصناف .

ويدخل في أعمال الشرّ الكفر والنفاق والنيّاتُ الفاسدات ، والأخلاق النفسية القبيحة ، وكراهية الحق والخير ، وابتغاء الشر والفساد في الأرض ، والرَّغبة في انتصار الباطل وأهله على الحق وأهله ودُعاته ، والتجرّد من عواطف الخير ، وعدم الرغبة بمساعدة الفقراء والمساكين وذوي الحاجات والضرورات ، إلى غير ذلك من أنواع سلوك إراديٍّ نفسيٍّ قبيح .

وتدخل فيها الأعمال السيئة القبيحة الفاسدة أو المفسدة من أنواع السلوك الجسديّ الظاهر ، كنُصرةِ الباطل وأهله ، ضدّ الحق وأهله ، وكالقتل والسرقة

والزنا وكل صُور الظلم والعدوان على خلق الله في حقوقهم ، وكارتكاب المحرّمات الشرعية المختلفة ، وترك الواجبات الشرعية المختلفة .

وإذ وضع الله عز وجلّ ذوي الإرادات الحرة موضع الامتحان في الحياة الدُّنيا ، كان من حكمته الجليلة أن يُمَكِّن الممْتحَنينَ مِنْ فعل ما يشاءُون فعلَه من نجد الخير ، فسخّر لهم المسخّرات في ذواتهم ، وفي الكون من حولهم ، تُطيعهم متى اهتَدَوا إلى مفاتيح عملها ، مالم يكُنْ لله مُرادٌ آخَرُ يُخالِفُ مُرادَ العبدِ الممتحَن ، فإن الله عز وجلَّ يُوقف المسخّرات ، ولا يأذن لها بأن تُطيعَ العبد ، أو يُقيم عقبةً مانعةً ، كمن شاء أن يقتل كافراً في معركةِ تَقَاتُلٍ بينهما ، وكانت حياةُ هذا الكافر لم تنتَهِ بعدُ ، إذ بَقِيتْ له بقيَّةٌ من حياةٍ يُتِمُّ بها ظُرُوفَ امتحانِهِ ، وكانت حياة المؤمن قد انتهت ، فإن الله عز وجل قد يُمَكِّن الكافِرَ من قتل المؤمن ليغنم الشهادة ، وليكون عند ربّه من الشهداء الأبرار .

وكان من حكمة الله الجليلة أيضاً أن يُمَكِّنَ الممتَحَنين من فعل ما يشاءون فعله من نجد الشر ، فسخَّرَ لهم المسخَّراتِ في ذواتِهم وفي الكون من حولِهم تُطيعُهم متى اهتَدَوا إلى مفاتيح عملِها ، ما لم يكن لله مُرادٌ آخَرُ يخالف مُراد العبدِ الممتَحَن ، فإنه تباركَ وتَعالى يوقِفُ المسخَّرَات ، ولا يأذَن لها بأنْ تُطيع العبد ، أو يسلُبُ المسخّرات تأثيراتها ، فقد سلب الله عز وجل نارَ نمرود تأثيرها في الإحراق ، فجعلها برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام . أو يُقيمُ عقباتٍ مانعاتٍ ، كأن يقيم عقباتٍ يُعَطِّلُ بها وسائل الكافرين وأسبابَهُمْ لدى قتال المسلمين تعطيلاً جزئياً ، ويجعل وسائل المؤمنين الضئيلة وأعدادَهُمُ القليلة هي الغالبة المنتصرة ، كما جاء في قول الله عز وجل حكايةً لما قاله المؤمنون الصادقون من جنود طالوت من بني إسرائيل ، في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ .. كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾

ثانياً : ولما خلَق الله الأرضَ قبلَ أن يخلُقَ سُكّانها الَّذين سيضَعُهُمْ فيها

موضع الامتحان ، جعلَ فيها أمثلةً مادّية كريهةً مؤذيَةً وضارّةً وقذِرَة ، تُشبِهُ الأعمال السَّيئة التي سيعملها العصاة والمجرمون ، والفاسدون والمفسدون ، من الكافرين والمنافقين والمذنبين ، لتُقاس الأشباه والنظائِرُ بعضُها على بعضٍ من المادّيات والمعنويات .

وجعل سبحانه وتعالى فيها أمثلة مادية مفيدة ونافعةً وطاهرةً من القذارات ، تشبه الأعمال الصالحة المفيدة النافعة ، والطاهرة من القبائح والسيئات والفواحش ، وهذه الأعمال الصالحة النافعة المفيدة الطاهرة سيعملها الصالحون والمصلحون في الأرض من المؤمنين المتَّقين والأبرار والمحسنين ، لتُقاس الأشباه والنظائر بعضُها على بعضٍ من المادّيات والمعنويات .

وجعل سبحانه وتعالى الأحياء الحيوانية على درجات ودَرَكاتٍ في صفاتها وأخلاقها وأنواع سلوكها ، ليُلاحِظَ الممتَحَنون مِنْ خلالها تفاوُتَ الصّفاتِ والخصائص في الفضل والشَّرف والخسّة والدّناءة ، فمن ذوات الشرف وعُلوِّ النفس والهِمّة الأسَدُ ، ومن ذوات الخِسَّةِ والدّناءة وضَعَةِ النَّفْسِ الخنزير .

وكذلك جعل سبحانه وتعالى النّباتات متفاوتاتِ الدرجات ، فمن شريفها شجر الزيتون والنخيل والأعناب ، ومن خسيسها أشجار الشوك والحنظل ، والنباتات القاتلات السامّات .

(٣)

نظرات عامّات
فيما جاء في بيانات القرآن والسنة حول الطاهرات والنجسات

لقد جاء في البيانات التعليمية في القرآن والسنة بيانُ أنّ الأشياء والصفات والأخلاق والأعمال والأفكار والعقائد تنقسم إلى طاهرات ونجسات .

(١) **فالطاهرات** : ذوات درجاتٍ متفاوتات ، بالنظر إلى جواهرها ، إذ

الطّاهرات من الأفكار المتعلّقةِ بذاتِ الله وصفاته أشرَفُ وأعلى مرتبةً من طاهرات الأفكار الأخرى ، وكذلك سائر العقائد .

والطّاهراتُ من الصفاتِ النفسيّة التي تتصل بالعلم والمعرفة أشرفُ وأعلى مرتبةً من الصفات التي من آثارها الجَلَدُ على تحمُّلِ المشقّاتِ الجسديّة ، أو من آثارها عاطفة الأمومة ، أو عاطفة الأبوّة ، أو من آثارها الخوف والطمع .

وهي أيضاً متفاوتاتٌ بالنظر إلى أنّ بعضَها أطهَرُ من بعضٍ ، لشدّة نقائها من المخالطات غير الطاهرات ، ولو كانت أموراً معفوّاً عنها .

وأطهَرُ الطهارات البراءةُ من كلّ نقصٍ وعيبٍ وانحطاطٍ عَن أعلى درجاتِ الكمال ، ومن هذا المعنى كان من أسماء الله الحُسنى أنهُ القدُّوسُ ، أي : الطّاهِرُ المبرّأ من كلّ نقصٍ لا يليقُ بجلال ربُوبيّته وإلَهيّتِهِ ، وهذا اللفظ من صيغ المبالغة .

يقال لغةً : قَدُسَ الشيء يقْدُسُ قُدْساً ، إذا طَهُر .

ويُقال : قدَّسَ العبدُ لله تقديساً ، أي : طَهَّرَ نفسه له ، وصلى له وعظَّمَهُ وكَبَّرَه .

ويُقالُ : قدَّسَ العبدُ رَبّه ، إذا نزَّههُ عمّا لا يليق به . وقدَّس الله عزّ وجلّ فلاناً ، إذا طهَّرَهُ وبارك عليه .

ويقال : تقدَّسَ فهو مُتقَدِّس ، إذا تطهَّر وتنزّه .

وقد وُصِفَ جِبريلُ عليه السلام بأنه روحُ القُدُس ، أي : رُوح الطهارة . والوادي المقدّس « طُوى » أي : الوادي المطهّر .

وهكذا تدور المادّة حول معنى الطهارة والبراءَةِ من الأرجاس والأنجاس والنقائصِ والعيوب .

ويأتي من دون أطهر الطهارات العصمةُ من كل المعاصي والذنوب ، ثم

العصمةُ من الكبائر ، والمطلوبُ منها في العقائد البراءة من الشرك ومما هو أشدّ منه .

(٢) **والنجاسات** : ذواتُ دركاتٍ متفاوتٍ في النجاسة ، فبعضُها أنجسُ من بعضٍ بالنظر إلى ماهِيَّتها ، إذ تتعلقُ بجحود الرب والكُفرِ به وبما بعث به رُسُلَه ، وبالنظر إلى كثافة النجاسة فيها .

فالنجاسات الماديةُ منها ما نجاستُه نجاسةٌ مغلّظَة جدّاً ، ومنها ما هو دون ذلك ، وأخفُّها مثلُ بَوْلِ الصبيّ الرضيع الذي لم يأكل الطّعام .

والمتنجِّسات تتفاوت نسبةُ نجاسَتِها بحسب نسبة المخالط النّجِس ، أو بحسبِ ما تحمِلُ من نجاسةٍ ، كثوب وقعتْ عليه نجاسةٌ يَسيرة مخفّفة .

وأخبَثُ النجاساتِ المعنويّة جحودُ وُجودِ الخالق البارى في الباطن مع النفاقِ بالانتماء إلى أهلِ الإيمان في الظاهر .

ومن أخبث النجاسات المعنوية وساوسُ شياطين الإنس والجن للإضلال عن الحق وسبيل الهُدى ، وقد سُمِّيت هذه الوساوس في القرآن رِجزاً ، لأنها نجاساتٌ جالباتٌ عذابَ الله لمن استجاب لها .

كما سُمِّي الشِّرْكُ بالله « رُجزاً » في قول الله تعالى : ﴿ والرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ لأنهُ رِجسٌ يجلُبُ عذاب الله الخالد . فالرِّجزُ والرُّجزُ بكسر الراء وضمّها يُطلَقُ على العذاب وعلى وساوس الشيطان وعلى الشرك ، وهذه كلها أرجاسٌ إما مادّية وإما معنوية .

ويظهر أن الزاي والسّين يتبادلان في الرجْسِ والرّجْز .

وقد استخدم إبليسُ رِجْسَ وساوسه فلطَّخَ بها آدم وزوجه لمّا استجابا لها ، فكان السَّبَب في إخراجهما من الجنّة .

ويحاولُ إبليسُ وجنودُه الشياطين دواماً أن يُلطّخوا بأرجاس وساوسهم ذُرّيات آدم ، طمعاً في إغوائهم وإضلالهم ، ليكونوا معهم من أصحاب السعير

يوم الدين .

ومن شأن الأرجاس والنجاسات المادّية أن تُصيب الأجساد بالأمراض والأوجاع ، وبالمقابل تُصيبُ الأرجاسُ والنجاساتُ المعنويةُ النفوسَ والقُلوبَ بالأمراض المعنوية .

فمن الأمراض المعنوية الأمراضُ التي تَدفَعُ المرضى بها إلى الفسق والعصيان والفجور .

ومن أجل التحرّز من المرضى بالأمراض المعنوية قال الله عزّ وجلّ في سورة [الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول] خطاباً لنساء النبي ﷺ :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ ﴾

ومن الأمراض المعنويّة الأمراضُ الفكرية الاعتقادية التي قد تُفضي بالمرضى بها إلى الكُفْرِ ، إذ هي من قبيلِ الشُّكوكِ في بعضِ عناصِر الإيمان ، ومنها الأمراض التي هي من صفات المنافقين النفسية ، والتي قد تُفضي بالمرضى بها إلى النفاق الكامل ، وهو مرضٌ في القلوب من دركة قُصوى .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول] بشأن المنافقين والمرضى بمرضٍ دون النفاق الكامل :

﴿ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ ﴾

وجاء في كثيرٍ من الآيات وصفُ المنافقين بأنّ في قُلُوبهم مَرَضاً .

وقد اشتمل القرآن المجيد والسنّة المطهّرة على نصوص كثيرة تصفُ الأفكار والعقائد والنيات والأعمال في السلوك النفسي والسلوك الظاهر ، مما ينتمي إلى نَجْدِ الحقّ والْخَيْرِ والفضيلة بأنّه طاهر ، وطيّب ، ومُقدَّسٌ ،

ومشتقاتها ، وهذه الألفاظ مترادفات .

وتَصِفُ كلّ ما ينتمي إلى نجد الباطل والشرّ والرذيلة بأنه رجسٌ ونجَسٌ ، وخبيثٌ ، ورِكْسٌ ، وقاذوراتٌ ، ورِجْزٌ أحياناً ، ومشتقاتها ، وهذه الألفاظ مترادفات أو متشابهات في دلالاتها .

وفي المقولة التالية استعراض نصوص الطهارات والنجاسات بنظرات تدبّريّة .

* * *

المقولة الثانية :

استعراض نصوص الطهارات والنجاسات بنظرات تدبّريّة

أولاً : « الطهارة المادّيّة والطهارة المعنوية »

(١)

طهورية الماء :

الماء الذي يُؤخذ من مصدره كما أنزله الله من السَّحَاب دون أن تخالِطَهُ نجاسات أو مخالطات أخرى هو ماءٌ طهورٌ ، أي : هو طاهر بنفسه مُطهِّرٌ لغيره ، قال الله عزّ وجَلّ في سورة [الفرقان/٢٥ مصحف/٤٢ نزول] :

﴿ . . . وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وقال الله عزّ وجلّ في سورة [الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول] خطاباً لأصحابِ الرّسول ﷺ في معرضِ الحديثِ عن أحداثِ غزوة بَدْر :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾

لقد كان للماء الذي أنزلَه الله عزّ وجلّ على أصحاب الرَّسول يوم بَدْرٍ أربعُ فوائد :

الفائدتان الأولى والثانية : أنهم استيقظوا عندَ فجرِ يومِ بدرٍ وهو اليوم المرتقب لقتال المشركين ، وهم بحاجة إلى الماء للشرب والطهارة من الأحداث الصغرى والكبرى ، وقد أخذت وساوس الشيطان تنزغ في نفوسهم ، تقول لهم : لو كنتُم على الحقّ ما ترَكَكُم الله ظامئين ومُحدِثين تحتاجون إلى الماء للوضوء أو للاغتسال من الجنابة ، أو لإزالة النجاسات . فأنزل الله عزّ وجلّ عليهم الماء من السماء :

* فتطهّروا من الأرجاس ومن الأحداث ، وكانت هذه هي الفائدة الأولى لهم .

* وأذهب الله عنهم ما كان يوسوس به الشيطان في نفوسهم ، إذ كان يجول في خواطرهم من نزغ الشيطان : كيف يُصلُّونَ وهُمْ على أحداثهم وبنجاسات لم يتطهَّروا منها ؟ وكيف يُعَرّضون أنفسهم للقتل وهم كذلك .

وقد سمَّى الله عزّ وجلّ هذه الوساوس الشيطانية رِجزاً ، أي : قذَاراتٍ من قذارات الشيطان الفكرية الباطلة .

فأذهب الله بإنزال الماء من السماء هذه الوساوس ، وكانت هذه هي الفائدة الثانية لهم .

دَلّ على هاتين الفائدتين قول الله عزّ وجلّ في الآية : ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ويُذْهِبَ عَنكُمْ رِجزَ الشيطان ﴾ .

الفائدة الثالثة : شعور المؤمنين بأنَّ الله معهم يُمدّهم بمعونته ، ولذلك أنْزَل عليهم الماء من السماء ، ومن شأن هذا الشعور أن يربط على قلوبهمُ لتثبيتها ، ومنعها من القلق والاضطراب ، إذ المربوط يَثْبُتُ فلا يكون قلقاً ولا مضطرباً .

دلّ على هذه الفائدة الثالثة قول الله عزّ وجلّ في الآية : ﴿ وَلِيَرْبِطَ على قُلُوبِكُمْ ﴾ .

الفائدة الرابعة : أنَّ مَوقعَ المؤمنين قد كان موقعاً رملياً إذا نزل عليه الماء صارَ متماسكاً صُلباً ، فتثبُتُ عليه الأقدام في المعركة ، أما موقع الكافرين فقد كان ترابياً ، إذا نزل عليه الماء صار طيناً مُزلِقاً لا تَثبُتُ عليه الأقدام .

(٢)

تطهير الثياب والأماكن والأجساد من النجاسات المادّية

أمر الله عزّ وجلّ بتطهير الثياب والأماكن والأجساد من النجاسات المادية ، ومن الأحداث الصغرى والكبرى .

* فقال الله عزّ وجلّ في سورة [المدّثر/٧٤ مصحف/٤ نزول] خطاباً للرسول ﷺ وكل مؤمن مسلم :

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ ﴾ .

أي : فطهّرْها من النجاسات كلِّها .

* وأبان الله عزّ وجلّ أن شريعة الطهارةِ وتطهيرِ أماكن العبادة للعابدين مما كان الله قد أوصى به إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء من بعده، وابنه إسماعيل عليه السلام فقال تعـالى في سورة [البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول]:

﴿ . . . وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

وهذا العهدُ التكليفيّ مستمرٌ حتى رسالةِ محمد ﷺ ، فالمسلمون مكلَّفُون أن يُطهِّروا بيوتَ الله من النجاسات المادية ، ومن النجاسات المعنوية كالأوثان والصور والتماثيل والمعاصي والآثام .

* وقال الله عزّ وجلّ في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

* ولمّا كان دمُ الحيض نَجِساً وفيه أذىً حرّم الله على الأزواج وَطْءَ زوجاتِهِمْ وهُنَّ في المحيض ، ولم يأذَنْ بوطئهنّ حتى يطهُرنَ من حيضِهن بانقطاع الدّم ، ويتطهَّرْنَ بالاغتسال ، أو بالتيمّم عند الضرورة لفقد الماء أو لتعذّر استعماله ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

ونلاحظ في هذه الآية أن الله عزّ وجلّ جمع في آخر الآية بين التطهُّر المعنوي وقدّمه ، والتطهُّر المادّي ، فأبانَ أنّه يُحِبُّ التّوّابين ، ومعلوم أن التوبة هي من التطهُّر المعنوي لأنه تخلّص من الذنوب والمعاصي والآثام ، وأبان أنه يحبُّ المتطهّرين ، أي : من النجاسات بإزالتها ، ومن الأحداث الصغرى والكبرى بالوضوء والاغتسال ، وهذا تطهُّرٌ مادّي ، وإن كانت الأحداثُ أموراً معنويةً فقد جعل الله لها طهاراتٍ مادية ، أو جعلها مناسباتٍ أو مواقيت لتحديد الوضوء والاغتسال كلما حدثت ، فقد أمرنا الله عزّ وجلّ بالوضوء من الحدث الأصغر وبالاغتسال من الحدث الأكبر ليطهّرنا بهما مادّياً ومعنوياً ، إذ الأوساخ والأقذار تُزالُ عنّا بهما ، وأبان الرسول ﷺ أن صغائر الذنوب تُغسَلُ وتتساقط مع ماء الوضوء والغسل .

وفي الأمرِ بطهارتَي الوضوء والاغتسال قال الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟

﴿ ... صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

أي : فالأمرُ بالوضوء أو بالاغتسال أو بالتيمُّم عند العُذر ليس الغَرَضُ منه الإحراجَ بالتكاليف الدينية ، إنما الغرض منه أن يكونَ اتّباعُكُمْ لهذه الأوامر سبباً لتطهيرِكم مادّيّاً ومعنوياً .

وأثنى الله عزّ وجلَّ على رجالٍ يُحبُّونَ أن يتطهَّروا مِنْ أصحابِ الرسولِ ﷺ الذين كانوا يكثرون ملازمة مَسجِدِه في المدينة ، وقيل : هم أهل مسجد قباء ، فقال تعالى في سورة [التوبة/٩ مصحف/١١١ نزول] :

﴿ ... لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

(٣)

الطَّهارة والتطهير من الأرجاس المعنويّة

(١) لمّا استمْرأ قوم لوطٍ العيشَ في أقذارهم المعنوية الشنيعة ومنها أنَّهم يأتون الذكور شهوةً من دون النساء ، وكان لوط عليه السلام ينصَحُهم بالتخلّي عن كفرهم وأقذارهم وفواحشهم ، ويُشنِّعُ عليهم ، قال بعض قومِه لبعض : أخرِجوا لوطاً وآلَه من قريتكم إنهم أُناسٌ يتطهرون ، أي : لا يرتكبون الفواحش ولا يسكتون عن مرتكبيها ، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في سورة [الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول] :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يتطَهَّرُون : أي : يتنزَّهُون عن فِعلِ الفواحش التي هي نجاسات وقذارات معنوية في السلوك .

وقال الله عزّ وجلّ بشأنهم أيضاً في سورة [النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول] :

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(٢) ومن الطهارة المعنوية الالتزامُ بشرائع الله لعباده ، والعملُ بمقتضاها ، ففي مناسبة بيان أحكام الطلاق في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] الواردة في عدّة آيات منها ، قال الله عزّ وجلّ في آخرها مُشيراً إليها :

﴿ . . . ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

أزْكى لكُم : أي أكثرَ نماءً لكمْ بما يَهَبُ الله لكُم من بركاتِ الخير .

وأطْهَرُ : أي : وأنظف وأنقى لقُلُوبكم ونفوسِكُمْ وأعمالكم . وتأتي الزكاة بمعنى الطهارة أيضاً ، ولكن لمّا اجتمع هنا « أزكى وأطهر » كان من التدبّر السويّ أن نحمل « أزكى » على معنى النماء .

والمراد أن الاتّعاظ والعملَ بهذه الشرائع والوصايا مما يحقّق لكم النماء من بركات الله ، والنقاء والطهارة في القلوب والنفوس والأعمال .

(٣) وبما أن الله عزّ وجلّ قد طَهّرَ مريمَ عليها السّلام من خبائث المعاصي والفواحش ، كان من تكريمها أن تخاطبها الملائكة فتقول لها كما أبان الله لنا في سورة [آل عمران/٣ مصحف/ ٨٩ نزول] :

﴿ . . . يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

اقْنُتِي لِرَبّك : أي : أطيعي واخضَعِي له .

(٤) وشاء الله عزّ وجلّ أن يُنَجِّيَ عيسى عليه السلام من الذين كفروا ، ويُطَهِّرَهُ من أرجاس أيديهم ونُفوسهم القذرة ، فقال الله له كما جاء في سورة

[آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول] :

﴿ . . . يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴿٥٥﴾ ﴾ .

(٥) وقضت حكمة الله أن يُشَدِّد العقوبة على نساء النبي بمضاعفتها إذا أتت إحداهُنَّ بفاحشةٍ مُبيِّنة ، ليحذَرنَ فيتحَرَّزْنَ من الاقتراب من المواطن المُزلِقَة إلى الفاحشة ، فيُطَهِّرُهُنَّ بذلكَ تطهيراً عظيماً ، كما جعلَ لهنَّ إذا قَنَتْنَ (أي : أطعنَ وخضعْنَ وعبَدْنَ الله) وعمِلْنَ صالحاً أجراً مُضاعفاً ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة [الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول] :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

إنما يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تطهيراً : أي : ما يُريدُ الله بتوجيه هذه التكاليفِ المشدَّدة ، والوعيد المشدّد ، والإطماعِ بالأجر المضاعف ، إلا العناية بِكُنَّ ، لتتَّقينَ الله باختيارِكُنَّ ، فيذهِبَ عنكم بذلك رجسَ المعاصي والفواحش يا أهل بيت الرسول ، وليُطهِّرَكُمْ بذلك تطهيراً زائداً عن غيرِكُنَّ ، حتى تكُنَّ قُدْواتٍ لنساءِ المسلمين ، فمن شأن المُقتدى به أن يكونَ أعلى درجةً من المُقتدي .

إنَّ القُدوَةَ الحسنةَ وظيفةُ إمامةٍ للمسلمين والمسلمات ، ومن احتلَّ مرتبة إمامٍ فعليهِ أن يلتزِمَ بواجباتِ هذه المرتبة ، وإذا أخلَّ بها عُزِلَ عنها ، وإذا عصى معاصِيَ تُخِلُّ بحقوق مرتبة المتقين ضوعِفَ له العذابُ ، كما جاءَ في تحذير عبادِ الرحمن الذين همْ أئمة للمتقين ، من أن يقعوا في كبائر الشركِ أو القتل أو

الزنا ، فقال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة [الفرقان/٢٥ مصحف/٤٢ نزول] :

﴿ . . . وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

وزيادةً في صيانة نساء النبي أمر الله عزّ وجلّ المؤمنين بأنْ يخاطبوهُنَّ - إذا دعتِ الحاجةُ إلى سؤالهنَّ شيئاً - من وراء حجاب ، ليكون ذلك أطهر لقلوبهم وقلوبهن ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة [الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول] :

﴿ . . . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ . . . ﴿٥٣﴾ ﴾

وهذه خصوصية خصّ الله بها نساء النبي ، ومن الخيرِ أن يتأسى بهنَّ نساءُ الدعاة إلى الله الذين يقومون بوظيفة الدعوة إلى الله والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر وإمَامَةِ المتقين .

(٦) وأمر الله عزّ وجلّ المؤمنين بأن يُؤدُّوا زكوات أموالهم ، وسمّاها زكاةً لأمرين :

الأول : لما في بذلها من تطهير لهم ولأموالهم ، فالزكاة تأتي في اللغة بمعنى الطهارة .

الثاني : لما في بذلها من تنميةٍ لهم ولأموالهم ، من فيوض عطاء الله من حيثُ لا يحتسبون ، فالزكاة تأتي في اللغة أيضاً بمعنى النَّماء .

وجعل الله عزّ وجلّ بذْلَ الصَّدَقاتِ تطوُّعاً من وسائل تطهير النفوس وتزكيتِها ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة [التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول] بشأنَ المعترفين بذُنُوبهم :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

(٧) وجعل الله عزّ وجلّ على من كان يريد مُناجاةَ الرسول ﷺ من أصحابه أنْ يُقدّم بين يَدَي نجواه صدقةً مُطهِّرةً لقلوبهم ونفوسهم من غايات دنيوية ، يبتغُونها من مناجاته والانفراد بالحديث معه ، وتخفيفاً على الرسول من تثاقل الثقلاء ، فالثقلاء الذين ليس لهم حاجات حقيقيةٌ بمناجاته يكفُّون عنها إذا وَجَدُوا أنفسهم مُلزَمين ببذلِ صدَقةٍ لله قبلَ طلب مُسارَّة الرسول ، أما أصحاب الحاجات الحقيقية فيسهل عليهم بذلُ الصدَقة .

وقد نسخ الله هذا الحكم قبل أن يَمُرَّ فاصل زمنيٌّ طويل بآيةٍ تابعةٍ لآية التكليف ، وأرى أنه بقي من دلالته الإذنُ لذوي السلطان بالإلزام ببذلِ مالٍ غير كبير ، يُدفعُ لصندوق الدولة ، قبل أن يُؤذن لمن يُريد مقابلةَ رئيسٍ أو مدير أو وزيرٍ أو أمير من أجلِ مصلحةٍ خاصّةٍ به .

أخرج عبد الرّزاق والحاكم وغيرهما عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « إنَّ في كتاب الله لآيةً ماعَمِلَ بها أحدٌ قبلي ، ولا يعمَلُ بها أحدٌ بعدي ، آيةُ النّجوى ، كان عندي دينار ، فبعتُهُ بعشرَةِ دراهِمَ ، فكنتُ كُلَّما ناجيتُ النبيَّ قدَّمْتُ بين يَدَيْ نجوايَ دِرهماً ، ثُمَّ نُسِخَتْ فلمْ يعملْ بها أحدٌ » .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [المجادلة/٥٨ مصحف/١٠٥ نزول] :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

ءَأَشْفَقْتُمْ : أي : أَحَذِرْتُمْ من أن تخسروا مالاً ببذلِ صَدَقاتٍ ما قبلَ النَّجوى .

(٨) ووصف الله عزّ وجلّ صُحُفَ القُرآنِ المجيد بأنها صُحُفٌ مُطهَّرة ، أي : مُطهَّرةٌ من كُلّ باطلٍ وشَكٍّ ، لأنّ المفاهيم الباطلة أرْجاسٌ فكرية ، ولأن

المفاهيم المشكوك في صحّتها لا تخلو من أرجاس فكرية ولو كانت قليلة المقدار ، والقرآن خالٍ من كل ذلك . ومطهّرَةٌ أيضاً من أن تمسَّها أيدي الشياطين بالتحريف والتغيير والعبث ، فتدنِّسَها ، فالقرآن محفوظ بحفظ الله له .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [البيّنة/٩٨ مصحف/١٠٠ نزول] :

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾

أما الصُّحُفُ المطهَّرةُ التي يتلو الرسول منها القرآن فهي صُحُفٌ يحمِلُها سفَرَةٌ من الملائكة أطهار ، ولا يقتربُ من هذه الصُّحُفِ شيطانٌ ولا جِنٌّ ولا إنسٌ ، فهي محفوظةٌ مِنْ أدناس المدنِّسينَ ، بتحريف أو تغيير . ثم حَفِظَ الله القرآن بعد التنزيل بما هيأ له من وسائل حفظ ، فلم يستطِعْ شياطينُ الجنّ ولا شياطين الإنس من أعداء دين الله وأعداء كتابه المجيد إثبات تحريفِ فيه أو تغيير ، وكلُّ محاولاتهم باءت بالخيبة ، فقد كان الله عزّ وجلّ يكشفها ويُثبتُ الحق المنزَّل ، وهكذا إلى أن تقوم الساعة .

وطهارة القرآن من الباطل والشكّ دلّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ في سورة [فُصِّلَت/٤١ مصحف/٦١ نزول] :

﴿ . . . وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

من بينِ يَدَيْه : أي : مما سَبَقَهُ .

ومن خَلْفه : أي : مما سيأتي بعده .

وتدلُّ عليها شواهد البحث العلميّ دواماً ، فهو مطَهَّر دَواماً .

وطهارةُ صُحُفه التي بأيدي سَفَرَةٍ كرام بَرَرَةٍ دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ في سورة [عبس/٨٠ مصحف/٢٤ نزول] :

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

وهذه الصحف مُستَنْسَخةٌ عمّا في اللوحِ المحفوظ الذي لا يمسُّهُ إلا المطهَّرونَ من الملائكة ، أي : المطهرونَ من المعاصي والآثام ، لأنَّهُمْ لا يَعصونَ الله ما أمرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمَرونَ ، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة [الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول] :

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(٩) ووصف الله عزّ وجلّ الحُور العِينَ أزواجَ المؤمنينَ في الجنّة بأنهُنَّ مُطهَّراتٌ من كلِّ رِجس ماديٍّ أو معنويّ ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٧٨ نزول] بشأنِهنَّ :

﴿ . . . وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

* * *

ثانياً : « الأرجاس والنجاسات المادّية والمعنوية »

(١)

تعريفات لغوية

(١) **النّجَسُ** : القَذَر ، يُقال لغةً : نجِسَ الشيءُ ينجُسُ نجَساً إذا قَذِر . ونَجِس فُلانٌ ، إذا خَبُثَ طبعُهُ ودَنِسَ خُلُقه . ويُقالُ : نجُسَ ينجُسُ نجاسةً . والنجاسَةُ القَذَارة .

(٢) **الرِّجْسُ** : النجاسةُ والقذَر ، يقالُ لُغةً ، رَجِسَ يرجَسُ رجَساً ورجاسةً ، إذا نَجُسَ ، وإذا أتى رِجساً ، فهو رَجِسٌ ، وهي رَجِسَة .

ويقالُ : رَجُسَ الشيءُ يرجُسُ رجاسةً ، إذا قذِر ، ورجُسَ فلانٌ إذا عمِل عمَلاً قبيحاً .

ويُطلَقُ الرِّجْسُ على الفعلِ القبيح ، وعلى الحرام ، واللَّعنة ، والكُفر ، والعذاب ، ويُجمَعُ الرِّجْسُ على « أرجاس » .

(٣) **الرِّكْس** : الرِّجسُ ، وكُلُّ مُستَقذَر ، وكذلكَ الرّكيسُ .

(٤) **الخُبْثُ** : الفسادُ والرداءةُ ، يقالُ لُغةً ، خَبُثَ الشيءُ خُبثاً وخبَاثةً وخباثِيَةً ، إذا صارَ فاسداً رديئاً مكروهاً .

وخَبُثَ فُلانٌ : أي : صار ذا خُبْثٍ ، فهو خبيثٌ ، وهم خبثاءُ ، وخُبُثٌ ، وخبَثَةٌ ، وأخباثٌ ، وجمع الجمع « أخابيث » . وهي خبيثةٌ ، والجمعُ خبائث . وكلمةٌ خبيثة : أي : باطلةٌ فاسدةٌ داعيةٌ إلى شرّ .

والأخبَثَانِ : البولُ والغائط ، وفي الحديث : « لا يُصَلِّيَنَّ أحدُكمْ وهو يُدافعُ الأخبَثَيْنِ » .

والخبيثُ : كثيرُ الخُبْث ، من صِيغِ المبالغة .

والخَبَثُ : النجَسُ ، وفي الحديث : « إذا بلغَ الماءُ قُلّتينِ لمْ يحمِلْ خَبَثاً» . **والخَبَثُ** أيضاً: ما ينفيه كِيرُ الحدَّادِ من وسخِ الحديدِ عند إحْمَائه وطَرْقه .

(٥) **القَذَرُ** : الوسخ ، والعذِرَةُ ، والجمع « أقذار » .

القاذورة : الوسخُ ، والفعلُ القبيح ، واللفظُ السّيِّء ، ومن الناس من كان سيءَ الخلُق ، لا يخالَطُ ولا يُعاشر ، والذي لا يبالي ما صنعَ وما قال .

وجاء في الحديث تسميةُ كبائر المعاصي كالزنا وشرب الخمر قاذورات ، فقد روى الإمام مالك في الموطّأ عن زيد بن أسلم مُرسَلاً أن الرسول ﷺ قال :

« أيُّها النَّاسُ قدْ آنَ لَكُمْ أن تَنْتَهُوا عن حُدُودِ الله ، فَمَنْ أصَابَ مِنْ هذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئاً ، فَلْيَسْتَتِرْ بسِتْرِ الله ، فإنَّهُ مَنْ يُبْدِ لنا صفحَتَهُ نُقِمْ عليهِ كتابَ الله عزّوجلّ » .

أي : نُقِمْ عليه الحدَّ الواردَ في كتاب الله .

(٢)

التطهير من النجاسات المادّية والمعنويّة

* النجاسات المادّية يكون تطهيرها بالماء ، وبالتُّراب الطاهر أحياناً ، وبالاستحالة الطبيعية ، لتَحَوُّلِ عناصرها إلى نباتٍ ، أو إلى لحمٍ وشحم في جسم حيوانٍ مأكول .

ويكون تطهيرها بالنار التي تُحرِقُ مافيها من أذىً وعناصر ضارّة ، أو بالموادّ القاتلة للجراثيم والميكروبات ، وهذا ما يُعرَفُ بالتطهير الصّحّي .

أمّا التطهير الشرعيُّ فَلِلفُقهاء فيه نظراتٌ استنباطيّةٌ مأخوذة من السُّنَّة ، على اختلافٍ بين الفقهاء في تحديد وسائل التطهير الشرعي ، ممّا يُسمَّى نجاسةً مانعةً من صحّة الصلاةِ والطواف .

والنجاساتُ المادّية منها ما هو ذو نجاسةٍ مخفّفة ، كبول الصّبِيّ الذي لم يأكُل الطعام ، ومنها ما هو ذو نجاسة مُغَلَّظَة من درجةٍ قُصوى ، كعذرة الكلاب والخنازير ، وبينهما دركات .

* والنجاساتُ المعنويّةُ يكونُ تطهيرُها بالتوبة والاستغفار ، والإصلاح لما هو فاسدٌ من طبع أو خلق أو نيّة أو سلوك ، ويكون بإِتْبَاعِ السَّيئَةِ الحسنةَ ، كما جاء في الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ : « وأتبعِ السيّئَةَ الحسنَةَ تَمْحُها » .

أي : واجعل السيئةَ تتبَعها الحسنةُ لتمحُوها بفضل الله .

والنجاسات المعنويّة منها ما هو ذو نجاسة مخفّفة ، كصغائر الذُّنوب ،

ومنها ما هو ذو نجاسة مغلظة من درجة قُصوى ، كأخبث دركاتِ الكُفرِ مع النفاق ، وبينهما دركات .

إنَّ الإنسان متى امتلأتْ نفسُه وفِكرُه وقلبُهُ بالكُفْرِ صار ذا نجاسةٍ مُغلّظةٍ جداً ، وصحَّ أن يُسمّى « نَجَساً » نجاسةً معنويّة ، لأنَّ نفسَهُ وفكرَه واعتقادَه في قلبه صارَ ماهيّةً نجسةً ، ودونه من فيه خليط من الإيمان والشكوك والشبهات ، وتكون دركة نجاسته بحسب مقدار الخليط النجس .

أما من كان في نفسِه خليطٌ من الإيمانِ ومن كبائر الإثم والفسوق والعصيان ، فهو متنجِّسٌ بنجاساتٍ معنوية لم تبلُغْ أن تجعلَ ماهيته نجساً كالكافرِ بربّه ، بل هو دون ذلك .

ومن كان في نفسه خَلِيطٌ من الإيمانِ ومن صغائر المعاصي والمخالفات فهو متنجِّسٌ بنجاساتٍ معنويةٍ من درجةٍ وُسْطى أو دونَ الوسْطَى .

والخليط النجس متى مسَّ القلب صارَ صاحِبُهُ مريض القلب ، ودونَه مريض النفس ، كما أنَّ منْ يُصابُ بالنجاسات المادّية في بدنه قد يَصيرُ مريض الجسد ، زيادةً على كونِه قذراً كريهَ المُصاحبَة .

والكافر المنافق الذي مردَ على النفاق تتحوَّل ماهيّتُه النفسيّةُ والقلبيّة إلى نجاسةٍ مغلّظة ذات كثافة مضاعفة .

إنّ نسبة الكثافة في النجاسة المعنوية لدى الكافر تزداد كُلّما ازداد كُفْره وظُلمُهُ وعُدوانُه وفسادُه وإفسادُه في الأرض ، وكلّما تفاقمتْ جرائمه .

وقد جاء في النصوص بيان أمثلة من أنواع النجاسات المختلفات ، ذوات النجاسة المادية ، وذوات النجاسة المعنوية ، بألفاظ : النجَس ، والرِّجْس ، والْخَبَث ، والرِّكْس ، ومشتقّاتها ، ويُقابلُها الطاهرات ، بألفَاظ : الطاهَر ، والطيب ، والقُدْس ، ومشتقاتها .

وفيما يلي استعراضٌ للنصوص القرآنية بنظرات تدبُريّة .

استعراض النصوص القرآنية التي فيها لفظتا : الرِّجْسِ والنَّجَس

النّص الأوّل :

قول الله عزّ وجلّ بشأن عادٍ قوم الرسول « هود » عليه السلام في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] :

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

الرِّجْسُ الذي وقع على عادٍ قوم هود عليه السلام هو رِجْس العذاب المادّي ، المناسبُ لرِجْس الكُفر المعنوي الذي ملأ نفوسهم وقلوبهم حتى صارت ذواتُ ماهيّتهم الداخليّة به رِجساً ونَجَساً .

قد وقعَ عليكُمْ من ربّكُم رِجْسٌ وغَضَبٌ : أي : تمَّ القضاء الرَّبَّانِيّ بتعذيبكُم وإهلاككم ، وأوشكَ أن ينزل بكم .

وقد نزل بعد ذلك فيهم عذابُ الله كما أخبرَهم رسولهم ، فأهلكهم الله وأبادهم ، وأَنْجَى هوداً والذين آمنوا معه برحمة منه .

النص الثاني :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول] :

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

أي : ولو شاء ربُّكَ يا محمدُ ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من بعدِهِ لسلَبَ الناسَ اختياراتهم فكانوا مجبورين ، ولو كانوا مجبورين لآمنوا جميعاً ، لأن الله عزّ وجلَّ لا يُجبِرُ على الكُفر لو شاء أن يجعل النفوس المدركة مجبورة ، بل يجبرهم على الطاعة والحقّ والخير والإيمان والإسلام والعمل الصالح الذي يُرضيه .

لكِنَّ الله عزّ وجلّ لم يشأ للجنّ والإنسِ أن يكونوا مجبورين ، بل شاء أن يكونوا مُخَيّرين ليبلُوَهم فيما آتاهم .

فليس من وظيفتك يا مُحمد ويا أيُّها الداعي إلى الله أيّاً كنتَ أن تُكرِه أحداً على الإيمان ، إنما وظيفتُكَ التبليغُ والبيان والإقناع ، فمن شاء فليُؤمن ومن شاء فليكفُرْ .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلا بإذْنِ الله ﴾ : أي : حين أعْطَى الله عز وجلَّ الناس إراداتِهم الحرة المختارة ، التي يستطيعون بها أن يؤمنوا وأن يكفُروا ، لم يتركْهُم دونَ مُراقبة ومتابعة وتمكينٍ بإذنهِ من التصرف بإراداتهم ، فيما سخّر لهم في ذواتهم ، وفي الكون من حولهم ، بل كُلُّ حركةٍ إرادية منهم لا بد أن تخضع لإذنه ، والإذن يكون بجعل المسخّرات في ذواتهم تُطيع إراداتهم ، وهي إنما تعملُ بخلق الله ضمنَ سُننِه في كونه .

فالإرادات من خَلْق الله ، وإعطاؤها حرّياتها من خلقِ الله ، وتصرُّف الإراداتِ بحركة الإيمان والأعمال الباطنة أو الظاهرة إنما يكون بإذن الله ، وإذنُ الله مصحوبٌ دواماً بعلمِهِ الشامل ، وحكمته السَّنِيّة .

وكـذلـك الكُفـر ، إنمـا تختـارُهُ إرادة الكـافـر بـإذن الله وتمكينـه مـن المسخّرات ، ومثل الكفر الأعمال التي يدفع إليها الكفر .

ومن حكمة الله العليّ الأعلى أنه إذا اتجهتْ إرادة الإنسان الحرة لاختيار الإيمان أن يأذن لها به في سُنَّةٍ ثابتةٍ لا تتبدّل ، وأن يُمِدَّها بمعونته وتوفيقه ،

فتتحرّكُ المسخّرات بخلقِ الله ، فتؤمِنُ النفسُ بتوفيق الله .

وكذلك إذا اتجهت إرادتُه لاختيار الكفر .

وإذْنُ الله جُزءٌ من سلطان رُبوبيته في الوجود كله ، ولا يُشكِّل عائقاً عن إيمانٍ أو عملٍ صالح ، إنما جاء النص على أنه ماكان لنفسٍ أن تؤمن إلا بإذن الله لبيان واقع حال سُلطانِ الربوبية الشامل ، وحضور الله وهيمنته على كل شيء ، وشهودهِ لكل شيءٍ ، فلا يتمّ شيءٌ في كونه إلا بأمره ، أو بإذنه .

﴿ ويَجْعَلُ الرِّجْسَ على الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ : أي : وأما مَنْ أدركَ الحقائق الإيمانيّة التي يجب الإيمان بها ، ولم يكن لديهِ عقلٌ إراديٌّ يَعْقِل به نفسَه عن أن تندفع بمؤثراتِ الكِبْر ورغباتِ الفجور والانسياقِ مع الأهواء والشهوات ، فإنه لا بُدَّ أنْ يقَع فريسةَ الجحود والكنود والكفر ، وهذه أرجاسٌ فكرية يُسقِطُ الإنسانُ نفسه فيها باختياره الحرّ ، فيجعلُ الله عليه بقانونه القدريّ العامّ الرِّجْسَ الذي عَمِلَ هو على اكتسابه بإرادته ، ولم يُجْبِرْهُ عليه القضاء والقدر .

وهو بهذا كمن تعاطى المخدّرات بإرادته الحرّة ، فإنّ الله يُنزِلُ بِهِ رِجْسَ الأوجاع والأمراض التي تُسبّبها .

هكذا ينبغي أن نفهم قول الله تعالى : ﴿ ويَجْعَلُ الرِّجْسَ على الَّذِين لا يُؤْمِنُونَ﴾ وأمثالَه .

إنّ الناس أمام طريقين (= نجدين) لا ثالث لهما بعد أنْ يُدْرِكُوا الحقيقة :

الطريق الأول : أن يُؤمِنوا إذا عَقَلوا نفُوسَهم عن أن تندفع وراء الأهواء والشهوات ورغباتِ الكبر والفجور بإراداتهم الحرّة .

الطريق الثاني : أن يكفُروا إذا لم يعقِلوا نفوسَهُم بإراداتهم الحرة ، فإذا لم يعقِلوها فكفروا فلابد أن يجعلَ الله عليهمُ الرجسَ ، وهو رجسُ الكفرِ والمعاصي وخُبثِ النفس ، ثُمَّ رِجسُ العذابِ الشديد ، ضمنَ مجاري سُنَّةِ الله عزّ وجلّ في عباده التي لا تبديل لها ولا تحويل .

النص الثالث :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

إنّ إرادة الله عزّ وجلّ لا تُفارق حكمته وعِلمَه ، ويتفرَّعُ عن هذه الحقيقة الاعتقادية فروعٌ كثيرة ، فمنها ما يلي :

الفرع الأول : أن من آمَنَ بإرادته الحرَّة التي خلقها الله له أرادَ الله عزّ وجلّ هدايته فهداه ، أي : فحكم له بالهداية في أنه آمنَ حُرّاً مختاراً ، ويَسَّر له سُبُل تطبيق مقتضيات إيمانه ، وأعانه على ذلك ، فمن سُنَّةِ الله الثابتة في الفطرة التي فطر عليها النفوس ، أن مَن آمنَ حُرّاً مختاراً شَرَحَ الله صدرَهُ للتطبيقات الإسلاميّة وأعانه عليها ، فيعملُ الأعمالَ الإسلامية وهو مُنشَرِحُ الصدر مسرورٌ مطمئنّ .

الفرع الثاني : أنّ من لم يشأْ أن يُؤمنَ بإرادته الحرة التي خلقَها الله له ، استكباراً على ربِّه ، أو لئلا يحجُزَه الإيمانُ عن تحقيق رغباتِ الفجور في نفسه ، فإنه لا بُدَّ أن يكفُر ، ولن يقفَ طويلاً في حالة تريُّثٍ بينَ الإيمان والكفر ، إلا إذا كان جاهلاً بأدلّة الإيمان ، لكن من ظهَرَتْ له أدِلَّةُ الإيمانِ فأبى أن يُذعِنَ لها فقد كفَر بإرادته الحرَّة .

ومن كَفَرَ بإرادته الحرّة فإنَّ الله عز وجَلَّ لا يَشاءُ أن يهدِيَهُ ، أي : لا يشاءُ أن يحكُمَ له بالهداية ، بل يشاء وفق مبدأ الحقّ والعدلِ أن يحكُمَ عليه بالضلال .

ومن حكمَ الله عليه بالضلال الاعتقادِيّ ، إذ كفَر وهو حرٌّ مختارٌ سبيلَ الكفرِ دون أن يجبره عليه أحد ، كان من سُنَّةِ الله الثابتة فيه ضمن الفطرة التي

فطر عليها النفوس ، أن يجعلَ صدرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً يكاد يختنق كأنما يصَّعَّدُ في السماء ، إذا أُلزِم بالتطبيقات الإسلامية ، أو وجدَ نفسه مُضطرّاً لسبب ما أن يُمارِسَها ، كالمنافق الذي يُجاري المسلمين في التطبيقات الإسلامية خشيةَ افتضاح كُفرِه الذي يخفيه .

إنَّ هذا الشُّعورَ النفسيّ الفاسد تُجاه أعمال الخير الإسلامية ، والمشابه لحالة الاختناق من نقص الهواء الذي يُمِدُّ الرئتين بالأكسجين الضروريّ للحياة ، هو رِجْسٌ يجعلُهُ الله في مجاري سُنَنِه الثابتة على الذينَ لا يؤمنون .

لكن من تطَهَّرَ بالتوبة والاستغفار ، وآمَنَ إيماناً صادقاً ، رفع الله عنه هذا الرجسَ ، فانشرحَ صدرُه للتطبيقات الإسلامية ، على مقدار ما لديه من إيمان صحيح صادقٍ حاضرٍ في النفس .

النصّ الرابع :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] أيضاً خطاباً للرسول ﷺ :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمًا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

في هذه الآية وصفَ الله عزّ وجلّ المحرَّمَ من المطاعم بأنه رِجسٌ ، أي : نَجَس ، وكان المحرَّمُ منها حتّى نزول سورة (الأنعام) أواسط العهد المكيّ هو ما جاء تفصيله في هذه الآية .

ولا مانع من أن تأتيَ بياناتٌ تُضيفُ إلى هذهِ المحرَّماتِ مُحرَّماتٍ أُخرى ، فالأحكام التشريعيّة كانت تأتي بالتدَرُّجِ مع مراحل التنزيل المتابعة .

ووَصْفُ هذه المحرّماتِ من المطاعم بأنها رِجْسٌ فيه دلالَةٌ على أن نجاسَتَها مادّية ومعنويّةٌ معاً ، لأن الله عزّ وجلّ فصَلَ ما ذُبحَ على غَيْرِ اسْم الله

فأبانَ أنّه فِسقٌ ، بعدَ أن وصَفَ السابقات بأنها رِجْسٌ ، وقد عَلِمنا من نصوصٍ أخرى أن ما هو فِسقٌ هو ذو نجاسةٍ معنوية شرعية ، فدَلّ هذا الصّنيع في البيان على أن الأُولَيَانِ في الآية هنا رِجسٌ ماديٌّ ورجسٌ معنويٌّ شرعيٌّ بسبب التحريم ، أما ما أُهِلَّ به لغير الله فرجاستُهُ معنويةٌ فقط ، لأن الذبحَ لغير الله لا يجعل الشيءَ الطاهر طهارةً مادّيةً نَجِساً نجاسة مادية ، لكن يجعله نَجِساً نجاسةً معنوية لِما رافقَهُ من الشِّرْك بالله .

النص الخامس :

الآيات من (٣٠ - ٣٤) من سورة [الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول] وقد سبق بيانها في نصوص الطهارة والتطهير .

النص السادس :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ . . . فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

دلَّ هذا النصُّ على أن عبادةَ الأوثان رِجسٌ معنويٌّ في الاعتقاد ، ورِجسٌ معنويٌّ في السلوك ، وهو نظير الأرجاس المادية في الأشياء النجسةِ ذاتِ النجاسةِ المغلَّظة ، وقد دلّ على كونها نجاسةً مغلّظة ما في النص من الإشارة إلى أن أعيان الأوثان رِجسٌ يجب اجتنابُه ، أي : يجب الابتعاد عنه وعدَمُ الاقتراب منه ، ولو كانت نجاسةً غيرَ مغلظة لكان يكفي الأمر بعدَم عبادتها ، ولما وُجِدَ داعٍ إلى الأمر بالابتعاد عن مكانها ، كما ينبغي الابتعادُ عن النجاسات المادّية المغلّظَةِ مثل رَجيع الكلاب والخنازير .

النص السابع :

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٣ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾

أبان هذا النص ما يلي :

(١) أن شُربَ الخمْر رِجسٌ معنويٌّ في السُّلوك ، من دَركَةِ كبائر الإثم ، دل على هذا وصف الخمر نفسها بأنها رِجسٌ ، وقد أُطلق عليها هذا الوصف نظراً إلى عِظَم رجاسةِ شُرْبها .

(٢) أنَّ المقامرة بالميسر رِجسٌ معنويٌّ في السُّلوك ، من دَرَكَةِ كبَائر الإثم ، دلّ على هذا وصفُ ذاتِ الميسر بأنه رِجسٌ ، وقد أُطلق عليه هذا الوصف نظراً إلى عِظم رجاسةِ العمل به .

(٣) أنّ اتّخاذ الأنصاب وعبادَتَها من دون الله رجسٌ ، وهو من درَكةِ الإشراك بالله الذي لا يغفر الله لمن مات عليه ، وقد أطلق على الأنصاب ذاتِها أنها رِجسٌ نظراً إلى عظم رجَاسَةِ اتّخاذها ، إذْ في إقامتها وعبادتها من دون الله رجسٌ معنويٌّ في الاعتقاد وفي السلوك من دركة الكُفْر بالله .

الأنصاب : جمع « نَصْبٍ » وهو ما كان يُنصَبُ ليُعْبَدَ من دون الله .

(٤) أن الاستِقسَام بالأزلام رِجسٌ معنويٌّ في الاعتقاد والسلوك ، وهو من درَكَة كبائر الإثم ، دلّ على هذا وصْفُ الأزلام بأنها رجسٌ ، وقد أُطلق عليها هذا الوصفُ نظراً إلى عِظَمِ رجاسة الاستقسام بالأزلام .

الأزلام: سهامٌ لا ريش لها، كان العربُ يستقسمون بها، أي : يستخيرون لأعمالهم بها ، وكانوا يضعون على بعضها : « افعل » وعلى بعضها الآخر : « لا تفعل » وكانوا يضعونها في وعاءٍ كجرَابٍ ، ويُدْخِلُ أحدُهُمْ يدَه فيه ويُمسك واحداً منها غيرَ مُعيّن ، ويخرجُهُ ، فإذا كان مكتوباً عليهِ : « افعل » توجه

المستخير لعمله ، وإذا كان مكتوباً عليه : « لا تفعل » تركَ العملَ الذي يستخيرُ من أجلِه ، واعتقد أنه لا خَيْرَ فيه .

هذه الاستخارة الجاهلية التي تعتمد على حركة المصادفة هي رِجسٌ في السلوك ، وفي الاعتقاد .

لأنهم إما أن ينسُبُوا هِدايةَ أيديهم العمياء عند القبض على السَّهم إلى شركائهم فهم مشركون بالله ، وإما أن ينسبوها إلى الله فهمْ عُصاةٌ لله ، لأن الله عزّ وجلّ لم يأذَنْ بمثل هذه الاستخارة ، بيدَ أنّ أهل الجاهلية كانوا مُشرِكين ينسُبُونَ الهداية والتوفيق في الأعمال إلى شركائهم .

وقد شرع الله عزّ وجلّ في الإسلام للمؤمنين الاستخارَةَ بالصلاة والدعاء ، واستجلاءِ المشاعر الداخلية التي يُلهِمُهُم الله إياها حول العمل ، والنظر في تيسير الأمور أو تعسيرها ، فإذا وجدَ المؤمن بعد الاستخارة انشراحاً في صدره ، وتيسيراً في الأسباب للأمر الذي هَمَّ به فليتوكَّلْ على الله وليُتِمَّهُ ، وإنّ وجدَ في صدره انقباضاً وتعسيراً في الأسباب ، فَلْيَكُفَّ عن الأمْر الذي همّ به ، وليتوكل على الله في تيسير ما هو خيرٌ وأفْضَل له .

ولما كان الشيطان إمامَ النجاسات المعنويّة والمادّيّة كُلِّها ، وصَفَ الله عزّ وجلّ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام بأنها رِجسٌ من عملِ الشيطان ، وأمَر أمراً جازماً باجتناب هذا الرّجس ، أي : بالابتعاد الكُلّي عن مواقعه .

وقد علمنا من النصوص الإسلامية أن كل رِجسٍ مادّيٍّ أو معنويّ قد أمر الله بالابتعاد عنه ، أو بعدَمِ التلطُّخ به ، وأمر بالتطهُّر منه عند الإصابة به .

النص الثامن :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ

عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

في هذه الآية وصَفَ الله عزّ وجلّ المشركين بأنهم نَجَسٌ ، وذلك بسبب أن الشّركَ الذي يعتقدونه ويعملون بمقتضاه نجاسةٌ مغلّظةٌ في العقيدة ، ونجاسَةٌ مُغَلّظَةٌ في السُّلوك .

وحامل النجاسة المغلّظة ، المختلطة بمفاهيمه ومراكز عقيدته وإرادته وأنواع سلوكه ، يكون بها نَجِساً نجاسة مُغَلَّظَةً في ذاتِ نفسه ، حتى يتطهّر منها بالإيمان والعمل الصالح والبُعدِ عن كلّ سلوكٍ شِرْكيّ .

إنّ الشركَ نجاسةٌ معنويةٌ في الفكر والاعتقادِ والإرادة والسُّلوك والعاطفة ، وهو أقبحُ وأشدُّ خطراً وضرراً من النجاسات المادية المغلّظة ، التي منها عَذِرَةُ الكلاب والخنازير .

لذلك وجّه الله عزّ وجلّ للذين آمنوا النهي عن أن يُمَكِّنُوا المشركين من أن يقرَبُوا المسجد الحرام بعد العام الذي حجّ فيه المسلمونَ بقيادة أبي بكر رضي الله عنه ، وبعَثَ فيه الرسولُ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه ليُعلِنَ على الناس يوم الحجِّ الأكبر أوائل سورة « براءة » ومنها هذه الآية .

وقد أجاب الله عزّ وجلّ عما قد يخطُر في بال المسلمين من أن هذا المنعَ قد يحرِمُهُمْ من فوائد اقتصادية يحصُلُون عليها بحجِّ المشركين على عاداتهم الجاهلية ، فقال تعالى :

﴿ . . . وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

العيلة : الْفَقْرُ والحاجة .

ويظهر لنا أنّ الغاية من منع المشركين من الحج حماية الحرم المكي وحماية النُّسُكِ فيه من كل شرك ، ومن كلِّ كفر بالله عزّ وجلّ .

النص التاسع :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول] بشأن المنافقين الذين تخلَّفُوا عن غَزوَةِ تَبُوك متعلِّلين بأعذارٍ كاذبات :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

في هذا النص وصَفَ الله عزّ وجلّ المنافقين بأنهمْ رِجسٌ ، لأن نفاقهم يجمَع نجاسةً مغلّظةً معنويّةً ، هي نجاسة الكفر ، ونجاسةً مغلّظة معنوية أخرى ، هي نجاسة النفاق ، فَهُمْ نَجِسُونَ نجاسة مُركّبةً من خبيثتين مغلّظتين كبيرتين ، جعلتا ذاتَهُمُ الداخلية تتحول ماهيتُها إلى نجاسة ، ونجاستهم الفكرية والاعتقادية والخلقية والإرادية ذاتُ آثار قبيحة نَجِسَةٍ في السلوك ، ولا يصلُح لنجاستهم إلا الدَّرْكُ الأسفلُ من النار .

النص العاشر :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول] بشأن المنافقين أيضاً :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

أي : فزادَتِ المنافِقين كُفراً ونِفاقاً مضافَيْن إلى ما لديهم منهما ، وسَمّى الله كُفرَهُمْ ونفاقَهم رِجساً .

أما زيادَةُ الرِّجس فيهم فآتيةٌ بسبب أنّ التنزيل الجديد من القرآن يزيدُهم عِناداً وإصراراً وكراهيةً للدّين ، لما في التنزيل الجديد من تكاليف يكرهونها ، ويَضِيقُونَ بمسايرَةِ المؤمنين في تطبيقها، ولِمَا قدْ يشتملُ عليه من فَضحٍ لِنفاقهم.

أمّا المؤمنونَ فكلُّ تنزيلٍ جديدٍ يزيدهم إيماناً بعناصِرَ فكريّة جديدة ، أو مؤكِّدَة لعناصرَ سابقة ، ويزيدُهم حُججاً وبراهين وبيانات حول أسس الإيمان ، ومفاهيم الدّين .

* * *

(٤)

استعراض النصوص التي فيها لفظتا « الطَّيِّبِ والخبيث »

تعريف الطيب والخبيث :

الطيّب : هو في اللغة ما خلا من الأذى والْخَبَث ، ومَنْ تَخَلَّى عن الرذائل ، وتحلَّى بالْفَضَائل .

والطيّبُ : الطاهر . ومَساكن طيِّبة ، أي : طاهرة ، وتُرْبَةٌ طيّبة ، أي : جيّدة صالحة للنبات ، وطُعمَةٌ طيبة : أي : حلال . وريحٌ طيبة ، اي : ليّنة ناعمة لا تضُرُّ ولا تُؤذي . وكلمةٌ طيبة ، أي : حسنة جيدةٌ لا باطل فيها ولا شرّ ، مثل كلمة : لا إله إلا الله . وامرأةٌ طيّبةٌ ، أي : حَصَانٌ عفيفة .

ويُقابِلُ لفظَ « الطيِّبِ » في هذه المعاني لفظُ « الخبيثِ » مقابلة تضادّ .

النص الأول :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] :

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

لقد جعل الله عزّ وجلّ في الكُرَة الأرضيّة أرضاً طيّبة ، أي : نقية من الأخْبَاثِ المفسدة للزَّرْع ، وهذه الأرضُ الطيّبة هي مثال الطيبينَ والطيّبات من الإنس والجن . وجعلَ فيها أرضاً خبيثة ، أي : رديئة فيها أخباثٌ مفسدة للزرع ، أو لا تَصْلُح عناصرها للنبات ، والأرض الخبيثة إذا خرج فيها النبات

في بعض الأحيان فإنه لا يخرُج إلا نَكِداً ، أي : عَسيراً وغيرَ سَوِيّ ، وهذه الأرض الخبيثة هي مثال الخبيثين والخبيثات من الإنس والجنّ .

النص الثاني :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾

في هذه الآية وصَفَ الله عزّ وجلَّ الأشياء الجيّدة الصالحة من المآكل والمشارب والملابس والأثاث بأنها طيبة ، ووصف الأشياء الرديئة أو الفاسدة منها بأنّها خبيثة ، وقال تعالى بشأنها : ﴿ ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ منهُ تُنفِقُونَ ﴾ : أي : ولا تَقْصِدوا الخبيث من أموالكم فتَخُصُّوهُ بأنْ تُنْفِقوا منه ، دون أن تُنْفِقُوا من طيّباتِ ما كسبْتُمْ ، أمّا إذا كان مختلطاً ضمن الطيّب الْجيِّد فلا مانع من الإنفاق منه بشكل عامٍّ مختلط ، لأن الأشياء غالباً ما يختلط فيها الجيّد والرّديء .

دلّ على إرادة تخصيص الخبيثِ بالإنفاق منه عبارةُ : ﴿ ولا تَيمَّمُوا الْخَبيث ﴾ أي : ولا تقصِدُوه بعينه ، وتقديم المعمول على عامله في عبارة : ﴿ مِنْهُ تُنْفِقُون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيه إلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فيه ﴾ : أي : لَوْ كُنتمْ أَنْتُمُ الفُقَراءَ واضْطُرِرْتُمْ أَنْ تَأخُذُوا الرَّديء فإنَّكُمْ لا تأخذونه إلاَّ في حالة إغماض أعينكُمْ عن رؤيته كراهيةً له ، فَالْيَدُ تأخُذُ للحاجة ، والعينُ تُغْمِضُ للكراهية .

النص الثالث :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول] خطاباً للمؤمنين :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ . . . ﴿١٧٩﴾ ﴾

أي : ما كان الله ليَتْرُكَ المؤمنين على حالة النعمة والرخاء والعزة دون أن يُعرّضهم لامتحان شديدٍ على نفوسهم ، بالمصائب والبأسَاء والضرّاء ، وأن يُطَوِّلَ أمدَ هذا الامتحان حتى يميزَ الخبيثَ ، وهم الذين لا يُطيعُون ربهم ، ولا يصبِرون على الابتلاء الذي يخالف أهواءهم وشهواتهم ورغباتهم ، من الطيِّب ، وهم الذين يُطيعون ربهم ويصبرون ابتغاء مرضاته ، ولو خالَفَ الابتلاءُ أهواءهم وشهواتهم ورغباتهم .

ولمَّا كُنتُمْ أيها المخاطبونَ من المؤمنين في تاريخ البشريّة فإنَّ سُنّةَ الله لا بُدَّ أنْ تُجْرَى عَلَيْكُمْ كما أجْراهَا على كلِّ المؤمنينَ من قَبْلِكُمْ ، وسيُجْريها على كلِّ الْمُؤمنينَ من بعدِكُمْ .

هذا ما دَلّ عليه وضعُ لفظ ﴿ المؤمنين ﴾ بدَلَ ضمير المخاطَبين ، إذْ كان الظاهر أن يقول لهم : ما كان الله ليذْركُمْ على مَا أَنْتُمْ عَلَيْه .

ولكن لمّا كانت هذه سنّتَهُ سُبحانه وتعالى في جميع المؤمنين السابقين والّاحقين قال تعالى: ﴿ما كانَ الله لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْه ﴾ ويُمْكن أنْ نُقَدِّرَ العبارة قبل المحاذيف بما يلي : ما كان الله ليذَرَ المؤمنين على مثل ما أنتم عليه ويذَرَكُم وأنْتُمْ من المؤمنين على ماأنتم عليه دون أن يبتلِيَهُمْ ويبتليَكُمْ بالمكاره والسيئات، حتى تتكشَّفَ أحوالُهُمْ وأحوالُكُم، فيَمِيزَ الخبيثَ من الطيّب.

وفي هذا النص نلاحظ أن الله عزّ وجلّ وصف ذا الدوافع إلى فعل السيئات بالخبيث ، وذا الدوافع إلى فعل الصالحات بالطيب ، لأنّ الدوافع إلى فعلِ السيئات هي من فئة النجاسات ، بخلاف الدوافع إلى فعل الصالحات فهي من فئة الطاهرات .

النص الرابع :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] :

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

أي : ولا تأخذوا الطيّب (وهو الجيّد الصالح) من أموال اليتامى وتضعوا بدلَهُ الخبيث (وهو الرديء أو الفاسد) من أموالكم ، مُستغلِّين ولايتكم على أموالهم ، باعتبارِهِمْ صغاراً غير مؤهّلين لاستلام أموالهم وحمايتها ، والقيامِ بشؤونِها ، إدارةً وحفظاً وتصرُّفاً .

فوصف الله عزّ وجلّ الرَّدِيءَ والفاسد من الأموال بالخبيث ، لأن ما هو مكروه للنفوس يشبه الأمورَ المستقذرة لديها ، ووصف الله الجيّد الصالح بالطيبِ ، لأنه من فئة ما هو مرغوب فيه ، كالطاهرات النظيفات .

النص الخامس :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

أي : فما يُبْدي الإنسان من عَمَلٍ وما يُخفي من عَمَلٍ ، حتَّى ما يُخفيه من نيّة صالحةٍ أو سيئةٍ ، أو مشاعر حسنةٍ كحُبّ الحَقِّ وأهله ، أو مشاعِرَ سيّئةٍ كالحسَد الذّميم ، وكراهية الحق وإرادةِ الشر ، فإنّ الله يعلَمُه ، فمنْهُ خبيث ، ومنه طيّب ، أمّا الخبيث فرديءٌ ونجسٌ ، وأما الطيّبُ فجيّدٌ وطاهر .

ويَفْتَتِن بعضُ الناس بكثرةِ أعداد الخبيث ، لكثرة أعداد الكافرين أو جماهير الفاسقين والظالمين ، وكثرة توالد الخنازير التي تجعلُ من يُربيهبا لآكلي لحومِها ذا ثراء سَريع ، وعلى ذي البصيرة أن يقول له :

« لا يستَوي الخبيثُ والطيّبُ ولو أعجَبَكَ كَثرَةُ الخبيث » .

هذه الجملة البديعة تُقدِّم قاعدة كليّة من قواعد الوجود ، فكثرةُ الخبيث ولو كانت بأعداد الناس جميعاً إلا واحداً هو الطيبُ وحدَهُ فإنهم لا يستَوون

معه ، بل يظلُّ هو الراجح الممتازَ بفضائله وطهارته ، وهم مهما بلغت أعدادُهم كالأصفار الساقطة التي ليس لها وزنٌ ولا قيمة ، وقد كان إبراهيم عليه السلام أمّةً وَحْدَهُ ، وكان راجحاً على كلّ أهلِ زمانه .

ولمّا كانت الأعمال الصالحة التي يتّقي بها المؤمنون عقاب الله وعذابه هي من فئة ما هو طيّب طاهر ، ولمّا كانت الأعمال القبيحة السيّئة التي يتقي المؤمنون بتركها عقاب الله وعذابه هي من فئة ما هو خبيثٌ نجس ، وكانت هذه التقوى بفعل القسم الأول وتَرْكِ القسم الثاني من اختيارات أُولي الألباب الذين يَجْزِيهم الله بالفلاح ، قال الله عزّ وجلّ في خاتمة النّصّ :

﴿ . . . فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

أي : فاعملوا يا أصحاب العقول الواعية الدّرّاكة الأعمالَ الطَّيِّبةَ الصالحة ، واترُكوا الأعمالَ الخبيثة السيئة راجين أن تُحقّقُوا لأنفُسِكُم النجاةَ من عذابِ الله ، والظَّفَرَ بجنّاتِ النعيم وسعادَةِ الدارين .

النص السادس :

قول الله عزّ وجلَّ في سورة [الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول] :

﴿ . . . وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

أي : والّذين كفروا يُحْشَرُون يوم القيامة إلى جِهَةِ جهنّم ، وفي المقابل يُحْشَر المؤمنون إلى جِهَةِ الجنّة ، والغرضُ من هذا أنْ يميز الله عزّ وجلّ الخبيثَ وهم الكافرون ، من الطيّب وهم المؤمنون .

وبعد حشر الكافرين إلى جهَةِ جهنَّم يجعل الله الخبيثَ بعضَهُ على بَعْضٍ ، فيَرْكُمه جميعاً كرُكام القمامات القَذِرات النجسات ، فيجعلُهُ في جهنّم ، أولئكَ البُعَداءُ عن رحمة الله هُمُ الخاسرون الذين خَسِروا سعادَتهم وخسروا كلَّ شيءٍ ،

فهم يتقلَّبُون في عذاب جهنّم وعذابِ الخسران .

النصّ السابع :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [النور/٢٤ مصحف/١٠٢ نزول] :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

في هذا النص وصف الله عزّ وجلّ الزانيات بالخبيثات ، ووصف الزّانين بالخبيثين ، لأنّ الزّنا نجاسةٌ في السلوك وفي الإرادة ومطامعِ النفس ، ووصف العفيفات والعَفيفينَ عن الزّنا بالطيّبات والطيبين ، لأنّ العفةَ عن الزّنا طهارةٌ في السلوك وفي الإرادة وشرف النفس .

أولئك مَبَرَّؤون مما يقولون : أي : الطيبات والطيّبون مبرّؤون مما يَقْذِفُهُمْ به المفترون الأفّاكُون .

النص الثامن :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [إبراهيم/١٤ مصحف/٧٢ نزول] :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

اجْتُثَّتْ : أي : قُطِعتْ .

مالَها من قرار : أي : مالها من ثباتٍ .

في هذا النص وصفَ الله عزّ وجلّ بعض الكلام بأنّه طيّبٌ ، لما فيه من دلالة على معانٍ طهارَةٍ شريفة ، ووصف بعض الكلام بأنه خبيثٌ لما فيه من دلالة على معانٍ قذِرَةٍ باطلةٍ خسيسة .

فمن أمثلة الكلام الطيّب كلمة : « لا إله إلاّ الله » التي يقولُها المؤمن

إعلاناً عن إيمانه الذي في عُمْقِ قلبه ، إنّ أصلَ هذه الكلمة وهو حقيقةُ توحيد الله في إلهيته أمرٌ حَقٌّ لا شكَّ فيه ، وهذا الحق يتعلق بالله الخالق البارىء المصوّر ربِّ السماوات والأرض ، وإعلانُها يُعبِّر عن إيمان قائلها الثابت المستقرّ في قلبه ، وفروعُ هذه الكلمة وهي أنواعُ وصُوَرُ التطبيقات الإسلامية في سلوك المؤمن فروعٌ ممتدّة في سماء حياته ، فهي كشجرةٍ طيبة ، أصلُها « أي : جذرها » ثابتٌ في الأرض ، وفُروعُها منتشرة في السماء ، أي : فوق الأرض باتجاه السّماء .

ومن أمثلة الكلام الخبيث كلمةُ الكُفْر والعياذُ بالله منها ، فهي كلمةٌ ليسَ لها أصلٌ ثابتٌ ، إذ هي مُباينَةٌ ومُناقِضَةٌ للحقِّ ، وليس لها أصلٌ ثابت في نفس الكافر وقلبه ، لأنها لا تعتمدُ على حُجَّةٍ صحيحةٍ ، وفُروعُ هذه الكلمة وهي أنواعُ السلوك الفاسقِ والفاجرِ المنحرفِ عن صراط الله فروعٌ هابطةٌ إلى مواطن القذارات ، فهي كشجرة خبيثةٍ مقطوعةٍ من فوق الأرض ليس لها جَذر ، وذاتُ فروع شائِكَة ، وثمراتٍ سامّاتٍ ضارّاتٍ ساقطاتٍ على الأرض وفي الأوحال .

النص التاسع :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] في حكاية خطابه لموسى عليه السلام مبشّراً بالرسول محمد ﷺ :

﴿ . . . وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَـٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

جاء في هذا النص الذي تَضمَّنَ البشارة بالرسول محمد ﷺ أنه يُحِلُّ لهم الطيباتِ ويحرِّمُ عليهِمُ الخبائث ، أي : يبيّنُ لهم أن الله قد أحَلَّ لهم من المآكل

والمشارب الطيّبات كُلَّها ، وحَرَّم عليهم منها الخبائث .

الطيباتُ : هي الطاهرات التي لا ضرر فيها ولا أذىً .

الخبائث : هي النَّجِسَاتُ والقذِراتُ التي فيها ضرر لهم في أجسادهم أو عقولهم أو نفوسِهم أو دينهم .

النص العاشر :

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول] :

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

فوصَفَ الله عزّ وجلّ في هذه الآية أعمال قوم لوط القبيحة الفاحشة ومنها إتيان الذكران من العالمين بأنها خبائث ، وهي من فئة النجاسات والقَذَاراتِ في الأعمال ، وهي غالباً مصحوبة بنجاسات وقذارات مادّيّة .

* * *

الفَصْل الخَامِس

الرّبوبيّة والعبوديّة والألوهيّة

وفيه ثلاث فقرات :

(١) الرُّبُوبية .

(٢) العبودية .

(٣) الألوهيّة .



(١)

الرُّبُوبيّة

الرُّبوبيّة : اسم مصوغ للدّلالة على الصفات التي يتَّصِفُ بها الرب الخالق جلّ جلاله ، أي : الصفات التي تُفهَمُ من معنى كَونِه رَبّاً كما سيأتي في معنى كلمة « الرّبّ » .

الرَّب : كلمة هي في الأصل مصدَرُ فعل « رَبَّ » . يُقال لغةً : ربَّ فلانٌ الولَدَ أو الصبِيَّ أو المُهرَ مثلاً يَرُبُّهُ رَبّاً . كما يقال : رَبَّاه يُربِّيهِ تربيةً . وكما يُقالُ : ربَّبَهُ يُرَبِّبُهُ تربيباً .

فكلمات : « الرَّبّ - والتربية - والتَّرْبِيب » مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِها ومعناها واحد ، وهو الإنشاء المتدرّج للشيء حيّاً كان أو غير ذي حياة ، وتَعَهُّدُ الشيءِ حالاً فحالاً ، وطَوراً فطوراً ، بحسب فطرته واستعداداته ، فيشمل هذا التعهُّد بعموم معناه التغذية، والتنمية، والإرشاد، والإصلاح، والتقويم، والحفظ ، والرعاية ، والتأديب ، والتهذيب ، والتعليم إذا كان المُربَّى يحتاج تأديباً أو تهذيباً أو تعليماً ، ويشمَلُ الإمداد المستمرّ بما يحتاج إليه لبقائه وسلامته ، إلى غير ذلك من مفاهيم يدركها الباحثون في مجالات التربية والتعليم .

وهذه التربية تتناول الأحياء والنباتات والأشياء غير ذات الحياة ، من كلّ ما يحتاج لبقائه أو سلامته تعهُّداً وإمداداً ، أو رعاية وحفظاً .

ثم استعيرت كلمة « الرّبّ » من المصدريّة إلى اسم الفاعل ، فصارت

تطلق كلمة « الرب » بمعنى « المُربّي » .

ونظراً إلى معنى التربية ولوازمها أطلقت كلمة « الرّب » في لسان العرب على معانٍ كثيرة ، منها : « المَلِك - الأمير - السيّد المطاع - مالِكُ الشيء أو مستحقه (فَرَبُّ كل شيء مالكه أو مستحقه) - المدبّر - القيّم - المُنعِم - المُصلح للشيء - المنمّي للشيء » إلى غير هذه المعاني ممّا يشبهها وتدخُلُ ضمن المفهوم العامّ للتربية .

ولمّا كانت التربية الحقيقية لكل شيءٍ في الوجود سوى الله عزّ وجلّ ، سواء بخلقه ابتداءً أو بمتابعة بقائه وإمداده ورعايته وتنميته دواماً صفةً من صفات الله عزّ وجلّ كان سبحانه هو رَبّ العالمين ، ورَبّ كل شيءٍ .

ولهذا جاء وصفُهُ في القرآن المجيد بأنه : « رَبُّ العالمين - ورَبُّ كُلِّ شيءٍ - وربُّ السماوات والأرض - ورَبُّ السماوات السَّبع وربُّ العرشِ العظيم - ورب الشِّعْرَى (نجم كان يُعبَدُ في الجاهلية) - ورب المشرق والمغرب - ورب المشرقين والمغربين - ورب المشارق والمغارب - وربُّ الْفَلَق - وربُّ الناس - وربُّ البيت (أي : الكعبة المشرفة)» .

فالرّبوبية هي الوصف الجامع لكلِّ صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته ، واسم « الرَّبّ » هو الاسم الدّالّ على كل هذه الصفات .

وهنا نلاحظ أن الله جل جلاله قد اختار بعلمه وحكمته لعمليات خلقه وإبداعه لمخلوقاته ، وهيمنته على كل ما خَلَق بدءاً ودَواماً أن يكون على نظام التربية التي سبق شرح معانيها ، لا على نظام الخلق دفعة واحدة ، ثُمَّ ترْكِ المخلوقِ يسير وفق البرنامج الموضوع له ، دون إمداد ورعاية وحفظ وتعهُّدٍ من خالقه ، بل خلَقَ الخلْقَ وفق نظام لا يستغني فيه عن خالقه طرفةَ عين ، ولا أقلّ من ذلك ، في كلّ صغير وكبير من ذاته ومن صفاته ، فلو رفع إمداده عن كونه وإمساكهُ له في الوجود خلال أقصر زمنٍ لَعادَت الموجوداتُ إلى أصلِها وهو العدم ، هذا النظام هو نظام التربية ، فلِلّهِ عزّ وجلّ الرّبُوبية المستمرة التي

لا تنقطع ، والمؤثرة بكل شيءٍ في الكون من غيبيّ ومشهود ، ماديّ ومعنوي .

دلّ على هذه الحقيقة قول الله عزّ وجلّ في سورة [فاطر/٥٣ مصحف/ ٤٣ نزول] :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤١ ﴾

فالله عزّ وجلّ في رُبُوبيّته لكونه المستمرّة بلا انقطاع لا تأخُذُه سِنَةٌ ولا نومٌ ، فلا يخرجُ عن علمه وهيمنته وسلطانه وكل عناصر ربوبيته صغير في الوجود مهما صَغُر ، وكبير مهما كبُر وعظم .

لهذا فالله وحده هو ربُّ العالمين ، وربُّ كُلِّ شيء ، وهو المالِكُ والمَلِكُ ، والسيّد الذي يجب أن يُطاع ، والإله المستَحِقُّ أن يُعبَد دُونَ سواه .

فإذا أُطْلقت كلمةُ « الرّبّ » لم يجز أن يُراد بها غير الله عزّ وجلّ .

ولملاحظة معنى الخلق والتربية المستمرة في كلمة « الرّبّ » جاء معنى كون الله مَلِكاً للناس ، ومعنى كونه إلَهاً للناس بحُكمِ المُرَتبين على معنى كلمة « الرّبّ » في سورة [الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول] فقال تعالى فيها :

﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾

فمن كان هو الرب كان هو المَلِكَ وكان هو الإلَه حتماً .

أسماء الله الحسنى التي تدلُّ على عناصر ربوبيّة الرب جلّ جلاله .

إن صفات رُبُوبيّة الرّبّ جلّ وعلا تدلُّ عليها أسماء الله الحسنى ذوات التعلّق بشيء من الكون ضمن مفهومٍ ما من مفاهيم التربية ، كالأسماء التالية :

« الخالق - الرازق - الرحمن الرحيم - المَلِك - المهيمن - العزيز - الجبار - البارئ - المصور - العفو - الغفّار - الغفور - القهار - الوهّاب - الفتاح - العليم -

القابض الباسط - الخافض الرافع - المعزّ المذلّ - السميع البصير - الحكَم العدل - اللطيف الخبير - الحليم الصبور - الحميد الشكور - الحفيظ - المغيث - الرقيب - الحسيب - المُجيب - الحكيم - الودود - الباعث - الشهيد - الوكيل - الوليّ - المحصي - المبدئ المعيد - المحيي المميت - القادر المقتدر - المقدّم المؤخر - الْبَرُّ - التوّاب - المنتقم - الرؤوف - مالك الملك - المقسط - الجامع - المانع - المغني - الضارّ النافع - الهادي البديع » .

هذه الأسماء وأشباهها تدخل تحت مفهوم كلمة « الرَّبّ » لأنّ الله عزّ وجلّ يتصرّف بمخلوقاته ويعاملها من خلال اتصافه بما تدلُّ عليه هذه الأسماء الحسنى ، فربُوبيتُه لها تشتمل على كلِّ معانيها .

فبكونه جلّ وعلا رَبّاً خالقاً يَخلُق وفق نظام التربية الذي اختاره لعمليّات خلقه ، وبكونه ربّاً رَازقاً يُمِدّ مخلوقاته بأرزاقها ، وبكونه رَبّاً رحماناً رَحيماً يعامل مَرْبوبيه برحمته ، وهو بسلطانه على مربوبيه مالِكُهُمْ ومَلِكُهُمْ والمهيمن عليهم ، وهو بكونه رَبّاً خالقاً لا بد أن يكون قادراً مقتدراً عزيزاً يفعل ما يشاء ويختار - وهو بكونه رَبّاً يغفر ويعفو عن المذنبين ، ويراقب ويحاسب ، ويحكُمُ بالعدل وينتقم ، ويجيب سؤال السائلين ، ويحيي ويميت ، ويبعث ليوم الحساب . . . وهكذا إلى سائر الأسماء التي تقتضيها مفاهيم رُبوبيّته لخلقه جميعاً .

وبهذا ظهر لنا أنّ الرُّبوبيّة التي تَدُلُّ عليها لفظة « الرَّب » إحدى أسماء الله الكلية العامة ، التي تنضوي تحتها أسماءٌ حُسنى كثيرة ، هي الصفة التي تجعل من تتعلّقُ به عَبْداً .

فالإنس والجنّ والملائكة وكلُّ كائنٍ حيٍّ مُدْرِكٍ جميعُهُمْ عِبادُ الله ، مملوكونَ له ، مُحاطُونَ إحاطةً شامِلَةً برُبوبيَّته جلّ وعلا .

* * *

(٢)

العبوديّة

العبد : في اللغة هو الرقيق المملوك ، ومن المعلوم بداهةً أنّ من حقّ المالك على العبد الرقيق المملوك أن يقوم بخدمته ، وأن يطيع أوامره ونواهيه .

فالعبودية في مفاهيم الناس تقتضي حقّ المالك على مملوكه بأن يقوم بخدمته على مراده ، ويُطيعَه في أوامره ونواهيه وكلّ مطالبه منه ، مما يستطيعه .

ولمّا كان الناسُ جميعاً مخلوقين لله ، ومربوبين له دواماً ، كانوا جميعاً مملوكين له ، فيجب عليهم بداهةً طاعتُهُ في أوامره ونواهيه ، والتقرُّب إليه بمحابّه ومراضيه ، لحقّ المِلْكِ ، وحَقِّ الإمداد بالنّعم الكثيرة الظاهرة والباطنة التي لا تنقطع ما داموا في الحياة ، وفي الوجود ولو بعد انفصال الروح عن النفس والجسد .

هذه مفاهيم أوّليّة عامّة لمعنى العبودية ، فإذا دقَّقْنا النظر وجدنا أن من البَدَهيِّ أن يكونَ المخلوقُ عبداً مملوكاً لخالقه ، فكيف به إذا كان لا بقاء لذاته ولا لصفاته إلاّ بإبقاء الخالق الربّ له في الوجود ، ولا قُدرةَ له ولا حول إلاّ به ، ولا رزق ولا صحة ولا حياة ولا أمنَ إلاّ بإمدادٍ منه ، ولا عِلمَ ولا فَهمَ له إلاّ بعطاءات الله له ومعونته ، وهكذا إلى كلِّ خليّة من خلاياه ، وكلّ حركة ظاهرة أو باطنة من حركاته ، وكل خاطرة من خواطره ، وعاطفة من عواطفه ولذّة من لذّاته .

إنّ رُبُوبيّة الله لنا لم تَدَع فينا ذرّةً من الذّرات المادّيّة والمعنويّة ولا أصغر خارجةً عن سُلطانِها ومَدَدِها وعطاءاتها وسائر وجوه تربيتها ، في كلِّ لحظة من لحظات وجودها .

وعلاقة الأكوان كلِّها بالله عزّ وجلّ هي علاقة مَرْبُوبٍ برَبٍّ ، ولكلّ مَرْبُوبٍ من هذه الأكوان علائقُ عبودية جبْريَّة موصولةٍ بأسماء الله الحسنى ذوات التأثير فيه من عموم الأسماء التي تدخل تحت مفهوم الرَّبّ .

* * *

العبودية الجبرية والعبودية الاختيارية

من أصول المفاهيم الاعتقادية في ركن القضاء والقدر ، أحَدِ أركان الإيمان ، أنّ الناس في حياتهم واقعون ضمن نوعين من خطوط حركة الوجود والحياة :

النوع الأول : ما هم فيه مجبورون لا سلطان لإراداتهم عليه مطلقاً ، وهو خارجٌ عن حدود مسؤوليّاتهم التكليفيَّة والجزائية ، مثل : « أصل وجودهم - نموّ أجسادهم - حركة خلاياهم - القبض والبسط في قلوبهم - الأعمال العجيبة المدهشة التي تقوم بها أجهزة الكبد والطحال والرئة والكلى والأمعاء والأعصاب - وغير ذلك » .

فكلُّ ما يجري للناس أو على الناس مما يحبّون أو ممّا يكرهون ضمن خطوط هذا النوع يتمّ دون توسُّط إراداتهم فيه ، وهو يخضع لسلطان قضاء الله وقدَرِه بصورة مباشرة ، ولو كان بعضه استجابة من الله عزّ وجلّ لدعاء عباده ، أو تربيةً وتأديباً ، أو ابتلاءً لهم ، أو جزاءً بثوابٍ أو عقاب ، إذْ إرادة العباد لا تملك منه شيئاً ، بل هو يَتِمّ بتقدير الله وتدبيره وقضائه وخلقه .

والناس في هذا النوع عبيدٌ لله الرَّبّ جلّ جلالُهُ عُبوديةً جبريةً ، كسائر الكائنات المجبورة في الكون التي لا تملك في مسيرتها في الوجود إرادةً ما .

النجوم والكواكب والمجرّات تسير مسيراً جبرياً ، والذرّاتُ في حركاتها تسير مسيراً جبرياً ، والخلايا في الأجساد تسير مسيراً جبريّاً ، والنباتات على اختلافها نماءً وذُبُولاً ونهايةً تسير مَسيراً جبرياً ، والأحياء غير المريدة تسير

ضمن غرائزها مَسيراً جبرياً، وقوانينُ الطبيعة في كل عناصرها تسير مسيراً جبريّاً .

وليس شيءٌ في الوجود يسير في حركاته مَسيراً جبرياً هو مسؤولٌ عما هو مجبورٌ فيه ، لا عند خالقه ، ولا في مفاهيم أيّ ذي فكر يُدرِكُ حقائق الأمور ، ويفهَمُ حدودَ المسؤوليات .

ولا يستطيع الكائن المجبورُ التحرُّرَ من عبوديته الجبرية بِوجْهٍ من الوجوه .

النوع الثاني : ما يكون الناس فيه ذوي إراداتٍ حُرَّة ، ويكون لإراداتهم سلطانٌ عليه بتقدير الله ، كالأعمال والحركات الظاهرة والباطنة التي إذا أرادوا عَمِلُوها وإذا لم يُريدُوا لم يعمَلُوها .

مثل حركات الأيدي والأرجل في أفعالها الإرادية ، وفتح الأجفان وغَمْضِها بالإرادة ، وشُرْب الشراب وأكل الطعام ونُطْقِ الكلام بتوجيه الإرادة ، ومثل توجيه التفكير لبحث موضوعٍ ما ، وتوجيهِ النفس إرادياً لمحبّةِ شيءٍ ما ، أو كراهيةِ شيءٍ ما ، وعَقْدِ نيّةٍ وتحديد قَصدٍ من عمَلٍ ما بحركةٍ إراديّة داخلية ، إلى غير هذه الأشياء مما يخضع لسلطان الإرادة التي مَنَحَها الخالق بتقديره وقضائه حُرّيّة اتخاذِ مُرادٍ ما ، من احتمالين فأكثر يستطيع الإنسان أن يختاره ويحدّده ويعمل لتحقيقه .

وبعد تحديد المُراد يجدُ الإنسانُ وسائل مسخَّرةً مختلفة في ذاته وفي الكون من حوله ، قد سخّرها الرَّبُّ بتقديره الحكيم وقضائه النافذ لذوي الإرادات الحرَّة، حتى يتَّخِذُوا منها ما يُحققون به مراداتهم .

هذه المسخّرات في ذات المخلوق الحي المريد ، وفي الكون من حوله قد سخّرها العليم الحكيم القدير الربُّ جلّ وعلا بقضائه وقدره ، ليمتحنه في ظروف الحياة الدنيا ، فهي تُطيعُه بخلقِ الله وتقديره ضمْنَ قوانينها وأنظمتها ، إذا أحْسَنَ اسْتخدامَ مَفاتيحِها التي جعلَها الله لها ، وأحسنَ جمع العناصر التي تحتاج جمعاً وتأليفاً لتحقيق الغاية منها ، وأحسنَ تفريق العناصر التي يتطلّبُ تحقيقُ الغاية منها تفريقاً .

مثلاً : من أحسَنَ استخراج النِّفْط وتصفيته وتمييز بعضه من بعض، وأحسن صنع المكنات الحديدية الآلية، وأحسن استخدامها، وأحسن استخدام كثير من الموادّ المختلفة في الكون لصناعة طائرة، وأحسَنَ قيادتها، طارت به في الجو بقضاء الله وقَدَرِه إلى حيثُ يُريد.

فمِنْحَةُ الإِرَادةِ الحرَّة، وتسخيرُ المسخّراتِ، قد كان - بمقتضى حكمة الرب العليم القدير الحكيم - لغاية امتحان الإنس، وكذلك الجنُّ في ظروف هذه الحياة الدنيا، وبعد الامتحان يكونُ الحسابُ ثم الجزاء بالعدل أو بالفضل، في ظروف حياةٍ خالدةٍ لا نهاية لها ولا فَناءَ فيها.

وهنا نَتَساءل : ما هو المطلوبُ من الممتحَنِ في رِحْلةِ امتحانه خلال المدَّة المقدَّرة لبقائهِ في الامتحان، وهي الزمن المقرَّر لتكليفه من عُمْره المقدَّر له في هذه الحياة الدُّنْيَا؟

والجواب : أن يُحقِّقَ عبوديّتَه الاختياريةَ لربِّهِ فيما مَنحَ إرادتَهُ الحُرّةَ من سُلطةٍ على المسخَّراتِ له في ذاته، وفي الكون من حوله.

هذه « العبودية الاختيارية » هي التي دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة [الذّارِيات/٥١ مصحف/٦٧ نزول] :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾

فبالعُبُوديّة الاختيارية يحقِّقُ العبدُ الممتحَنُ بإرادتِهِ أنه أهلٌ لما منحهُ الله من إرادةٍ حُرَّة، وما سخَّرَ له بتقديره وقضائه وخلقه من مُسخَّراتٍ تُطيعه في الكون، إذا التزم بقوانينها وأنظمتها الجبريّة، وأحسن استخدامَ مفاتيحها.

أما مَن رفضَ هذه « العبوديةَ الاختيارية » فإنه يكشف بما اختار لنفسه في رحلة امتحانه عن تمرّدِه واستكبارِه على ربه، بارئِه ومُمدِّه بعطاءات ربُوبيته، ويَدُلُّ بما اختار لنفسه من سلوك على أنه ظلومٌ جَهولٌ، ليس أهلاً للمِنْحةِ العظيمة التي منحه الله إيّاها، وهي مِنحةُ الإرادة الحرة، ومِنحةُ التسلُّط على المسخّرات في ذاته وفي الكون من حوله، فحَسْبُه جهنَّمُ يُساقُ إليها يوم الدّين،

مجبوراً مضطراً ، لا قدرة له على دفعٍ أو رفعٍ أو نجاةٍ ، ولا يملِكُ صَرْفاً ولا عَدلاً ، إذا لا قُدرة له على شيءٍ يصرف به عن نفسه العذاب ، ولا على شيءٍ يَبْذُلُ منه ما يُعادِلُ ما استحقَّ بظُلمِه من عذاب أليم خالد .

بهذا ظهر لنا الفرق بين العبودية الجبريّة للرب عزّ وجلّ وبين العبودية الاختيارية .

وللعبودية الاختيارية مراتبُ ودرجاتٌ لكل مرتبة ، وكمال العبودية الاختيارية يتحقق حينما يكون العابد في المجالات التي هو فيها ذو إرادةٍ حُرّةٍ ذا أحوالٍ اختياريّة مشابهةٍ لأحوال المجالات التي هو فيها خاضعٌ للعُبُوديّة الجبريةِ ، حتى يظفر بأسمى درجات القُرْبِ من الرَّبِّ الجليل .

وتكون هذه العبودية بأن يُحقِّق العبد بإرادته الحرَّة معاني افتقاره لربوبية الربّ له ، وخضوعِه لمالكيته ، وذُلِّهِ لسلطانه ، وطاعتِه لأوامره ونواهيه ، وتقرُّبِهِ إليه بمحابّه ومراضيه على ما شرَعَ وأنزل على رسوله من تعاليم دينه الذي اصطفاه لعبادِه ، ومُقابلةِ كلِّ صِفةٍ تتعلقُ به من صفات الربوبية بما يلائمها من صفات العبودية .

إن الرب الجليل الذي له كُلُّ كمالات الرُّبوبية دواماً يُدْني عبدَهُ إلى منازل القرب منه بمقدار ما يحقِّقُ ضِمنَ مستطاعه من عُبوديّةٍ اختيارية .

بهذا التحليل نُدرِك أن مُمارسةَ السلوك الإرادي في الأعمال الجسدية الظاهرة ، والأعمال النفسية الباطنة ، مما يُحقِّق معاني العبوديّة الاختيارية أو شيئاً منها هو ما يُسمى « عبادَةَ العبد لربّه » .

خلاصة تعريف العبوديّة الجبريّة والعبوديّة الاختياريّة :

بعد البيان التحليليّ السابق نستطيع أن نُلخّص تعريفاً لكلٍّ من العبوديّتين :

العبودية الجبريّة : كون الكائن الحي عبداً مملوكاً مَربُوباً لربّه ، خاضعاً لتصاريف قضائه وقدره بالجبر ، في كلّ ما يجري فيه مما يحبّ ومما يكره ، من

كلّ ما لا يتصرّف فيه العبدُ المملوكُ بإراداته الحرّة .

وهذه العبودية الجبرية لا مسؤولية على العبد في شيءٍ مما يحصُل بها وجوداً أو عدماً .

العبوديّة الاختيارية : هي السلوكُ الإراديُّ المحقِّقُ لمطلوب الربِّ من عبدِه ولما يُرضيه منه على ما شَرَعَ مع قصْدِ عِبادتِه له وحده .

وترتبط مسؤولية العبد المكلّف بكل ما هو خاضع لإرادته الحرّة من سلوكٍ ظاهرٍ وباطن ، إذ عليه في كل ذلك أن يحقِّقَ عُبوديّتَهُ الاختيارية باتّباع ما شرع الرب له من سُلوك ، ضمن حدود الإلزام أو الترغيب أو الإباحة .

وأوّل هذه العبودية الاختيارية إيمانُ العبدِ بربِّهِ وبكمالِ صفاته ، وبما أوجب على عباده أنْ يؤمنوا به من حقائق ، وبكلِّ ما أنزَلَ من بياناتٍ وشرائع ثبت لديهم صِحّة نِسبتها عن الرسُول عن الوحي .

وبعد الإيمان الكامل الصحيح يكونُ العبد مُطالباً في سلوكه الإراديّ الظاهر والباطن بالإسلام ، أي : بإعلان طاعته لربّه المالك ، ومبايعته على الالتزام بالطاعة على مقدار الاستطاعة ، وتتمُّ هذه المبايعةُ بإعلان الشهادتين ، إذ العبوديةُ من أوائل صفاتها إعلانُ العبدِ طاعتَهُ لِسَيِّدِه المالك ، وبعد هذا يأتي تطبيقُ هذا الإعلان بالسلوك العملي ، وكان الرسول ﷺ يُبايع أصحابَهُ على السَّمع الطاعة في العُسرِ واليُسر ، والمَنْشَطِ والمكرَهِ ضمن حدود الاستطاعة .

ومن أحقُّ بهذه الطاعة من الرب الذي لا تنقطع عن عباده عطاءات ربوبيته ؟! .

والطاعة تكون بفعل ما أمر الله به أمراً إلزامياً ورتَّبَ على تركه العقوبة ، وبترك ما نهى الله عنه نهياً إلزامياً ورتّب على فِعلِه العقوبة .

ثم يأتي فوق الطاعة أفعالٌ صالحة لم يُلزم الله بفعلها ، ولكنْ يُحِبُّ من عباده أن يفعلوها ، ويثيبهم إذا فعلوها من أجله ، ولا يعاقبُهُم على تركها إلا

بالحرمان من ثواب الفعل ، وأفعالٌ مكروهة لم يُلزِم الله بتركها ، ولكن يُحِبُّ من عباده أن يتركُوها ، ويُثيبُهم إذا تركوها من أجله ، ولا يُعاقبهم على فِعلِها ، إلا بالحرمان من ثواب الترك .

وهنا يظهر تسابق المتسابقين في مراضي الله للظفر بالقرب منه ، والظفر بشَرَفِ ونِعمةِ محبَّةِ الله على مِقدار السَّبْق .

وكمالُ العبودية الاختيارية في العبد أن يكون عبداً لربِّهِ على مقدار رُبوبيةِ الله له . إلا أنَّ بُلُوغَ هذا الكمال أمرٌ عسيرٌ ، ما دامَ في نفوس الناس عقباتُ أهواء وشهوات وآلامِ ولَذَّاتٍ ، فأقربُ المتسابقين إلى الله أكثرُهُمْ تحقُّقاً بعبوديتِه لله المسايرَةِ لعناصِرِ رُبُوبيةِ الله له . وتتناقصُ الدرجاتُ بمقدار التقصير في تطبيقِ عناصر العبودية لله عزّ وجلّ ، إلا أن غُفرانَ الله وعفوَه وصفحَةَ أُمورٌ مساعدة لبعض عباد الله الصالحين ، حتى ينالوا كمالَ العبودية بفضل الله .

* * *

(٣)

الألوهيّة

قال ابن سِيدة من أئمة اللّغة : « الأُلوهية » هي العبادة ، ويُقال فيها : « أُلُوهةٌ » و « إلَهَةٌ » .

وقال أهل اللّغة : « التألُّهُ » هو التعبُّد والتنسُّك . و « التأليهُ » هو التعبيد .

وقالوا : « إلَه » على وزن « فِعَال » هو بمعنى « مفعول » أي : « مَألوه » بمعنى معبود ، سواءٌ أكان معبوداً بحقٍّ أو بباطل ، فالإلَهُ هو المعبود .

(انظر لسان العرب)

أقول : فإذا أردنا أن نصوغ مصدراً صناعياً من كلمةِ « إلَه » بمعنى معبود قُلنا « إلَهيَّة » لا « أُلُوهية » إذْ جاءت هذه الكلمة لغة بمعنى العبادة.

وكثيرٌ من الناس يُطلقون كلمة « الإلَه » بمعنى « الرَّبّ » وهذا غلطٌ ينشأ عنه عدة أغاليط لدى تفسير النصوص ، فمعنى « لا إله إلا الله » لا معبودَ بحقٍّ إلا الله ، أو لا معبود يستحقُّ أو يجوزُ أن يُعبَد إلا الله ، أمَّا الرَّبّ فهو المتصف بصفات الربوبية التي سبق بيانها .

فالَّذين يعبُدون إلَهاً أو آلهةً من دون الله همْ على أصناف ثلاثة :

الصنف الأول : الذين يُؤمنونَ بالله الرب العليّ الأعلى ، ولا يعتقدون فيما يعبدون أو مَنْ يعبدون من دون الله مُشاركةً لله في ربوبيّته ، لا من مستوى الخلقِ ولا من مستويات دنيا ، كبعضِ تَصَرُّفٍ في أحوال أهلِ الأرض ، من رِزقٍ وصِحَّةٍ وحَبَلٍ ووِلادَةٍ وكونِ الجنين ذكراً أو سليماً ونحو ذلك ، فهم غير مشركين في ربوبيّة الله عزّ وجلّ بحسب ما يذكرون .

وأهل هذا الصّنْف مشركون شِرْكَ ألوهيّة فقط (أي : شرك عبادة) إذا كانوا صادقين في دعاواهم .

وكُفرُ هؤلاء هو كُفرٌ جُزْئيٌ بِبَعْض عناصر إلَهيّة الله عزّ وجلّ ، إذا لا يوجدُ أحدٌ في الوجود يستحقُّ أن يكون معبوداً سوى الله سبحانه وتعالى عن الشركاء ، فالمعبودية (أي : الإلَهية) من خصائص الربِّ الواحد الأحد ، وعِبادةُ غيرِ الله مع عبادة الله إشراك في إلَهيته الواحدة التي لا مُشارك له فيها .

وكان بعض مشركي الجاهلية من هذا الصنف ، وتحدّث الله عنهم بقوله في سورة [الزُمَر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول] :

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾

لكِنَّنا إذا دقَّقنا النَّظرَ وجَدْنا أنّ بعض مفاهيم الشرك في ربوبيةِ الله داخلة على أهل هذا الصنف بدليل قول الله تعالى في آخر الآية ﴿ إنّ الله لا يَهدِي من

هو كاذِبٌ كفَّارٌ ﴾ أي : هم كاذبون في ادّعاء أنهم لا يعبدون شركاءهم إلا ليقرّبوهم إلى الله زُلفى ، ويحتمل أن يكونوا كاذبين في ادّعاء أنّ عبادة الملائكة أو غيرهم تقرّب إلى الله زُلفى .

الصنف الثاني : الذين يعتقدون أنّ من يعبدونهم من دون الله يشاركون الله في ربوبيته ، ولو بالتصرّف في بعض أحوال العباد ، دون بيان من الله أو إذن بكتاب منزّل من لدنه ، أو ببيانٍ من رسول صادق مؤيّد بالمعجزات .

وأهل هذا الصنف مشركون في ربوبية الله عزّ وجلّ ، وشركهم أشدّ وأقبحُ من شرك أهل الصنف الأول ، ويلزم عن هذا الشرك شركٌ في الألوهية أيضاً وفي الإلَهية.

وكفرُ هؤلاء هو كُفْرٌ جزئيٌّ ببعض عناصر ربوبية الرب الخالق سبحانه وتعالى عمّا يشركون ، وشرك في إلَهية الله ، مع أنّ الله عزّ وجلّ واحدٌ لا شريك له في ربوبيته ولا في إلَهيّته.

وهنا نلاحظ أنّ معظم المشركين يعتقدون في شركائهم أَنَّهُمْ ينفعونهم ، ويدفعون الضّرَر عنهم ، أو يُنْزلون الضرر بخصومهم ، فهم من أهل هذا الصنف مشركون شِرْكاً في الربوبية وفي الإلَهيّة معاً .

الصنف الثالث : الذين يعتقدون فيمن يعبدونهم أنهم هم الأرباب ، وأنه لا خالق للسماوات والأرض ولا متصرّف فيهما إلا أربابُهُمْ التي يعبدونها ، فمنهم أهل التثنية ومنهم أهل التثليث ، ومنهم من يُعَدِّدُون الأرباب فوق ذلك .

وأهل هذا الصنف لهم أربابٌ يجعلونها مشتركةً فيما بينها في الرُّبوبية وتصاريفها في الكون ، وقد يجسّدونَها في أجسادٍ مادّية ، أو يعتقدون أنها قد تحلُّ في أجسادٍ مادّيّة ، أو تظهر بصُوَرٍ بشريَّة .

وكُفر هؤلاء كُفر بكُلّ عناصر الرُّبوبيّة الّتي يختصّ بها الله عزّ وجلّ ، إذْ يتَّخِذُون أرْبَاباً باطلةً غير الله عزّ وجلّ ، ويكفُرُون بالله الحقِّ كُفْراً من الدَّرجة

القُصوى ، وكُفرُ هؤلاءِ يساوي كُفر الملاحدة المادّيين الذين يجحدون وجود أيِّ رَبٍّ لهذا الكون ، إنهم يجعلون المربوبين أرباباً .

وعبادةُ هؤلاءِ كُلُّها تكونُ لغير الله الذي لا رَبَّ غيره ، ولا آله إلا هو ، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يقبل في عبادته شركاً .

وقد سار الإقناع الفكريُّ في القرآن المجيد لكلّ أصناف المشركين على أساس إقامة البراهين الدّالّة على أنّ الله عزّ وجلّ هو واحدٌ في ربُوبيته ، مع بيان أنّ العبادة لا تكون إلا للرَّبِّ ، وذلك بمقتضى بديهة العقل ، واللزومِ الفكري ، فالعبادة حقُّ الرَّبِّ وحدَه ، وبما أنّ الربَّ واحد لا شريك له فهو الذي يجب أن يكون وحده هو الإلّه (أي : المعبود بلا شريك)[1] .

ولدفع احتمال ادّعاء من يدّعي أنّ الله أمَرَ أو أذِن بعبادة غَيْرِه جعلَ من أوائل عناصر رسالاته المنزلة على رُسُلِه نَهْيَهُ المشدَّد عن عبادة غيره ، وجعْلَه عبادَةَ غيره شركاً به وكُفراً ، ولو كانت هذه العبادة على سبيل الاحترام ، أو إرادة التقرّب إلى الله بعبادة من يُحِبُّهم الله ، وذلك لئلا تدخل مفاهيم الشرك بربوبيّةِ الله إلى أفكار الناس من مُنْزَلَق عِبادَةِ غيره .

* * *



(١) انظر «الملحق السابع» من ملاحق كتاب «تدبر سورة الفرقان» لمؤلف هذا الكتاب ففيه استعراض وتحليل لكل النصوص القرآنية المتعلقة بعقيدة مشركي العرب حول توحيد الربوبية وتوحيد الإلّهية.

الفَصْل السَّادِس

السَّمع والطّاعة

وفيه مقولتان :

المقولة الأولى : التحليل العامّ .

المقولة الثانية : استعراض نصوص السّمع والطاعة بنظرات تدبُّريّة .



المقولة الأولى:

التحليل العامّ

تكون مسيرة الدين الصحيح السَّوِيّ في النفوس وفق الخطوات التاليات :

الخطوة الأولى :

هي النّظَرُ والتفكُّرُ في الكون وفي الأنفس وفي بيانات الدّين الإيمانيّة لمعرفة يقينيَّاتِ الدّينِ الكبرى بُغيَة الاقتناع بها .

الخطوة الثانية :

عزم النَّفْس السَّويّة الَّتي تتّقي عقاب الله وترجو ثوابه الجزيل على التصديق الإراديّ الداخليّ بأركان الإيمان وعناصرها التفصيليّة إذعاناً وتسليماً .

الخطوة الثالثة :

بعد الإيمان الصحيح الصادق الذي كان عن إرادة جازمة ، يكون الدخول في الإسلام ، بإعلان أنْ لا إلَه إلاَّ الله وأنّ محمّداً رسول الله .

هذا الإعلان هو إشهارٌ وتسجيل للانتماء الإرادي إلى الأمّة الرّبانية بعد الإيمان بمبادئها الفكرية الاعتقادية العظمى ، وعناصرها التفصيليّة ، والتزامٌ بإسلامِ القيادة في مسيرة الحياة لله الرب الخالق البارىء المحيي المميت المُبتلي المحاسب المجازي ، ثم لرسوله المبلّغ عن ربّه ، والمأذون من قبله بتوجيه الأمر والنّهي، وبقيادة مسيرة الذين آمنوا وأسلموا، ثم لِمَنْ يؤُمُّ مسيرتها على

صراط الله وسنة رسوله من خلفائه الراشدين، فأئمة المتّقين المتحققين بالصفات المؤهّلة للإمامة في توالي العصور.

الخطوة الرابعة :

وبعد الإيمان الصحيح الصادق ، والإسلام الصحيح الصادق تأتي خطوة إعداد النفس دواماً للسَّمْع ، أي : لاستماع الأوامر والنواهي والتوجيهات والوصايا، المنزّلة من عند الله، أو الموجّهة من قِبَلِ رسول الله، أو الموجَّهَةِ من قِبَلِ أولياء الأمر المأذونين بتوجيه الأوامر والنواهي بشرط التزامِهِمْ بطاعة الله ورسوله وعدمِ معصيتهما فيما يأمرون به وينهون عنه ، وفيما يُصدّرون من أحكامٍ وقرارات .

ويكون السَّمْع بتوجيه مشاعر النّفْس لِتَلَقِّي الأوامر والنواهي والوصايا ، وتَفَهُّم الأقوال الصادرة بها تَفَهُّماً يَتِمُّ به مَعرِفةُ المطلوب بها ، سواءٌ أكان المطلوبُ ذا حكمةٍ ظاهرةٍ مُدْرَكَة أم لم يكن ذا حكمة ظاهرة مُدْركَة ، فالإسلام والانتماء لحزب الله يستلزمان تهيئة النفس دواماً لتلقّي الأوامر والنواهي والوصايا ، وتفهُّمِها ومعرفة المطلوب بها .

ولا يحتاج هذا الأمر إلى أكثر من توجيه السَّمْع لاستماع التكليف ، وفهم الكلام الذي اشتمل على التكليف ، باستثناء ما كان من أولياء الأمور بعد الله ورسوله فلا بُدَّ من عرضه على أوامر الله ورسوله ووصاياهما ، فإذا كان فيه معصيةٌ لله أو معصيةٌ لرسوله كان مرفوضاً، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أمّا الرسولُ فمعصوم بعصمة الله له عن توجيه ما فيه معصية لله عزَّ وجلَّ .

ومن شأن المؤمن الصادق أن يُعلنَ سَمْعَهُ للأوامر والنواهي وتفهُّمه لها ، وأن يكون صادقاً .

الخطوة الخامسة :

وبعد الإيمان الصحيح الصادق ، والإسلام الصحيح الصادق ، والسَّمْع

الواعي الذي اقترن بفهم مضمون الكلام المسموع ، يكون إعلان الطاعة تعبيراً عن استعداد النفس من عمقها لتنفيذ الأوامر والنواهي والوصايا .

ويجب أن يكون هذا الإعلان صادقاً غير كاذب .

وصدق الإرادة في التحقُّق بالطاعة لأوامر الله ورسوله ونواهيها من عناصر الإسلام التي لا يصح الإسلام إلا بها ، فمن أبى الطاعة كان كافراً ، ولو آمن بالله ربّه ، إذ يكون بإبائه جاحداً حقّ الرب عليه في الطاعة ، ويكون كُفرُهُ من نوع كفر إبليس .

أما المعصيةُ الفعلية بعد صِدْق الإرادة في الطاعة ، فلا تنقض الإسلام ، ولا تُخِلُّ بأصل الإيمان ، ولكن تُعرِّضُ العاصيَ للعقوبة على مقدار المعصية .

وبهذا ظهر لنا الترتيب الطبيعيّ للخطوات الأولى في الدين :

الأولى : وجوب النظر والتفكّر للاقتناع بأصول الدّين .

الثانية : وجوب الإيمان .

الثالثة : وجوب إعلان الإسلام .

الرابعة : وجوب إعداد النفس من أعماقها للسمع .

الخامسة : وجوب إعداد النفس من أعماقها للطاعة .

* أما الخطوات الثلاث الأولى ففي كتب العقيدة الإسلامية تفصيل وافٍ لها[1]، ويجد القارى بعض تفصيلات خلال بعض بحوث هذا الكتاب .

* وأما الخطوتان الرابعة والخامسة وهما السّمع والطاعة ففي المقولة الثانية التالية بيانٌ تفصيليٌّ عنهما من خلال استقراء النصوص القرآنيّة بنظراتٍ تدبُّريّة ، بعد نظرة عامّة سريعة إلى ما جاء في السّنّة .

* * *

(١) انظر كتاب : «العقيدة الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

المقولة الثانية :

استعراض نصوص السّمع والطاعة بنظرات تدبُّرية

(١)

نظرة عامّة سريعة إلى ما جاء في السُّنّة

جاء فيما صحّ من الأحاديث عن الرسول ﷺ أنه كان يبايع المسلمين على السَّمْع والطاعة في المنشط والمكره .

* ففي بيعة شِعْب العقبة قبل الهجرة بايع الرسول ﷺ وفْدَ أهل يثرب في موسم الحجّ ، فكان من ضمن بُنُود البيعة المبايعةُ على السّمْع والطاعة في النشاط والكسل .

* وروى الإمام مسلم وغيره عن جرير بن عبد الله قال : بايعت النبيّ ﷺ على السَّمْع والطاعة ، فلقَّنني : « فيما اسْتَطَعْتُ والنُّصْحِ لكلِّ مسلم » .

* وكان الرسول ﷺ يبايعُ على بعض تفصيلاتٍ تدخُلُ في عموم السمع والطاعة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعدم السرقة ، وعدم الزّنا ، إلى غير ذلك .

* * *

(٢)

استعراض النصوص القرآنية

في هذه الفقرة أَنظُر باستقراء شامل إلى جميع النصوص القرآنية الواردة في موضوع السَّمْع والطاعة ، مرتَّبةً وفق ترتيب نزولها ، ضمن منهج الوحدة الموضوعية في القرآن المجيد .

أوّلاً : نصوص المرحلة المكية :

(١) أنزل الله في سورة [طه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول] بيان مطالبة هارون عليه السلام بني إسرائيل الّذين اتخذوا العجل الذهبيّ إلّهاً حينما ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربّه عند جبل الطور ، باتّباعه وطاعة أمره ، وكان هذا بمثابة الإشعار بأنّ من عناصر الدِّين وُجُوب طاعة الرسول ، إذْ نجم عن معصيته تماديهم في شرّ عظيم ، ثم عقوبتهم على اتخاذهم العجل بأن يجتمعوا ويقتل بعضهم بعضاً .

قال الله عزّ وجلّ فيها بعد عرض قصة اتخاذِهِمُ العجل الذهبي إلّهاً يعبدونه من دون الله :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

(٢) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول] بيان أنّ كُلاًّ من نوحٍ وهود وصالح ولوط وشعيب قالوا لأقوامهم :

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

(انظر الآيات ١٠٨ - ١١٠ - ١٢٦ - ١٣١ - ١٤٤ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٦٣ - ١٧٩) .

فكان هذا تأكيداً لأنّ من عناصر الدّين طاعة الرّسول ، وتمهيداً لمطالبة المؤمنين في الإسلام بالسّمع والطاعة .

(٣) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول] بيان أنّ عيسى عليه السلام آخر الرُّسُل قبل محمّد خاتم المرسلين قال لقومه : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ كما جاء في قوله تعالى فيها :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

فَكانَ هَذا تأكيداً حولَ قضيّة وُجُوبِ طاعةِ الرَّسولِ في أمرِهِ بعبادَة الرَّبّ الخالق عزّ وجلَّ ، لإعلام النصارى بهذه الحقيقة ، وأنّ عيسى عليه السلام لم يشذّ في دعوته عن سائر رسُل الله .

(٤) وأخيراً أنزل الله عزّ وجلّ في المرحلة المكيّة تأكيد أنّ نوحاً عليه السلام آخر الرسل قبل الطوفان ، فهو أول الرسل بعد الطوفان قد قال لقومه مثل مقالة سائر الرسل ، جاء هذا في سورة [نوح/٧١ مصحف/٧١ نزول] بقول الله تعالى :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾

فتكامل بهذه النصوص بيان أنّ من عناصر الدّين في الرسالات الرّبانيّة السابقات لرسالة محمد ﷺ وُجوبَ طاعة الرَّسُول .

* * *

ثانياً : نصوص المرحلة المدنية :

(١) أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] أول سورة من سُوَرِ التنزيل المدنيّ بياناً يصف فيه حال الرسول والمؤمنين حول موضوع السّمْع والطاعة ، فقال تعالى فيها :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ .

فأثبت الله عزّ وجلّ أن الرّسُول والمؤمنين قد استجمعوا الصفات التاليات ، إذْ لا يتمُّ لهم إيمانٌ صادقٌ ما لم يستجمعوها :

الصفة الأولى : أنّهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورُسُلِه .

الصفة الثانية : أنّهم لا يُفرّقون بين أحدٍ من رُسُلِه وبين سائر الرُّسُل في الإيمان ، باعتبار أنهم جميعاً رُسُل الله ، ومبلّغون عن الله بيانات الدّين ، وهم في هذا يخالفون المتعصّبين لرسلهم من اليهود والنصارى وغيرهم ، الذين يفرّقون بين رُسُلِ الله ، فيؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض .

الصفة الثالثة : أنّهم قالوا معلنين ما وَطّنُوا أنفسهم عليه : سَمِعنا وأطعنا ، فهم لا يجحدون ما يجب عليهم من طاعة ، بل يُذعنون لها .

الصفة الرابعة : أنّهم يعترفون بذنوبهم ، إذْ لم يحقّقُوا في سلوكهم العمليّ التطبيقي ما أعلنوه من طاعة ، بتأثير أهوائهم وشهواتهم ، وطمَعِهم بمغفرة الله لهم ، لذلك فهم يسألون الله أن يغفر لهم ، واضعين في تصوّرهم أنّ مصيرهم إليه ليحاسبهم ويجازيهم ، بعد انتهاء مرحلة الحياة الدنيا ، وبعثهم إلى يوم الدين .

* * *

(٢) ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول] ثلاثة نصوص في الآيات : (١ - ٢٠ - ٤٦) جاء فيها الأمر الجازم للمؤمنين بطاعة الله ورسوله بمناسبات مختلفات :

النص الأول : قول الله عزّ وجلّ في صَدْرِها :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ ﴾

إنْ كُنتُم مُؤمنين : أي : إنْ كنتُمْ مُؤمنين إيماناً صحيحاً صادقاً فأنتم مطالَبُون بالتحقُّق بمقتضى إيمانكم هذا في طاعة الله ورسوله .

وقد دعا إلى توجيه هذا الأمر الجازم اختلافُ المسلمين الذين شهدوا معركة بَدْر في الغنائم ، إذ قال الشباب : هي لنا لأننا باشرنا القتال ، وقال

الشيوخ : كنّا رِدْءاً لكم تحت الرّايات[1] ، ولو انكشفتم لَفِئْتُمْ إِلَيْنا[2] ، فلا تَسْتَأْثِرُوا بها .

النصّ الثاني : قول الله عزّ وجلّ فيها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

جاء هذا الأمرُ الجازمُ بطاعة الله وطاعة رسُوله بوجْهٍ عامٍّ توطئةً لعدّة أمُور :

الأمر الأول : النَّهْي الجازم عن التولّي عن نصوص الأوامر والنواهي ، والتولّي هو الإدبارُ عن الاستماع إليها وتدَبُّر معانيها ، والعمل بمقتضاها .

وأنتم تَسْمَعُون : أي : والحال أنكم تسمعونَ بآذانِكم هذه النُّصوص سماعاً لا يصل إلى مراكز السَّمْعِ المُدرِكة الواعية ، لذلك قال الله تعالى بعدَهُ :

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

أي : لا تكونوا كالمنافقين الذين يسمعون بآذانهم، ولا ينتقل هذا الذي يسمعونه إلى مراكز السَّمْع في أدمغتهم المدرِكة الواعية ، التي تفهم دلالات الألفاظ ، إذ يبقى السمع عندهم في حدود أصواتٍ غير ذات دلالات ، كأصوات الخُطَب العصماء في آذان الأنعام التي لا تفهم من دلالاتها شيئاً ، لذلك جاء التعقيب بقوله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

النصّ الثالث : قول الله عزّ وجلّ فيها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ

---

(١) ردءاً لَكُم : أي : عوناً لكم.

(٢) لَفِئتُم إلينا : أي: لَرَجَعتُم إلينا.

ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ .

جاء في هذا النص الأمر الجازم بطاعة الله ورسوله بمناسبة الإلزام بالثبات في القتال مع الإكثار من ذكر الله ، وتوطئةً للنهي عن التنازع ، وعن أن يكونوا كالمشركين الذين خرجوا إلى معركة بدرٍ بطراً ورئاء الناس ، وظاهر أن معصية الله ورسوله تؤدّي إلى التنازع فالفشل والضعف .

* * *

(٣) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول] أربعة نصوص في الآيات : (٣٣ - ٣٦ - ٦٦ - ٧١) جاء فيها الأمر الجازم بطاعة الله ورسوله بمناسبات مختلفات :

النص الأول : قول الله عزّ وجلّ فيها لنساء النبيّ :

﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ .

لقد جاء هذا النصّ خاصّاً بنساءِ النبيّ ، فأبان الله فيه أنه لا محاباة في الدّين لأحد ، بل أهل بيت الرسول أكثر تكليفاً من سائر الناس ، كما جاء في نصوص غيره أنّ الرسول ملزمٌ بتكاليفَ تُجاه ربّه أكثر من غيره من الناس .

النص الثاني : قول الله عزّ وجلّ فيها يصف ما يجب أن يكون عليه المؤمن والمؤمنة من طاعة لله ورسوله :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ .

فَأَبَانَ هذا النَّصُّ أنّ مَنْ آمن بالله ورسولِه إيماناً حقاً كان مُلزماً بالسَّمعِ

والطاعة ، ولمْ يكن لهُ الخِيرَة من أمره ، أي : لم يكن له أن يختار خِلافَ ما قضاهُ الله ورسولُه من أمر ، ومن اختار خلاف ذلك عصى الله ورسوله ، ومن يَعْصِ الله ورسوله دواماً فقد ضلَّ ضَلالاً مُبيناً واضحاً ، إذْ هو فيه مخالف لمقتضى إيمانه ، ولعقد الإسلام الذي بايع الله عليه .

اللاّم في ﴿ لمؤمن ﴾ هي لام الجحود لمجيئها بعد كون منفيّ ، ومثل هذا النفي هو من أبلغ النفي ، أي : لا يُتَصوّر في المؤمن ولا في المؤمنة أن يكون لهم الخِيرَة .

النص الثالث : قول الله عزّ وجلّ فيها يصف حال الكافرين وهُمْ يعذَّبُونَ يومَ الدِّين في النار ، وكيف يتمَنَّوْنَ حينئذٍ لو كانوا في الدنيا قد أطاعوا الله وأطاعوا الرسول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ .

هذا بيانٌ ترهيبيٌّ شديد من معصية الله ورسوله، يَعْرِض الله عزّ وجلّ فيه عذاب الكافرين الذين عَصَوا الله ورسوله، ويُبيّن فيه أنهم يتمنّون وهم يُعَذّبون في النار قائلين: يا ليتنا أطَعنا الله وأطعنا الرسول. ويسألون ربّهم أن يُضاعف عذاب الذين أطاعوهم في الدنيا من سادتهم وكبرائهم، لأنهم أضلُّوهم عن سبيل الله.

النص الرابع : قول الله عزّ وجلّ فيها يخاطب الذين آمنوا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ .

في هذا النص أبانَ الله عزَّ وجَلَّ أن الفوزَ العظيمَ جَزاءٌ مُحقَّقٌ لمن يُطِيع الله ورسوله ، فهو بيانٌ ترغيبيٌّ .

الفوز : يأتي بمعنى الظفر ، والنجاة من الشر ، ويأتي بمعنى الرّبح . وطاعة الله ورسوله تقي من عذاب النار وهذا ظفر ونجاة ، وتُدخِل جنات النعيم ، وهذا رِبحٌ عظيم .

* * *

(٤) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] الآيات (١٣ - ٤٦ - ٥٩ - ٦٤ - ٦٩ - ٨٠ - ٨١) حول قضية طاعة الله ورسوله .

النص الأول : بعد بيان طائفة من أحكام الدّين المتعلقة بالأرحام والمواريث قال الله عزّ وجلّ فيها :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ .

فجاء في هذا النص بيانٌ تفصيليٌ للفوز العظيم الذي يظفَرُ به الذين يُطيعون الله ورسوله ، وهو أن يُدْخِلَهمُ الله جنّاتٍ تـجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها .

أمّا من يعصي الله ورسوله ويتعدَّى حدود الله ، فإن الله يُدخِلُه ناراً خالداً فيها ، وله فيها عذابٌ مُهين ، أي : عذابٌ فيه إهانةٌ لهم وإذلال ، والمراد من المعصية التي تسبّب الخلود في النار المعصية الشاملة التي ليس فيها طاعة ما ، أمّا من آمن فقد أطاع بعض الطاعة .

النصّ الثاني : جاء فيه بيان حال طائفة من اليهود الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون للرسول على سبيل المكابرة والعناد : سَمِعنا وعَصَينا ، واسْمَعْ غيرَ مُسْمَع ، فقال الله عزّ وجلّ فيها :

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ .

هذا الفريق من اليهود من شأنهم وديدنهم أن يحرّفوا الكَلِمَ عن مواضعه

للتلاعب بمعاني النصوص ، وأن يقولوا للرسول : سَمِعنا وعَصَينا ، وأن يقولوا له : اسمع غير مُسْمَع ، أيْ : واسمع منا ما نقول لك ، ويخفون عبارة : « غيرَ مُسْمَعٍ » دعاءً عليه بأن يفقد القدرة على السّمع ، أو يوهمون بأنهم يقصِدُونَ : غيرَ مُسمعٍ ما تكره .

وكانوا يقولون للرسول: راعِنا، يُوهِمون أنهم يقصدون مطالبته بأن يُراعيَ أمرهم بعناية خاصة على اعتبار أنهم أهل كتاب، ولديهم من العلم بالتوراة وغيره من كتب بني إسرائيل ما ليس لدى العرب الأمّيين ، ويقصِدُون معنىً آخرَ يُسْتَعْملُ فيه اللفظ بلغتهم، ومعناه شتيمة المخاطب بالرُّعونه، وهي الطيش والخفة وقلة العقل، ويَلْوُون حروف الكلام بألسنتهم لإخفاء ما يقصِدُون، وهم حينما يشتمون رسول الله بالرعونة فإنهم يطعنون في الدين، لأنّ منزّل الكتاب هو الذي اصطفى رسوله محمّداً لحمل هذا الدِّين وتبليغه للناس.

قوله تعالى : ﴿ ولو أنهم قَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا واسْمَعْ وانْظُرْنَا لكان خيراً لهم وأقْومَ ﴾ .

أمّا أن يقولوا : « سَمِعْنَا وأطَعْنا » فهو القول الواجب على كلّ من آمن بهذا الدّين ، وهو الخير له .

وأمّا أن يقولوا : « واسْمَعْ » فمن حقِّ طالب المعرفة الدينية أن يُسْمَعَ لأسئلته واستفساراته ، لذلك أذِنَ الله بها ، ولم يأذن لهم بأن يقولوا : « غيْرَ مُسْمَعْ » لئلا تُتَّخَذَ هذه العبارة وسيلة لقصد الدعاء بها على الرسول ، وأذنَ الله بأن تُقال عبارة : ﴿ وانْظُرْنا ﴾ بدل عبارة ﴿ ورَاعِنَا ﴾ مع أن المعنى واحد ، يقال لغة : نظَرَ الشيءَ إذا حَفِظه ورعاه ، لأنّ عبارة « راعِنَا » استخدمها اليهود لمعنىً فيه شتيمة ، فغيّر الله العبارة ، وأرشد إلى عبارة أخرى سدّاً للذريعة ، ومنعاً للتلاعب بالألفاظ .

النص الثالث : خاطب الله عزّ وجلّ به الذين آمنوا فأمرهم بطاعة الله ورسوله ، وأضاف فيه تكليفهم أن يطيعوا أولي الأمر منهم ، وأن يَرُدّوا حُكم

ما يتنازعون فيه إلى الله ورسوله ، أي : إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ، فقال الله عزّ وجلّ فيها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩ ﴾

أَحْسَنُ تأْوِيلاً : أي : أَحْسَنُ تفسيراً ، وأَحْسَنُ رَدّاً ، وأَحْسَنُ مَصِيراً ، فالتأويل يأتي بمعنى الإرجاع ، وبمعنى التفسير ، وبمعنَى الصيرورة ، وكلُّ هذه المعاني تَتَحقَّقُ بالرَّدِّ إلى كتاب الله وسنّة رسوله .

وهكذا رأينا أنّ هذا النصّ أضاف وجوب طاعة أولي الأمر من المسلمين ، وأضاف وجوب الرّدّ إلى كتاب الله وسنّة رسوله في حال التنازع في حكم أمْرٍ من الأمور .

النصّ الرّابع : عقب بيانِ حالِ طائفةٍ من منافقي اليهود ، وأنّهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِروا أن يكفُروا به ، قال الله عزّ وجلّ فيها :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ۝٦٤ ﴾ .

فأضاف هذا النّصّ أنه ما مِنْ رسول أرسلَهُ الله إلا أَمَرَ مَنْ أرْسَلَهُ إليهم بطاعته ، باستثناء ما لم يأذَنِ الله به ، كأن يجتهد الرسولُ فيُخْطِيءَ، فينزل الله بياناً يُصَحّح به خطأ الرسول في اجتهاده ، ففي مثل هذا يجب طاعة الله دون طاعة الرسول ، أما إذا أَمَرَ الرسولُ بأمرٍ أو نهى عن أمرٍ ولم يَنْزِلْ من عند الله فيه شيء فهو مشمولٌ بأنّه قدْ أَذِن الله به ، وطاعته طاعةٌ لله عزّ وجلّ .

النصّ الخامس : جاء فيه بيان أن من يُطيعُ الله ورسوله في حركة حياته دواماً فإن الله عزّ وجلّ يجعله يوم الدّين مصاحباً للّذين أنعم الله عليهم من النَّبِيِّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين ، فقال الله عزّ وجلّ فيها :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ .

فأضافَ هذا النص على نصوص الثواب التي نزلتْ قبله عُنصُر ارتفاع منزلة المطيع دواماً يوم الدين حتى يكون بصحبة هؤلاء الذين أنعمَ الله عليهم ، وهذه الصحبة شرفٌ عظيم ، وفضل من الله جسيم ، مصحوب بثواب يُعادلُ هذه المنزلة الرفيعة .

حَسُنَ أولئِكَ رَفيقاً : عبارة تعجيب من حُسنِ رفقة النبيّين والصّديقينَ والشهداء والصالحين .

النص السادس : جاء فيه بيانان :

الأول : أنّ من أطاع الرسول فقد أطاع الله باعتبار أنَّ الله هو الذي أمر بطاعة الرسول .

الثاني : أن المنافقين يقولون للرسول إذا أمرهم بشيء أو نهاهم عن شيءٍ : « طاعة » أي : حالنا حالُ طاعةٍ لأمرك ، فإذا بَرَزُوا من عِنْدِه بَيَّتَ طَائفةٌ مِنْهم قولاً غير الذي قال لهم الرسول .

قال الله عزّ وجلّ فيها :

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾

فما أرسلناك عليهم حفيظاً : أي : فما أرسلناك مسؤولاً عن إلزامهم بالاتّباع والطاعة ، لأن الحفيظ على قطيع مثلاً مسؤولٌ عن حمايته بالإكراه .

* * *

* ثم أنزل الله عزّ وجل في سورة [محمد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول] نَصّين في الآيات (٢٠/٢١ - ٣٣) حول قضيّة الطاعة :

النصّ الأوّل : قول الله عزّ وجلّ فيها :

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ

رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ .

أبانَ هذا النصّ أن المؤمنين الصادقين في عهد الرسول ﷺ كانوا يطالِبُون بتحضيض أن تنزل سورةٌ مُحكمةٌ تُلزِمُ المسلمين بالتوجه لقتال أمم الكفر ، بغية إعلاء كلمة الله ، وتأمين الدعوة ، ونشر الحق والعدل في الأرض ، حرصاً منهم على نشر دين الله وأن تكون كلمة الله هي الْعُلْيا .

لكنّ الذين كان في قلوبهم مرض النفاق أو ما هو قريب من النفاق ، فقد كانوا إذا أُنزِلَتْ سورة مُحكمةٌ واضحة البيان ، وذُكِرَ فيها القتال ولو لم يصلِ الأمرُ إلى جعله فريضة لازمة هَلِعُوا ، وظهرتْ على وجوههم علامات الهلَع ودلائله ، فينظرون إلى الرسول عند تلاوته آيات الدعوة إلى القتال مثلَ نظر المغشيّ عليه من الموت ، من شدّة الخوف والهلع .

قول الله تعالى : ﴿فأَوْلى لَهُمْ﴾ عبارة يُراد منها أنّ ما يكرهون قد اقترب منهم ، وفي هذا تهديدٌ لهم ووعيد .

قول الله تعالى : ﴿ طاعةٌ وقولٌ معروف ﴾ جملة مستأنفة حُذِف منها أحد رُكنَي الإسناد .

والمعنى : المطلوب من المسلم في موضوع آيات القتال : طاعةٌ وقولٌ معروف . أي : أن يُعلن الطاعة صادقاً ، وأن يقول قولاً معروفاً يَدُلُّ على صدق إيمانه ، ولكن لا يلزم من هذا الإعلان الصادق أن يكون عند الدعوة الفعلية إلى القتال من المقاتلين الصادقين أولي البأس الشديد ، إذ الجبْنُ عندئذٍ لا يُبْطِلُ صدق الإيمان ولا يُفسِدُه ، لكنّهُ لو صَدَق لكان خيراً له .

فدلّ هذا النص على أن إعلان الطاعة بصِدْقٍ بعد صدور الأمر بالعمل خطوةٌ لازمة من خطوات حركة الدّين .

أمّا المخالفة بعد ذلك فتكون من المعاصي في الفروع التطبيقية ، ولا

تكون دليلاً على الكفر أو النفاق ، بخلاف كراهية الحكم التشريعي أو الأمر التكليفيّ الديني قبل مجيء وقت تنفيذه فهي من أمارات الكفر أو من أمارات النفاق .

النص الثاني : قول الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للذين آمنوا :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

فأضاف هذا النص على موضوع أمر الذين آمنوا بطاعة الله ورسوله تحذيرَهم من إبطال أعمالهم الصالحات التي هي من ثمرات إيمانهم ، بكراهية شيءٍ ممّا أنزل الله ، مما فيه تكليفُهم أن يقاتلوا أو يُنفِقُوا من أموالهم في سبيل الله ، إذ يُشاركون بهذه الكراهية الذين في قلوبهم مرض النفاق أو ما هو قريب منه ، وتؤثر هذه الكراهية على صدق الإيمان ، فتنقض بعض عناصره .

* * *

* ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [النور/٢٤ مصحف/١٠٢ نزول] قوله تعالى بشأن المنافقين :

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

يحيف : أي : يجور .

أبان هذا النصّ أنَّ المنافقين يقولون بألسنتهم : آمنّا بالله وآمنّا بالرَّسُول ، ونُعْلِن الطاعة للأوامر والنواهي ، ثمَّ لدى التنفيذ لمقتضيات إعلان الإيمان

وإعلان الطاعة يُدْبِرُ فريق منهم ويبتعدون ابتعاداً كُلّياً عن مواقع الإيمان والطاعة ، وقد جاء التعبير عن هذا بأنَّهُمْ يتولَّوْن ، أي : يُدْبرون وينأَوْنَ بقلوبهم إذ هم كافرون في الباطن منافقون في الظاهر .

وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليَحْكُمَ بينهم فإنَّ فريقاً منهم يُعْرضون في سلوكهم الظاهر ، ولا يستطيعون أن يتولَّوا مُدْبرين ، خشية أن ينكشف نفاقهم ، فالإعراض إعطاء العارض ، وهو وَسَطٌ بين الإقبال والإدبار .

بخلاف حال المؤمنين الصَّادقين فإنّهم يُعلِنون السَّمْعَ والطَّاعة صادقين ، وإذا خالفوا الأوامر والنواهي فإنهم يخالفونها على سبيل المعصية في السلوك ، مع الإيمان والرَّغبة في التزام الطاعة، ويعلَمُونَ أنهم عاصون، ولا يتولَّوْن مُدبِرين عن دائرتي الإيمان والإسلام، بل يَظَلُّون ضمنهما عصاة معترفين بمعصيتهم.

وأبان هذا النصّ أيضاً أنّ فريقاً من المنافقين إذَا وقعَتْ خصومة بين أحدٍ منهم وبينَ غَيرهِ ، ودُعِيَ إلى حُكم الله ورسوله ، فإنه إنْ كان يعلَم أن الحق لخصمه أعرضَ متجاهلاً متغافلاً متحايلاً ، وإن كان يعلم أن الحق لهُ فإنه يأتي متظاهراً بالإذعان والاستسلام لحكم الله ورسوله ، ليحكُم له الرسول ، أو ليحكم له الحاكم المسلم العادل من بعده .

وأبان هذا النص أيضاً أنَّ فريقاً من المنافقين أقْسَمُوا بالله للرَّسُول قسماً مشدّداً مؤكّداً بكلّ عبارات التأكيد قائلين له : لَئِنْ أمَرْتَنا بأن نخرج إلى القتال في سبيل الله، أو بأن نخرج من أموالنا وأهلينا لنَخْرُجَنَّ طاعةً لَكَ، وَإيماناً واحتساباً.

لكنهم لدى التطبيق العمليّ ينكشف أنَّهم كانوا كاذبين .

جَهْدَ أيمانهم : أي : غايةَ ما لديهم من أَيْمانٍ مُشَدَّدةٍ مؤكَّدة .

وهكذا أضاف هذا النصّ إلى النصوص السابقة بياناً عن حال المنافقين في كذبهم بإعلان السَّمْع والطاعة .

* * *

* ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [المجادلة/٨٥ مصحف / ١٠٥ نزول] تحذيراً مشدّداً من معصية الرسول ، بمناسبة بيان حال طائفة من المنافقين ، كانوا يتناجَوْنَ فيما بينهم بالإثم والعُدْوانِ ومعصية الرّسول ، فقال الله تعالى فيها للمؤمنين :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

وبهذه المناسبة أمَرَ الله المؤمنين إذا أراد أحدُهُمْ أنْ يُنَاجِيَ الرَّسُول فيُحادثَهُ سِرّاً لأمور خاصة فإنّ عليه أن يُقدّم بين يدي نجواه صدقةً ، والغرضُ من هذا أن لا يُزْعج الثُّقَلاء الرسول ﷺ بأمور تافهات لا تستدعي شَغْلَ وَقْتِهِ الثمين بها ، لأنَّه إذا علم أحدهم أنّه مكلّفٌ أن يَبْذُلَ صَدَقَةً قبل مناجاته كفّ عن طلب المناجات التي ليس محتاجاً إليها حاجةً شديدة ، لئلاَّ يبذُلَ قبلها مالاً .

لكنّ بعضهم أشفق أن يبذل صدقة قبل طلب مناجاة الرسول فقال الله عزّ وجلّ لهم :

﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

* * *

* ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [الحجرات/٤٩ مصحف/١٠٦ نزول] بشأن الأعراب الذين أسْلَمُوا فاهمين أنَّ الإسلام انتماءٌ دنيويٌّ لجماعة ، واتّباعٌ لقائدها ، كالانتماءات القوميّة أو القبليّة أو الحزبيّة القائمة على مصالح دنيويّة قوله تعالى فيها :

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

لا يَلِتْكم : أي : لا ينقُصْكُمْ .

فعالج هذا النص بهذا التوجيه الحالة الخاصة لهذا الصِّنف من المسلمين الَّذين بَدأ انتماؤهم بالإسلام قبل الإيمان ، معَ أن الترتيب الطبيعيّ في قضيّة الدّين أن يؤمن الإنسان بمبادئه ، ثم يُعْلِنَ انتماءه وإسْلاَمَهُ وطاعتَه.

* * *

* ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [التغابن/٦٤ مصحف/١٠٨ نزول] خطاباً موجّهاً للكافرين بَيَّنَ لهم فيه أنَّه هُوَ الَّذي خَلَقَهُمْ وخَلَق السماوات والأرض بالحقّ ، وذَكَّرَهُمْ فيه بما أنزل بالّذين كفروا من الأمم السابقة من عذاب أليم .

وأتبعه في السورة بتعليم رسوله فكلّ داعٍ إلى الله من بَعْدِه كيف يردّ على الكافرين زعمهم بغير دليلٍ عقليٍّ ولا توهُّمِيٍّ أنَّ الله لا يبعث الناس بعد الموت إلى الحياة الأخرى للحساب والجزاء .

وبعد ذلك دَعا الكافرين إلى الإيمان بالله ورسوله والقرآن ، وأنذرهم بعذاب النار يوم الدين هم وكلّ من كفر وكذّب بآيات الله .

وبعد ذلك قال لهم :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾ .

فظهر أنَّ هذا التكليف موجَّهٌ للكافرين في السورة .

* * *

* ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [الفتح/٤٨ مصحف/١١١ نزول] بياناً يتعلّق بالأعراب الذين تخلّفُوا عن الخروج مع الرسول والمؤمنين لأداء العمرة التي منعهم مشركو مكة من أن يؤدّوها في ذلك العام ، وتَمَّ في ذلك الوقت ما يُسَمَّى بِصُلْح الحديبية ، فقال الله تعالى لرسوله :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى

ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ .

فعالج هذا النصّ حالة عُصاةِ الأعراب ، واستثنى مِنَ الإلْزَام بالطاعة في الدعوة إلى القتال ذوي العاهات والضرورات ، ووعَدَ مطيعي الله ورسوله بجنّاتٍ تَجْري من تحتها الأَنهار يوم الدين ، وأَنْذَر مَنْ يَتولّى عاصياً مخالفاً بعذاب أليم .

* * *

* وأخيراً أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول] بياناً يَصِف به المؤمنين والمؤمنات أثبت فيه أنهم يطيعون الله ورسوله فقال تعالى فيها :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ .

فكان هذا الختام بمثابة القُفْل لأول نصٍّ جاء مبيّناً حال المؤمنين ، وهو النّصّ الذي جاء في الآية (٢٨٥) من سورة (البقرة) أوّل سورة مدنيّة ، إذ جاءَ فيه :

﴿ . . . وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ .

فقول الله بشأن المؤمنين في آخر النصوص : ﴿ ويُطيعون الله ورسوله ﴾ هو بمثابة القفل لعبارة : ﴿ وَقَالُوا : سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرانك ربّنا وإليكَ الْمَصِير ﴾ وبهذا تمّ عِقْدُ الموضوع .

* * *

الفَصْل السَّابع

العبادة

أسُسُها وفلسفَتُها ومفاهيمها وذكر الله فيها

وفيه اثنتا عشرة مقولة :

المقولة الأولى : مقدمات في تعريف العبادة ودواعيها وشروطها .

المقولة الثانية : فلسفة حركة العبادة في السلوك .

المقولة الثالثة : كون العبادة حقّ الرّب على عباده وفطريتُها ومراتبها ودرجاتها .

المقولة الرابعة : مستويات العبادة والدوافع لها ومشاعرها التي تتمثّل بالخشية .

المقولة الخامسة : العلاقة بين العبادة وذكر الله عزّ وجلّ .

المقولة السادسة : أسباب ضعف مشاعر العبادة أو انعدامها أو تحوّلها عمّن هي له .

المقولة السابعة : آثار مشاعر العبادة القلبية والنفسية في السلوك .

المقولة الثامنة : شمول العبادة كلّ الأعمال الإراديّة الباطنة والظاهرة .

المقولة التاسعة : اشتمال العبادات في الإسلام على حكمٍ ومصالح للعباد .

المقولة العاشرة : يُسْرُ العبادات في الإسلام ورفع الحرج عنها .

المقولة الحادية عشرة : لا وساطة في العبادة بين العبد وربّه .

المقولة الثانية عشرة : لواحق مفاهيم متعدّدة في العبادة .

المقولة الأولى :

مقدمات
في تعريف العبادة ودواعيها وشروطها

(١)
تعريف العبادة لغةً وشرعاً

* العبادة في المفهوم اللّغويّ العامّ : سُلُوكٌ إراديٌّ نفسيٌّ أو ظاهر ذو دوافع باطنةٍ يُقْصَدُ به إرضاءُ معبودٍ يَرَىٰ عابِدُهُ فيه أنّ له رُبُوبيّةً أَو بعضَ تأثيراتِ ربُوبيَّةٍ بذاته أو بمعونةِ الرّب وإمداده وتمكينه ، وذلك بسبب ما يعتقد عابده فيه من أنّ لَدَيْهِ قُوىً غيبيّةً أو قُوىً خارقةً فوقَ ما لدى الخلائق منها ، ولو بتمكين الرَّبّ الخالق له .

* والعبادة في مفهوم الدين الرّبّانيّ الحق : سُلُوكٌ إراديٌّ نَفْسيٌّ أو ظاهر ذو دوافع باطنةٍ يُقْصَدُ به أداءُ ما يُحِبُّ الرَّبُّ عزَّ وَجَلَّ من مَرْبُوبيه ، ومَا يُرْضيه منهم ، ويُقَرِّبُهُمْ إليه .

فالعبادة في دين الله الحقّ يدخُلُ في عُمُومِها ما يلي :

١ - الإيمان الإرادي بعناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام ، وهو أوّل مطالب الرّبّ من عباده وأسْمَاها وأجلُّها ، وهو قاعدة كُلِّ فروع العبادة وأَسَاسُها .

٢ - حركات النفس الإراديّة على ما يُحبُّ الله ويُرْضيه من عباده ، وهي

أعمالٌ باطنة داخلَ أجهزةِ النفس ، ومنها : « حبّ الله - ابتغاء مرضاة الله في عبادته وابتغاء وجهه - الحبّ في الله والبغض في الله - الرّضا عن الله في مقاديره والصّبْر على ما يكْرَهُ العبد منها - التسليم التامّ لله في أحكامه وشرائعه ومقاديره - التوكّل على الله - رجاء رحمته وخوف عقابه - حبّ الحقّ والخير وحبّ نشرهما - كراهية الشرّ وفعلِ الشّرّ وكلِّ مساخط الله - كراهية الشيطان وجنودِه ودُعَاةِ الشرّ - التفكّر والتدبّر في آيات الله الكونيّة والمنزّلة وشَغْل الذهن بالمفاهيم الإسلامية - مراقبة الله في كلّ قولٍ أو عمل - تَذَكُّرُ أحكامه وشرائعه ووعدِه ووعيدِه عند السلوك ليكون دافعاً لطاعة الله والعمل بمراضيه - » إلى غير هذه الأعمال النفسيّة الإرادية الباطنة ، ومنها الكفُّ عن كلّ ما لا يُحِبُّ الله منها ، وعن كلّ ما يكْرَه من عباده من أعمالٍ باطنة ، ابتغاء مرضاته .

٣ - الأقوال الإرادية الّتي يُحبُّ الله من عباده أن يقولوها بألسنتهم ، مستدعين معانيها في أفكارهم ، من مخازن حفظها في ذاكراتهم ، إلى مواطن التّذكُّرِ الفاعل في تصوّراتهم الحاضرة عند النطق بها ، ومنها : « كلمة التوحيد - تلاوة آيات القرآن المجيد - تلاوة الأذكار المشروعة - الدعاء بخيري الدنيا والآخرة ممّا لا معصية لله فيه - صِدْقُ الحديث في المواطن التي يحْسُنُ فيها البيان شرعاً - الدّعْوَةُ إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - تقديم النصيحة النافعة - تعليم الْعِلْم النّافع - كلِمَةٌ طيّبةٌ تَسُرُّ زوجةً أو ولداً أو والداً أو أخاً في الله - السَّلامُ على المسلم - ما فيه إصلاحٌ على هدىً وخيرٍ بين خصمين - » إلى غير هذه الأعمال القولية من كلّ ما يُبْتَغَىٰ به رضوان الله ، وكان على منهاج الإسلام ، ويدخل في هذه العبادات الكف عن أقوال يحبّ الله الكفّ عنها عند وجود دواعيها ، وإيثارُ الصمت على كلام لا يَجْلُبُ نفعاً ولا يدفع ضرراً ، بشرط ابتغاء مرضاة الله وثوابه في كل ذلك .

٤ - الأعمال الإرادية الظاهرة التي يُحِبُّ الله من عباده أن يَعْمَلُوها ومنها ما يلي : « الصلاة - الصّيام - الحجّ - أداء الزكاة - الجهاد في سبيل الله - أداء الأمانة - برّ الوالدين - صلة الأرحام - إعفاف النفس وإعفافُ الزّوجة عمّا حرّمَ الله بقضاء االوطر فيما أباح الله - العمل لكسب الرّزق مما أباح الله - معونةَ

المسلم لأخيه المسلم - إماطة الأذى عن الطريق - ردّ عدوان المعتدين والصائلين - القيامُ بمصالح المسلمين العامة - بناء المساجد والمدارس والمستشفيات - الحكم بما أنزل الله - تنفيذ أحكام الله - إقامة حدود الله - كلُّ عَمَلٍ يُثِيبُ الله على فعله » بشرط ابتغاء مرضاة الله في كلّ ذلك .

وهنا نلاحظ أنّ كل أبواب الفقه التي دوّن فيها الفقهاء ما استنبطوه من أحكام شرعيّة ، تدخل في عموم مفهوم العبادة في الإسلام ، فيدخل في هذه العبادات وفق هذا المفهوم الواسع لمعنى العبادة الالتزام حُكْماً وتنفيذاً بكلّ ما شرع الله لعباده ، إذا كان هذا الالتزام قد حصل طاعةً لَهُ وابتغاء مرضاته ، وهي تشتمل على قسمين :

القسم الأوّل : أعمال باطنة أو ظاهرة أمر الله بها إلزاماً أو ترغيباً كما سبق من أمثلة .

القسم الثاني : أعمال باطنة أو ظاهرة أمر الله بتركها أو اجتنابها إلزاماً أو ترغيباً ، ومنها اجتناب عقوقِ الوالدين ، وقطيعةِ الرّحمِ ، وقتلِ النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، والسّحرِ والسّرقَةِ ، وأكلِ أموال الناس بالباطل ، وشربِ الخمر .

واجتنابُ الميسر والأنصاب والأزلامِ وكلّ ما فيه إضرارٌ بالفرد أو بالمجتمع ، وكلّ ما فيه إخلال بحقوق الدين ، أو حقوق الدولة المسلمة .

والكفّ عن كلّ ما حرّم الله على عباده من عمل باطنٍ في النفس أو ظاهر .

ويدخل في العبادات فعل المندوبات ، وترك المكروهات ، والتقيّد الإراديّ بما أحلَّ الله لدىٰ تَلْبِيَةِ مطالب النفس أو الْجَسد ، إذا كان هذا التّقيُّدُ قد حَصَلَ طاعةً لله وابتغاءَ مرضاته .

وتشمل العبادة أيضاً ما يَقُومُ الملائكة الكرام به من طاعةٍ وتسبيحٍ ووظائف أُعِدُّوا لها ، ولو كانوا يقومون بها بمقتضىٰ ما فُطِرُوا عَلَيْهِ من طاعة .

(٢)

العبادة مطلوب الله من المكلفين وهي واجب أخلاقي

* خلق الله عزّ وجلّ الناس بصفاتهم التي ميّزَهُمْ بها ، ووضعهم في ظروف هذه الحياة الدنيا للامتحان ، ثم لتحقيق لوازم هذا الامتحان والغاية منه .

إنّ الامتحان يستلزم بَعْد انتهاء ظروفه المحَاسبةَ والمحاكمة وفَصْل القضاء ، وهذه تكون يوم الدين .

أمَّا الغايةُ الأخيرة منه فَهِيَ الجزاءُ بالعدْلِ في أحوالِ الإساءة والمعصية . والجزاء بالفضل في أحوال الطّاعة وفعل الخير والبرّ والإحسان .

وقد دلَّ على أنّ الغاية من الخلْق الامتحان لتحقيق لوازمه ثمّ لتحقيق الغاية منه ، نُصُوصٌ متعدِّدَة من القرآن المجيد ، فمنها ما يلي :

١ - قول الله عزّ وجلّ في سورة [الملك/٦٧ مصحف/٧٧ نزول] :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

لِيَبْلُوَكم : أي ليمتحنكم ويختبركم .

والموتُ هو نهاية رحلة الامتحان في الحياة الأولى .

والحياةُ الأُخرى هي الْمُعَدَّة في خِطَّةِ الْخَلْقِ للحساب والمحاكمة وفَصْلِ القضاء .

ومَـوَادُّ الامتحـان أنـواع كثيـرة يصعُـبُ حصـرهـا ممّـا يحـب الإنسـان ومما يكره ، وهي تتناولُ كلَّ الحركات الإرادية في الإنسان ، الجسديّة ، والفكرية ، والنفسيّة ، والعاطفيّة ، والإيمانية .

المصائبُ والنّعم من أنواع مواد الامتحان - الإيمان والكفر من مواد الامتحان - ما يحبُّ الْإنسان وما يكره في الحياة من موادّ الامتحان - الناسُ بعضهم ببعض ممتحنون - الشهوات والغرائز والأهواء من موادّ الامتحان - المال

والمطاعم والمشارب والمناكح والملابس من مواد الامتحان - وهكذا . . . »

وكلّ ما جاء في النصوص القرآنية من فِعْلَيْ : « بَلَى وابْتَلىٰ » ومشتقاتهما فقد جاء مُقتَرِناً بما يَدُلُّ على نَوْعٍ أو أَكْثَر من أنواع موادّ الامتحان .

ونظيرهما معظم ما جاء فيها من فِعْلِ « فَتَن يَفْتِنُ » ومشتقّاته ، إذْ جاءتْ في معظم النصوص بمعنى الامتحان .

* ومطلوبُ الرَّب من عباده في هذا الامتحان هو أن يَعْبُدُوه ولا يُشْرِكُوا بعبادته شيئاً ، وقد دلَّ على هذا المطلوب قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة [الذاريات/٥١ مصحف/٦٧ نزول] :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾

العبادة واجب أخلاقي :

ولَمّا كانت العبادة اعترافاً لذي الكمالات بكمالاته ، ومقابلتها بالحمد والثناء ، واعترافاً لذي الإنعام بإنعامه ، وأداءً لواجب الشكر عليها ، كانت واجباً تدعو إليه مكارم الأخلاق في النفوس ، وكان رفضها أو التقصير بها يُمَثّل جحوداً للحقّ ، أو إهمالاً لأداء الواجب ، وذلك من سوء الخلُقِ النفسيّ .

* * *

(٣)

اتفاق جميع الرُّسُل على دعوة أُمَمِهم وأقوامهم إلى عبادة الله عزّ وجل وحده

لدى تتبُّع النصوص القرآنية وقصص الأنبياء فيه نجد أنّ كُلَّ رسول أرسله الله عزّ وجلّ إلى قومه كان من دعوته الأولى لهم أنْ يَعْبُدوا الله وحده لا إله إلاّ هو .

قال الله عزّ وجلّ : في سورة [الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول] خطاباً لرسوله :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

فكان الرسول يقول لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

* * *

(٤)

ما يشترط في العمل حتّى يكون عبادةً لله عزّ وجلّ

لا يكون عمل العبد عبادةً لله عزّ وجلّ حتّىٰ تتوافر فيه ثلاثة شروط :

الشرط الأول : أن يكون صاحبُ العمل مؤمناً بالقاعدة الإيمانيّةِ في الإسلام صحيحَ الإيمان ، ومعلناً إسلامه لله .

فالله عزّ وجلّ لا يقبل عملاً مهما كان صالحاً ما لم يكن صاحب العمل مؤمناً بربّه إيماناً كاملاً صحيحاً ، ومؤمناً بكلّ ما جاء عنه من بيان ، ومؤمناً بما أرسل من رسول ، ومؤمناً بخاتم المرسلين محمد ﷺ وبما جاء به عن ربّه ، ومعلناً إسلامه له .

الشرط الثاني : أن يكون العمل موافقاً لما شرعه الله لعباده من عبادات أو أذن به ، وَفْقَ بيانَاتِ آخِرِ دينٍ أنْزَلَه ليكون الدّينَ الخاتم الذي يَجبُ على الناس جميعاً اتّباعُه والعملُ بما جاء فيه .

فمن ابتدع عَمَلَ عبادةٍ لم يأذن به الله لم يكن عبادةً له ، والله لا يَقْبَلُ أَنْ يُعْبَدَ إلاّ بما شرعه من عبادات أو أذن به ، ولو ترَكَ الله الناس لما يبتدعون لاخترع الناس صوراً من العبادات متناقضات ، وأدخلوا فيها الأهواء والشهوات .

روى الإمام أحمد ومسلم عن عائشة أنّ النبي ﷺ قال : « مَنْ عَمِلَ عَمْلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ » أي : مردود غير مقبول .

الشرط الثالث : أنْ يَقْصِدَ العامل بعمل العبادة وجْهَ الله وَحْدَهُ لا شريك له .

فمن قصَدَ بعمل العبادة غير وجه الله لم يكن عبادةً لله أَصْلاً ، ومَنْ أشركَ بِقَصْدِهِ غير الله مع قصده عبادة الله أَحْبَطَ الله ثوابه ، ولم يقبل الله منه عمله .

فالعبادةُ دِينٌ ، ولا يكونُ الدّين لله ما لَمْ يَكُنْ خالصاً له .

وقد دلّ على هذا الشرط نصوص كثيرة .

* أمّا الْقَصْدُ من العمل فهو الذي يعطي العمل قيمَتَه عند الله بَعْدَ صحّة العمل وموافقته لما شرعه الله أو أذن به .

ويكفي في هذا الحديثُ الذي رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب ، أنّ الرسول ﷺ قال :

« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِيٍ ما نَوَىٰ ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله ورَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ الله وَرَسُولِهِ ، ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُها أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْه » .

* وأمّا وجُوبُ كَوْنِ الْعَمَلِ خالصاً لله وحْدَهُ من الشِّرْك فقد دلَّتْ عليه نُصُوصٌ كثيرة ، منها ما يلي :

(١) قول الله عزّ وجل في سورة [الزّمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول] خطاباً لرسوله :

﴿ . . . فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ . . . ۝٣ ﴾

وقوله فيها :

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ ﴾

وقوله فيها :

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ . . . ۝١٥ ﴾

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾

(٣) وقول الله عز وجل في سورة [الكَهْف/١٨ مصحف/٦٩ نزول] :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

فأمر الله عزّ وجلّ بالْعَمل الصّالح ، وهو ما كان مشروعاً في الدِّين بأمْرٍ أَوْ إذْن ، فقال تعالى : ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً ﴾ .

ونَهىٰ عن الشّرْك بالعمل ، وهو أن يكون عمل العبادة مقصوداً به عبادةُ غيرِ الله مَعَ عبادة الله ، فقال تعالى : ﴿ وَلا يُشْرِكْ بعبادَةِ رَبِّهِ أحداً ﴾ .

(٤) وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تبارك وتعالى : (حديث قدسي)

« أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تركْتُهُ وَشِرْكَهُ » .

والشرك الأصغر وهو الرّياء يُحْبِطُ الْعَمَل ولا يُخْرِجُ من الإسلام إلى الكفر ، فإذا كان الرّياء خاصّاً ببعض العمل لا بكلّ العمل ، كتجويد الصلاة مُرَاءَاةً للنّاس حَبِطَ من الصلاة بمقدار ما حصل فيها من تجويد وتحْسينٍ رياءً وسُمْعة ، وكالزيادة في بذل المال مُراءاة للناس ، ضمن وجوه الخير الّتي يُحِبُّ الله إنفاقَ المال فيها ابتغاء مرضاته وطلباً لثوابه ، فإنّ الله عزَّ وجلَّ يُحْبِطُ عنده من هذا الإنفاق الزيادةَ الّتِي بذلَهَا المرائي رياءً وسمعةً ، والله عليم بما في القلوب من نيّات ، ومَا في النفوس من خاطرات .

فهذا شرك رياءٍ ، لا شركٌ في الرُّبُوبيّة ، ولا شركٌ في الإلَهيّة ، فهو ليس كفْراً ناقضاً للإيمان ، إلاّ أنّه يُحْبِط عند الله من العمل على مِقْدار ما دخلَ فيه من رياء ، وَهذا من العدل .

* * *

المقولة الثانية :

فلسفة حركة العبادة في السُّلوك

عرفنا أنّ العبادة في الدّين تقوم على أساسٍ من القاعدة الإيمانيّة الرّاسخة في قلب المؤمن .

وهنا نتساءل : كيف تتأثر الإرادة بعناصر القاعدة الإيمانيّة ، فتتوجّه في داخل النفس محرّكةً أجْهِزَة العمل للتعبير عن العنصر الذي أثارَها من عناصر القاعدة الإيمانية .

وفي الإجابة على هذا التساؤل أقول :

أولاً : إنّ الإرادة في النفس يحرّكها ويثيرها أو يوجّهها واحِدٌ من ثلاثة أُمورٍ داخل النفس :

الأمر الأول : عقيدة راسخةٌ مطمئنَّةٌ في مراكز الاعتقاد ، إذا صعَدَتْ إلى مركز التصوّر المتحرّك الفاعل ، أو فكرةٌ جديدة ولّدتْ قناعةً وتسليماً بصِحَّتها أو برجحان صِحَّتِها ، فهي حاضرةٌ في مركز التصوّر المتحرّك الفاعل .

هذه العقيدة الراسخة ، أو الفكرةُ الجديدة الّتي امتلكت الإقناعَ الكافي ، تجري في مسالك النفس مروراً بعاطفة رغبة في منفعة ، أو طمع في الحصول على لذّة أو أَمْرٍ محبوبٍ ، أو خوفٍ من مَضَرَّة أو ألم أو أمْرٍ مكروه ، فتستعين بالعاطفة أو بمطالب اللَّذة أو الهوى ، أو الخوف من المضار والآلام والمكاره ، لتدفع الإرادة ذاتَ السلطة التنفيذية داخل النفس ، وعندئذٍ تستجيب الإرادة الواعية البصيرة لمطالب الفكر ، ولو كان في هذه المطالب مخالفة لعواطفَ أو شهواتٍ أو أهواءٍ ثائرةٍ ذاتِ جُوعٍ حَاضِرٍ غَبِيٍّ بَهَمِي .

الأمر الثاني : عاطفة ثائرةٌ عمياء ، تطغىٰ على المشاعر ، فتشوش على مراكز التصوّر الفكريّ السليم ، وتُفْسِدُ مَسَالِكَهُ إلى الإرادة ، فتستجيب لها

الإرادة الضعيفة ، دون أنْ تَسْتَشِيرَ مراكز الْفِكْرِ ، أو مراكز الاعتقاد ، فتوجّه الإرادة أوامرها لأجهزة السلوك ، فتعمل بمقتضى أوامرها ، ولو كان من وراء ذلك عواقب سيئة ، أو نتائج مستقبليّةٌ وَخِيمَةٌ .

وقد تُوَلِّدُ العقائد الصَّحيحةُ الرَّاسِخَةُ عواطِفَ قَوِيَّةً ذاتَ يقظة مستمرّة ، وهذه العواطف البصيرة تمنع العواطف العمياء فَتُقْنِعُها ، أو تَقْمَعُها وتكبَحُ جماحَها .

ومن أمثلة العواطف الثائرة العمياء ، حبٌّ آسِرٌ ، وبُغْضٌ قَاهِر ، وغَضَبٌ فاجِرٌ ، وهي تنبعث من مركز العواطف .

الأمر الثالث : ما ينبعث من مراكز الأهواء والشهوات ، كشهوة عارمة ، ومشاعرِ لذّةٍ طاغية ، ومشاعِرِ أَلَم مكروه ، وهوىً بسلطان على الناس ، ونحو هذه الأمور ، ممّا قَدْ يُغَشّي على مراكز الْعَقائد ، أو يُشَوِّشُ على مراكز التصوّر الفكريّ السليم ، ويُفْسِدُ مسالكَهُ إلى الإرادة .

فتستجيب الإرادة لهذه الأهواء والشهوات ، دون أن تستشير مراكز الفكر ، أو مراكز الاعتقاد ، فتوجّه الإرادةُ أوامرها لأجهزة السُّلوك ، فتَعْمل بمقتضى أوامرها ، ولو كان من وراء ذلك عواقب سيّئة ، أو نتائج مستقبليّةٌ وخيمَةٌ .

وقد يَحْصُل بالتدريب الطويل لدى بعض المؤمنين الصادقين ذوي الإرادات القويّة تطويعٌ للشهوات واللّذاتِ والأهواء ، حتَّىٰ تكون استجابتُها متلائمةً مع مقتضيات العقائد الإيمانيّة الصحيحة الرّاسخة ، وهذا يكونُ عند كمال الإيمان ، فيكون هَوى ذي الإيمان القويّ المسيطر على جوانب الفكر والقلب والنفس تبعاً لطاعة الله والعمل بمراضيه ، ولا يَشْغَلُ أعظم مساحة من ساحة تصوّراته المتحرّكة الفاعلة إلاّ ذكرى الدار الآخرة ورضوانِ الله فيها والفردوسِ الأعلى .

ومن الذين وصفهم الله عزّ وجلّ بأنَّهم بَلَغُوا هذه المرتبة الرفيعة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ، فقال تعالى بشأنهم في سورة [ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول] :

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾

أولي الأيدي والأبصار : أي : أصحاب الأيدي العاملة الناصبة في الخيرات المجاهدة في طاعة الله ، المحسنةِ لعباد الله ابتغاء مرضاته . وأصحاب الأبصار الواعية الدّرّاكة النافذة لمعرفة حقيقة الحياة الدنيا ، ووظيفة الإنسان فيها ، وحقيقة الدار الآخرة وواجب الإنسان نحوها ، وما هو الطريق السّويّ الأكمل للظفر بالمنازل الرفيعة في الفردوس الأعلى يَوْم الدّين ، والنافذة إلى المعرفة الْمُثْلَى بالله وبحكمته ، والمرادُ أَبْصَار بصيرتهم الفكريّة والوجدانية .

إنَّا أخْلَصْنَاهُمْ : أي : صَفَّيناهم من الشوائب ونَقَّيْنَاهُم إعانةً لهم على الوصول إلى الدرجات العليا في الكمال الإنساني الّتي يحتلُّهَا الممتازون من الرُّسُل عليهم السّلام .

بخالصة : أي : بسَبَبِ خَصْلَةٍ وعبادةٍ لله خالصةٍ من شوائب مطالب الدنيا ، هي ذِكْرَىٰ الدّار .

ذكرىٰ الدّار : أي : تذكُّرُ الدار الآخرة دواماً ، ودار النعيم الخالدة يوم الدين ، إذ هي الجديرة بأن تُعَرَّف بحرف « ال » الدالّ على الكمال .

أمّا دار الحياة الدنيا فهي دارٌ عابرةٌ فانيةٌ لا تَسْتحقُّ أن تُوصَفَ بما يُشْعِر بأهميتها ولا بارتفاع منزلتها .

ولهذا شرّفهم الله عز وجل بقوله : ﴿ واذْكُرْ عِبَادَنا ﴾ فأضافهم إلى عظمته وأثنى عليهم بقوله : ﴿ وَإنّهم عِنْدَنَا لَمِنَ المصطفَيْنَ الْأَخْيَار ﴾ فهم أصحاب عبوديّة كاملة لله بمعونة الله وفَضْلِه بعد جهادهم الصادق .

ثانياً :

يؤكّد التأمُّل في الخبرات النفسيّة الإنسانيّة أنّ عناصر القاعدة الإيمانية عناصِرُ مستقرّة في مواطنها من عُمْقِ النفس ، فإذا استثير عُنْصُرٌ منها أو أكثر

بمثير من الأحْدَاث الخارجية ، أو بمثير تفكُّري في المؤمن ، أو بمثير من أقوالٍ أو أفعالٍ يقوم بها ضمن تكليفٍ ديني موقوت ، أو عادةِ ذكرٍ أو دعاءٍ في مناسبة أو وقت متكرّر ، أو نحو ذلك ، كان لهذا العنصر حركة تنتقل بها صورته من مستقرّه في عُمْقِ النفس إلى مركز التصوّر المتحرك الفاعل ، ثم يكون لهذا التصوّر المتحرّكِ الفاعل رَدُّ فِعْلٍ في النفس ملائِمٍ له ، ومساوٍ له في مقادره قوَّةً وضعفاً ، كمَّاً وكَيْفاً .

إنّ رَدّ الفعل الطبيعيّ هذا يكون رَدّاً سليماً سَوِيّاً في حالة سلامةِ الفطرة النفسية ، وسلامةِ أجهزتها من الأمراض المعنوية ، وسلامة التصوّرات من العوارض المشوّشة عليها ، أو الصادّة لها ، الواقفة في طريقها ، تَمْنَعُها من النفوذ إلى مواطنها الّتي تكون فيها فاعلةً مؤثرة ، أو المخدّرة لها إذ تَجْعَلُهَا بمثابة المشلولة عن الحركة والتأثير ، فتَغْدو تصوراتٍ اعتقاديّة كالميّتة في داخل أصحابها ، بسبب الشّلل الذي أصابها ، وبذلك ، لا تستجيب للمثيرات ولا تنفعل بها ، فهي قد ترى ولا تتحرّك ، وقد تعي ولا تفعل شيئاً .

وفي كلّ هذه الأحوال غير الطبيعية لا بدّلها من علاجٍ نفسيّ وقلبيّ من مَحَاوِرِ الخوف والطمع والإقناع .

أمّا في الحالة الطبيعيّة السليمة فلكلّ عنصر اعتقاديّ يُسْتَدْعَىٰ إلى مراكز التصوّر المتحرّك الفاعل ردُّ فعل نفسيّ ملائم له ، ومساوٍ له في مقداره ، أو زائدٌ عليه من شحنة ذاتيّة تنطلق من سوابق التجربات التي رافقها تأثرٌ سعيدٌ بحلاوة الإيمان والسلوك الإيماني .

أمثلة :

(١) إذا حصل المؤمن على نِعْمَةٍ يُحِبُّها فالمفروض فيه إذا كان يقظ الإيمان أنْ تثير من عقيدته الراسخة عُنصر إيمانه بربّه الذي أَنْعَمَ بها عليه ، وبَعْدَ إثارة هذا العنصر من قاعدته الإيمانية تَصْعَدُ صُورَةٌ منه حتّىٰ يكون لها حُضُورٌ في ساحة التصوّر المتحرّك الفاعل ، ثمّ يكونُ لها في السلوك عن طريقِ مُرورها

بمحرّكٍ ومُوَجِّهٍ من الإرادة رَدُّ فِعْلٍ يَظْهَرُ بحمد الله والثناء عليه ، والتوجُّهِ للقيام بواجب الشكر عن طريق الأعمالِ التي تُرْضِي الله من الطاعات والقُرُبَات ، والدّعاءِ لله بدوام النِّعَم ، وسؤالِه المعونة على ذكره وشكره وحُسْن عبادته .

(٢) وحينما يُلاحظ المؤمن مظاهر القدرة الْخلاَّقَة الْمُتْقِنَة لكلّ شيءٍ في هذا الكون ، بمثيرٍ من حدَث جَرَىٰ ، أو تفكيرٍ في الظاهرات الكونية ، فالمفروض فيه إذا كان يَقِظَ الإيمان أن تثير هذه الملاحظة من عناصر عقيدته الإيمانية الراسخة المستقرّة ، عناصرَ إيمانه بِعلْم الله المحيطِ بكلّ شيء ، وحِكْمَتِه الجليلة ، وإتْقَانِه لكلّ شيء ، وقُدْرَتِه عَلَى كُلّ شيء ، وبعد إثارة هذه العناصر في مُسْتَقرِّها تَصْعَد صُوَرٌ عَنْهَا حتّىٰ يَكُونَ لها حضورٌ في ساحة التصوّر المتحرّك الفاعل ، ثم يكونُ لها في السُّلُوكِ رَدُّ فِعْلٍ إرَادِيّ يَظْهَرُ بالثناء عَلَىٰ عظيم حكمة الله وقدرته ، وبالخضوع له ، والذُّلّ لسلطانه ، وسؤاله مَدَدَهُ ومعونَتَه وتوفيقه .

(٣) وحينما يؤذّن المؤذّن للصلاة ، أو يحضُرُ وقتها بالأمارات الكونيّة الدّالّة على حضوره ، فالمفروض في المؤمن إذا كان يقظ الإيمان أن يثير هذا من عقيدته الراسخة عنصر إيمانه بربّه ، وإيمانِه بما يجب عليه من أداء الصلاة الموقوتة ، ثم تَصْعَدُ صُورَةُ هذا العنصر حتى يكون لها حضور في ساحة التصوّر المتحرّك الفاعل ، ثمّ يكون لها في السلوك رَدّ فعلٍ إراديّ يظهر بالاستعداد النفسيّ لأداء الصلاة ، فالنهوضِ لتهيئة ما يلزم لها ، فالقيامِ بأدائها على الوجه المشروع .

(٤) وحينما تحلُّ مصيبة مؤلمة من عوارض الحياة الدنيا ، فالمفروض في المؤمن إذا كان يقظ الإيمان أن يثير حُلُولُها من عقيدته عنصر إيمانه بقضاء الله وقدره ، وأنّ كُلَّ ما يُجْرِيه من تصاريف في عباده فإنّما يجريه لحكمةٍ جليلة ، وأنّ المطلوب من المؤمن عند المصائب الصَّبْرُ عليها ، وسؤالُ الله ودعاؤه والالتجاء إليه ليدفعها أو يرفعها إذا كانت من المصائب التي تُدْفَع أو

تُرْفع ، أو يُعَوّض خيراً ، مع طلب الأجر والثواب عليها ، وبعد هذه الإثارة يكونُ لصورة هذا العنصر حضورٌ في ساحةِ التصوّر المتحرّك الفاعل ، ثم يكونُ لها في السلوك رَدُّ فِعْلٍ إراديّ يظهر بالقيام بعبادات الصَّبْر والدُّعاء والالتجاء إلى الله .

(٥) وحينما يقوم المؤمن بتأدية الأذكار المشروعة المؤقتة أو غير المؤقتة ، فالمفروض في المؤمن ذي الإيمان اليقظ ، أنْ تستثير الأذكار من عناصر إيمانه معاني الألفاظ التي يُرَدّدُها في ذكره ، فتصعدُ هذه المعاني إلى ساحة التصوُّر المتحرّك الفاعل ، ثم يكون لها في السلوك الباطن الإرادي رُدُود أفعال تلائمها .

فلعبارة : « سبحان الله » مثلاً مشاعر تنزيهٍ قلبيّ لله عن ما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه . ولعبارة : « الحمدُ لله » مشاعر حَمْدٍ قلبيّ لله تلائمها . ولعبارة : « الله أكبر » مشاعر تعظيم وإجلالٍ قلبي لله تلائمها . ولعبارة : « لا إله إلاّ الله » مشاعر توحيد لربوبية الله ، وتوحيد لإلهيته تلائمها . وهكذا .

(٦) ويريد المؤمن أن يقوم بعمل من الأعمال ، فيقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » أو يَهُمُّ بالقيام بعملٍ من الأعمال وهو متردّد فيه ، والمفروض فيه إذا كان يقظ الإيمان أن يثير هذا الحدث من عناصر إيمانه عنصر حاجته إلى ربّه ، وأنه لا حول ولا قوة إلاّ بالله ، وأنّ الله هو الممدّ بالقوى ، وهو الذي بيده مقاليد كلّ شيء وهو على كلّ شيء قدير ، وهو الرحيم بعباده الذي لا يَخِيبُ من توكّل عليه ، مع ما يُعطي من أجرٍ عظيم على مشاعر عَبْدِهِ الإيمانية ، فتصْعَدُ هذه المعاني إلى ساحة التصوّر المتحرّك الفاعل . فيكون لها في السلوك الباطن ـ مُرُوراً بمحرّك وموجّه من الإرادة ـ رَدُودُ أفعال تلائمها ، أهَمُّهَا التوكُّلُ على الله ، والالتجاءُ إليه طلباً لمعونته وتوفيقه وتسديده ، ويكونُ لها في السلوك الظاهر ذكر لساني يلائمها ، مثل : توكلت على الله ، وإليه أنيب ، مع اتّخاذ الأسباب الكونية كاملة غير منقوصة ، طاعة للواجب الديني

فيها ، أو توجيهاته الترغيبيّة . وقد يكون لها سلوك آخر من العبادات العملية كصلاة الاستخارة .

وهكذا إلى أمثلة كثيرة لا تحصى .

* * *

المقولة الثالثة :

كون العبادة حقَّ الربّ على عباده وفطريتُها ومراتبُها ودرجَاتُها

(١)

العبادة حق الربّ على عباده

كلُّ من يؤمن بربوبيّة الله جلّ جلاله ، في الْخَلْقِ والإمداد بالبقاء ، وبالإنعام على عباده ، وبأنّه المحيي المميت المحاسب المجازي إلى سائر صفات الرّبوبيّة ، يؤمن بأنّ الله خلقَ الناس ليبلوهم ، ويضَعُ في تصَوُّرِه معانيَ العبادة ومفاهِيمَها ، فإنّه لا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ عن طريق اللُّزوم الفكري الذي لا شكَّ فيه ، أنّ العبادة حقُّ الرَّبّ على عباده ، وأنّه لا يجوز توجيهُهَا لغير الله مُطلقاً ، إذْ توجيهها لغير الله إمّا كُفْرٌ به كُفْراً كُلّياً ، وإمّا كُفْرٌ بِه كُفْراً جُزْئياً وهُو مَا يُسَمَّىٰ شِرْكاً في إلَٰهيّته ، أو في إلٰهيّته وربُوبيّته معاً .

هذا الحقّ قد أبانه الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، على ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عنه :

قال : بيْنَا أنا رديفُ النبيّ ﷺ لَيسَ بَيْنِي وبينهُ إلاّ آخِرَةُ الرَّحْلِ فقال : « يَا مَعَاذُ » قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وسَعْدَيْكَ . ثم سارَ ساعةً ثم قال : « يَا مُعَاذُ » قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وسَعْدَيْكَ . ثم سار ساعةً ثُمَّ قال : « يَا مُعَاذُ » قُلْتُ : لَبيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ . قال : « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَىٰ عِبَادِهِ ؟ » قُلْتُ : الله ورسُولُهُ أَعْلَم . قال : « حَقُّ الله على عباده أَنْ يَعْبُدُوهُ

وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » ثم سَارَ ساعَةً ثُمَّ قَالَ : « يا مُعَاذُ بْنَ جبل » . قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ . فقال : « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ الله إذا فَعَلُوه ؟ » قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَم . قال : « حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ الله أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ » .

أي : أمّا دُخُولُ الجنّة فيكون بفضل الله ، وتحقيقاً لوعده الكريم .

* * *

(٢)

العبادة فطرة رَبّانيّة في النفس الإنسانيّة

ممّا سبق نُدْركُ أنّ العبادة فطرةٌ ربّانيّةٌ في النفس الإنسانية ، وأنّها حَقُّ الله عَلَى عباده ، وأنّه لا يَصِحّ توجيهها إلاّ له ، إذْ هو الله الرّب .

وقد دَلَّ على كونها فطرةً في النفوس الإنسانية بيانات دينية متعددة ، منها ما يلي :

(١) قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] في مَعْرضِ بيان الإيمان بالله وبما أنزل على رُسُله ، والإسلام له في أوامره ونواهيه على مراده :

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

صِبْغَةَ الله : أي : فِطْرَةَ الله الَّتي فَطَرَ النّاسَ عليها ، فالإنسان مدفوع بفطرته إلى العبادة .

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة [الروم/٣٠ مصحف/٨٤ نزول] :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

* * *

(٣)

مراتب العبادة ودرجاتها

للعبادة في دلالات النصوص القرآنيّة والنّبويّة ثلاثُ مراتب ، ولكلّ مرتبة منها درجات كثيرات لا يستطيع البشر تحديدها ، وفي هذه الدّرجات يتنافسُ الْمُتَنَافِسُونَ ، ويتسابق المتسابقون ، ولكلّ درجةٍ منزلةٌ في الجنّة ، وأعلاها هي أعلىٰ دَرَجات المحسنين ، ولها في الجنة أسْمَى منازلِ الفردوسِ الأعلى . وأهلُ المنازل الدنيا في الجنة يتراءَوْن أهل المنازل العليا فيها كما يتراءَىٰ أَهْلُ الأرض النجومَ في السّماء ، لبُعْدِ مَا بيْن المنازل .

أمّا المراتب الثلاث فهي :

* مرتبة التقوى : وهي مرتبةٌ دُنْيَا ذات درجات متفاضلات .
* مرتبة البرّ : وهي مرتبة وُسْطَىٰ ذات درجات متفاضلات .
* مرتبة الإحسان : وهي المرتبة العليا ، وفيها درجات متفاضلات .

وفيما يلي شرح موجزٌ لها :

فالمرتبة الدنيا وهي مرتبة التقوىٰ : هي مرتبة يَحْتَلُّ درجاتِها المتفاضلات المتقُّون ، بحسب تفاضلهم في تقواهم .

وتتحقّق التقوى كاملةً بفعل كلّ ما أمر الله بفعله إلزاماً ورتَّبَ على تركه العقوبة ، وبترك ما نهى الله عنه إلزاماً ورتب على فعله العقوبة .

وكلُّ مخالفة لأمْرٍ أو نَهْيٍ رَتّبَ الله عليها عقوبةَ ما تجعل المخالف عرضةَ لعقوبة مخالفته ، وبذلك يكون محروماً من قَدْرٍ ما من التقوى الكليّة يُنَاسِبُ مقدارَ عقوبة المخالفة التي ارتكبها .

وكُلَّما زادت المخالفات تراكم ترتيب العقوبات على المخالف بسببها ، وازداد بمقدارها الحرمان من الكمّ الكلّيّ للتقوىٰ .

ولَمّا كانت الواجباتُ والمحرّماتُ كثيراتٍ بالنظر إلى عناصرها ، وبالنظر إلى تكرارها مع الأزمان ، فأكثر المحرّمات مستمرة التحريم في أزمان العُمْر كلّه ، وكثيرٌ من الواجبات يجب تكرارها في مواقيت متكرّرة مع دورة الزمن ، أو متكررة عند مناسباتها ، كان الالتزام بها دواماً خلال مدّة امتحان الإنسان في الحياة الدنيا ذا مجالٍ واسع جدّاً للتفاضل الكثير بين الناس .

أمّا سَقْفُ التقوىٰ فيكونُ بأداء كلّ الواجبات وترك كلّ المحرّمات .

وهنا لا بُدَّ من التنبيه على أنّ الله عزّ وجلّ راعىٰ أحوال بَنِي آدم الخطائين بمقتضى الضعف الذي فطرهم عليه ، فجعل توبة العبد واستغفاره ممّا يجلُبُ توبة الله عليه ، وغُفْرانَه وعفوه ، فقد يمسح الله بغفرانه وعفوه وتوبته على عبده ما رتّبَ عليه من عقوباتٍ بسبب إخلاله بحقوق مرتبة التقوى ، حين يرتفع العاصي بفضل الله عليه إلى سقف مرتبة التقوى ، وربما ارتَقَىٰ إلى درجات مرتبة البرّ ، أو مرتبة الإحسان .

واختصّت هذه المرتبة الدنيا باسم « مرتبة التقوىٰ » لأنّ العمل ضمن درجاتها يقي من عذاب الله المرتّب على ترك الواجبات أو فعل المحرّمات ، فمن أدّى كلَّ ما فرض الله عليه ، واجتنب كُلَّ مَا حَرَّمَ الله عليه ، فقد وَقَىٰ نفسه من العذاب وقايةً تامّة ، ووفَّىٰ حقوق مرتبة التقوى ، وكان في قمة درجات المتقين .

أمّا أدنىٰ درجات مرتبة التقوىٰ فهي درجة من يقي نفسه الخلودَ في النار بالإيمان الصحيح المقبول عند الله ، مع إعلانه الإسلام لله والانقيادَ له .

وترتقي الدرجات فوقها على مقدار ما يقي العبدُ المؤمن نفسه من عذاب الله بفعل مفردات ما أوجب الله فعله ، وترك مفردات ما حرّم الله فعله ، ملاحظاً طاعة الله في ذلك .

والمرتبة الوسطى وهي مرتبة البرّ : هي مرتبة يحتلُّ درجاتها المتفاضلات الأبرار ، بحسب توسُّعِ كلٍّ منهم في أعمال البرّ ، من نوافل العبادات ومحابِّ

الله ومراضيه ، بعد أدائه ما يجب عليه أداؤه من حقوق مرتبة التقوىٰ في ذلك العمل ، وأوّلُ ذلك الإيمان الصحيح ، وإعلان الإسلام لله عزّ وجلّ .

على أنّ كثيراً من أعمال البرّ قد يكون معوّضاً للنقص في بعض أعمال مرتبة التقوىٰ ، كالصلاة النافلة التي قد تَجْبُر ما قد يحدث من نَقْصٍ في أداء الصلاة المفروضة ، كشواغل نفسيّة ، وشرودٍ في الذهن ، وتقصيرات لا تفسد هيكل الصلاة في نَظَرِ الفقهاء .

واختصّت المرتبة الوسطى باسم مرتبة البرّ ، لأنّ البرّ هو التوسّع في نوافل أعمال الخير الصالحة عند الله ، عبادةً لله عزّ وجلّ وتَقَرُّباً إليه ، ممّا هو زائد على حدود الواجبات وترك المحرّمات .

فالنوافل من الصلوات هي من أعمال البرّ ، والصّدقات العامة فوق الزكاة هي من أعمال البرّ ، والقتال في سبيل الله حين لا يكون نَفِيراً عامّاً واجباً على كلّ قادر هو من أعمال البرّ ، والتوسّع في ميادين التعلّم والتعليم فوق ما يجب على كلّ فردٍ أن يتعلّمه هو من أعمال البرّ ، والأذكار والأوراد المسنونة هي من أعمال البرّ ، وأنْ تُسَلِّمْ على من عرفت ومن لم تعرف من المسلمين هو من أعمال البرّ ، وإكرام الوالدين فوق ما يجب لهما هو من أعمال البرّ ، وهكذا إلى ما لا يُحْصَىٰ من الأعمال الصالحة الّتي لم يفرضها الله على عباده ولكنْ رغَّبهم فيها ، ووعد بالثواب عليها .

ولكن لا يكون القائم بعمل البرّ بَرّاً ما لم يكن من أهل التقوى ، فالتحقُّقُ بالمرتبةِ الأدنَىٰ شرط للارتقاء إلى المرتبة الأعلى .

وعلى هذا فمن زعم أنّه يعمل أعمال برٍّ وهو غير مؤمن بعناصر القاعدة الإيمانيّة في الإسلام ، وغَيْرُ مُتَّقٍ لِلْخُلودِ في جهنّم فَإِنَّه لا يمكنُ أَنْ يكونَ بَرّاً .

ومن زعم أنَّه يَقُومُ بأعمال برٍّ من الأذكار والأوراد، وهو لا يؤدي الصلوات المفروضة الّتي فرضها الله عليه فإنَّ عَمَلَهُ لَا يجعلُهُ بحالٍ من الأحوال من الأبرار .

وحينما زعم مشركو قريش الذين كانوا يُسَمُّون أنفُسَهم حُمْساً ، لأنّهم يقومون بأعمال برٍّ زائدة على غيرهم من العرب ، ومنها أنّهم إذا أحرموا بحجّ أو عُمْرَة كانوا يأتون البيوت من ظهورها لئلا يَحْجُبَ رؤوسَهُمْ عن السماء سَقْف وهم مُحْرِمُون ، قال الله لهم في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ ... وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

أي : إنّ إتْيَانَ البيوتِ من ظهورها بالنسبة إلى المحرم ليس من البرّ أصلاً ، ومن أراد أن يعمل عمل نافلةٍ من أعمال البرّ فإنّ شرط قبوله منه أن يكون مُتَّقياً ، فالبرّ هو برُّ من اتَّقىٰ ، أمَّا من لم يُحقِّق في نفسه أصل التقوى فإنّه لا يُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلُ الْبِرّ .

فعبارة : « ولكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ » هي على تقدير : ولكنَّ البرّ بِرُّ من اتَّقَىٰ ، ومثل هذا الحذف « وهو حذف المضاف » كثير في القرآن .

ودلَّ على أنَّ البرّ عَمَلٌ من أعمال عبادة الله فوق ما يجب على العبد أن يعمله ، قولُ الله عزّ وجلّ في سورة [آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول] :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

أي : لَنْ تَصِلُوا إلى مرتبة البرّ في أعمال الإنفاق في مرضاة الله حتّىٰ تُنْفِقُوا ممّا تُحِبُّون .

مع أنّهم إذا لم يُنْفِقُوا من كرائم أموالهم الّتي يُحِبُّونَها ، بل أدَّوْا ما فرض الله عليهم من مجموع أموالهم الأخرى الّتي ليس لها في نفوسهم محبّةٌ خاصة ، فقد اتَّقَوْا عذابَ الله الْمُرَتَّبَ على منع المفروض فيها .

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ ثواب الأبرار هو فوق ثواب المتقين ، وذلك في نصوصٍ متعدّدة ، منها قول الله عزّ وجل في سورة [آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول] :

﴿ لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

أي : وما عندَ الله من ثوَابٍ زائد على الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار هو خير وأفضل ، وهو مُعَدٌّ للأبْرار ، الذين تحقَّقُوا بمرتبة التقوى ، وزادوا عليها من نوافل القربات حتَّىٰ كانوا بها من الأبرار .

وقد وصف الله الذين يقومون بأعمالٍ زائدة على الواجبات ، ومنها أنَّهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكّرون في خلْق السماوات والأرض ، ويقولون رَبَّنَا ما خلَقْتَ هذا باطلاً سبحانك فقِنَا عَذَاب النّار ، بأنّهم يدعون ربّهم بأن يقولوا : وتَوَفَّنا مع الأبرار كما جاء في سورة [آل عمران/ ٣] :

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾

المرتبة العليا وهي مرتبة الإحسان : هي مرتبة يحتَلُّ دَرَجَاتِهَا المتفاضلاتِ المحسنون ، بحسب إحْسَانِ كلٍّ منهم في أعمال الْبِرِّ وأعمال التقوىٰ .

وقد جاء تعريف الإحسان في بيان الرسول ﷺ بقوله : « أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ » .

ولدى التَّأمُّلِ الدَّقيق في هذه العبارة نلاحظ أنّ الإحسان يكون بوجهين :

الوجه الأول : إتقان العمل وتجويده ما استطاع العابد من إتقان وتجويد ، مع مراعاة الإخلاص فيه لله ، والصّدقِ فيه ، دون ملاحظة غيره .

وهذا إحسانٌ في الكيف .

الوجه الثاني : الزّيادة في أعمال القربات مع التحسين والتجويد كلَّما شعر العابد أنّ الزّيادة ترضي الله عزّ وجل ، لأنّها ممّا شرع ورَغَّبَ فيه .

ومما لا يخفى على أحدٍ أَنَّ عبادة العابد وهو يُشَاهد مَعْبُودَه ، ويرىٰ أنّ معبوده يُشَاهِدَهُ تزيد كمّاً وَكَيْفاً عن عبادته له وهو لا يُشاهِدُه ، ويغفل عن كون

معبوده مطّلعاً عليه مشاهداً له ، لا تخفىٰ عليه من عمله الظاهر والباطن خافية .

فالارتقاء إلى مرتبة الإحسان في عَمَلٍ مَا إنّما يكون من خلال أداء الواجبات ، وأداء نوافل الْقُرُبات الّتي يُحبُّ الله من عباده ممارسَتَها ، والقيامَ بِهَا ابتغاء مرضاته .

* * *

المقولة الرابعة :

مستويات العبادة والدوافع لها ومشاعرها الّتي تتمثل بالخشية

(١)

مستويات العبادة في نفس العابد ودوافعه للقيام بها

لمّا كانت العبادة تحقيقاً لعُبُودِّية الْعَبْد تُجاهَ رُبوبيّة الرّبّ له ، فإنّ لصفات الربوبيّة ذاتِ الصّلَةِ بِالْعَبْدِ تأثيراً في استثارة دوافعَ في نفسه تدفعه إلى عبادة ربّه .

وهذه العبادة ذات مستوياتٍ في الْعِبَادِ تُنَاسب مستويات ارتقائهم في سلّم فضائل الأخلاق ، والشُّعورِ بما يجب عليهم تُجَاه ربّهم ، وما لديهم من قُوّةِ إرادةٍ على اختيار العمل الحكيم ، ولو خالف أهواءَهم وشهواتِهم ورغباتِهم من الحياة الدنيا ، وتُنَاسب ما يملكون من بَصِيرَةٍ تُدْرِكُ حقائق الحياة الدنيا الضئيلة ، بجانب حقائق الحياة الأخرى الخالدة الجليلة .

إنّ المحاور التي يُمْكنُ أن تُسْتَثَار كُلُّها أو بعضها في نفس المؤمن بحسب قوة إيمانه أو ضعفه ، ترجع إلى خمسة محاور :

المحور الأوّل (وهو الأدنىٰ) : محور الْخَوْف والطّمع ، وهذا المحور يتَّصِلُ بمصلحةِ العابد من عبادتِه ، ولهذا كان أدنَىٰ محاور العبادة ، والعابد من

هذا المحور يُلَاحظُ الخوفَ من عذاب الله الْمُرَتَّبِ على المعصية ، والطَّمَعَ بثوابِ الله المرتَّب على طاعته .

ومع أنّ هذا المستوىٰ هو أدنىٰ المستويات في سلّم العبادة ، إلاّ أنّه رَدُّ فِعْلٍ سَوِيٍّ لِبَعْضِ عَناصِرِ رُبوبيّةِ الرَّبّ عَزّ وجلّ ، وهو كونهُ رَبّاً يُعَاقِبُ على الذنُوب بعدْلِه وحكمته ومُلكه وقُدْرته القاهرة إذا شاء ، ويثيبُ على الطّاعاتِ بفضله ورحمته الواسعة تحقيقاً لوعده الكريم .

ولكِنْ يُلاحظُ أنّ لِهذَا الْمحوْرِ وَسَطاً مقبولاً ، وهو الذي سبق بيانه ، ويكون بملاحظة الآخرة وما فيها من نعيم للمتقين ، وعذاب للعاصين الظالِمِي أنْفُسِهِمْ .

ولهذا المحور طَرَفٌ لا يثبتُ صاحِبُه لدى الامتحان ، ويكون هذا الطرف بملاحظة ثواب الحياة الدُّنْيا وعقابها فقط ، مع الانقطاع عن ثواب الآخِرَةِ وعذابها .

ومن يَعْبُدُ الله عزّ وجلّ من خلال ملاحَظَتِه لهذا الطرف فقط فإنّه لا يَثْبُتُ عِنْدَ الْفِتْنَة « أي : عند الامتحان الشديد على نفسه » سواءٌ أكانت الفتنة من قبيل المغريات الماديّة والمطامع الدنيوية ، أو كانت من قبيل المصائب والآلام .

هذا الصنف من الناس هو الصنف الذي ذكره الله عزّ وجلّ بقوله في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾ .

يصوّر الله عزّ وجلّ في هذه الآيات حالة من يَعْبُد الله عبادةً من أجل تحقيق مصالحه من الحياة الدنيا ، بما فيها من جلب منافع له ، ودفع مضارّ عنه ، عن

طريق إسلامه ، وإقامَتِه في موطن إقامَةِ المسلمين الفكريّة والسّلوكية ، غَيْرَ نَاظِرٍ إلى الدار الآخرة ، وما فيها من حساب وفَصْل قضاء وثواب في دار النعيم ، وعقاب في الجحيم .

إنّ حالة العابد لله من أهلِ هذا الصنف تُشْبِهُ حالة إنسان جالِسٍ مع المؤمنين على قِمَّتِهِمُ الْمُرْتَفِعَةِ ، إلاّ أنّه جالِسٌ على حرف هذه القِمَّة التي تنحدر من بعدها مباشرةً منحدراتٌ مُهْلِكات، يُضاف إلى هذا أنَّه قد جَعَلَ ظهرَه إلى جهة المؤمنين، وجعل وجْهَهُ مُتَوجّهاً شطر غير المؤمنين السّارحين في المنحدرات، فهو يراهم يُصِيبُون من متاع الحياة الدنيا في مسارحهم ما يشاءون .

إنّه ما دام يُصِيب من متاع الحياة الدّنيا مَا يُحِبُّ وهو في مجلسه ، فإنّه يَظَلُّ مُطْمَئِناً فيه ، لكنَّه إذا تَعرَّض لفتنةٍ فوجَد أنَّه قَدْ يُحقِّق مصالح أوْفَرَ ، ومنافعَ أكْثَر ، لدى غير المؤمنين ، أو وجَدَ أن ثباته مع المؤمنين يقتضي منه أن يُجَاهِدَ ويُضَحِّي بمصالحه الدّنيويَّة ، فإنّه يميل إلى مواطن ما يَهْوَىٰ عند مَسَارِحِ أهْلِ الكفر ، وكلّما اشتَدَّ مَيْلُه ضَعُفَ ثباتُه في مجلسه على حَرْفِ القمّة ، حتَّى يَسْقُط منجذباً إلىٰ ما يُغْرِيه وَيَسْتَمِيلُه ، وهو بسقوطه ينقلب عَلَىٰ وجْهِه ، إذْ هو جالسٌ على حرفٍ ليس بينَهُ وبين الهاوية سورٌ يحميه ، بل يَتَرَاقَصُ بين عينيه في مراتع الكافرين ما يُغْرِيه ، والميلُ اليسير إلى جهة الهاوية يُسْقِطُه فيطغيه .

فإذا سقط وانقلب على وجهه خَسِر دُنياهُ وآخرته ، أمّا دُنياه فإنّ الله يُعَاقِبُهُ عقاباً مُعَجّلاً بخسارتها بسبب ما كان فيه ، وأمّا الآخرة فإنّه لم يَعْمَلْ لها ولم يَسْعَ لها سَعْيَها وهو مؤمن ، فليس له نصيب منها ، فهو خاسِرٌ لها ابتداءً .

ومن سقط هذا السقوط ، وانقلب على وجهه هذا الانقلاب ، فلا بُدَّ أن تتولّاه الشياطين ، وتُدْخِلَ إلى قلبه مفاهيم الشرك ، فمنها مفاهيم شرك الأسباب ، ومنها مفاهيم شرك الأرْباب ، لذلك فهو يدعو من دون الله ما لا يَضرُّ بذاته ولا ينفع من الأسباب ، ويدعو ما ضرّه أقرب من نفعه من الأرباب .

المحور الثاني : مِحْوَرُ الْحَمْدِ والثّناء ، مع وُجودِ المحور الأول ، وهذا المحور باعثُه فضيلةٌ خُلُقِيَّةٌ ، نابِعَةٌ من مشاعر الرّغبة بالاعتراف لذي الفضائل والصفات الحميدة الجليلة الذاتية ، والفضائل التي من آثارها الإنعام والإكرام ، بفضائله وصفاته الحميدة ، والثناء عليه بها .

الحمْدُ : هو التحدّثُ على وجْهِ التمجيد بصفاتِ المحمود . وكلمةُ الثناء مرادفة لكلمة الحمد .

هذه الفضيلة الخلقية لا تظهر لدىٰ الأنانيّين المستكبرين . وقد علّمنا الله عزّ وجلّ أنْ نَحْمَدَهُ في صلواتنا ، وفي كثير من آيات القرآن المجيد ، وأَمَرَنَا بأن نُسَبِّح ونَقْرِنَ تسبيحه بحَمْدِه ، ووصف الملائكة بأنّهم يُسَبِّحُون بحمْدِ رَبِّهم ضمن عباداتهم التي يقومون بها لربّهم ، واثْنَىٰ على الذين يَحْمَدُونه من عباده .

المحور الثالث : مِحْوَرُ الشُّكْر ، مع وُجود المحورَيْن السابقين .

الشكر : هو مقابلةُ إنْعَامِ الْمُنْعِمِ بما يُرْضِيهِ من عَمَلٍ أو شَيْءٍ مَادّيٍّ يسُرُّهُ ، وقد يَشْمَلُ الْقَوْلَ ، إلاّ أنّ القول يختصُّ بالحمد والثناء .

وهذا المحور باعثُه فضيلة خلقية أسْمَىٰ من مجرّد الحمد والثناء .

ويَدُلُّ على أنَّ شُكْرَ الله يكونُ بالْعَمَلِ الصّالح الذي يُرْضيهِ ما يلي :

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [سبأ/٣٤ مصحف/٥٨ نزول] :

﴿ . . . ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

أي : اعملوا أعمالاً صالحة تُرْضِي ربكم لأجل شكره بهذه الأعمال على نِعمَه ، وأبان الله أنّ قليلاً من عباده من يكون كثير الشكر ، نَفْهَمُ هذا من صيغة « شَكُور » لأنّها من صيغ المبالغة .

أمّا من يشكُرُ شكراً قليلاً أو شُكْراً دون الشكر الكثير : فهم الذين يعملون بعض الأعمال الصالحة مؤمنين بربّهم ، على أنّ نسبتهم في الناس أقلّ من نسبة

الكافرين الذين لا يشكرون الله على نِعَمِه بشيء .

(٢) وعرَفَ سُلَيْمانُ عليه السّلام أنّ شُكْر الله على نعمه يكون بالقيام بما يَرْضَىٰ من صالح العمل ، فدعا ربّه بما ذكر الله عنه في سورة [النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول] :

﴿ . . . وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

فذكر أنّ العمل الصالح الذي يُرْضِي الله هو المعبّر عن الشكر القلبيّ للرّبّ على نِعَمه .

(٣) وكان الرّسُولُ مُحمدٌ ﷺ عَبْداً شَكُوراً لِربِّهِ على نِعَمِه ، مع أَنَّ الله قد غَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ ، وأعطاهُ الدّرجَةَ الرّفيعة في الفردوس الأعلي من الجنة ، فكان يجتهد اجتهاداً عظيماً في عباداته العمليّة لربّه .

روى البخاري ومُسْلمٌ عن المغيرة قال : قامَ رسول الله ﷺ حتّىٰ تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ .

فقيل له : لِمَ تَصْنَعُ هٰذَا وقَدْ غفَرَ الله لَكَ ما تقدّمَ مِنْ ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟

قال : « أَفَلاَ أكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟! »

فعبادة الله عزّ وجلّ من مستوى مِحْوَرِ الشُّكْرِ عبادة أرفع من عبادته من مستوى الخوف والطمع ، وأرفع من عبادته من مستوى الحمد والثناء ، إذ الشُّكْرُ الْعَمَلِيُّ أشَقُّ عَلَىٰ النُّفُوس من مجرّدِ الحمد والثناء باللسان .

ونظر عُمَر بن الخطّاب رضي الله عنه إلى صُهَيْبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ ، فرأى عبادَته لربِّهِ فوقَ مستوىٰ العبادة بدافع الخوف من عذاب الله ، مع أنّه يخافُ من عذاب الله حَتْماً ، فقال بشأنه مُثْنِياً عليه : « نِعْمَ الْعَبْدُ صُهَيْبٌ لَوْ لَمْ يَخَفِ الله لَمْ يَعْصِهِ » .

أي : فَصُهَيْبٌ يَعْبُدُ الله بدافع آخَرَ فَوْقَ دافع الخوف من عذاب الله ، فَدَلَّتْ

عبارة « عمر رضي الله عنه » على أنّ صهيباً لو أنّه ضَمِنَ النجاة من عذاب الله لَمَا كانت مِنْهُ مَعْصيَةٌ لله ، ويُفْهَمُ مِنْ هذا أنّه قد تكونُ عبادتُهُ طَمَعاً بالدّرجات الرفيعات من الجنة ، أو شكراً لله على نِعَمِه ، أو بدوافع أسْمَىٰ .

المحور الرابع : مِحْوَرُ التعظيم والإجلال ، والانتماءِ إلى الرَّبِّ بالعبوديّة الصادقة ، إضافةً إلى المحاور السابقة .

وهذا المحور باعِثُهُ فضيلة خلقيّة تَنْتَمِي إِلَىٰ البراءة من كُلِّ عوامل الكبر والعُجب بالنّفس ، وإلى الإذعان لذي الكمال بكمالاته الذاتيّة ، وفي هذا المحور يُلاحِظَ العابِدُ صِفَاتِ الله الذّاتيّةَ الجَلِيلة ، الَّتي لا تَدْخُلُ تَحْتَ مَفَاهِيمِ رُبُوبيَّتِه ، مع ملاحظته صفاتِ رُبُوبيَّتِهِ .

ومن أسماء الله الحسنىٰ التي تَدُلُّ على صفات الله الذاتية الجليلة التي لا تَدْخُلُ تحت مفاهيم ربُوبيته ، « الواحد - الأحد - الصَّمد - الأوّل - الآخِرُ - الظّاهِرُ - الباطن - الباقي - القدّوس - العليّ - الكبير - الجليل - الحقُّ - الغنيّ - ذو الجلال - الواجد - الماجد - العليم - » .

وسبب ارتقاء هذا المحور الرابع على الذي قَبْلَهُ ، أَنَّ فيه تَوَسُّعاً في ملاحظة صِفَاتِ الله الذاتيّة الجليلة ، وتمجيداً لله بها ، وهي ليس لها تعلّقٌ مباشرٌ بعبوديَّةِ الْعَبْدِ لِرَبّه في أَمْرٍ من أُمُورِه .

المحور الخامس : مِحْوَرُ الْحُبِّ الأسْمَىٰ ، إضافةً إلى المحاور السّابقة ، وهذا المحور باعثُهُ رغبةُ العبد العارف بحقيقة ذاته ، والعارف بصفات الله الجليلة المبرّأة من كلّ نقص ، والتي لا تتناهى كمالاتُها ، في أَنْ يَتَخلَّىٰ عن مُلاحظة ذاتِهِ في عبادته ، وأنْ تتعلّق مشاعر حُبِّه تعلُّقاً كاملاً بالله ربّه ، طَلَباً لأَقْرَبِ منازلِ القُرْب منه .

ولكِنْ مع هذه الرغبة الَّتِي قد تَسُودُ على سائر مشاعر النفس ، فلا بُدَّ أن تَنْدَمِجَ معها كُلُّ مشاعر المحاور السابقة .

إنّ المحبّ مهما بلغ في مشاعر حُبِّه الْمُسَيْطِر من تجرُّدٍ عن ذاتِه بحسب

ما يَلْمَسُ من مشاعره ، فإنَّه يَعِيشُ من حيثُ يُدْرِكُ أَوْ لا يُدْرِكُ تَحْتَ مُؤَاثِّراتٍ من الطمع والخوف ، والحمد والثناء ، والشكر على النَّعْمَاء ، والتعظيم والإجلال ، والرَّغْبَةِ في الانتماء إلى مَنْ هو الأجَلُّ والأَعْظَمُ والأكبر في الوجود كلّه ، مع حرصه على أن يَدْنُو إلى أَقْرَبِ منازل القرب منه بالحبّ .

ولهذا كانت مرتبةُ « الْخُلَّةِ » التي بلغها المصطَفَوْنَ الأخيار من الرُّسل أسْمَىٰ المراتب ، فقد ثبت أن إبراهيم عليه السلام كان خليل الرحمن .

وكذلك كان رسول الله ﷺ حَبيبَ الله وَخليله .

الْخُلَّة أعْلَىٰ دَرَجاتِ الحبِّ السّامي .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَليلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَليلاً ، ولكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبي ، وَقَدِ اتَّخَذَ الله عَزَّ وَجَلَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلاً » .

يعني نفسَهُ صلوات الله عليه .

(٢)

مشاعر العبادة القلبية والنفسية تتمثل بالخشية

إذا اجتمعت في نفس العابد جُمْلَةٌ مِنْ مشاعر العبادة مدفوعة بمحاور معتدّدة ، من المحاور التي سبَق بيانُها ، تولّد في النفس مزيج جاء التعبير عنه في الاصطلاح القرآني بالْخَشْيَةِ ومشتقاتها .

فالخشية تحدث من اجتماع جملة من مشاعر : « الخوف - الطمع - والحمد - والشكر - والتعظيم والإجلال والإكبار - والحبّ » فتتمثّلُ من المزيج حالَةٌ شُعُوريَّة من الخضوع والذلّ والافتقار للمعبود ، والدَّهْشَةِ والإعجابِ والتعلُّق بِهِ ، والإقبالِ الشديد عليه ، والاعتزاز والاستعلاء والاستغناء به ، وطَلَب خَيْرَي الدُّنيا والآخرة منه ، والالتزام بطاعته .

وعلى مقدار نُمُوِّ هذه الحالة الشُّعورية ، وامتدادِها تأثُّراً بامتداد المعرفة في إدْراك كمالات الله التي لا تستطيع العقول الإحاطة بمداها ، يكون الارتقاء في درجات الخشية (أي : في درجات مشاعر العبادة القلبيّة والنفسيّة) لدَىٰ إحضارِ مقتضِيَاتِها في سَاحةِ التصَوُّر المتحرّك الفاعل .

ولهذا كانت الخشية الحقيقيَّةُ من الله عزّ وجلّ منحصرةً في العلماء العارفين بصفات الله حَقَّ المعرفة ، الذين يتحسَّسُونَ آثارها في عُمْقِ مشاعرهم . وهذا ما أبانه الله عزّ وجلّ في كتابه على سبيل الحصر ، فقال تبارك وتعالى في سورة [فاطر/٣٥ مصحف/٤٣ نزول] :

﴿ . . . إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ . . . ﴿٢٨﴾ ﴾

أي : لَا يَخْشَ الله حقيقةً إلّا العلماءُ به وبعظيم صفاته .

ولكن لا يلزم من وجود العلم بالله وجودُ مشاعر الخشية منه ، لاحتمال وجود عوارض وموانع تُعَطِّلُ أوْ تُحَوِّلُ رُدُودَ الأفعال النفسيّة ، وتكونُ النفس عندئذٍ مُصَابَةً بمَرَضٍ أخلاقِيٍّ صَارِفٍ عن طاعَةِ الله وعِبَادَتِه .

فالعلم بالله شَرْطٌ لوجود الخشية منه ، لكنَّ وجُودَ هذا العلم لا يَلْزَمُ عنه حتماً وجودُ الخشية ، إذ الخشية حركة إراديّةٌ في النَّفْسِ ، ولَيْست حركةً جَبْرِيّةً غير إراديّة تنتج تلقائيًا عن الْعِلْم بالله .

* * *

المقولة الخامسة :

العلاقة بين العبادة وذكر الله عزّ وجلّ

(١)

مقـدمـة

ذكرُ الله عزّ وجلّ بمعنىٰ حضور بعض صفاته الجليلة وآثارها في ساحة التصوّر المتحرّك الفاعل ، من شأنه أن يستثير في النفس مشاعر العبادة ، على ما سبق به البيان في مقولات سابقات :

وهنا أقول : إنّ الله عزّ وجلّ شرع لعباده - وهو العليم بما فطرهم عليه - ألوان العبادات القوليّة والعمليّة ، في الدين الذي اصطفاه لهم ، لتكون هذه العبادات مُسَاعِداتٍ على ذكر الله ، فإذا حضر هذا الذكر في ساحة التصوّر المتحرّك الفاعل على الوجه المطلوب ، كان من شأنه أن يستثير في النفس مشاعر العبادة النفسيّة والقلبيّة ، ذوات الآثار العمليّة في السلوك ، إذْ تجعل السُّلُوكَ يلتزم بصراط الله المستقيم ، بُغْيَةَ الظفر برضوانه ، الذي يُحقِّق للعابد سعادةَ الدنيا ، وسعادةَ الآخرة .

ويمكن أن نستدلّ على هذه الحقيقة بنصوصٍ متعدّدة ، فمنها ما يلي :

(١) قول الله عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السلام ، حين ناجاه في الوادي المقدس طُوىٰ ، على ما أبانَ لنا في سورة [طٰه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول] :

﴿ . . . يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾

أي : أقم الصلاة لتذكرني في عبادتك لي ، هذا أحسن ما فُسِّرَتْ به عبارة : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾ .

(٢) وعن معاوية بن الحكم السُّلميَ ، أنَّ النبيّ ﷺ قال : « إنَّما الصَّلاَة

لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ الله ، فإذَا كُنْتَ فِيها فَلْيَكُنْ ذَلِكَ شَأْنَكَ » .

رواه أبو داود والنسائي وإسناده حسن .

وعن عائشة رضي الله عنها ، عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّما جُعِلَ رَمْيُ الْجِمَارِ والسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِإقَامَةِ ذِكْرِ الله » .

رواه الترمذي والدارمي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

أمّا كون العبادات القوليّة والعمليّة الَّتِي تشتمل على ذكر الله وفق الوجه المطلوب مؤثّرةً في توجيه السلوك ، وجَعْلِه يلتزم بصراط الله المستقيم الذي رَسَمَهُ لعباده ، فنجد الدليل عليه في قول الله عزّ وجلّ في سورة [العنكبوت/٢٩ مصحف/٨٥ نزول] :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾

أي : إنّ من شأن الصَّلاَةِ المستوفية لعناصرها والمشحونة بذكر الله الذي هو روح العبادة ، أنْ تَنْهَي المصلّيَ الذاكر لربّه فيها عن الفحشاء والمنكر ، فيكون هذا النّهي مُذَكِّراً له بالاستقامة على طاعة الله ، والتزام صراطه المستقيم .

وليس المراد من كَوْنِ الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر أَنّها تجْعَلُ المصَلِّيَ يَنْتَهِي فِعْلاً بِصُورَةٍ جَبْرِيَّة عنِ الْفَحْشَاءِ والمنكر ، بَلِ الْمُرَادُ أنها تَذَكِّرُه بنواهي الله وأوامره ، ثُمَّ هُو بَعْدَ التَّذَكُّرِ يُمْكنُ أن يَنْتَهِيَ بإراداته الحرَّة ، ويُمْكِنُ أنْ لاَ يَنْتَهِي ، لوقوعه تَحْتَ تأثيرِ سلطانِ أهوائه وشَهواتِهِ عليه .

ويُخْطِىء الكثيرون في فهم هذه الآيَةِ إذْ يَرَوْنَ أَنَّ الصَّلاة لاَ بُدَّ أَنْ تَجْعَلَ الْمُصَلِّي ينتهي فِعْلاً ، ثُمَّ يُشْكِلُ عليهم وُجُودُ مُصَلِّين يرتكبون الكبائر ، ولا ينْتَهُونَ عن الْفَحْشَاءِ والمنكر .

وقول الله عزّ وجلّ في الآية : ﴿ وَلَذِكْرُ الله أكْبَرُ ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ ذِكْرَ الله

الدَّائِمَ أكْبَرْ فِي كَوْنِهِ ناهياً عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنكر من الصَّلاة ، بسبب أنَّ الصَّلاَةَ عبادة تكُونُ في وقتٍ مُحَدَّدٍ ، فإذا انْصَرَفَ المصلّي من صلاته ، فلرُبَّمَا غَفَلَ عَمَّا فَعَلَتْ فِي نَفْسِهِ من تذكيرٍ بأوامر الله ونواهيه ، وبسبب أنّ الصَّلاَة قَدْ تكونُ مُجَرَّدَ عَمَلٍ معتادٍ يؤدّيه المصلِّي ، وقَدْ يكون فيها غافلاً عن ذكر الله ، ومع هذه الغفلة لا تكون ناهيةً له عن الفحشاء والمنكر .

(٢)

ذكر الله وَفْقَ العادة وذكر الله فَوْقَ العادة :

إنّ العبادات القوليّة والعملية في الإسلام مُخَصَّصَاتٌ لِشَحْنِهَا بذكر الله فوق العادة .

أمّا سائر أوقاتِ المؤمن وأحواله فعليه أن يذكر الله فيها ضمن حدود العادة ، ومع كلّ مناسبة تستدعي ذكر الله . لقد أوضحت النصوص أن المطلوب من المؤمن أن يكون ذاكراً لله في أحواله كُلّها أو معظمها ، إلاّ أنّ متاع الحياة الدنيا بما فيها من مطالب للإنْسَان وحاجاتٍ وشهواتٍ ولذّاتٍ وهموم وغير ذلك صوارفُ تصرف المؤمن عن ذكر ربّه ، وتأتي خَطَراتُ الإيمان فَتَشُدُّه إليه ، ثُمّ ينفَلتُ بسُرْعةٍ إلى أُمُور دُنياه .

لهذا كان بحاجة إلىٰ تذكيره بربّه بوسيلتين :

الوسيلة الأولى تكليفه أن يقوم بعبادات قوليّة وعملية مخصَّصَاتٍ لشحنها بذكر الله فَوْقَ العادة ، كالصلاة ، والصيام ، والحج ، والعمرة .

الوسيلة الثانية : حَثُّهُ أَنْ يَذْكُرَ الله عند كُلِّ مناسبة تستدعي ذكر الله ، كالبسملة عند الطعام والشراب والبدء بكل عمل ذي بال ، وكالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، وأذكار التحصُّن ، والأدعية والأوراد ، وكتذكُّر حُكْم الله في كلّ عَمَلٍ يعمله ، ونجد في وصايا الإسلام حشداً كبيراً من الأذكار ، أُلِّفَتْ فيها مؤلفات خاصّة ، منها كتاب الأذكار للإمام النَّوَوِيّ ، وكتَذَكُّرِ وعْدَ الله ووعيده

والدار الآخرة وما فيها .

وبياناً لهاتين الوسيلتين وردت في القرآن المجيد طائفة من النصوص تأمُرُ بذكر الله في وقت العبادة المخصّصة لذكر الله فوق العادة ، وتأمر بذكر الله كثيراً وفق العادة وعند كلّ مناسبة في سائر الأوقات ، فمنها ما يلي :

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة [الجمعة/٦٢ مصحف/١١٠ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ ﴾

فالغرض من السَّعْي إلى صلاة الْجُمُعَةِ السَّعْيُ إلى ذكر الله ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ فَاسْعَوْا إلى ذِكْرِ الله ﴾ . وقد جعلت الصلاة ذات وقت تقام فيه ، ليتفرغ المؤمن فيها من كلّ الشواغل فيذكر الله فيها ذكراً فَوْقَ العادة .

فإذا قضيت الصلاة جاء وقت الانتشار في الأرض ، وابتغاء الرّزق وحاجات الحياة المختلفة من فضل الله ، وعندئذٍ يأتي المطلوبُ الدائم . وهو ذكر الله وفق العادة ، ومع كلّ مناسبة ، دلّ على هذا ما جاء في الآية الأخيرة من هذا النّصّ .

(٢) قول الله عزّ وجل في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] بشأن المحافظة على الصلوات حتّىٰ في وقت الخوف في الحرب :

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝٢٣٩ ﴾

هذا ذكْرُ الله في الصلاة حالَتَي الخوفِ والأمن ، أمّا في سائر الأحوال فالمطلوب منّا أنْ نَذْكُر الله عند كُلِّ مُثِيرٍ لذكره ، دلَّ علَىٰ هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] بعد أن علَّمَنَا كيف نُصَلّي الصلوات جماعة حالة الخوف في الحرب :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

أي : فإذا اطْمَأْنَنْتُمْ من مداهمة العدوّ لكم فأقيموا الصَّلاَةَ كما لو كُنْتُم مستقرّين في منازلكم في غير الحرب .

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧] بشأن عبادة الحجّ :

﴿ . . . فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

هذه أعمال الحجّ مَشْحُونَةٌ بذكر الله الذي أَمَرَ الله ورسُولُهُ به .

* أمّا الوقوف في عرفة فلَهُ ذكْرٌ أبانه الرسول ﷺ بقوله وبعمله ، فنحن نقتدي به ، وهو ذكر لله فوق العادة .

* وأمرنا الله في هذا النصّ أن نذكره عند المشعر الحرام ، أي : في مُزْدَلفة إذا أفَضْنَا مِنْ عرَفَات ، وهو ذكر لله فوق العادة .

* وأمَرَنا أن نستَغْفِرَهُ إذا أفضنا من مزدلفة ، والاستغفار من الذكر ، وهو ذِكْرٌ لله فوق العادة .

* وَأمَرَنَا بأن نذكره كذكرنا آباءَنا أوْ أشدّ ذكراً إذا قضينا مناسِكَنَا ، وهو

ذِكْرٌ لله وفْقَ العادة وعند كُلّ مناسبة .

* وأَمَرَنَا بأن نذكرهُ في أيّام معدودات هي أيّامُ مِنىٰ ، وهذا ذكْرٌ لله بَيْنَ بَيْنِ ، فَهو مزيج ممّا فوق العادة ، وممّا هو وفْقَ العادة ، ففي بيان الرسول الله ﷺ عن أيّام مِنىٰ :

« أيّامُ مِنىٰ أيّامُ أَكْلٍ وشُرْبٍ وَذِكْرٍ لله عزّ وجلّ » .

(٣) وفي الصيام جاء ذكر الله عزّ وجلّ بصيغة التكبير ، فقال الله تعالى في آيات الصيام في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ ... وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

(٤) وعند الصَّيْد جاء الأمر بذكر اسم الله عليه ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ ... فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾

وكذلك في ذبائح الْهَدْي والأَضاحِي وغيرها من الذبائح ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وقال تعالى فيها :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وجَبَتْ جُنُوبُها : أي : سَقَطَتْ إلىٰ الأرض ذبيحةً .

القانع والْمَعْتَرّ : القانع : هو المتعفّف عن السؤال ، وقيل : هو السائل .

والمعترّ : هو الذي يتعرّض لِيُعْطَىٰ دُونَ أن يَسْأل .

(٥) وفي الجهاد والقتال أَمَرَنا الله بأن نذكُرَهُ كثيراً ، فقال الله تعالى في سورة [الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

الفلاح : الفوز والظفر .

(٦) وفي كُلّ الأحوال أمر الله الذين آمنوا بأنْ يذْكروه ذكراً كثيراً ، فناداهم الله عزّ وجلّ بقوله في سورة [الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

تسبيح الله : هو تنزيهه عن كلّ ما لا يليق به جلّ جلاله ، وهو من ذكر الله ، إلاّ أنّه خاصٌّ بنفي ما يتنافى مع كمالاته كأن يكون له شريك أو ولد .

(٣)
مراحل تأثير ذكر الله في قلوب المؤمنين الذاكرين

من واظب على ذكر الله عزّ وجلّ ذِكْراً حقيقياً ، وهو الذكر الذي تقترن ألفاظه بمعانيها ، حتّىٰ تكونَ هذه المعاني حاضرةً في ساحَةِ التّصوّر ، سواءٌ ما كان منه ذكراً فَوْقَ العادة أَوْ وَفْقَ العادة ومَعَ كُلّ مُنَاسبة ، فإنَّ فطرتَهُ مستعدّة لأنْ تَمُرَّ في ثلاث مراحل ارتقائية ، هذه المراحل تمثّل مقامات ثلاثة تختلف باختلاف أحوال الذاكرين المؤمنين .

المرحلة الأولى : « مرحلة الْوَجَل » وهو الخوف من عقاب الله على مخالفة أوامره ونواهيه ، والْوَجَلُ هو اضطرابٌ في القلب ، يحجز عن المغامرة في أمر مخوف العاقبة .

فمن كان في حال الشعور بمعاصيه وذنوبه وتقصيراته ، هزّ ذكْرُ الله قَلْبَه بالْوَجَل .

دلّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول] :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾

هذه الآية تَدُلُّ بصيغة الْحَصْرِ علَىٰ أنّ المؤمن لا يَصِحُّ أَنْ يَقِلَّ مُسْتَواهُ الإيماني عن درجَةِ الخوف من الله إذا ذُكِرَ الله عِنْدَهُ .

والسبب في هذا أنّه إذا كانَ مؤمناً صادق الإيمان فلا بُدَّ أَنْ يكون عالماً بما لله عزّ وجلَّ من قُدْرَةٍ وعِلْمٍ وعَدْل ، وما رَتّبه من جزاء بالعقاب للعصاة المذنبين ، وهو في أوّل ارْتقائه في سُلّم الإيمان والالْتزام بشرائع الإسلام سيُلاحظ حتماً ذُنوبَهُ وَمُخَالَفَاتِهِ وتَقْصِيراته ، فيهْتَزُّ قلبُه بِوَجَلٍ .

وهذا المؤمِنُ لا يَصِحُّ أَنْ يَقِلَّ مستواهُ الإيمانيُّ عن دَرَجَةِ تَأْثِيرِ تِلَاوَةِ آيات الله عَلَيْه فِي زيادَةِ إيمانِهِ ، ليرتقي في سلّم الإيمان والالتزام بالإسلام ، وحينما يَتوجَّه قلبُه لذلك يتوكَّلُ على ربِّه وَيَعْزِمُ على التَّمسُّك قولاً وعملاً باتّباع صراط الله لعباده .

المرحلة الثانية : « مَرْحَلَةُ الْخُشُوع » وهو السُّكُونُ الْقَلْبِيّ والنَّفْسِي ، هذه المرحلة ذات منزلةٍ أعْلَىٰ من سابقتها ، وأكْرَمُ وأشْرَفُ ، وذلك للفرق الكبير بين الاضطراب الذي يُحْدِثُهُ الوجَلُ ، وبين السُّكُونِ الذي يُحْدِثُهُ الطَّمَعُ بِفَضْلِ الله وعفوه وغُفْرَانِه وَوَاسِعِ عَطَاءاته .

فَمَعَ تَعاظُم الطَّمَع بزيادة الإيمان وحُسْنِ الْعَمل تتصاغَرُ مشاعِرُ الخوفِ والْوَجَلَ ، فيحدُثُ في النَّفس والقَلْبِ سُكُونٌ ، لا يَبْلَغ مَبْلَغَ الطُّمَأْنِينَةِ التَّامَة ، إلاّ أنّهُ وسَطٌ بينهما .

فمرحلة الخشوع مرحلةٌ إيمانيَّةٌ وُسطَىٰ ، وقد دلَّ على هذهِ المرحلة قولُ الله عزّ وجلّ في سورة [الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول] .

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

أَلَمْ يَأْنِ : أي : أَلَمْ يَحِنْ وقتُ تَأْثِيرِ الإيمانِ في قُلُوبِ الَّذِينَ آمَنُوا ، بعد أن مَرُّوا في مُمَارسة الإيمان مُدَّة طَوِيلَةً ، فالسورة متأخرة النزول عن سورة [الأنفال] ، والخطابُ فيها لمؤمنين مارسُوا حَرَكة الإيمان عِدَّة سِنين ، والمستفهَمُ عنه استفهامَ عتابٍ هو السَّبَبُ في عدم وصولهم بعد هذه المدّة إلى مرحلة خُشُوعِ قُلوبِهِمْ لذكر الله وما نَزَل من الحقّ من عند ربّهم .

وهذا الاستفهامُ العتابي مُوجَّهٌ لبعض المؤمنين لا لكُلِّ المؤمنين ، إذْ منهم مَنْ كان قد بلغ هذه المرحلة ، ومنهم من ارتَقَىٰ إلى ما فوقها ، لكِنَّ الأسلوبَ القرآنيّ في التربية التَّوْجيهُ بالصِّيغِ العامّة ، مع أنّ المراد خُصُوصُ أفرادٍ من المخاطبين باللّفظ العام .

ولمّا كان مرور المدّة الكافية لإنضاج الطعام الذي يُطْبَخُ في القدور سبباً في إنضاجه ، قال العربُ : أنَىٰ الطَّعَامُ يَأْنِي أَنْياً وَإِنَىً وَأَنَاةً ، إذا نَضَجَ .

ونَفْهَمُ من هذا أنّ معنى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ للَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقّ ﴾ أَلَمْ ينْضَجُوا بمُمَارَسَةِ الإيمانِ حتَى تصل قُلُوبُهُمْ بالطاعات والطَّمَعِ برحماتِ الله إلى مستوى الخشوع وهو السُّكُونُ السعيد .

إنّ المفروض في الذين آمنوا متَىٰ قَضَوْا مُدَّةً طويلةً في ممارسة الإيمان ، وما يقتضيه من أعمال صالحات ، أَنْ تَرْتَقِيَ أحاسيسهم الإيمانيّة في النُّضْجِ حتَّىٰ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ من الْحَقّ من عند الله ، فتُهَيْمِنَ عَلَيْها مَشَاعِرُ السّكينَة ، وتلين خضوعاً لله ، وطاعةً له ، ورحْمَةً بالمؤمنين .

المرحلة الثالثة : « مرحلةُ الطُّمَأْنينة» وهي الارتخاءُ المستقِرُّ بعد السُّكون ،

وهذه المرحلةُ ذَاتُ مَنْزِلَةٍ أعْلَىٰ وَأكْرَم وأشْرَف من المرحلتين السابقتين .

وذلك أنّ من وصل بصِدْقِ إيمانه وحُسْنِ عمله إلى الشعور بأنّ الله عزّ وجلَّ رَاضٍ عنه ، يُفيضُ عليه فيوضاتِ المعرفَةِ بحكمتِه ، ويُكْرِمُه بحلاوة الإيمان في العُسرِ واليُسْر ، وفيما يُحِبُّ من الدنيا من نِعَمٍ ، وفيما يكره من مصائب ، فإنّه كلّما ذكر الله استرخى في موقعه من الإيمانِ مطمئناً ، وهذا الاطمئنان يجعلُهُ راسخ القدمِ في مجاهدته لنفسه ولغيره في سبيل الله ، بعزم وقوّةٍ وثَباتٍ وتوكُّلٍ على الله وَدَأْبٍ وَصَبْرٍ ومُصَابَرَةٍ ، كسُلْطَانٍ لا يَخْشَىٰ مُنَافِساً ، يكون مطمئناً على كُرْسِيِّه يأمُرُ بما يَشَاءُ ويَنْهَىٰ عمّا يشَاءُ فتُطاع أوامرُه ونواهيه .

دَلَّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة [الرعد/١٣ مصحف/٩٦نزول] :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

فمنْ شأنِ الّذِينَ آمَنُوا وَصَدَقُوا واستقاموا ، ومارسُوا حلاوة الإيمان مُدّةً طويلة ، ووصلُوا إلى الشعور بأنّ الله راضٍ عنهم ، وإنْ كانت لديهم تقصيراتٌ ببعض أعمالهم ، أنْ ترتقي أحاسيسهم الإيمانية في النضج ، حتى تصل قلوبهم إلى مرحلة الطمأنينة السعيدة ، فهم يذكرون الله ذكراً كثيراً ، وتطْمَئِنُّ قُلوبُهُمْ بذكر الله ، وكلّما كثرتْ وتراكمت عليهم متاعبُ الحياة ومشكلاتُها وهُمُومُها وشدائدها ، فزعوا إلى ذكر الله ، فاطمأنّتْ قلوبهم به .

هذه أسْمَى مراحل تأثير ذكر الله في قلوب المؤمنين ، إنّها مَرْحَلةُ الطمأنينة ، الّتي تُمِدُّ القلوب بالسعادة الدائمة المستقرّة .

(٤)

مرض الغفلة عن ذكر الله وتأثيراتُه في القلوب والنّفوس

إنّ الغفلة عن ذكر الله تحرم المؤمنَ من فضائل الطمأنينة والخشوع والوجَل ، التي هي عناصر تأثير ذكر الله في قلوب المؤمنين الذاكرين .

فيهبط المؤمن بغفلته عن ذكر ربّه دَرَكَتَيْن مُنْحَطَّتَيْن :

الدّركة الأولى : « دركَةُ الْعَشَا النَّفْسِيّ » العَشا في الأبصار هو سُوءُ الرُّؤْية باللّيل والنّهار . ونظيرُهُ الْعَشَا في البصيرة . فمن أصابه الْعَشَا في بصيرته لم تستقم رؤيته للأمور في مسيرته في حياته ، فينحرف عن صراط الله بأهوائه وشهواته ، وَيَتَّبِعُ مُغْرِيات شياطين الإنس والجنّ ، ويُقَيِّضُ الله لَهُ شيطاناً يكون قريناً له ملازماً ، فهو يوسوس لَهُ ويُغْرِيه ويُغْوِيه إذْ يخدعه ويُطْمِعُه بالأباطيل ، ولَمَّا كان هذا الأَعْشَىٰ سَيّء الرُّؤية للأمور بغفلته عن ذكر الله كان مستعدّاً فكريّاً ونَفْسِيّاً لاتّباعِ خطوات الشيطان الملازم له ، فهو يقوده أو يسوقه كما يهوى ، حتَّىٰ يقذفه في المهالك .

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجل في سورة [الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣نزول] :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

نُقَيِّضْ له شَيْطَاناً : أي : نُهَيِّى لَهُ ضِمْنَ مُجريَات السُّنَنِ الثابتةِ شيطاناً .

فهوَ له قَرِينٌ : أي : فهو له مصاحبٌ ملازم ، وبمصاحبته له يُغْرِيه ويُغْوِيه .

ومعلومٌ أنّ من كان له الشيطان قريناً ، فلا بُدَّ أن يسوقه أو يقوده إلى مواقع معاصي الله ، فهو يهوي به منزلة فمنزلة حتى يُدْنِيه من حُدُود الخطر الأكبر ، وهو الكفر .

الدركة الدُّنْيا : « دَرَكَةُ الْعَمَىٰ » الْعَمَىٰ في الأبصار انعدام الرُّؤية انعداماً كليّاً باللّيل والنّهار . ونظيرُه العمَىٰ في البصيرة ، فمن أصابه الْعَمىٰ في بصيرته لم يَرَ من الحقّ والْهُدَى شيئاً ، فهو يَسِيرُ مَسِيرتَهُ في حياته ضالاّ يتخبّطُ في الظُّلُمات .

ومن أصابه هذا الْعَمَىٰ في بَصِيرَتِهِ بسبب إعراضه الإراديّ عن ذكر الله ،

بعد أن كان ذا بَصَر ، أي : بعد أن كان مؤمناً صحيح الإيمان ، فإنّ شيطانه يَدْفَعُ به أو يَجُرُّه حتى يُدْخِلَهُ إلى ما وراء حدود الخطر الأكبر وهو الكفر ، بمكفِّرٍ من المكفّراتِ ، أدناه الشرك ، أو الشك بيوم الدين ، أو بحقّ الله على عباده في الطاعة ، أو بغير ذلك . وبهذا يُعْتَبَرُ يوم الدّين مع أهل الكفر فيُحْشَرُ أعْمَىٰ .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [طٰه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول] مُبيّناً سُنَّته في عباده مُنْذُ أهْبَطَ آدم وزَوْجَهُ إلى الأرض دار الابتلاء :

﴿ . . . فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

أصل معنَىٰ النِّسْيَانِ التَّرْكُ وَالْإِهمال ، ويتولَّد عن الترك والإهمال غيابُ المتروكِ عن ذاكرة الإنسان .

فالمعنى : أتَتْكَ آيَاتُنَا المنزّلَاتُ فعرَفْتَها ، وبَعْدَ ذلك تركْتَها وأهملتها حتَّىٰ غابت عن ذاكرتك ، فلم تَتَّبِعْهَا ، ولم تعمل بما جاء فيها من أوامر ونواهي وأحكام ، وكذلك الذي كان منك في الحياة الدنيا ، وأنْتَ في رحلة امتحانك تُنْسَىٰ اليوم وأنْتَ في حياة حِسَابك وفَصْلِ قضائك وجزائك ، أي : تُهْمَل وتُتْرَكُ فَلا يُعْتَنَىٰ بك ، وتَكُونُ في حَشْرِكَ لا بَصَرَ لك ، كالكافرين ، إذْ تساويت معهم معاشاً في بُعْدِكَ وجَفْوتِكَ لدين الله ، فَلْتَسْتَوِ مَعَهُمْ معاداً في موقف الحشر .

* * *

المقولة السادسة :

أسباب ضعف مشاعر العبادة أو انعدامها أو تحوُّلها عمّن هي له

إنّ ضعف مشاعر العبادة في النفس الإنسانية مع أنّها فطريّةٌ في النفوس ، وكذلك انعدامُها أو تحوُّلُها عمَّن هي له ، وهو الرّبّ جلّ جلاله ، يرجع إلى

عدّة أسباب ، نلاحظ منها الأسباب التالية :

السبب الأول :

قد يضعف التصور الإيماني المتحرّك الفاعل مع سلامة العقيدة المستقرة في القلب ، فتضعُفُ بضعفه مشاعر العبادة التي هي ردود أفعال النفس السّوية تجاه التصورات الإيمانية المتحرّكة الفاعلة في ساحة التصوّر .

وقد ينعدم التصوّر الإيماني هذا ، أو يُغَشَّىٰ عليه بأفكار ومفاهيم أخرى تُسَيْطِرُ على ساحة التصوّر ، فتنعَدِم مشاعر العبادة ، وتتوجَّه حينئذٍ شطر غير الله ، هائمةً تائهة ، أو مُوجَّهة بتصوراتٍ أخرى ، وتدخل بذلك رياحٌ الشِّرْكِ إِلَىٰ الْقَلْبِ والنفس .

ومن التصوّرات المضادّة الّتي تسْتَبِدُّ بردود أفعال النّفس ملاحظة الأسباب دُون مُسَبِّبِها ، فهذه التصوّرات تجعل النفس تتعلّق بالأسباب منقطعةً عن المسبِّب الحقيقيّ وهو الرّبّ جلّ جلاله ، فتتوجَّهُ مشاعرها نَحْوَ الأسباب .

فبعض هذه الأسباب يستبدّ بمشاعر الحبّ ، وبعضها يستبدّ بمشاعر الإجلال والتعظيم ، وأسبابٌ أخرى يُعْتَقَدُ أن لها تأثيراتٍ روحيّة غيبيّة تَسْتَبِدُّ بمشاعر التضرُّعِ والتذَلُّلِ والدُّعاء ، وأسبابٌ تستبدُّ بمشاعر الطمع والرغبة ، وأخرى تستبد بمشاعر الخوف والرّهبة .

وهكذا تتوزّع النفس بين معبوداتٍ شتَّىٰ ، وآخِرُ مداها أنْ يتَّخِذ الإنسان إلهَهُ هواه ، بعد أن اتَّخذَ في نفسه آلهةً من دون الله .

وحينئذٍ يَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِ الشَّيْطان فيعبُدُهُ بطريقةٍ غَيْرِ مباشرة ، وينْسَىٰ عبادَة ربّه تبارك وتعالى ، وفي هذا غاية الاستغراق في الأرضياتِ وعبادةِ النَّفْسِ والشهوة والهوى .

وهذا الإنسان يُمْسِي تعيساً غير سعيد ، وهو ما أوضَحَهُ الرّسُولُ ﷺ بقوله فيما رواه البخاريُّ عن أبي هريرة :

« تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَم وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وانْتَكَسَ ، وإذَا شِيكَ فَلاَ انْتُقِشَ » .

الخميصَة : ثوب أسود أو أحمر له أعلام كان من فاخِرِ الثياب .

انْتَكَسَ : أي : انقلب إذْ حوَّل مشاعر عبادته فجعلها لمتاع الحياة الدّنيا .

فَلاَ انْتُقِشَ : دعاءٌ عليه بأنّه إذا أصابتْه شوكَةٌ فَلاَ وَجَدَ مَنْ يَنْقُشُها له بالْمِنْقَاش ، أي : يستخرجها له بأداة التقاط الشوك .

إنّ عبادة النفس والشهوة والهوىٰ مَرَضٌ يشَوِّه إنسانيّة الإنسانِ المفضّلة المكرّمَةَ التي خلقَها الله في أَحْسَنِ تقويم ، ويَعْدِلُ به عن أَصْلِ فطرته ، ويُنْزِلُه عن مُسْتوى الإنسانية السّويّة ، حتّىٰ يَبْلُغَ بالانحطاط إلى مستوىٰ الأنعام ، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في سورة [الفرقان/٢٥ مصحف/٤٢ نزول] :

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

السبب الثاني :

وقد يفسد التصوّرُ الإيمانيُّ مِنْ أساسه ، وتَحُلُّ مَحَلَّهُ عقائد باطلةٌ طاغيةٌ على فكر الإنسان وقلبه ونفسه ، وعندئذٍ تتّجه مشاعرُه النفسيّة لعبادة الطواغيت التي آمَنَ بها .

إنّ من الأمور الطبيعيّة في واقع البشر أنّ من كفر بالله الحق تولّته الطواغيت ، فأخرجته من النور إلى الظلمات ، وفي هذا يقول الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

الطاغوت : كلُّ ما يطغي بكثرة (يستوي فيه الواحد وغيره والمذكر

والمؤنث) ويجمع على طَواغيت وطَواغ .

وحينما يصلُ الإنسانُ إلى هذا المستوىٰ مِنْ عبادة الطواغيت عبادةً مباشرة فإنّه يَصِلُ إِلَىٰ حَالةٍ من المسخ القبيح لإنسانيته في كيانه الداخليّ ، يشبه المسخ الجسديّ إلى قِرَدَةٍ وخنازير ، بل هو في الحقيقة أقبح منه .

وقد أشار القرآن المجيد إلى هذا في معرض تعليم الرّسُولِ فكُلِّ داعٍ إلى سبيلِ رَبّه من بعده مجادلةَ الناقمين من اليهود على الرَّسُول ومن آمن به في سورة [المائدة/٥ مصحف/ ١١٢ نزول]

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

فَعُبَّادُ الطّاغوتِ هم والذين مُسِخُوا قِرَدةً وخنازير سواء .

السبب الثالث :

* وقد تفسد الأجهزة النفسيّة فلا تعطي ردود أفعالها الصحيحة السليمة على الرغم من سلامة التصوّر الفكري .

وهذه الأجهزة النفسيّة الفاسدة قد تُقَابِلُ الإنعامَ والإكرامَ بالجحود والكنود ، ويكون الداء الذي أفسدها هو داء الكبر .

إنّ داء الكبر قد يدفع إلى جحود الحق ، والكفر بالنعمة ، وقد يدفع إلى كراهية المنعم المتفضّل بدَلَ حُبِّهِ ، وإلى ذمّهِ بدل حَمْدِهِ والثناء عليه ، وإلى الإساءة إليه بدل مكافأته بالشكر .

وفي بيان هذا الانحراف في خلق الإنسان قال الله عزّ وجلّ في سورة [العاديات/١٠٠ مصحف/١٤ نزول] :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

أي : إنّ الإنسانَ لَكُنُودٌ جَاحِدٌ لِنِعَمِ الله عليه ، مع أنّه شديد الحبّ لهذه النّعم ، ولَكِنَّ داءً دَوِياً في نَفْسِه هُو الذي يَصْرِفُهُ عن عبادة رَبّه .

وداءُ الكبْرِ الّذي هو أنانيّة العظمة قد يُصَاحِبُه داءُ الشُّحّ الّذي هو أنانيّة التملّك ، فيستقبلُ الشحيح الإنْعامَ والإكْرام مُحبّاً له ، وتكِزُّ نَفْسُهُ عَنْ أَنْ يُكافِيء بِأقَلِّ القَلِيل ، وعن أن يَرُدَّ على الجميل الكثير بالجميل الضّئيل .

وفي هذه الحالة تنطمسُ بصيرَتُه عن إدْراك حقيقة السُّنَّةِ الرَّبّانية الَّتي تضمَّنَها قولُ الله عزّ وجلّ في سورة [إبراهيم/١٤ مصحف/٧٢ نزول] :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾

وداءُ الكبر له أثَرٌ آخر في النَّفْس إذْ تَفْقِدُ النَّفْسُ بسببه مشاعر الإكبار والإعظام والإجلال للْعَلِيِّ المتعالي ، الكبير العظيم ذي الجلال والإكرام ، والطَّوْلِ والإنْعَام .

ومن الطبيعي أنّ فَقْدَ هذه المشاعر يُسَبِّبُ امتلاء النفس بالغرور والْخُيَلَاء والاستكبار ، وهيهات أن تخضع مثل هذه النفس المريضة لبارِئِها ، وتَذِلَّ له في عبادة صادقة .

* ومن فساد الأجهزة النفسيّة تَبَلُّد حِسِّهَا تُجَاهَ المخاوف النظريّة والتصوُّرية ، الّتي تكون في دائرة الإيعاد والتحذير ، لا في دائرة الواقع الملموس .

وسَبَبُ فَسَادِ هذه الأجهزة طُولُ الْأَمَدِ في النّعمة والرّخاء ، وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ طُولَ الأمد في النِّعْمة والرّخاء ممّا قد يُولِّدُ قَسْوَةً في القلوب ، فقال تعالى في سورة [الحديد/٥٧ مصحف/٩٤ نزول] :

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وأبانَ الله عزّ وجلّ أنَّ من الظواهر الْمَرَضِيَّةَ للنَّفْس الإنسانية ، أنّه متَىٰ

تواتَرَتْ على الإنسان النِّعِم أَنْسَتْهُ ذِكْرَ ربّه ، فإذا حلَّتْ به المصائب عاد إلى رَبّه داعياً بدعاء عريض ، فقال تعالى في سورة [فُصّلت/٤١ مصحف/٦١ نزول] :

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾

وتبلُّدُ الحسّ تُجاه المخاوف المرتقبة غير الواقعة فِعلاً ، هو مَا شكىٰ مِنْهُ أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه إذْ قال : « لا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حتَّى تَحُلَّ بِنَا » .

وفي تجاربنا المتكرّرة نلاحظ أنّنا قد نمارس بعض المخاطرات بجرُأة ، فإذا تعرَّضْنَا فيها لحادثةٍ مؤلمةٍ أَخَذْنا نَشْعُر بالْخوفِ الشديد ، والحذر من ممارسة مثل هذه المخاطر ، فإذا طال علينا العهد نسينا ، وعُدْنا سيرتنا الأولى .

من أجل هذا كانت النفوس الإنسانيّة بحاجةٍ إلى وقائع مؤلمة توقظ فيها الإحساس بالخوف ، حتَّىٰ يؤثّر فيها الترهيب الوارد في النصوص ، فتخاف مغبة الإثم والمعصية ، وقد تستقيم على صراط الله المستقيم ، وحتّى يكونَ في تصوّرها ماثلاً واضحاً مؤثراً يشابه الواقع الملموس .

ولهذا كان المؤمن عُرضةً أكثر من غيره للأعراض التي تُذكّرهُ بالله ، وتوقظ فيه حِسَّ الخوف من عقابه وعذابه ، وتذكّره بمسؤوليته في الحياة ، حتّىٰ لا يطول أَمَدَهُ في النّعمة ، فيقْسُوَ قلبُه ، ويتبلَّد حِسُّهُ ، وينْسَىٰ بذلك ربَّه ، بخلاف المنافق ، فإنّ النِّعَمَ والمصائب بالنسبة إليه سيّان ، وفي هذا يقول الرسول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

« مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لاَ تَزَالُ الريحُ تُمِيلُهُ ، ولاَ يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلاَءُ ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزَةِ لاَ تَهْتَزُّ حَتَّىٰ تُسْتَحْصَدَ » .

فالأَحْداثُ والأعراض المؤلمة للمؤمنين هي من نعمة الله عليهم .

لذلِكَ فإنّ المؤمن في حياته يَحْسُبُ ألف حسابٍ للمخاوف المرتقبة بموجب وعيد الله ، قَبْلَ أن يتجرّأ على معصيته تبارك وتعالى ، وهَذا الإحساس بالخوف الموصول بالإيمان عُنْصُرٌ أساسيٌّ من عناصر عبادة الله ، وفَقْدُهُ بتبلُّدِ الحسّ ، أو بالإفراط في الرجاء والطَّمَع بعفو الله يُرَبّي في الأنْفُسِ الجرأةَ علي المعاصي والمخالفات .

بَيْدَ أَنّ العبادة الحقَّ المشحونة بمراقبة الله ضمن إطار القاعدة الإيمانية تَحْمِي من هذا الأثر الخطير في حياة المسلم .

* ومن فساد الأجهزة النفسيّة تبلُّد حِسِّها تجاه المطامع الموعود بها ، وحينما لا يكون فسادُها من ضعف القاعدة الإيمانيّة ، فإنّ فسادها يأتي من أغشيةٍ عارضة تُغَشّي على التصوّر الصحيح ، كأنْ يَمْتَلِىءَ التصوّر المؤثّر في النفس بواردات المطامع والشهوات العاجلات ، فتَسُدُّ هذه الواردات الطريقَ على المطامع العظيمة الآجلة ، وعندئذٍ تتوجّه النّفس إلى حبّ العاجلة ، وحبُّ العاجلة يُنْسِي الآخرة ، ويرفَعُها من التّصَوُّر المؤثّر الفعال ، وهذا ما بيّنه الله عزّ وجل بقوله في سورة [القيامة/٧٥ مصحف/٣١ نزول] :

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾

العلاج :

وعلاج النفس عند تأثّرها بهذا السبب يكون بعدّة أمور :

الأمر الأول : شغل ساحة التصوّر المتحرّك الفاعل في النفس ، بالتصوّرات الإيمانية ، لتذكير النفس دواماً بعناصر القاعدة الإيمانية ، فتثير فيها مشاعر الحق والواجب ، وتحرّك فيها المطامع والمخاف العاجلة والآجلة بما في الآخرة من جزاء عظيم بالثواب على الأعمال الصالحة ، وعقابٍ بالعدل على الأعمال السيئة .

إنَّ هذا التذكير الدائم وأهمُّهُ تلاوة القرآن مع التدبّر من شأنِه أنْ يجلو عن

النفس الغشاوات ، ويُعِيدها شيئاً فشيئاً إلى إحساسها الطبيعيّ الفطريّ ، ويخلّصها من مرض التبلّد .

الأمر الثاني : ممارسة العبادات العمليّة الصادقة المستوفية لعناصرها ، إذْ تُقَوّي في نفس المؤمن جانب تصوّراته الإيمانية ، وتذكّره بربّه ، وتَرْفَعُه من التعلّق بالأرضيّات شيئاً فشيئاً وتَصِلُه بقاعدة الإيمان الذي يُمِدّ سَاحَةَ تصوُّرِه المتحرك الفاعل ، بصُوَرٍ من عناصره ، رجاءَ أن يكونَ لها ردود أفعالٍ سَوِيَّةٍ في النفس ، إذا كانت النّفس سويّة سليمةً من الأمراض الأخلاقيّة ، التي تجنح بها فلا تكون لها ردود أفعال صحيحة .

الأمر الثالث : إلجام النفس وكفُّها عن التمتُّع بكثير من النّعم العاجلة ، ولذّات الحياة الدنيا ، وحرمانُها من كثير من رغائبها وشهواتها المباحة ، للتخفيف من جموحها الذي يفضي بها إلى البطر والمرح ، والانتقال من دائرة اللّذّات والمتع المباحة ، إلى مَسَارح اللّذّات والمتع المحرّمة .

إنّ هذا الإلْجَام والكفّ والحرمان من شأنه أن يُخَفِّفَ من حبّ العاجلة والتعلّق بها ، ومتى خفّ تعلُّق النفس بالعاجلة توجّهت شطر التعلّق بالآجلة بتحريكٍ من القاعدة الإيمانيّة ، وعندئذٍ تقوى التصوّرات الإيمانية فتؤثّر في النفس آثارها الحميدة .

هذا العلاج هو من العلاجات التي يؤدّبُ الله بها ويربيّ بها عباده المؤمنين ، الذين توالت عليهم الغفلات ، فأنستهم ذكر ربّهم ، وبلَّدَتْ حِسّ نفوسهم تجاه عناصر القاعدة الإيمانية ، فيردّهم إليه بالحرمان وبالمصائب أحياناً ، وذلك لأن طَعْمَ الألم يذكر الإنسان بضعفه وحاجته ، فيردّه إلى ربّه ، بخلاف طَعْـم اللّذة الذي ينسيه ويُبطره ، وقد يطغيه ويُخَيَّل إليـه أنه قد استغنىٰ .

* * *

المقولة السابعة :

(١)

آثار مشاعر العبادة القلبية والنفسيّة في السلوك

عرفنا أنّ مشاعر العبادة في داخل النفس حتى عُمْقِ القلب تُمثِّلُ ردود أفعال النفس السويّة تجاه التصوّرات الإيمانية .

وعلينا أن نحلّل بعد هذا أَثَرَ هذه المشاعر في السلوك الباطن ، وفي السلوك الظاهر ، فهذا الأثر هو المعبِّرُ في السلوك عن المشاعر التي هي رُدُودُ أفعال النفس الفطرية الأخلاقية السويّة ، تجاه التصورات المتحركة الفاعلة المستندة إلى عناصر القاعدة الإيمانية ، والمتأثرة بملاحظة صفات الخالق ما يتعلّق منها بفضائل ذاته العظيمة ، وما يتعدّى منها إلى خَلْقِه بالإيجاد والإمداد ، والفضل والعدل ، والوعد والوعيد .

* فمشاعرُ الخوف والرَّهبة التي تُستثار في النفس لدىٰ تصوُّرِ عَدْلِ الله وقُدْرَتِه على ما يريد ، لها في السلوك الباطن والظاهر تعبيراتٌ ملائمة لها .

ففي السلوك الباطن تتجّه الإرادة لالتزام الطاعة ، والبعد عن المعصية ، في باطن السلوك وظاهره ، وطَلَبِ العون من الله لتحقيق هذا الالتزام ، والتوكُّلِ عليه في ذلك ، والخضوع والذّلّ بين يدي ربوبيّة الله القاهرة ، إلى غير ذلك من سلوك باطن يتلاءم مع مشاعر الخوف والرّهبة .

وفي السلوك الظاهر يقوم العبد المؤمن بالتزام الطاعة والْبُعْدِ عن المعصية على قدر الاستطاعة ، ليقي نفسه عذاب الله .

* ومشاعر الطَمَع والرَّغبة والرَّجَاء الّتي تُسْتَثَارُ في النفس لدَى تَصَوُّرِ فَضْلِ الله علىٰ عباده ، ورحمته بهم ، وعَفْوِه وغُفْرانِه ، وفُيُوضِ عطاءاته ، وقدرته على ما يُريد ، وعِلْمِهِ بما في نفوس عباده وما فطرهم عليه ، لها في السلوك

الباطن والظاهر تعبيراتٌ ملائمة لها .

ففي السلوك الباطن تتعلَّقُ النَّفْسُ حتَّىٰ عُمْقِ الْقَلْبِ بوسيلة الدُّعاء الخفيّ الْقَلْبِيّ ، مع الخضُوع والذُّلّ لرحمة الله في السُّلوك الباطن ، والتوكل عليه والْعَمَل بما يرضيه في كُلّ سلوك إرادي ، من أنواع السلوك الباطن ، طمعاً بالظفر برضوان الله ، وثوابه الجزيل الذي أعدّه للّذين يعملون الصالحات .

وفي السلوك الظاهر يقوم العبد بالاستكثار من الأعمال الصالحة التي ترضي الله طمعاً بالظفر برضوان الله وثوابه الجزيل .

* ومشاعر الحمد الّتي تُسْتَثَار في نفس العبد لدىٰ تصوّر عظمة صفات الله التي تدلُّ عليها آثاره في خلقه ، لها في السلوك الباطن والظاهر تعبيرات ملائمات لها .

ففي السلوك الباطن تتوجّه نفسه حتَّى عُمْقِ فُؤاده للدّهشة بهذه الصفات وآثارها ، والثناء الداخليّ عليه بها ، وحَمْدِهِ في الباطن بالمحامد التي تليق بعظيم صفاته .

وفي السلوك الظاهر يقوم اللّسان بحمد الله والثناء عليه ، وذكر صفاته بالتمجيد الذي هو له أهل .

* ومشاعر الشكر التي تُسْتَثَارُ في نفس العبد لدىٰ تصوّر نِعَم الله الَّتي أنْعَمَ بها عليه ، لها في السلوك الباطن والظاهر تعبيراتٌ ملائماتٌ لها .

ففي السلوك الباطن تتوجّه نفسه توجُّهاً إرادياً حتَّىٰ عُمْقِ فُؤادِه للقيام بكلّ سلوك إراديّ باطنٍ يُرْضي الله عزّ وجلّ ، ومجانبة كلّ سلوكٍ إراديّ باطنٍ نهى الله عنه إلزاماً أو ترغيباً ، ومن الأمثلة عليهما التوكّلُ على الله والرّضا عنه في مقاديره ، والتفكّر في آلائه ، وفي آياته في كونه ، ومجانبة الحسَدِ وبغضِ المسلمين أو الحقد عليهم ، والعَفْوُ عن المسيئين إليه ، إذ هو بهذا السلوك الباطن يقوم بأعْمالٍ تدخل في دائرة شكر الله على نعمه .

وفي السلوك الظاهر يقوم العبد بأداء ما يجب عليه من أعمالٍ صالحة ، واجتناب ما يَحْرُم عليه من أعمال ، ويتوسّع في العمل بمراضي الله ، فيستزيد من نوافل القُرُبات ، ويبتعد عن المكروهات ، شكراً لله على نِعَمِهِ الكثيرة الجليلة .

ومشاعر الإجلال والإعظام والإكبار التي تستثار لدى تصوّر عظمة صفات الرّبّ الخالق التي تدلُّ عليها آثاره في خلقه ، لها في السلوك الباطن والظاهر تعبيرات ملائمات لها .

ففي السلوك الباطن تتوجه نفس المؤمن حتّىٰ عُمْقِ فؤاده للخضوع للرّب الخالق ، والرّغبة في الانتماء إليه بالْعُبُودِيّة الصادقة ، المقرونَة بالذّلّ والخضوع ، فيخضعُ لربّهِ وَيَذِلُّ له من عُمْقِ فؤاده ، عابداً له عبادةً داخليةً تجعلُهُ شديد القرب منه .

وفي السلوك الظاهر يركعُ ويسجدُ مُسَبِّحاً باسم ربّه العظيم الأعلى ، ويُطِيلُ سجوده ذُلاً لله وخضوعاً ، شاعراً بأنّه كُلّما سَجَدَ لِرَبِّهِ خاضعاً له ازداد قرباً منه ، لقوله تعالى في سورة [العلق/٩٦ مصحف/١ نزول] :

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾

* ومشاعرُ الحبِّ التي تُسْتَثار لدى تصوّر جملة من صفات الرّبّ جلّ جلاله ذات التعلّق بالعبد خَلْقاً وإمداداً وإنعاماً ، لها في السلوك الباطن والظاهر تعبيرات ملائمات لها .

ففي السلوك الباطن تتوجه نفس المؤمن للتقرب إلى ربّه بما يحبُّ من سلوك باطن ، كحبّ أوليائه وموالاتهم ، وبُغْضِ أعدائه ومعاداتهم ، وشغل النفس بذكره وتلاوة آياته المنزلات ، ومناجاته بالدعاء ونحو ذلك .

وفي السلوك الظاهر يقوم المؤمن المحبّ لرَبّه بسرعة العمل بمراضيه في كلّ ما يَعْمَله ويترُكه ، وفي كلّ ما يقوله أو يصمتُ عنه .

(٢)

مدىٰ دلالة السلوك الظاهر على ما في النفس من مشاعر عبادة

لا يكون السلوك الظاهر دائماً دالاً على ما في النفس والقلب من مشاعر عبادة حقيقيّة، لأنّ عمل الظاهر قد يكون نفاقاً أو رِيَاءً، لكن حينما تتهيأ سُبُل التعبيرات في السّلوك الظاهر ، ولا توجد موانع خارجيّة تمنَعُها من الظهور ، فإنّ عدم وجودها في السّلوك الظاهر يدلُّ على عدم وجود المشاعر الدّاخليّة مطلقاً ، ولا سيما إذا وُجدتْ تعبيراتٌ مضادّاتٌ لها في السلوك الظاهر ، تُشْعِرُ بوجود مشاعر أُخْرى ملائمة لهذه التعبيرات .

فمن لم يكن مُكْرهاً ولا ناسياً ولا غافلاً ولا نائماً ، وكان سليم الأجهزة النفسيّة ، كان لا بُدَّ أن يكون لمشاعر عبادته النفسيّة والقلبيّة تعبيراتٌ تَدُلُّ عليها في أنواع سُلوكه الظاهر .

* * *

المقولة الثامنة :

شمول العبادة كلّ الأعمال الإراديّة الباطنة والظاهرة

(١)

أسس حركة العبادة وتعبيراتها

عرفنا أنّ للإنسان سلوكاً إراديّاً باطناً ، وسلوكاً إراديّاً ظاهراً ، وسبَقَ أنْ عرفْنَا أمثلة كثيرة من السُّلوك الإراديّ الباطن والظاهر الذي يدخل تَحْتَ عنوان العبادة .

وأُبيّن هنا أنّ العبادة لله عزّ وجلّ تشمل كلَّ أنواع الأعمال الإراديّة الباطنة والظّاهرة .

أولاً : أنواع الأعمال الإراديّة الباطنة :

ترجع الأعمال الإرادية الباطنة إلى الأنواع التالية :

النوع الأوّل : حركات الفكر الإراديّة ، وهي التي تستدعيها الإرادة ، وتوجّه جهاز التفكير لها بحثاً وتأمُّلاً واستنباطاً وفهماً ، إلى غير ذلك من أعمال الفكر الإراديّة، كحركات الحفظ والتذكّر، وحركات الإهمال والنسيان الإراديّ.

النوع الثاني : حركاتُ النفس الإراديّة وهي التي تَسْتدعيها الإرادة وتملك جلْبَها أو دفعها ، كالرّضا ، والسّخط ، وملك النفس عند الغضب وكفّ النفس عن تشهّي ما حرّم الله ، وتوجيه المشاعر لحبّ الله والخير والفضيلة ، وكراهية الشيطان والشرّ والرذيلة ، وأضدادها .

النوع الثالث : المكتسباتُ الأخلاقية الإرادية ، كالصَّبْر ، والحلْم ، والصفح ، والتّسامح ، والجود ، والشجاعة ، والأمانة ، والعفّة ، وأضدادها .

النوع الرابع : النيّات من وراء الأعمال الظاهرة ، كابتغاء مرضاة الله وابتغاء مرضاة غيره ، وابتغاء الوصول إلى منافع دنيوية من وراء العمل الظاهر .

وحينما يكون المؤمن الصادق الإيمان عابداً لله عزّ وجلّ في أعماله الإرداية الداخليّة ، فإنّه يوجّهها لما يرضيه سبحانه من خير ، ويبعدها عمّا لا يرضيه من شرّ ، فيسمو في فكره وقلبه وعواطفه وشهواته سموّاً إراديّاً وهو يجاهد نفسه إلى مواقع طاعة الله وعبادته والعمل بمراضيه ، في كلِّ عَمَلٍ باطنٍ يخضع لسلطان إرادته ، ويكون في كلّ ذلك راضياً بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً، ومسلّماً لأحكام الله تسليماً تامّاً، وهو عندئذٍ يذوق طعم الإيمان وحلاوته.

ثانياً : أنواع الأعمال الإرادية الظاهرة :

ترجع أنواع الأعمال الإرادية الظاهرة إلى تعبيرات اللّسان وتعبيرات سائر الأعضاء .

* أمّا تعبيرات اللّسان فتكون بالإعلان عن مشاعر العبادة من جهة ، وبقيام اللّسان بطاعة الله تعالى ضمن وظائفه الطبيعيّة من جهةٍ أخرىٰ ، فهو ترجُمَان ما في النفس ، وله وظائف عمليّة كسائر الجوارح والأعضاء .

وحينما يكون اللّسان ترجماناً معلناً عن مشاعِرِ العبادة في النفس والقلب فإنّ تعبيراته تكون في الأنواع التالية :

النوع الأول : عبارات توحيد الله وتمجيده ، وتعظيمه وإجلاله ، وفي هذه العبارات تكون عبادةُ الله من مستوى التعظيم والإجلال والانتماء إليه بالعبودية .

النوع الثاني : عبارات الثناء على الله وحَمْدِه بمحامِدِه كلّها ، وفي هذه العبارات تكون عبادة الله من مستوى الحمد والاعتراف لله بعظيم صفاته .

النوع الثالث : عبارات الدعاء والالتجاء إلى الله ، والاستعانة والاستغاثة به ، وفي هذه العبارات تكون عبادة الله من مستوى الطّمع والخوف .

النوع الرابع : عبارات الكفر بما سوى الله عزّ وجلّ من آلهة وطواغيت ، وبعبارات الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، ومن شرّ كلّ ذي شرّ .

ولهذا كانت كلمة إعلان الإسلام متضمّنة الكفر بكلّ إلّه سِوىٰ الله عزّ وجلّ ، والإيمان بالله وحده : « لا إلّه إلاّ الله » .

ولهذا أيضاً كان من عبادات المسلم قبل البدء بأعماله وتلاوته أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فيقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم » وأن يستعين بالله وحده فيقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وفي هذا تعبيرٌ عن القاعدة الإيمانيّة المعلنة بقول الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ . . . فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

* وأَمَّا تعبيراتُ سائِرِ الأعضاء بحَسَبِ وظائِفِهَا الطبيعيّة ودَلَالاتها الرمزية ،

فتكون بالإعلان عن مشاعر هذه العبادة ولكِنْ بحركاتٍ جسديّة خاصّة .

وتعبيرات الأعضاء تكون في الأنواع التالية :

النوع الأول : تقييد أنواع السلوك بأحكام الله عزّ وجلّ ، وعدم قبول أيّ حُكْم لم يأذن به الله في شريعته لعباده ، تعبيراً عن توحيد الله في عبادته .

ويقترن هذا بالرِّضا والتسليم من القلب لأحكام الله سواءٌ أوافقت الهوى أو خالفته .

وفي التعبير الرمزيّ عن توحيد الله في حركات الأعضاء نلاحظ توحيد الجهة التي ينبغي أن نتوجّه لها حينما نوجّه قلوبنا لله عزّ وجلّ في العبادات الخالصة لوجهه الكريم .

فالكعبة هي القبلة في الصلاة وفي الطواف ، مع أنّنا حيثما نُوَلّي وُجُوهنا فَثَمَّ وَجْهُ الله .

والسَّماءُ هي القبلة عند الدعاء في غير الصلاة والطواف وسجود الشكر والتلاوة ونحو ذلك ، مع أنّ الجهات كُلَّها متساوية بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ .

النوع الثاني : الخضوع الجسديّ لله تبارك وتعالىٰ تعبيراً عن تمجيد الله وتعظيمه ، ويظهر هذا في الركوع والسجود ، وإعلان التذلُّل والتضرّع بين يدي الله عزّ وجلّ بالخضوع الجسدي .

ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي هريرة :

« أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فأكْثِرُوا الدُّعَاءَ » .

ولدى تحليل السبب نلاحظ أنّ السُّجُودَ تعبيرٌ رمزيٌّ جَسَدِيٌّ عن نهاية الخضوع المماثل لغاية الخضوع في النفس .

ويكون التعبير عن تمجيد الله وتعظيمه أيضاً بتقييد أنواع السلوك بأحكام دينه وشرائعه لعباده ، لأنّ هذا التقييد كما يُشْعِرُ بتوحيد الله يُشْعِرُ أيضاً بتعظيم الله وتمجيده ، إذ يَدُلُّ علىٰ شُعور النفس بأنَّ أحكام الله هي أفضل الأحكام

وخَيْرُها وأصلحها للناس ، وأنفعها للأفراد والجماعات ، مع ما في هذا التقييد من مشاعر الطاعة والتقرب إلى الله بما يحب من عباده .

ويكون التعبير عن تمجيد الله وتعظيمه أيضاً ، بتعظيم شعائره ، وتعظيم ما أمر بتعظيمه من ماديّاتٍ أو معنويّات ، كتعظيم القرآن ، وتعظيم الرسول ، وتعظيم البيت الحرام ، وأمثال هذه التي أمر الله بتعظيمها .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

* ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ . . . ﴿٣٠﴾ ﴾

* ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾

النوع الثالث : التَّعْبِيراتُ الدّالّاتُ على محبّةِ الله عزّ وجلّ .

وتظهر هذه التعبيرات بالإقبال على طاعة الله والسّعي الحثيث إلى عبادته على الوجه الذي أَمَرَ به أَوْ أذن به ، ويظهر بالاجتهاد في العبادات والقربات ونوافل الأعمال الصالحة ، والحرص على كلّ عمل فيه مرضاة الله جلّ جلاله ، والتضحية في سبيله بكلّ عزيز علىٰ النفس محبوب ، والاستكثار من فعل الخيرات .

فإذا كان بذل المال يرضي الله عزّ وجلّ دعت محبته إلى بَذْلِـهِ ، فسارع المؤمن المدفوع بدافع حبّ الله إلى بذل ماله في سبيله فكان بذلُه تعبيراً عن محبّته لربّه .

وإذا كان بذل النفس يُرضي الله عزّ وجلّ دعت محبّته إلى بَذْلِها، فسارع المؤمن المدفوع بدافع حبّ الله إلى بذل نفسه في سبيله ، فكان بذل نفسه تعبيراً ماديّاً عن حبّه لربّه وإقباله عليه .

وإذا كانت التضحيةُ بعواطف النفس أو شهواتها هي الّتي تُرْضِي الله عزّ وجلّ فإنّ محبّة العبد لربّه تدعوه إلى التضحية بعواطفه وشهواته ، فيسارِعُ إلى هذه التضحية ، فتكون تعبيراً عمليّاً ظاهراً عن حبّه لربّه وإقباله عليه .

ومن التعبيرات العمليّة الرّمزيّة عن محبّة العبد لربّه السعيّ إلى بلد الله الحرام ، وزيارة بيته فيه ، والطواف حوله ، وتقبيل الحجر الأسود .

والإكثارُ من تعبيرات المحبّة يزيد من قُرْب العبد إلى ربّه ، حتّى يبلغ منزلةً يستَحِقُّ فيها فيض محبّة الله له ، وعندئذٍ يمنحه الله عزّ وجلّ رتبة من العطاء فوق مرتبة العابدين العاديّين ، ويتولاّه بعنايته ورعايته وحفظه ومعونته .

روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« إِنَّ الله تَعَالَىٰ قَالَ : مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوَافِلِ حتَّىٰ أُحِبَّهُ فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، ويَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا . وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» .

أي : فمن وصَلَ إلى مَرْتَبَةِ مَحَبَّةِ الله لَهُ مَنَحَهُ الله عزّ وجّلَّ من التوفيق والمعونة والرُّشْدِ والتَّيْسِير حتّىٰ تكُونَ تَصرُّفَاتُه في أعْضَائِهِ كُلِّهَا « سَمْعِهِ ، وبَصَرِه ، ويدِهِ ، ورِجْلِهِ ، وغَيْرِ ذلك » في مَرَاضِي الله ، كحركَاتِ الكائِنَاتِ الْمَجْبُورَةِ الَّتِي تَسِيرُ بقضاء الله وَقَدَرِهِ مُبَاشَرَةً ، إذْ لا إرادة لها وَلاَ اختيار ، إلاّ أنَّ هذا الإنسان المؤمن العابدَ الذي بَلَغَ مرتبة حبّ الله لَهُ ، يسير بإرادته واختياره وهواه ضمن مراضي الله بلا جَبْرٍ ، حَتَّىٰ كأَنَّهُ كائنٌ مجبور ، وهذا غايةُ الطاعةِ وغايةُ العبادة ، فهو حرُّ الإرادة مختار إلاّ أنّه لا يَخْرُجُ عمَّا يَرْضىٰ الله منه برغبته وهواه ، فَهُوَ في تصرفاته الإراديّة كالمجبور .

النوع الرابع : التعبيرات الدّالاَّت على شكر الله عزّ وجلّ علىٰ آلآئه ، وهي نِعَمُهُ الَّتي لا تَسْتَطِيعُ الْخَلاَئِقُ إحصاء مفرداتها .

إلاَّ أَنَّ التعبير الماديّ عن بواعث شكر الرّبّ في القلب والنفس أمْرٌ لاَ يُمْكن إدراكُهُ علَىٰ وجْهِ الحقيقة ، لأنّ الله عزّ وجلّ غَنِيٌّ عن عباده ، وغَنِيٌّ عن كُلِّ شَيْءٍ ، فلَيْسَ من المستطاع شكْرُه سبحانه بتقديم شيءٍ ينفعه ، أو يدفع

الضّرَرَ عنه ، إذْ لا يَنْفَعُهُ شيءٌ ولاَ يَضُرُّهُ شَيْءٍ ، كما جاء في الحديث القدسيّ الذي سبَقَ أن استشهدنا به في مناسبة سابقة .

من أجل هذا كان التعبير الماديُّ عن بواعث شكر الله مُنْحَصِراً في الثناء الجميل على أياديه ونِعَمِه الكثيرة ، وفي طاعته تبارك وتعالىٰ ، وفي القيام بما يرضيه من عَمل ، وفي بذل النفس وما تَمْلِكُ وبَذْلِ طاقاتِ الْجَسَدِ في الوجوه الَّتي تَتَحَقَّقُ فِيها مَرْضَاتُه .

* فالعبد الشاكر لربِّهِ يشكُرُ الله بالبذل للفقراء والمساكين ، لأنّ البذل لهم يحقّق مرضاة الله عزّ وجلّ ، وهو بهذا البذل يكون قَدَ عَمِلَ عَمَلاً فيه شُكْرٌ ما لله عزّ وجلّ على بعض ما أعطاه بعطاءٍ في سبيله .

* ويَشْكُرُ الله عزَّ وجلّ بمعونة ذوي الحاجات من جَسَدِه ، أَوْ جاهه أو سُلْطانه ، لأَنَّ معونة ذوي الحاجات بالحقّ أمْرٌ يُحَقِّقُ مرْضَاةَ الله الذي يُمِدُّ عبادَهُ دواماً بمعونته ويمنَحُهُمْ طاقات العمل الماديّة والمعنوية ، وهو بهذه المعونة يكون قد عَمِلَ عَمَلاً فيه شُكْرٌ ما لله عزّ وجلَّ على بعض ما يُمِدُّه به من عطاءات قوّةٍ ومعونة في جسده أو جاهه أو سلطانه .

* ويشكر الله عزّ وجلّ بنشر العلم ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبالنُّصْح لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمين وعامّتِهِمْ ، لأنّ بذل بعض طاقاتِهِ في هذه الأعمال الصالحة أمْرٌ يُحقِّقُ مرضاة الله الذي علَّمَه ما لم يكن يعْلَم ، ويسَّرَ لَهُ سَبِيلَ الْهِدَايَةِ ووَفَّقَهُ وأعانه حتَّىٰ وصل إلى منزلة من يُعَلِّم ويَنْصَحُ ويدعو إلى سبيل ربّه ويَأْمُر بالمعروف وينْهَىٰ عن المنكر .

فإذا بذَلَ بعْضَ طاقاتِهِ في هذه الأعمال الصالحات وأشباهها ، فإنّه يكون قد عَمِلَ عملاً فيه شُكْرٌ ما لله عزّ وجلّ على بعض ما أَمَدَّهُ به من عِلْم ، وما وفَّقَهُ إلَيْه من هداية ، وما أعانَهُ عليه من بلوغ شرف المعرفة والهداية ، مع ما أعطاه من قُوىً .

* ويَشْكُرُ الله عزّ بالجهاد في سبيله بمالِه ونَفْسِه ، لأنّ هذا الجهاد يرضي

الله عزّ وجلّ، فإذا جاهد العبد المؤمن في سبيل ربّه بمَالِهِ أو بنَفْسِه أو بهما معاً، فإنَّه يكون قد عمل عملاً فيه شُكْرٌ ما لله عزَّ وجلَّ على بعض ما أولاه من نِعَم .

* ويشكُرُ الله عزّ وجلَّ بذبح الْهَدْيِ والأضاحي ، وإطْعَام ذوي الحاجات من السائلين والمتعففين ، لأنَّ هذا العمل ممّا يُرْضِي الله عَزَّ وجلّ مِنْ عباده المؤمنين به .

فإذا قام بهذا العمل ابتغاء مرضاة ربّه ، فإنَّه يكون قد عمل عملاً فيه شكْرٌ ما لله عزّ وجلّ على بعض ما أولاه من نِعَمٍ .

والمؤمن يَعْلَمُ عِلْم يَقينٍ أنّه لَنْ ينالَ الله لحُومُها ولا دِمَاؤُها ، إنّما يَصِلُ إلىٰ الله تَقْوَىٰ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الله بها ، إذا كانتِ التَّقْوىٰ هِيَ الباعِثَة علَىٰ السُّلُوكِ الواجب ، أو يَصِلُ إلَيْه بِرُّهم أو إحْسَانُهُمْ إذا كان البرُّ أو الإحْسَانُ هو الباعثَ على السُّلُوكِ المحمود زيادة على الواجب .

وقَدْ دخلَتْ عقائدُ جاهليّة وثنيّةٌ إلى عُبَّادِ الأوثان من المشركين ، إذْ كانُوا يَعْتَقِدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ تَنْتَفعُ من دِمَاءِ القرابين أو من لُحُومها ، وكذلك دخلت خرافات مشابهة على معتقدات أهل الكتاب بشأن القرابين التي تُذْبَحُ في عباداتهم ومناسِكِهِم .

* ويَشْكُرُ المؤمِنُ ربَّهُ في عبادته له بعدم استعماله نِعَمَ الله عليه في معاصيه ، وفي صيانتها ورعايَتِها وحفظها وعدم التبذير بها .

إلى غير ذلك من تعبيرات يمكن أن نشكر الله بها ، ممّا يُشْبه الصُّوَرَ والأمثلة التي سبق بيانُها ، أمّا ذاتُ الله وصفاتُه الجليلة فلها الكمالُ كُلُّه ، ولَهَا الْغِنَىٰ التَّام وَلاَ يَصِلُ إليها من شُكْرِ العباد شَيْءٌ .

النوع الخامس : التعبيرات الدَّالاَّتُ على تعلُّقِ مطامع الْعَبْدِ المؤمن بفيُوضِ عطاءات الله عزّ وجلّ لعباده ، في العاجلة والآجلة ، وهي تكون بعدّة ظواهر من السُّلوك ، فمنها ما يلي :

* الدُّعاء بجلْب المنافع ودفْع المضار ، وقبولِ العمل الصالح ، وتعظيم الأجر عليه ، والدعاء بالعفو والمغفرة وتَبْدِيل السّيئات حَسَنَاتٍ ، ورفع الدرجات ، والحصول على خيري الدنيا والآخرة .

* الاستقامة على سلوك طريق الحقّ والخير والهدىٰ طمعاً باغتنام السَّعادَة ، والظفر بالثواب العظيم الذي أعَدَّهُ الله للمتقين والأبْرار والمحسنين.

النوع السادس : التعبيرات الدَّالاَّتُ على خوف العبد المؤمن من عقاب رَبّه في العاجلة والآجلة ، وهي تكون بعدّة ظواهر من السلوك ، فمنها ما يلي :

* قيامُ العبد المؤمن بكلِّ ما فرض الله عليه من عَمَل ، خوفاً من عقاب ربّه له في عاجل حياته وآجلها .

* اجتناب العبد المؤمن كلَّ مَا حرَّم الله عليه من عَمَلٍ ، خوفاً من عقاب ربّه له في عاجل حياته وآجلها .

النوع السابع : التعبيرات الدّالاَّتُ على الكُفْرِ بما سوىٰ الله من طواغيت ، وعلىٰ كراهية أعداء الله ، وهذه التعبيرات تكون بعدّة ظواهر من السلوك ، فمنها مايلي :

* مجاهدة شياطين الإنس والجنّ ، ومقارعة أعداء الله في معارك اللّسان والقلم وغيرهما ، وفي الحروب المسلّحة حينما تدعو الضرورة إلى ذلك .

* رجْم شياطين الجنِّ في مَنسكٍ من مَنَاسِكِ الحجّ ، وذلك بعمليّةٍ رمزيّةٍ حدّد الله لها مواقع ثلاثةً وعَمَلاً معيّناً ، إشارةً إلى تَعَدُّدِ مَسَالِكِ الشَّيَاطِينِ الَّتِي ينفُذُونَ مِنْهَا إلى إفْسَادِ فكْرِ الإنْسان وقَلْبِهِ وَنفسه ، كَمَا حَدَّدَ الله لعبادته الإيجابيَّةِ في الصَّلاَةِ مرْكَزاً واحداً جعَلَهُ قِبْلَةَ الْعَابدين لله وَحْدَهُ .

تذييل :

وهكذا تكون التعبيرات المادّيّة في السلوك الظاهر ملائمةً لمشاعِرِ عبادة الله القلبية والنفسيّة ، الَّتِي هي ردُودُ أفعال النفس السّويّة تجاه التصوّرات الإيمانية

المتحرّكة الفاعلة ، الصاعدة إلى سَطْحِ الشعور من القاعدة الإيمانيّة المستقِرَّة في عُمْقِ النفس .

وبهذا التحليل يتّضح للمتأمّل أنَّ أَسَاسَ العبادة ، ورُدُودَ الأفْعَالِ القلبيّة والنفسيَّةِ فيها ، وَمظاهرها المعبّرة عنها في السلوك ، لَيْسَ باستطاعة الإنسانِ أن يلغيَهـا مـن نفسـه ، أو أن يكْبَحهـا ، إلاَّ بـوسـائـل مـن الأهـواء والشهـوات والضلالات الفكرية ، مخالفةً للفطرة التي فطر الله النفوس الإنسانية عليها ، وهذه الوسائل لا بُدَّ أن تخالف أصل طبيعة الإنسان ، وتَقْهَرَ انْدِفَاعاتها ، وتَحْرِمَهَا من التنفيس عن ضواغط وِجْدانيّة تَتَصاعَدُ في داخلها .

وقد تَشْغَلُهَا بما يَسْتَهْلِكُ المشاعِرَ مع تتابعُ الزّمن ، بالْمُلْهِياتِ والْمُسْكِرات والمخدِّرات ، كالْخَمْرِ والْمَيْسِر، والْمُسَلِّياتِ التي تَضِيعُ فيها الأفكار والأوقات من الألعاب ومُتَعِ الحواس من مسموع ومنظور .

وقـد تحُـوِّل اتّجـاههـا تَحْـويـلاً شـاذّاً ، فتتّجـهُ تعبيـرات العبـادة إلـى ما لا تستحقها من مخلوقات كالأوثان والأنْصَاب والأزلام وما يُرْمَزُ بها إليه ، أو إلى أوهامٍ مجرّدةٍ من كلّ حقيقةٍ ذاتِ أثَرٍ ، كأوهام بعض الرسّامين والشعراء ، والسّارحين مع الأوهام .

وبالحرمان من التنفيس الطبيعيّ السَّويّ قد تحدثُ ضُغُوطٌ في نفس المحروم من عبادة ربّه ، تولِّدُ لديه خَللاً داخلياً مفسداً لتكوين إنسانيّته ، إذْ قد يُصَابُ بجنون العظمة ، أو يُصابُ بأمراضٍ عصبيَّةٍ خَطِيرَةٍ لا شفاءَ لها إلاّ بمشاعر العبادة الحقيقيّة لله عزّ وجلّ ، وبتعبيراتها القوليّة والعمليّة على ما يُرْضِي الله تباركَ وتعالى ، وحين يتناول المريض هذا الدواء بصدقٍ ، وطبّقَ الوجه الصَّحيح فإنّه ينالُ الرَّاحَةَ من عُنُفِ الضَّغْطِ الدّاخِليّ ، وتَصُبُّ على نفسه مشاعر السّعَادَة .

كلُّ هذه النظرات التحليليّة تَنْدَرِجُ تَحْتَ مَفَاهيم فِطْرِيَّةِ العبادة لله المغروزة في النفس الإنسانيّة ، والتي جاء التعبير عنها بقول الله عزّ وجلّ في سورة

[البقرة/٢ مصحف / ٨٧ نزول]:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

وقوله في سورة [الروم/٣٠ مصحف/٨٤ نزول] :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولمّا كانَتْ عبادَةُ الله عزّ وجلَّ عَمَلاً مُريحاً لِنُفُوس وقُلُوب العابدين بإخلاصٍ وصدق ، الذين يبتغون رضوان الله ومناجاته والصّلَة به ، كان الرَّسُول ﷺ يقول لبلالٍ إذا حان وقْتُ الصلاة :

« أَرِحْنَا بها يَا بِلَال » .

وحينما تركَتْ أجيالُ الشعوب الّتي غزاها الإلحاد أو سيطرت عليها الأهواء ولذات الحياة الدنيا ومطالِبُها ، عبادة الله عزّ وجلَّ على الوجه المشروع ، تاهَتْ في فراغ خطيرٍ لا تَدْرِي أيْنَ القرار ولا كيف يكون المصير .

فمنهم من عَبَد الأهواء والشياطين ، ومنه من عبَد الأشخاص ، ومنهم من فرَّ من همومه ومتاعبه وواقع حياته الكَدِرة إلى الخمر والمخدرات ، والاستغراق باللّذّات المحرّمات ، ومنهم من فرَّ من الحياة كلِّها بالانتحار إذْ وجَدَ أنّ حياته في واقعه قد غَدَتْ شيئاً لا مَعْنى ولا مَغْزَىٰ .

* * *

(٢)

شمول العبادات في الإسلام كلّ فئات أعمال الإنسان

حين نستعرض أنواع العبادات في الإسلام نلاحظ أنّها تشتمل على مختلف فئات أعمال الإنسان الظاهرة والباطنة ، إذْ تأخذ من كلّ فئة منها حِصَّةً لعبادة الله عزّ وجلّ عبادةً محضة ، وبما أنّ فئات أعمال الإنسان تتوزّع على كلّ أعضائه الظاهرة والباطنة التي لها سلوكٌ إرادي ، كان من شأن العبادات الإسلامية أن

تأخذَ مِنْ عَمَلِ كلِّ عضوٍ منها حصّةً خاصّةً لعبادة الرّبّ جلّ وعلا عبادة محضة .

ويشير إلى هذا الشمول ما رواه البخاريّ ومُسْلِم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« كُلُّ سُلاَمَىٰ مِنَ النَّاس عَلَيْهِ صَدَقَةٌ ، كُلَّ يَوْم تَطْلُعُ فيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْن صَدَقَةٌ ، وَيُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه فَيَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وبِكُلِّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا إلَىٰ الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ ، وَيُمِيطُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» .

السُّلاَمَىٰ : المَفْصلُ من الجسد .

وما رواه مُسْلمٌ عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَىٰ سِتِّينَ وَثَلاَثِمَائَةِ مَفْصِل ، فَمَنْ كَبَّرَ الله ، وَحَمِدَ الله ، وَهَلَّلَ الله ، وسَبَّحَ الله ، واسْتَغْفَرَ الله ، وعَزَلَ حَجَراً عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ ، أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْماً عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ نَهَىٰ عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ السِّتّينَ والثَّلاَثِمائَةِ ، فإنَّهُ يَمْشِي وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّار » .

وما رواه مسلم عن أبي ذرّ ، أنّ الرسول ﷺ قال : « إنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَة ، ونَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » .

قَالُوا : « يَا رَسُولَ الله أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟! » .

قال : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَام أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ » .

وفيما يلي تفصيل موجَزٌ لطائفة من أنواع العبادات في الإسلام :

أوّلاً : الصَّلاة :

معظم يومنا لنا ، في تفكيرنا وحركات نفوسنا ، ومشاعر قلوبنا ،

وطعامنا ، وشرابنا ، ومنامنا ، وسعينا لخدمة أغراض دنيانا ومصالح أجسادنا .

فلْيَكُنْ من يَوْمِنا حِصَّةٌ للصّلة بخالقِنا الّذي خلقنا ، وأمَدَّنَا ويُمدُّنا ما بقينا في الوجود بنِعَمِه الظّاهرة والباطنة .

ومن أجل هذا كانت فريضة الصلاة حصَّةً زمنيّةً يسيرةً منْ يَوْمِنا ، نتوجّه فيها إلى بارئنا ، فنستمِدُّ منهُ غذاء أرْواحِنَا ، وعقولنا ، وقلوبنا ، ونفوسنا ، وأجسادنا .

إنّ الصلاة في مستواها الرفيع انصرافٌ كُلّيٌّ عن الأرضيات خلال دقائق معدودات ، للصّلة بالله عزّ وجلّ .

فالفكر ينصرف للتأمُّل في عناصر القاعدة الإيمانيّة وما يتَّصِل بها ، وفي التفكّر في آيات الله الكونية ، وفي تذكُّر وظيفة الإنسان في الحياة ومصيره الذي سينتهي إليه بعمله ، وفي تَدبُّر مَا يُتْلَىٰ من كتاب الله المجيد .

والقلب يتوجّه خاشعاً للاشتغال بمشاعر حُبّ الله ، وتعظيمه ، وإجلاله ، والتضرّع له ، ودعائه ، والالتجاء إليه مع رجاء كلّ الخير لديه .

والنفسُ تتطلّع طامعة ببلوغ منازل المقربين في جنات النعيم ، مع الخوف من الخذلان والعذاب الأليم في دركات الجحيم .

واللّسان ينصرف لمناجاة الله بما تسرح فيه التأملات الإيمانية والمشاعر القلبيّة والنفسيّة .

فالمصلّي صلاته من المستوىٰ الرفيع يكون متقلّباً بين تعبيراتِ تأمُّلٍ ، وتعبيراتِ خُشُوعٍ وحبٍّ لله ، وتعبيراتِ حَمْدٍ وتعظيم وَإجْلالٍ ، وتعبيرات تضرُّعٍ ودُعاء ، وجسمه وأعضاؤه كلُّها في الخشوع الكامل سواءٌ أكان قائماً في الذكر والتلاوة ، أو كان راكعاً خاضعاً في التسبيح باسم الرّبّ العظيم ، أو كان ساجداً متضرّعاً في التسبيح باسم الرّب الأعلى .

وهو يتنقّل من طَوْرٍ إلى طَوْرٍ في التقرب إلى الله عزّ وجلّ ، حتَّىٰ يخِرَّ إلى

الله ساجداً ، فيبْلُغَ أقْصَىٰ مَا يَستطيعُ من تعبيراتِ القرب الجسديْ ، المناظر لحالة القرب القلبيِّ والنفسي .

وفي جلسة الختام يقدّم المصلّي طابع الختام بالتحيّة لله ، وبالصلاة على مبلّغ الرّسالة ، وبإعلان شهادتي الإيمان ، ثمّ يتذكّر شيخ المرسلين إبراهيم بالصّلاة والسّلام عليه وعلى آله .

وأخيراً يلتجيء المصلّي إلى ربّه يدعوه بما يريد من خيري الدنيا والآخرة ، فإذا أنْهَىٰ دُعاءَه عاد من رحلته الروحيّة والنفسيّة التي عرج فيها إلى الله العليّ الأعلى ، وعندئذٍ يُسَلِّم على أهل الأرض ، بعد أن انصرف عنهم بعيداً جدّاً في صلاته وعبادته المحضة لربّه .

ويكرّر المؤمن المسلم هذه الرحلة السعيدة في كلّ يوم خمس مرّات وجوباً، ويضيف إليها من النوافل ما يُيَسِّر الله له أداءه ممّا جاء في سنة الرسول ﷺ .

ثانياً : الزكاة :

إنّ معظم الأموال الّتي يمنحنا الله إيّاها في حياتنا هي لنَا ، نستَخدمها في خدمة أجسادنا ، وأغراض دنيانا ، ومصالح أنفسنا وأهلينا .

فَلْيَكُنْ مِنهَا مِقْدَارٌ سنويٌّ يسيرٌ وليس بالكثير ، مما فَضَل عن نفقاتنا من الأموال الّتي كسبناها ، أو مما أخرجته أرضنا ، نبذُلُه طاعةً لأمر الله ، وعبادةً له ، ونَضَعُهُ في مصالح الفقراء والمساكين ، وسائر مستحقّي الزّكاة ، كما أمرنا الله ، فيُرَبّيه الله لنا ، ويُطَهِّر به نُفوسنا وأموالنا ، ويُتِمُّ به صَلاح أحوال مجتمعنا ، ويُثيبنا على ما نبذلُ في سبيله ثواباً عظيماً ، إذْ يكونُ دَلالَةً على شكرنا له ، وقيامنا بما يجبُ علينا في أموالنا خلال رحلة امتحاننا .

ومن لطائف الإسلام أَنَّ هذا الواجب الاجتماعي هو الركن الثاني من أركان العبادة لله عزّ وجلّ .

والمؤمن المسلم الحريصُ على المنازل الرفيعة يضيف إلى الزكاة التي

يؤدّيها طاعة لرَبّه ، ما يبذلُه من أمواله نافلةً في سبيل الله ، يتقربُ بها إليه ، طمعاً بنيل رضوانه ، وطمعاً بالجزاء العظيم الذي يمنحه للمتطوّعين في سبيله .

ثالثاً : الصَّوم :

إنَّ مُعظَم دَهْرِنا لنا ننطلق فيه ملبيّن شهوات بطوننا وفروجنا ضمن ما أباح الله لنا في رحلة امتحاننا .

فليكُنْ منه دورة سنويّة نشُدُّ فيها اللّجام على شهوات البطون والفروج بالصيام عن المفطّراتِ ، عبادةً لله عزّ وجلّ وطاعةً له ، دون أن يكون لنا غرض من صيامنا إلاّ التقرّب إلى الله عزّ وجل بطاعته ، في الإمساك عن مطالب البطن والفرج على ما شرع لنا طوال يوم الصوم الواجب من شهر رمضان ، أو ما هو قضاءٌ عنه عند الإفطار في شهر رمضان بعذر السفر أو المرض ، أو بسبب حيض المرأة أو نفاسها ، أو بسبب آخر على ما هو مبين في فقه الصيام .

هذه الدورة السنوية نقوم بواجباتها خلال شهر كامل من الأشهر القمرية ، هو شهر رمضان المبارك .

والمؤمن المسلم الحريص على المنازل الرفيعه يضيفُ إلى الصيام المفروض ما يتطوّع به نافلةً من صيام ندب الرسول ﷺ إليه خلال سائر شهور العام ، تقرّباً إلى ربّه ، وابتغاء رضوانه والأجر العظيم الذي أعدّه للصائمين .

رابعاً : الحج والعمرة :

إنّ معظم سَعْينا في عمرنا وتطوافنا في الأرض وأسْفارنا يكون لخدمة أجسادنا وأغراض دنيانا ضمن ما اباح الله لنا في رحلة امتحاننا .

فليَكُنْ من ذلك رحْلَةٌ ربّانيّة في عمرنا ، إلى بلد القبلة التي نتوجّه لها كلَّ يوم في صلاتنا ، لنؤدّي في هذا البلد الحرام مناسِكَ خاصّة ، عبادةً لربّنا ، وطاعةً له .

إنّ في عبادتي الحجّ والعمرة ألْواناً مختلفة من الأعمال كأنّما قد لُوحظ فيها

جوانب سعْي الإنسان في حياته ، فَأُخِذَ من كُلٍّ منه قِسْطٌ خاصٌّ يَعْبُد المؤمن المسلم فيه ربّه ، مبتغياً رضوانه وجنته .

كأنّ منادي الحقّ يناديه بما يلي :

* أيُّها الإنسان أنت تتجرّد من ثيابك وأناقتك من أجل نفسك وشهواتك في كثير من أحوالك ، فتجرّد في أيّام حجّك أو عمرتك من ثيابك المخيطة المفصّلة على مقادير جسدك ، ولا تُبْقِ عليك إلّا ما يشبه أكفانك عند موتك ، تستُر به عورتك ، وتَرُدُّ به عنكَ ما يؤذيك .

أمّا أنت أيَّتُها الإنسانة فقد اقتضت صيانَتُك إعفاءَك مِنْ هذا ، والاقتصار على جُزْءٍ منه يسير ، في وجْهك وكَفَّيْك .

* أيُّها الإنسان ، أنت في أسفارك تتشعَّثُ وتترك رفاهيتك من أجل نفسك وأغراض دنياك .

فلْيكُنْ مِنْ ذلك حصّةٌ لعبادة ربّك وأنت محرمٌ بحجّ أو عُمْرَةٍ ، فابْتَعِدْ عن أسباب الرفاهية ، وأنواعِ من الْمُتَع الجسديّة عبادةً لله وطاعةً له ، وكذلك أنت أيَّتُها الإنسانة .

* أيُّها الإنسان ، إنَّكَ تُكثِرُ التَّطْوافَ في حياتِك من أجل جسدك وأغراض دنياك ، فَاجْعَل حِصَّةً من عمرك للطّواف حول بيت الله العتيق ، الّذي هو أوّل بيت وُضع لعبادة الله في الأرض ، ولْيَكُنْ هذا الطّواف عبادةً لربّك وطاعةً له ، وتَذَلُّلاً وخُضوعاً لجلاله ، وعظيم سلطانه ، وكرّر طوافك سبع مرّاتٍ كلَّما طُفْتَ في حجٍّ أو عمرةٍ أو في غيرهما من نافلة ، وكذلك أنْتِ أيَّتُها الإنسانة .

* أيُّها الإنسان ، إنَّكَ تَسْعَىٰ كثيراً في حياتك من أجل جسدك وأغراض دنياك ، فاجْعَلْ حصَّةً من عُمْرِك للسَّعْي بين شعيرتين من شعائر الله ، هما الصفا والمروة ، وليكُنْ هذا السَّعْيُ عبادةً لربّك وطاعةً له ، واجْأر وأنْتَ تَسْعَىٰ بالدّعاء

لله ، والإلحاح بالطلب ، واجعل ذهابك وإيابك سبعاً في حجِّكَ أو عمرتك ، وكذلك أنتِ أيَّتها الإنسانة .

* أيُّها الإنسان ، إنَّك تجتمع في حياتك بجماهير من الناس ، في مجامع كثيرة ، وفي مناسبات مختلفات ، من أجل نفسك ، ومن أجل جسدك ، ومن أجل أغراض دنياك ، فاجْعَلْ حصّة من عمرك ، لتحضُر فيها مجمعاً عظيماً للمسلمين والمسلمات في يوم التاسع من شهر ذي الحجّة في عرفة ، وأنت محرم بالحجّ ، إذْ تلتقي بوفود من إخوانك المسلمين والمسلمات المنبثين في أقطار الأرض ، ولْيَكُنْ حضورك هذا الاجتماع العظيم عبادةً لربّك وطاعةً له ، داعياً مستغفراً ملبيّاً تذكر الله وتوحّده وتكبّره ، وتستغيثه ، وتستمطر رحمته وغفرانه وعفوه ، وتسأله رضوانه ، والنعيم المقيم في جنات الخلد مع المتقين والأبرار والمحسنين ، وكذلك أنتِ أيّتُها الإنسانة .

* أَيُّها الإنسان ، إنَّكَ تبيتُ في ليالي عمرك حيْثُ شئت ، من أجل نفسك ، ومن أجل جسدك ، ومن أجل أغراض دنياك ، فاجْعَلْ حصّةً من ليالي عمرك تبيتُ فيها وأنت حاجّ بمزدلفة عقب إفاضتك من عرفات ، وحصةً أخرى تبيت فيها بمنىٰ في ليالٍ تاليات .

وليَكُنْ مبيتك بمزدلفة وبمنىٰ طاعةً لربّك ، وعبادةً له ، ومنسكاً من المناسك التي تعبُد بها ربّك ، وتُعَبِّرُ بها عن مشاعر عبادتك له ، التي تشعر بها في قلبك وفؤادك وجوانب نفسك ، وكذلك أنتِ أيَّتُها الإنسانة .

* أيُّها الإنسان ، إنَّك تُقاتِلُ في حياتك قتالاً عنيفاً ، وتخاصم خصاماً شديداً ، بدافع من غضبك لتتشفىٰ ، ولتحقِّق غرضاً من أغراض دنياك ، فاجعل حصّةً من حركات قتالِكَ ، لعبادة ربّك ، وذلك بأن ترجُمَ بالحصىٰ مَرْجُوماً لا تراه ، وإنّما تفعل هذا تعبيراً مادّياً عن كفرك بالطواغيت التي كفرت بها مذ آمنت بالله وحده ، وأعلنت أنّه لا إلَه إلاّ الله .

ولْيَكُنْ رجْمُكَ بسبع حصيات صغيرات ، لأماكن محدّدات ، وفي أوقاتٍ

مُبَيَّنات ، طاعةً لربّك ، وعبادةً له ، ومنسكاً من المناسك التي تعبُدُهُ بها ، وكذلك أنت أيّتُها الإنسانة .

ولمّا كانت سُبُل الطواغيت متعدّدةً كانت مواقع الرّجم كذلك ، وهي ذات ثلاثة منافذ إلى التأثير على الإنسان :

(١) أمّا أحدها فيصل إلى فكره ومراكز عقيدته ، ومنه يحاول الشياطين دسّ الزيغ الاعتقادي ، لأنّ الاعتقاد متَىٰ فَسَد في الإنسان فسد الإنسان كُلّه ، وهذا ما أوضحه الرسول ﷺ بقوله في الحديث الصحيح :

« ألاَ وَإنَّ في الْجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّه ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، ألاَ وهِيَ الْقَلْبُ » .

وهذا المنفذ إلى داخل الإنسان هو أخطر المنافذ وأكْبَرُها ، وهو يُمثّل أكبر عقبة في كيان الإنسان ، فمن اجتازها بنجاحٍ فآمن بالله وأذعن له ، وأبعد عن نفسه الشياطين برَجْمِها رَجْماً معنوياً وَماديّاً ، نجا عند الله من الخلود في العذاب .

(٢) وأمّا ثانيها فهو يصل إلى مراكز العاطفة المؤثرة في كيان الإنسان ، ومنه يحاول الشياطين غمزها وَإثارتَها لصدّ الإنسان ، أو تحويله عن طاعة ربّه ، والاستجابة إلى وساوس المعصية ووساوس الكفر .

وهذا المنفذ الثاني يقع في المرتبة الثانية الوسطى ، وخطَرُهُ شديد وكبير ، إلاّ أنّه دون خطر المنفذ الأوّل ، لكِنَّ الانغماس فيه قد يجرُّ من المعاصي الكبرىٰ إلى مواقع الكفر .

(٣) وأمّا ثالثُها فهو يصل إلى مراكز الشهوة والهوى ذات الأثر الفعَّال في سلوك الإنسان ، ومن هذا المنفذ يحاول الشياطين غمز هذه المراكز وإثارتَها لقذف الإنسان إلى مواقع لذّات الشهواتِ المحرّمة ، والأهواء الجانحة ، وعندئذٍ يسهُل استدراجه بالوساوس والتسويلات إلى مواقع المنفذين الأوّلَين ،

إذْ يغدو مخدّراً باللّذاتِ والأهواء المحرّمة فاقداً لقسط كبيرٍ من صموده في مواقع الإيمان والعواطف السامية ، وهذا المنفذ الثالث يقع في المرتبة الثالثة الصغرى .

والمؤمن المسلم العابد لربّه يحارب شياطين كلّ هذه المنافذ في حياته، ولا يتبع شيئاً منها ، حمايةً لنفسه من العواقب الوخيمة ومن سوء المصير ، ويجاهد جهاداً طويلاً لالتزام صراط الله المستقيم ، الذي أوصىٰ الله عزّ وجلّ باتّباعه، ونهى عن اتّباع سائر السُّبُل بقوله في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول]:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

ولا مانع من أن يكون ما اعْتَبَرْنَاهُ المنفذَ الثالث هو المنفذ الثاني ، بالنسبة إلى بعض الناس ، إذْ قد تكونُ الشهواتُ والأهواء أقوى عند بعض الناس من عواطفه ، وأكثر صرْفاً له عن الخير .

* أيُّها الإنسان ، إنَّكَ تأكلُ وتشرب في معظم حياتك من أجل نفسك ومطالب جسدك ، فاجعل أيّاماً من أيّام دهرك تأكل وتشرب فيها عبادة لربّك وطاعةً له، إنَّها أيّام العيد وأيّام التشريق في منى، ولا تَصُمْ في هذه الأيّام زاعماً أنّ الصيام عبادة ، بل الفطر فيها هو العبادة ، فقد جاء في كلام الرسول ﷺ بشأن أيّام مِنَىٰ :

« أَلَا وإِنَّ هَذِهِ الأيّام أَيّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وذِكْرِ الله »[1].

* أيها الإنسان ، إِنَّك تَحْلِقُ شعرك أو تقصّره في أيام عمرك من أجل رفاهيتك وزينتك أو مصالح جسدك ، فاجْعَلْ حِصَّةً من ذلك لعبادة ربّك وطاعةً له ، فتحلَّلْ من الحجّ أو العمرة بحلْق شعرك أو تقصيره ، ولاحظ في عملك هذا أنّك تفعله عبادةً لربّك ، ومنسكاً من المناسك الّتي تبتغي فيها طاعة الله

---

(١) رواه أبو داود، انظر مشكاة المصابيح، الحديث ذي الرقم (٢٦٤٥) في كتاب المناسك.

ورضوانه والثواب الجزيل على عبادتك له .

* أيّها الإنسان ، إنّكَ تذبَحُ الذبائح في معظم أوقات حياتك من أجل بطنك وشهوتك وحاجات أسرتك ، فاجْعلْ حصّةً من ذبائحك لعبادة ربّك وطاعةً له ، فَسُقِ الْهَدْيَ ، واذْبَحِ الأضاحي قاصداً بعملك وجْه ربّك ، ومبتغياً به طاعته في هذا القطاع من قطاعات تصرُّفاتك في حياتك ، وأنت تعلَمُ أنّه لَنْ ينالَ الله لُحُومُها ولا دماؤها ، ولكن ينالُه التقوى من قلبك ، أو طلبُكَ البرّ أو الإحسان ابتغاء مرضاته .

هذه لمحاتٌ من حِكَم تنوُّع العبادات في الإسلام ، مع بيان أنّ الْحِكَمَ لاَ تَقتصر على ما استخرجْتُهُ بالتأمُّلِ منها ، فَمِنْ حكَمِ تنوُّع العبادات أنّ التنوُّع يدفع السَّآمة والملَلَ عن النفوس ، ويجدّد فيها النشاط للعمل ، مع ما في معظم أشكال العبادات وصُوَرِها من مصالح للأفراد والجماعات ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله في المقولة التالية .

* * *

المقولة التاسعة :

اشتمال العبادات في الإسلام على حِكَمٍ ومصالح للعباد

(١)

مقـدمـة

كلُّ ألوان العبادات وأشكالها وصورها في أحكام الشريعة الإسلامية هي لمصالح العباد وخيرهم في ظروف هذه الحياة الدنيا التي هم فيها في رحلة امتحان ، فلا يَزِيد أداؤهم لها في مُلْكِ الله شيئاً ، ولا ينقص تركهم لها وعملهم بنقاضها من مُلْك الله شيئاً .

والذين يكفرون بربّهم ويجحدونه ويعادون أولياءَهُ من عباده لن يضرُّوا الله شيئاً .

دلّ على هذه الحقائق بديهة الفكر السّليم ، الذي توصّلَ بالأدلّة العقلية البرهانيّة إلى الإيمان بالله عزّ وجلّ ، وإلى إدراك صفاتِ مجده ، وصفات ربوبيّته ، ودلّت عليها نصوصٌ دينيّةٌ متعدّدة ، فمنها النصوص التالية :

(١) قوله الله عزّ وجلّ في سورة [محمد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾

صَدُّوا عن سبيل الله : ابتعدوا بأنفسهم ، وعملوا على إبعاد غيرهم عنه .

شاقّوا الرسول : ناصبُوه العداء ووقفوا في شِقٍّ المضادّ المحارب .

وسيُحْبِط أعمالهم : وسيبطلها ويُلْغي آثارها وينصر أولياءه الصادقين .

(٢) ما جاء في الحديث القدسيّ الذي رواه مسلم عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربه (من حديث قدسي) فقد جاء فيه :

« يَا عِبَادِي ، إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ والنَّهَارِ ، وأَنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، فَاسْتَغْفِرُوني أَغفِرْ لَكُمْ .

يَا عِبَادِي ، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرّي فَتَضُرُّوني، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني .

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا عَلَىٰ أتْقَىٰ قَلْب رَجُلٍ واحِدٍ منكم مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً .

يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً .

يَا عِبَادِي ، إنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله ، ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ » .

* * *

من فضل الله اشتمال العبادات على مصالح العباد

ومن فضْل الله وكَرَمِه أنْ جعل العبادات في الإسلام مشتملة على حِكَمٍ ومصالح قد نُدْرِك بعضها وقد يخفىٰ عَلينا حِكَمٌ ومصالحُ ظاهرة أو باطنة .

ونحن نؤمن أنّ الله عزّ وجلّ لو كلّفنا أن نَعْبُدَهُ بما ليْس فيه فوائد ومصالح لنا أفراداً وجماعات لكان واجباً عيلنا أن نَعْبُدهُ ونُطيعَ أوامره ونواهيه ، فهو خالقنا وبارئنا ، وهو الذي أحيانا ، وهو الذي يميتُنَا ، وهو الذي بيده معاشُنَا ، وهو الذي إليه معادُنا ، وهو الذي إليه الخلق والأمر ، وهو على كلّ شيءٍ قدير ، فمن حَقِّه علينا أن نَعْبُدَه بالتسليم الكامل .

وحينما نبحثُ عن الحِكَم الخاصَّة بكلّ نوعٍ من أنواع العبادات فإنّما نبحَثُ عَنْها لِنكْشِفَ فَضْلَ الله علينا ، ولِنُرَاعِيَ ضوابطَ العمل الّتِي تَتَحَقَّقُ بها الْحِكَمُ المقصودة فيه ، ولنكشف لضعفاء الإيمان فوائد هذه العبادات للنّاس ، ولنُسْكِتَ ألسنة الدّسَّاسين المشكِّكِينَ من أعداء الإسلام .

بيّد أنّ المؤمن الصادق في إيمانه إنّما يعبُد ربّه للطاعة لا لأجل الْحِكْمَةِ الخاصّة الّتِي تشتمل عليها العبادة ، ممّا يَنْفَعُ الإنسانَ في جسْمه أو نفسه، أو مما ينفع غيره.

وحين نستعرِضُ صُنُوف العبادات وأنواعَها في الإسلام ، باحثين عمّا فيها من مصالح وحِكَمٍ تَعُودُ على الأفراد أو الجماعات بالخير العظيم ، فإنّ قلوبنا تَمْتَلى بالدّهشة والإعجاب .

نظرة عامّة :

(١) إنّ العبادات في الإسلام تُغَذّي عناصر القاعدة الإيمانيّة بالمراقبة المتجدّدة لله عزّ وجلّ ، وبتدبّر آياته وآلائه .

(٢) وتربّي الوجدان على الحسّ الرفيع الذي يعشق الحقّ والخير والفضيلة والصالحات من الأعمال الظاهرة والباطنة ، ويَنْفِر من الباطل والشرّ والرذيلة وفعل السيئات من الأعمال الظاهرة والباطنة .

وتربّيهِ أيضاً على الفضائل الخلقية حتّى تكون فضائل ملازمة متأصّلةً في كيان الإنسان ، لا يستطيع أن يتخلّىٰ عنها أو يجافِيهَا وإنْ أراد .

(٣) وتربّي الجسد على السلوك الفاضل في الحياة ، حتى يكون عادةً مستحكمة متأصّلة ، وجزءاً من كيانه السلوكيّ .

(٤) وتربّي النفس والإرادة على النظام والانضباط في الأعمال ، والطّاعة للقيادة .

(٥) وبعض العبادات هي للجسد صحّة وراحة ، وبعضُها للنفس صحّة وراحةٌ وتطهير ، وبضعُها للفكر صحّةٌ وتقويم وتنوير ، وبعضُها للقلب طُمَأْنِينَةٌ وسكينة وإشراق ، وبعضها يجمع كل ذلك .

وبعض العبادات يُحَقّق أغراضاً اجتماعيّةً عظيمة ، إذْ تكون تعبيراً عن مدى الأخوّة الإيمانيّة بين أفراد المؤمنين ، وتساويهم في كونهم جميعاً عبيداً لله ، يقفون جميعاً بين يديه أذلاء فقراء خاشعين له .

وبعض العبادات تساعد على شدّ أواصر الجماعة المؤمنة المسلمة ، وتوثيق عرىٰ وحدتها ، فكأنها جَسَدٌ واحد .

إلى غير ذلك من أمور يَصْعُبُ استقصاؤها .

نظرات خاصة :

ويحسُنُ في هذا الاستعراض ذِكْرُ لمَحَاتٍ من الْحِكَم والمصالح التي تحققها العبادات في الإسلام ضمن حدود الأركان الإسلامية الكبْرى : « الصلاة ، والزكاة ، والصّيام ، والحجّ » .

(١) إذا بحثْنَا في واقع الصلاة وما يشترَط لها من شروط ، نُلاحظُ أنّها

مسبوقةٌ بشرط الطهارة ، وهي صورة حضاريّة عظيمة ، فيها صحّة ولذّةٌ وجَمالٌ وأناقة ، وفيها تخلُّصٌ متكرّر من القذارات الّتي يتعرّض لها الإنسان في يومه ، أو في أكثر من ذلك ، فيُزِيلُها بالوضوء وبالاغتسال ، وبالتطهرُ من النجاسات ، حتَّى يكون في جسمه وثيابه ومكانه طاهراً نظيفاً جميلاً أنيقاً ، ولهذا آثارٌ اجتماعيّة حضاريّةٌ عظيمة جدّاً .

وفي أداء الصلاة في أوقاتها تدريب متكرّر على النظام وأداءِ الواجب .

ومعلومٌ أنّ النظام ركْنٌ أساسيٌّ من أركان التقدّم الحضاري ، وركْنٌ أساسيٌّ من أركان الإنتاج في الأعمال ، وعُنْصُر من العناصر الّتي تُحقّق العدل في كثيرٍ من الحقوق الاجتماعية ، وفي أداء الصلوات المفروضة مع الجماعة تدريب على النظام من جهة ، وتدريبٌ على الانضباط وطاعة القيادة من جهة أخرى .

وفي صلاة الجماعة يتفَقَّد المسلمون بعضهم بعضاً ، ويؤازر بعضهم بعضاً ، ويُعاونُ بعضهُم بعضاً ، وبذلك تنمو في نفوسهم وقلوبهم أخلاقٌ اجتماعيّةٌ كثيرة ، تَدْعَمُ فيها أواصِرَ الجماعَة ، وهذه المعاني تَعْظُم في صلاة الجمعة وصلاة العيدين .

(٢) وأمّا الزّكاة فركن من أركان الإسلام وهو غنيٌّ عن بيانِ ما فيه من حِكَمٍ وَمصالحَ اجتماعيّة .

إنّ هذا الركن من أركان الإسلام هو الركن الاجتماعيُ الَّذي حقَّقَ الله به مبْدأَ التكافل الاجتماعي ، لكفالة العاجزين عن العمل الذين لَيْسَ لَهُمْ من أسْرَتِهِمْ مَنْ يكْفُلُهُمْ ، ولكفالة الذين لم يكلّفْهُمُ الإسلام أعمال الكسْبِ .

وفيه تربيةٌ للنفوس على خُلُقَ الجود ، والتخلُّصِ من داءِ الشُّحّ والبخل بأداء الواجب ، فهو أحد الوسائل التي تُرَبِّي في النفوس طائفة من فضائل الأخلاق .

(٣) وأمّا عبادة الصيام ففيها تدريبٌ على النظام ، وفيها تربية النفس على خلق الصبر في كبْحِ شهوات الأنفس ، والصبر على ملازمة الطاعة .

وفيها تربية النفس على خلُق الرحمة بذوي الحاجات الّذين لا يجدونَ ما يُسدُّون به حاجاتهم .

وفيها أيضاً صِحَّةٌ للْجَسد ، إذْ يتخلّص الجسَدُ بالصّيام من كثير من الرواسب الضارّة المسقمة للجسم ، والطفيليّات الضارّة .

وفي هذه العبادة دورة رياضيّة نفسيّة وجسديّةٌ نافعة .

وفي هذه العبادة دورة رُوحيّة تعبُّدِيَّةٌ تَصِلُ الإنسانَ بربّه صلةً فوقَ العادة خلال شهرٍ كُلَّ سنة .

(٤) وأمّا عبادة الحجّ فهي عبادة مشحونةٌ بالحِكَمِ والمصالح والمنافع الفرديّة والاجتماعيّة .

إنّها رياضة وسياحة ، ومؤتَمَرْ إسلاميّ سَنَوِيٌّ يَفِدُ إليه وفودٌ من المسلمين المستطيعين على التناوب .

وفي عبادة الحج تربيةٌ للنفوس على طائفة من فضائل الأخلاق ، منها الصبر على تحمُّل المشقات ، والصبرُ على تحمُّل الأذىٰ ، والصَّبْرُ على مخالفة أهواء النفس وشهواتها وترك عاداتها .

وفيها جهاد نفسيٌّ وجَسَديٌّ يشبه جهاد المقاتلين في الحرب ، ولكن من دون قتال .

إلى غير ذلك من منافع فرديّة واجتماعيّة يشهدها الحجّاج في موسم الحجّ .

* * *

المقولة العاشرة :

يُسْر العبادات في الإسلام ورفع الحرج عنها

لدى تتبُّع أنواع وصنوف العبادات في الإسلام نُلاحظ أنّها مبنيّةٌ على الْيُسْر ورفع الحرج ، وليست مبنيّةً على الْعُسْر والتضييق والشدّة .

فهي ملائمة لواقع الإنسان في مختلف طاقاته وقدراته النفسيّة والجسدية ، وليس فيها إعناتٌ لمطالبه الخاصّة النفسية أو الجسدية .

وحيثُما وكَيْفَمَا ومَتَىٰ وُجِدتِ المشقّة أو الحرج وُجِدَت أحكام التيسير ورفع الحرج .

* ففي السفر مثلاً تُقْصر الصلاةُ ويباحُ الْفِطْر في شهر رمضان ، ولدى وجود المشقّة في القيام عند أداء الصلاة يُباح القعود أو الاضطجاع أو الاستلقاء حسب الاستطاعة .

* وعند المرض أو فقد الماء تأتي أحكام التيسير بالتيمم بدل الوضوء وبدل الغسل .

* وعند حدوث العذر يرتفع التكليف بالنسبة إلى الواجبات التي فيها مشقة أو حرج ، فبالنسبة إلى واجب الجهاد بالقتال في سبيل الله نلاحظ أنّه ليس على الأعْمَىٰ حرجٌ ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج .

* ومن كان يشُقُّ عليه السّفر لهرم أو مرض فلا يكلّف أن يحجُّ بنفسه ، وغير المستطيع لا يتوجّه له التكليف ابتداءً .

فقال الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ . . . ﴾

وقال الله عزّ وجلّ في سورة [الطلاق/٦٥ مصحف/٩٩ نزول] :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ ﴾

وقال الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ . . . ﴿١٥٢﴾ ﴾

وقال الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ . . . ﴿٢٣٣﴾ ﴾

وقال الله عزّ وجلّ في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ في سُورة [المؤمنون/٢٣ مصحف/٧٤ نزول] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

فدلَّتْ هذِهِ النصوص في مناسباتها المختلفات العامّة والخاصَّة على أنَّ الله عزّ وجلّ لا يُكلِّفُ نفساً إلاَّ ضِمْنَ حُدُودِ وُسْعِها ، من طاقاتٍ ذاتيّة ، ولا يكلّفُها أن تَبذُل إلاّ ممّا آتاها سبحانه ، ولا يكلّفها في مجال إيفاء الكيل والميزان بالقسط إلاّ ضمن حدود استطاعتها ، ولا يكلّفها من الإيمان والعمل الصالح اللّذَيْن تَسْتَحقّ بهما أنْ تكون من أصحاب الجنّةُ الخالدين فيها إلاّ وُسْعَها ، ولا يُكلِّفُها لتكونَ من المسارعين في الخيرات السابقين لَهَا إلاَّ وُسْعَها ، فذو الدّرهم الذي لا يملك غيره ، إذا سارع إلى بذله ابتغاء مرضاة ربّه ليكون من

السابقين في فعل الخيرات ، قد يسْبقُ به باذِلَ مئات الألوف الذي يبذُلُ من فضل ماله .

* وقد أمر الله بالتقوى ضمن حدود الاستطاعة ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة [التغابن/٦٤ مصحف/١٠٨ نزول] :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

* وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

« مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ » .

فأبان الرّسُولُ ﷺ أنّ أمْرَهُ بالأوامر تكليفٌ منه مُقَيَّدٌ بحدود استطاعة المأمورين .

* ونلاحظ أنّ الزكاة المفروضة في الإسلام هي نسبة يسيرة من المال ، ومعظمها من فاضل الأموال بعد مرور حول كامل .

* ولمّا بيّن الله عزّ وجلّ حُكْم إباحة الفطر في السفر خلال شهر رمضان ، وإباحة الفطر للمريض ، وتحويل الواجب إلى عدّةٍ من أيّامٍ أُخر ، قال تبارك وتعالى في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

فأبان الله عزّ وجلّ أنّ دينه دين يُسْرٍ وليْسَ دين عُسْر .

* وَلمّا أوجب الله عزّ وجلّ الهدْيَ في الإحصار بالحجّ أو العمرة ، وفي

التَّمتُّعِ قال تبارك وتعالى في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٩٦) ﴾

فأمَرَ الله بما استَيْسَرَ من الْهَدْي ، فمن لم يجد فعليه أن يصوم ثلاثة أيّامٍ في الحجّ ، وسبعة أيّامٍ إذا رَجع إلى أهله في بلَدِهِ ، بدلاً عن الْهَدْي ، وهذا من يُسْر الشريعة الإسلامية وتكاليفها .

* وعَلِمَ الله عزّ وجلّ أنَّ عباده لا يُطِيقُونَ المواظبةَ على قيام اللَّيْلِ الذي أوجبه على رسُوله ، فخففَ عنهم التكليف إلى قراءة ما تيَسَّر من القرآن فقال تبارك وتعالى يخاطب رسولَهُ مُحَمّداً ﷺ في سورة [المزمل/٧٣ مصحف/٣ نزول] وهذا النصّ منها مدنيّ التنزيل :

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (٢٠) ﴾

فقول الله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ أي : عَلِمَ أن لن تُطِيقُوا المواظبة على قيام اللّيل ، لذلك تاب عليكم ، فخفّف هذا الواجب عنكم . وأمرنا بأن نقرأ ما تيّسر من القرآن بدل قيام الليل .

* وأبان الله عزّ وجلّ أنَّه ما يُرِيدُ فيما أمرنا به من أوامر ونهانا عنه من نواهٍ ليجعل علينا حرَجاً في الدين ، فقال تعالى في مَعْرِضِ بيان أحكام الطّهارة بالماء ، وأحكام التيمم الذي هو بدل عن الطهارة بالماء في حالات العذر ، في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ . . . مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

أي : فهو سبحانه لاَ يريدُ إلزامَنَا بالواجبات الدينيّة ليجْعَلَ علينا من حرج ما في الدين ، ولكن يريد خيرنا وفائدتنا .

فإذا كلَّفَنا أَنْ نَتوضَّأَ وَأَنْ نَغْتَسِلَ فإنّه قَدْ أراد بذلك تطهيرنا وهذا التطهير هو لخيرنا وفائدتنا ، ونظافتنا وصحّتنا .

وأراد الله سبحانه أن يُتِمَّ علينا نعمته في بيان أحكام ديننا لعلّنا نكونُ من الشاكرين ، فإذا لم نجدْ ماءً نتطَهَّرُ به ، أَوْ كنَّا مَرْضَىٰ لاَ يناسِبُنا استعمالُ الماء قَصَدْنَا إلى أرض طاهرة طيّبةٍ من حولنا فقدَّمْنَا عذرَنَا إلى بارئنا ، فَأَجَرَيْنَا صُورَة طهارة في عمليّةٍ مُوجَزَةٍ ، نَمْسَحُ بها وجوهنا وَأكُفَّنَا ، وهذا هو التيمُّم .

* ويخاطب الله عزّ وجلّ المؤمنين بقوله في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . . . ﴿٧٨﴾ ﴾

فقولُهُ تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرجٍ ﴾ يدُلُّ على أنّه متَىٰ وحيثُما وَكيْفَمَا وُجِدَ الْحَرَجُ جاءتْ أحكامُ التخفيف ، فكانَ التكليفُ ضمن حدود الاستطاعة الّتي ليس فيها مشقّاتٌ مُحْرجات .

وبهذا تبرز لنا سماحة هذا الدين وفُسْحَتُه ، وأنّه يلائم الفطرة الإنسانية ، ولا يكلّفها شططاً ، ولا يُحَمِّلُها عنتاً .

* وأبان الله عزّ وجلّ أنّه رَفع الحرجَ عن أصحاب الأعذار فقال تبارك وتعالى في سورة [الفتح/٤٨ مصحف/١١١ نزول] في معرض الحديث عن القتال في سبيله :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

* غير أنَّ العبادات هي من التكاليف الّتي تشتمل على طَلَب ما فيه كُلْفَةٌ على الجسد والنفس بوجْهٍ عامّ ، وأدَاؤها يحتاجُ إلى مقدارٍ ما من الصَّبْر ، وبه يُثَابُ العابدون ، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في سورة [مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول] :

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

هل تعلم له سَمِيّاً : أي : هل تَعْلَمُ له مماثلاً في صفاته الجليلة العليّة الأزليّة الأبديّة .

* * *

المقولة الحادية عشرة :

لا وساطة في العبادة بين العبد وربّه

ممّا امتازت به العبادات في الإسلام أنّها صلةٌ مباشرة بين العبد وربّه ، فليس فيها وساطة مخلوقٍ ما من مخلوقات الله ، مهما كانت منزلته عند ربّه ، فليس لرئيسٍ دينيّ وساطة ، ولا لملِك ، ولا لنبيّ ولا لرسول ، وأَجَلُّهم الرسولُ ﷺ وهو حامل رسالةٍ عن ربّه يُبَلِّغُها للناس ، فلا يكون في عبادة العباد لربّهم وسيطاً بينهم وبينه ، غاية ما أُذِن له به أن يَسْتَغْفِر لهم ، وأن يَدْعُو لهم ، وأعطاه الله الشفاعة يوم الدين .

حتّىٰ إكرام الرسول وتعظيمه وتوقيره ومحبّتُه كلُّها تعامُلُ مع الله وسبيلٌ للظفر برضوانه وثوابه العظيم ، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة [الفرقان/٢٥ مصحف/٤٢ نزول] لرسوله :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

أي : إلاّ من شاءَ أن يتَّخِذَ إلىٰ رَبّه سبيلاً يُحَقِّقُ به رضوانه وثوابه العظيم فإنّه يُقدِّم إلى رسوله شيئاً ، كالصلاة عليه ، ومحّبته وتوقيره وتعظيمه ، وإكرامِه في حياته ، وإكرامِ آله .

والمناجاة في العبادة تكون مع الله مباشرة ، وحظّ الرسول من صلواتنا أنْ نخاطبه بالصلاة والتسليم ، باعتبار أنّه مبلّغ رسالة ربّه ، وأن ندعو له جزاء ما قدّم لأمّته من خير ، وما تحمَّل في سبيل هداية النّاس من متاعب وآلام .

هذه الصلة المباشرة بين العبد وربّه في عباداته له هي الأمر الطبيعيّ المنطقيّ ، المنسجم مع القاعدة الإيمانيّة في الإسلام ، إذْ إنّ القاعدة الإيمانيّة تتألف من عناصر لا تدخلُ الوساطة في واحدةٍ منها ، فمن هذه العناصر أن لا إلٰه إلاّ الله ، أي : لا معبود في الوجود بحقٍّ إلاّ الله ، ومنها أنّ العبادة لا تكون إلاّ لله عزّ وجلّ بلا شريك ولا وسيط ، وأنّ الله سميع بصير عليم بعباده قريب منهم ، وأنّه لا تخفىٰ عليه منهم خافية ، وأنّ عبادة غيره معه ولو على سبيل الوساطة شرك به ، وأنّ الله جلّ جلاله أغْنَىٰ الشركاء عن الشرك ، وأنّه لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

فما الداعي إذن لاتّخاذ الوسطاء ، والعقيدة الإسلامية الحقّ قائمة من أساسها على حقيقة أن لا وساطة في الخلْق، بين الخالق والمخلوق.

فالله هو وحده الرّبّ الخالق ، فلا وساطة في الربوبيّة ، وهذا يلزم عنه أن لا تكون وساطةٌ في الإلَهيّة ، فلا مُسْتحِقَّ للعبادة غير الله .

والله عزّ وجلّ محيطٌ بكلِّ شيءٍ علماً ، وهو على ما يشاء قدير ، فهو غنيٌّ عن الوسطاء .

وأنّه سبحانه لا يَبْعُد عن عاصٍ مُسْرِفٍ على نفسه إذا تاب إلى ربّه وأناب ، فلا حاجة للوسطاء .

لكلّ هذا لا نجد في العبادات في الإسلام أثراً لتدخُّل الوسطاء ، لا من

قريبٍ ولا من بعيد ، وفي هذا تحرير كاملٌ من كلّ عبوديّة إلاّ العبوديّة لله عزّ وجلّ .

فالعابد لله حقاً يحرّر ضميره وعمله من قصد غير الله ، ومن توجيههما لغير الله .

إنّ النيّة في العبادة الصحيحة المقبولة هي ابتغاء مرضاة الله ، ومتى كانت النيّة لغير الله لم تكن العبادة عبادةً له ، ومتى دخل فيها عُنْصُرٌ فإذا كان على وجه العبادة والتقرب لهذا الشريك فسدَت العبادة ، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يقبل الشركة في عبادته ، وإذا كان على غير وجه العبادة ، كأن دخل فيها ملاحظة غرضٍ من أغراض الدنيا ومصلحة من مصالحها حَبِطَ من العمل بمقدار العنصر الْمُشَارك في النيّة ، ويكون العمل عندئذٍ مشوباً بالرّياء ، وهو من قبيل المتاجرة بالدين .

ولا نجدُ في التلاوات والأذكار وسائر الأقوال والأعمال الثابتة في النصوص الإسلاميّة أثراً للوسطاء بين العباد وبارئهم في كلّ العبادات الإسلاميّة .

* فالتكبير والتعظيم والثناء والتلبيَة كُلُّ ذَلك لله عزّ وجلّ وحده .

* والاستعانة والاستعاذة تكون بالله وحده .

* والدّعاء يُوجّه له وحده لا شريك له ، فلا يتوجه المؤمنون في دعائهم لأيّة قُوّةٍ أو ذاتٍ غيبيّة إلاّ لله عزّ وجلّ وحده ، فلا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ، ولا يلتجئون إلاّ إليه .

* والركوع والسجود والطواف وذبح القرابين والأضاحي والهدي ، ونحو ذلك ، كلُّ أولئك لله وحده ، لا شيء من ذلك لغير الله ، وإلاّ دخل الشرك في العبادة ، أو دخل الرياء الذي هو من ظلال الشرك .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [فصلت/٤١ مصحف/٦١ نزول] :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

﴿ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وأبان الله عزّ وجل كذب ادّعاء المشركين إذْ عَلَّلُوا عبادتهم لشركائهم بأنّ هؤلاء الشركاء يقرّبُونهم إلى الله زُلفَىٰ ، فقال تبارك وتعالى في سورة [الزّمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول] :

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾

* * *

المقولة الثانية عشرة :

لواحق مفاهيم متعددة في العبادة

(١)

الأصل عدم انحصار العبادة في مكان معين أو زمانٍ معين

لمّا انعدمَت الوساطة بين العبد وربّه انعدمت معها بحسب الأصل المكانيّة والزمانيّة ، فالأمكنة والجهات والأزمنة كلّها بالنسبة إلىٰ الله عزّ وجلّ سواء .

وكلُّ مكان من الأرض اليابسة ، أو البحر المائج ، أو الجوّ السامق ، أو الجبل الشاهق ، أو الغور السَّحِيق ، كلُّ ذلك صالح لعبادة الله فيه .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [العنكبوت/٢٩ مصحف/٨٥ نزول] :

﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

لكن اقتضت حكمة توحيد جهة المؤمنين تحديد مكان قبلتهم ، واقتضت حكمة تجميع كلمة المؤمنين وقلوبهم تفضيل المساجد الّتي هي بيوت عبادةِ الله عزّ وجلّ ، فهي بيوت الله على هذا المعنى ، وتفضيل البيت الحرام ، ومسجد الرسول ﷺ ، والمسجد الأقصى على سائر المساجد ، ولما في هذه المساجد

أيضاً من ذكريات حملة الرسالات الرّبّانيّة .

واقتضت الحكمة في بعض المناسك تحديد أمكنة وأزمنة لها ، فاختصّت هذه الأمكنة والأزمنة بامتيازات خاصّة اقتضتها مصالح العبادات أنفسها ، والأغراض الدينيّة التي تهدف إليها منها .

وكان الأصل في الجهات والأمكنة أنّها سواء بالنسبة إلىٰ الله تبارك وتعالى ، ولذلك قال الله عزّ وجلّ بالنسبة إلى الجهات في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

أمّا تخصيص بعض الأزمنة لبعض العبادات فقد اقتضته حكمة تنظيم عبادات الناس في أوقاتٍ مخصوصةٍ ، مع حكمٍ أخرى ، والله أعلم .

(٢)

العبادات وجميع أحكام الإسلام هي من قبيل فعل الخير وترك الشرّ

من الأسس العظيمة في العبادة في الإسلام أنّها منحصرة في فعل الخير وترك الشّر ، وأنّ نسبة قوّة أحكامها تلائم نسبة ما في العمل من خير أو شرّ ، فمبقدار ما في العمل من خيرٍ يأتي التكليفُ بالفعل ، وبمقدار ما في العمل من شرٍّ يأتي التكليف بالترك .

وعلى هذا الأساس نجد التدرُّج في الأحكام من الفروض الكبرى إلى الواجبات التي دونها فما دونها حتّى المندوبات ذات السّلّم المتدرج ، إلى المباحات ، فالمكروهات الخفيفة ، فالأشد فالأشد كراهة حتّىٰ المحرمات الصغائر ، فالمحرمات الأشد فالأشد إلى الكبائر فالكبائر الكبرى ، إلى الكفر والخروج عن الْمِلَّة ، والعياذ بالله .

ويدلُّ على انحصار العبادات في فعل الخير وترك الشرّ واقعُ حَالِ العبادات في الإسلام ، وواقع حال كلّ الأحكام الإسلاميّة استقراءً ، وباستطاعتنا أن

نستدلّ عليه أيضاً بقول الله عزّ وجلّ في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾

وجْهُ الاستدلال بهذه الآية ما فيها من الترقّي من الخاصّ الذي هو الرّكوع والسجود ، إلى العامّ الذي هو عبادة الرّب جلّ جلاله ، ومعلوم أنّ الرُّكوع والسجود من عبادته ، إلى فعل الخير الذي هو أعَمُّ من العبادات المحضة ، فمنْ فعل الخير ابتغاء مرضاة الله كان عابداً لله عزّ وجلّ بفعل الخير ، وبهذا يظهر لنا أنّ العطف في هذه الآية هو من عطف الأعَمّ على العام ، وعطف العامّ على الخاصّ ، حلْقاتٌ بعضها ضمن بعض ، وكان البدء فيها من أوسطها .

فكلّ خير يفعله المؤمن المسلم ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وكلّ شرّ يتركه ابتغاء مرضاته يصْلُح أن يكون عبادةً له ، بل هو من عبادته .

(٣)

لا تكون العبادة المحضة فيما لم يأذن به الله عزّ وجلّ

لا بدّ من التّنبيه على أنّ العبادات المحضة التي تؤدّىٰ بالأعمال والأشكال الجسديّة والأقوال الخاصة لا تكون إلاّ فيما شرعه الله لعباده ، أو أذن لهم به ، وذلك لئلا يختلفوا ، ولئلاّ يخترعوا من عند أنفسهم أشكالاً من العبادات منافيةً للحكمة وللواقعيّة الإنسانيّة ، أو مصادمةً للحقّ والخير والفضيلة ، أو مدخولة بمعاني الشرك بالله ، أو فيها إعناتٌ للأنفس ومشقّاتٌ زائداتٌ على الأجسام ، أو أضْرَارٌ ومفاسِدُ وانتحارات ، أو فيها أهواء وشهواتٌ وإباحيّاتٌ ، على اعتبارها ألواناً من العبادات ، إلى غير ذلك ممّا تتشعّبُ له آراء الناس وأغراضُهُمْ وأهواؤهم وشهواتُهم ومصالحهم ، ومصالحُ الكهنة والسّدنَةِ وتُجّار بيوت العبادة ، والمشرفين على طقوسها ، وإدارة تطبيقاتها ، وإدارَةِ مبانيها ، وإدارةِ الأموال التي تُجْبَىٰ من أجلها .

وقد حدّد لنا الإسلام الأشكال والصور العمليّة والقوليّة التي نعبد الله بها ، وأطلَقَ لنا في الأذكار والأدعية العامّة ، بشرط أن لا تحلّ محلّ عبادة منصوص عليها ، وأن لا تصادم أصلاً من أصول الدين ، أو من أصول العبادات في الإسلام ، وأن لا تكون بألفاظ غامضة مجهولة المعاني لم ترد في النصوص الدينيّة الثابتة ، على أنّ أفضل الأذكار والأدعية ما جاء منها في القرآن المجيد ، أو في السُّنّة المطهّرة .

ومن الملاحظ أنّ أُمَماً كثيرةً لمّا انطلقَتْ تبتدعُ في دينها ، وفي عباداتها ، قد أحدثت أموراً عجيبة غريبة جعلتها من عباداتها لرَبّها أو لآلهتها الّتي اتَّخذَتْهَا من دون الله ، وهذه المحدثات لا تكاد تخطر على البال .

فبعض الناس يدفنون معظم أجسامهم في الرّمال تعذيباً لها ، زاعمين أنّ ذلك من عباداتهم .

وبعض الناس يستغرقون في الفواحش الكبرىٰ تقرّباً لآلهتهم ، على تصوّر أنّ ممارسة هذه الفواحش هي من العبادة لمن يعبدون أو لما يعبدون .

وبعض الناس يتضمّخُون بالنجاسات ، ويعيشون في القذارات تقشّفاً وبعداً عن متع الحياة الدنيا ، زاعمين أنّ ذلك من العبادة لمن يعبدون ، أو لما يعبدون .

وظهرت فِرَقٌ معاصرة تَتبَعُ مُتَنَبّئين أو متألهين جرَّتْهُمْ أئمتهم المضلّون إلى الانتحار الجماعيّ ، متوهمين أنّ هذا الانتحار يرضي من يعبدون ، وقد نشرت الصحف العالميّة أخبارهم وعَرَضَتْ بَعْضَ صُوَرِهِمْ .

وهكذا إلى صور كثيرة غريبة منها عبادة الفروج .

إنّ الابتداع في الدّين والاختراع في العبادات منزلقٌ خطيرٌ جدّاً ، يستدرج الشيطانُ به أتباع الدين الحقّ ، والمنتسبين إليه بصدق إلى مواقع الشرك ، أو إلى مواقع المعاصي والفجور ، وإلى تحريف دين الله وتغييره ، ومِنْ هذا

المنزلق الخطير استَدْرَجَ الشيطانُ المشركين إلى الشرك بالله ، والمحرّفين لدين الله إلى تحريفاتهم ، والمخرّفين إلى تخريفاتهم ، والمغالين إلى غلوّهم .

وفي ذمّ ما اخترعه المشركون من عبادةٍ في البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي في الأنعام قال الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢نزول] :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

البحيرة : هي الولد الخامس للناقة ، إذا كان أنثىٰ بَحَرُوا أذُنَها ، أي : شقّوا أذُنها ، وكانت حراماً على النساء لَحْمُها ولَبَنُها .

والسَّائِبة : البعير الذي كان الجاهليُّ ينذر أن يُسَيِّبَه لله تعالى ، أو للوثن ، فلا يُحْبَسُ عن رعْيٍ وَلاَ ماءٍ ، ولا يركبهُ أحد .

والوصيلة : ما في البطن السابع للشاة ، إذا كان توأماً ذكراً وأنثى ، قالوا : وصلَتْ أخاها ، فلم يُذْبَحْ لمكانها ، وكان لحمُهُ حراماً على النساء ، وكان لبن الأنثَىٰ حراماً على النساء .

والحامي : الفحل إذا ركب ولد ولده ، أو أنتج من صلبه عشرة أبْطُن قالوا : قد حمَىٰ ظهره ، فلا يُركبُ وَلا يُمْنَع من كلأ .

وهذه العباداتُ من مخترعات الجاهلية ، ما أنزل الله بها من سلطان ، فهي مردودة ، وكلُّ ما كان من مخترعات الناس من عباداتٍ لم يأذن بها الله فهو مردود ، وهو مشاركة لله في ربوبيّتِه ، إذْ تشريعُ العبادات هو من خصائص الرّبّ جلّ جلاله .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [الشورى/٤٢ مصحف/٦٢ نزول] :

﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمّا كان تشريعُ العبادات هو لله عزّ وجلّ وحده ، وليس لغيره منه شيء ، فقد شرع لنا من الدين ما وصّىٰ به الأنبياء السابقين ، وما أوحاه إلى خاتم رسله محمد ﷺ .

وجعل الله عزّ وجلّ لكلّ أُمَّةٍ ضمن عباداتهم لربّهم منسكاً هم ناسكوه ، وأبان لنا مناسِكَنَا في الرسالة الخاتمة .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] خطاباً لرسوله محمد ﷺ :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(٤)

خصائص العبادة في الإسلام

ممّا سبق من بيانات وتحليلات يتّضح لنا أنّ العبادات في الإسلام تتميّز بخصائص يمكن تلخيصها بالعناصر التالية :

الخصيصة الأولى :

ارتباطُها بالقاعدة الإيمانية المستندة إلى الحقّ والواقع الذي تشهد به الدلائل العلميّة والعقلية والفطرية ، وهي حقُّ الرّبّ على عباده ، ومطلوبُه من المكلفين في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا .

الخصيصة الثانية :

عُمقُها في النفس الإنسانيّة وكونُها استجابةً قلبيّة ونفسيّة فطريّة أخلاقيّة للتصوّرات الإيمانية ، وكونُها واجباً أخلاقياً .

الخصيصة الثالثة :

لا تكون العبادة عبادةً حقّاً ما لم يُلاحظ فيها ابتغاءُ وجه الله عزّ وجلّ ، وهو الإخلاص لله في العبادة .

الخصيصة الرابعة :

لا تكون العبادة عبادة لله عزّ وجل ما لم يأذن هو بها ، فيما أنزل على رسوله .

الخصيصة الخامسة :

الغرض الأساسيُّ من العبادة في الإسلام ذكر الله وطاعته والعمل بمراضيه .

الخصيصة السادسة :

شمول العبادات في الإسلام لقطاعات الإنسان الداخليّة والخارجيّة الفرديّة والاجتماعية ، ولكلّ فئات أعمال الإنسان .

الخصيصة السابعة :

اشتمال العبادات في الإسلام على مصالح عظيمة للأفراد والجماعات .

الخصيصة الثامنة :

يُسْرُها وسُهولَتُها وكونُها لا حرج فيها .

الخصيصة التاسعة :

كون العبادات في الإسلام لا وساطة فيها بين العبد وربّه ، فالتعاملُ بها تعامل مع الله مباشرة ، ولو كان العمل بها متعلّقاً بما خلَق الله من شيء ، كالتوجّه للكعبة في الصّلاة ، أو بِعبادِ الله كبذل الزكاة لمستحقيها .

الخصيصة العاشرة :

انحصار العبادات في الإسلام بفعل الخير وترك الشرّ .

الخصيصة الحادية عشرة :

الأصل فيها إطلاقها من حدود المكان والزمان ، إلاّ أنّ بعض العبادات والمناسك الخاصة اقتضت مصالح العباد فيها وحكمة الله منها تخصيصها بمكان أو زمان خاص .

الخصيصة الثانية عشرة :

كونها ذات مراتب ودرجاتٍ متفاضلات ، تبدأ بدرجات مرتبة التقوى ، فدرجات مرتبة البرّ ، فدرجات مرتبة الإحسان .

وكونُها في نفس العابد ذات مستويات متفاضلات أيضاً ، بدءاً من العبادة بدافع محور الخوف من العقاب ، فمحور الطمع ، فمحور الحمد والثناء ، فمحورِ الشكر ، فمحور التعظيم والإجلال والانتماء إلى الرّب بالعبودية الصادقة ، فمحور الحبّ الأسْمَىٰ .

* * *

خاتمة :

هذا ما فتح الله به عليّ في موضوع العبادات في الإسلام ، بياناً لأُسُسِها ، وتحليلاً لها ، ولبواعثها ، وارتباطها بالفطرة الإنسانية ، وتعبيراتها ، وفوائدها ، والغاية منها ، وميزاتها وخصائصها ، ومفهوماتها .

فالحمد لله العليم الحكيم على ما شرع لنا في دين الإسلام ، والحمد لله على ما جاء فيه من أنواع العبادات وصنوفها ، ونسأله تعالى أن نكون له عابدين حقّاً ، وأن نكون من المتحقّقين بالعبوديّة الخالصة له ، لا نشرك به أَحَداً ، ولا نُشْرِكُ بعبادته شيئاً .

* * *



الفصل الثامن

أثر العقيدة الإسلامية في تطبيق الشريعة

وفيه مقولات ثمان :

المقولة الأولى : مفهوم العقيدة (أو الإيمان) .

المقولة الثانية : التحليل النفسيّ لتأثير العقيدة (أو الإيمان) في السّلوك .

المقولة الثالثة : البدء ببناء القاعدة الإيمانيّة .

المقولة الرابعة : تفصيل البواعث الإيمانيّة المحرّضة داخلياً على تطبيق الشريعة ومنهاج السلوك .

المقولة الخامسة : بواعث عدم تطبيق أحكام شريعة الله لعباده .

المقولة السادسة : أمثلة من أثر الإيمان في تطبيق أحكام الشريعة .

المقولة السابعة : بيانات قرآنية حول أثر الإيمان في تطبيق أحكام الشريعة .

المقولة الثامنة : بيانات قرآنية حول أثر عدم الإيمان في السلوك المنافي لأحكام الشريعة .



المقولة الأولى :

مفهوم العقيدة (أو الإيمان)

يُطْلَقُ لفظ « العقيدة » على جملة مبادى فكريّة أساسيّة جَذْريَّةٍ سَلَّمَ بِها مُدْرِكُها واستَمْسَك بها ، فهي تدفعه بِحَسَبِ قُوَّتِها لديه إلى سلوكٍ نَفْسِيّ وظاهرٍ يتلاءم معها .

والعقيدة الإسلاميّة تُطْلَقُ على جملة حقائق برهانيَّةٍ أساسيَّةٍ جَذْرِيّة ، بشأن النَّشْأَةِ والمسؤوليّة في الحياة والمصير ، حينما تتغلغل في عُمْقِ النَّفْس من الفكر إلى القَلْبِ ، فتسْتَقِرُّ فيه ، وأقواها وأثْقَلُها ما يَتَغلْغَلُ إلى عُمْقِهِ ، فَمَرْكَزه حَيْثُ الفُؤاد .

التعريف :

ويمكن أن نصوغ تعريفاً للعقيدة الإسلامية وفق إطلاقَيْنِ لَهَا فنقول : تُطْلَقُ العقيدة الإسلاميّة بمعنيَيْن :

المعنى الأول : ما يجب اعتقاده ، أي : الإيمان به ، والعقيدة الإسلاميّة وفق هذا المعنىٰ : هي جملة حقائق برهانية أساسيّة جذريّة بشأن النشأة والمسؤوليّة في الحياة والمصير ، جعلها الله عزّ وجلّ قاعدة الدّين الكبرى ، وفرض على عباده الإيمان بها ، وإلاّ كانوا كافرين في رحلة امتحانهم في الحياة الدّنيا .

المعنى الثاني : الحدث الإراديّ الذي يُنْشِئُه الْمُعْتَقِدُ في ذاتِ نَفْسِه ،

والعقيدة الإسلاميّة وفق هذا المعنى الثاني :

« هي التَّصْديق والتسليم الإراديَّانِ الاختياريّان بما يجب الإيمان به في دين الإسلام ، من كلّ ما يندرجُ تحت عنوان أركان الإيمان السّتّة « الإيمان بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ والقدر خَيْرِه وشرّه من الله عزّ وجلّ » مع انعقاد التصديق والتسلم بالعواطف الموجِّهة للإرادات السُّلوكيّة » .

وألفاظ : « العقيدة والاعتقاد والعَقْد » تدلُّ على معنىً دقيقٍ يُلْحَظُ من المادّة الّتي اشْتُقَّتْ منها ، الدّالّةِ على الرَّبط والشَّدِّ بَيْن الشيئَيْنِ أَو الأَشْيَاء ، والتَّفَاعُلِ الانْدِمَاجي بَيْنَ العناصر ، كالانعقاد الذي يحصُل في الْمُرَبَّيَاتِ ، ومُفْرَدُها « رُبٌّ » وهو المعقودُ المخثَّرُ المكثَّفُ من الأشياء ، كعقد مخثّراتِ عَصِير الفاكهة بالْعَسَلِ أو بالسُّكّر ، وهذه معانٍ لغويَّة .

أي : إنّ المفاهيم والحقائق الجذور الّتي صارت عقيدة راسخة قد انعقد بها التصديق الإراديُّ ، والتَّسْلِيمُ الاختياريُّ لمطالبها ، ثم انعقدت بها العواطِفُ الموجِّهَةُ للإراداتِ السُّلُوكيّة ، المحدّدةِ لِلْأعمالِ النَّفْسِيّة الداخليّة على اختلاف مراكزها ومستوياتها ، أو الْجَسَدِيَّةِ الظاهرة ، إذْ تَتَوَهَّجُ العواطفُ الثابتة الراسخة باندفاعات حَرَارِيَّةٍ مؤثّرة في توجيه الإرادات ، وفي تحريض الْقُوىٰ للسُّلوك الْعَمَلِيّ النَّفْسِيّ أو الظّاهر .

وهذه الألفاظ : « العقيدة - الاعتقاد - الْعَقْد » بمعنى ربط الإرادة القلبيّة بقضيّةٍ فكريّة له أصلٌ من جهة المعنى مقتبَسٌ من التعبير القرآني في قول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ . . . ﴿٨٩﴾ ﴾

أي : بما ربطتم إرادة قلوبكم بما حلفتم عليه بألْسِنتكُمْ أيمانكم .

ولستُ أعلم أنّ كلمات : « عقيدة واعتقاد وعَقْد » من المصطلحات المعروفة لدى أهل الصَّدْرِ الأوّل من المسلمين ، بالمعنى الدارج الذي يُطْلَقُ

على مثل ما يُطْلَقُ عليه لفظ « الإيمان » ومشتقّات مادّته .

لكنّه مصطلح تواضع عليه علماء المسلمين منذ قرون عديدة ، فهم يفهمون من الاعتقاد أنّه حركة إرادية قلبيّة تتضمّن الاعتراف والتسليم بقضيّة فكرية ، ولو كانت هذه القضيّة الفكريّة باطلة ، كعقيدة تثليث الرّبّ الخالق ، وعقائد الوثنيين وسائر المشركين ، وعقائد الملاحِدَة المادّيين .

أمّا العنوان المستعمل في القرآن والسنّة لهذا المضمون فهو لفظ « الإيمان » ومستقّات مادّته .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [العنكبوت/٢٩ مصحف/٨٥ نزول] :

﴿ . . . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

وقال الله عزّ وجلّ في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

فهؤلاء قد وَجّهوا إراداتهم للإيمان بالباطل والكفرِ بالحقّ ، على عكس ما يقضي به الحقّ والواجب المنطقيّان الفكريّان والوجدانيّان القلبيان .

أمّا المؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر فهم منسجمون مع مقتضيات الحقّ والواجب ، فيكفرون بالطاغوت ويؤمنون بالله ، وبذلك يستمسكون بالعروة الوثقىٰ .

الجبت : كلّ ما عُبد من دون الله ، والكاهن ، والساحر ، والسحر .

الطاغوت : كلّ رأس في الضلال يُطغِي بالصدّ عن طريق الخير ، وبيت الصنم ، والشيطان (يستوي فيه الواحد وغيره ، والمذكر والمؤنث) ويجمع على طواغيتّ .

قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

فَدَلَّ هذا على أنّ الإيمانَ والكُفْرَ قراران إراديّان لإرادة حُرَّة غيرِ مُكْرَهةٍ ، وليس الأمر فيهما مَجرّدَ علم بقضيةٍ فكريةٍ يتحوّل تحوُّلاً تِلْقَائياً إلى إيمان ، أو جَهْلٍ بقضيّةٍ فِكْريّةٍ يتحوَّلُ تحوُّلاً تلقائياً إلى كُفْرٍ ، كما تَوَهَّمَ بعضُ المعرِّفينَ للإيمان أو للعقيدة .

بل الإيمانُ أو الاعتقاد جَزْمٌ إراديٌّ بالاعتراف بالفكرة ، وقد يكون باعثَهُ العلمُ وقد يكون باعثَهُ التقليدُ الأعمى ، وقد يكونُ باعثَه الهوى ، إذ المعرفة ولو كانت غير مصحوبة بشكّ لا تكونُ إيماناً صحيحاً ما لَمْ تَقْتَرِنْ بالاعترافِ الإراديّ والتسليم واطمئنانِ النفس ، فلقد كانَ علماءُ اليهود في عصر الرسول ﷺ يعلمون أنّ محمّداً رسولُ الله ، لكِنَّهُمْ لَمْ يَعْتَرِفُوا بذلك ، ولم يُذْعِنُوا له إذعاناً إرادياً ، فلم يكونوا مؤمنين ، ودُمِغُوا بالكفر ، أي : برفض الاعترافِ بالحقّ الذي يعلَمُونه رفضاً إرادياً .

وفي مقابل هذا الفهم للإيمان ، يظهرُ أنّ الكفر ليس مجرّدَ جَهْلٍ بقضيّةٍ من القضايا التي يَجب الإيمانُ بها ، وإنّما هُو جَزْمٌ إرادِيٌّ برفض الاعتراف بها ، فإنْ كان مع هذا الرفض جهلٌ مصحوبٌ بعَدَم الرغبة في البحث عن الحقّ والتعرف عليه ، والإصغاء إلى مَا يُعرِّف به ويَهْدِي إلىٰ أدلّته ، فهو ضلالة وأصحابه هم الضالّون الّذين يسيرون في متاهاتهم عُمْياناً بإراداتهم ، وإن كان مع هذا الرفض علم بأنّ المرفوض حقٌّ فهو ارْتِكاسٌ وانتكاسٌ ، وأصحابُه هُمُ المغضوبُ عليهم من بارئهم .

ربنا اهدنا الصراطَ المستقيم صراطَ الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّالين .

ويبدو لي من تحليل العناصر أن كلمة : « الإيمان » ومشتقاتِ مادَّتِها أكثر دقَّة في الدّلالةِ على المعنى المراد في الإسلام من كلمة : « العقيدة » ومشتقاتِ

مادّتها ، لأنَّ كلمة « الإيمان » مع دلالتها على ما تدُلُّ عليه كلمة : « الاعتقاد » تدلُّ أيضاً على معنى الأمن النفسيّ ، والطمأنينة القلبية من احتمال أن يكون الواقع على خلاف المعتَقَد ، وإن كانت قد تستعمل أيضاً فيما دون ذلك تَوَسُّعاً ، حتَّىٰ تشمَلَ الاعترافَ الإراديّ بالباطل .

وأدرك غير المسلمين قيمةَ اعتناق أُسسٍ فكريَّةٍ جَذْرِيَّةٍ ثابتةٍ لكل انتماءٍ ، ولكلّ مذهب ، حتّى تكون بواعِثُ التطبيقِ العَمليّ الذي يقتضيه ذلك الانتماء ، أو ذلك المذهبُ ، بواعثَ صادرَةً من عُمْقِ النفس والقلب ، وهي أقوى البواعث ، فأطلقُوا على الأسس الاعتقاديّة الفكريّة للانتماء أو المذهب عبارة : [إيديولوجيات] وجاء في تفسير « الإيديولوجيّة » ما يلي :

أ - مجموعة نظاميّة من المفاهيم في موضوع الحياة أو الثقافة البشرية .

ب - النظريّات والأهداف المتكاملة الّتي تشكّلِ قِوَامَ برنامجٍ لمذهبٍ ما .

لكنّ غير المسلمين لم يستطيعوا أن يَصِلُوا فيما يضعون من أسس اعتقادية « إيديولوجيّة » لأيّ مذهبٍ من مذاهبهم ، وأيّ انتماءٍ من انتماءاتهم إلى مثل جوهر الإيمان الذي يصنَعُه في عُمْق القلوب الدّينُ الرَّبَّانيُّ الْحَقُّ ، إذ الإيمانُ الذي يَصْنَعُهُ الدّين الرّبّاني الحقُّ ليس مجرّدِ أُسُس فكريّةٍ ، بلْ هو حقيقةٌ مؤيّدةٌ بالحجج البرهانيّة ، وتُحَقِّقُ لمن الْتزَمَ بِها وَعَمِلَ بمقتضاها الأَمْنَ من التعاسة والشقاء ، والظفرَ بالسعادة والنعيم المقيم الخالد ، وفي ذلك امتلاكٌ لقدرات الفكر والفهم في الإنسان من جهة ، وامتلاكٌ أيضاً لِمحْوَرَيِ الطمع والخوف في نفسه ، وهذه الثلاثة هي الأعمدة التي تَقُومُ عليها إنسانيّة الإنسانِ السّوِيّ ، وحين تجتمع هذه العوامل الثلاثة على امتلاكِ الإنسان تنعقد المفاهيم الإيمانية بعواطفه ، ثمّ تشحنُها بالاندفاع الفعّال ، شوقاً إلى تحقيق ما يرجو الإنسان من أمنٍ وسعادةٍ خالدة .

من أجل ذلك كانت وظائف القرآن الكبرى تتلخّص بثلاث :

الوظيفة الأولى : الهداية الفكريّة للّتِي هي أقومُ من كلّ مخالف له .

الوظيفة الثانية : الإطماع بالأجر العظيم والثواب الجزيل على الإيمان والعمل الصالح .

الوظيفة الثالثة : الترهيبُ من العقاب والجزاء بالعدل على الكفر والظلم والفسوق والعصيان .

وقد دلّ على هذه الوظائف الكبرى للقرآن قول الله عزّ وجلّ في سورة [الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول] :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

* * *

الصحة النفسية والإيمان :

وأنبّه هنا على أنّ هذا الإيمان هو أعظم العناصر الراسخة في عمق القلب التي تُكْسِبُ الأفراد المؤمنين صحّتهم النفسيّة المستقرّة ، التي لا تمسّ العوارض المرضيّة إلّا سطوحاً حولها ، إذ هي لا تصل إلى عمق أركان الإنسان النفسيّة ، ولا تُشَكِّل لديه مشكلةً حياتية .

بخلاف المحرومين من هذا الإيمان فإنّهم عرضة للأمراض النفسيّة التي تُشْقِيهم بالْقَلَق والضِّيق والضَّجَر والسَّأم من الحياة وكراهيـة كلّ ما يحيط بهم .

* * *

المقولة الثانية :

التحليل النفسي لتأثير العقيدة «أو الإيمان» في السلوك

الإيمانُ بقضيّةٍ ما ذاتِ صلَةٍ بنفعِ الإنسان أو مصلحته ، أو ضرّه أو مفسدته ، من معجّل أو مؤجّل ، باعثٌ قويٌّ صادرٌ من عُمْق النّفس ، وتكون قوّته بعدة عوامل :

١ - بحسب تغلغله في القلب حتّى مركز الفؤاد .

٢ - وبمقدار ما فيه من يَقينٍ وخلوٍّ من الشكوك والشبهات .

٣ - وبمقدار نسبة النفع أو المصلحة ، والضرّ أو المفسدة ، التي يكون الإيمان والعمَلُ بمقتضاه باعثاً لجلبها أو دفعها ، دون مُعارض أو مُزاحم من الشهوات والأهواء وعوارضِ الغشاوات .

٤ - وربما بغير ذلك أيضاً .

هذا الباعث الإيمانيّ الصادر من القلب لا يُسَاوِيه في القوّة والتأثير على الدوام أيُّ باعثٍ آخر ، ما لم يَضْعُفِ الإيمانُ بالشُّكُوك والشبهات والعوارض الْمَرَضِيّةِ الأخرىٰ ، من جراثيم الأهواء والشهوات ، وغشاوات مُعَجَّل اللّذات ، أو مؤثرات البيئة والتقاليد العمياء .

فالذين في قلوبهم مرض هم الذين تعرّض إيمانُهم أو مركز إيمانهم لبعض هذه العوارض الْمَرَضيّة .

إنّ الإيمان المتغلغل في النفس إلى القلب هو في حالة الإنسان السويّ باعثٌ ثابت راسخ يعتمد على سوابق الاقتناع بالقضيّة التي صارت إيماناً ، وله شِحْناتُ طاقةٍ تتدفّق دواماً ، أو حيناً بعد حين ، متقاربِ الانقطاعِ أو متباعدِه ، وهو الموجّه للعواطف بنسبة تُلائم قُوَّةَ طاقته ، باستثناء العواطفِ الأسيرةِ المشبوبة بهوىً غالب ، كالعشق الفاضح ، والغضب الجامح .

وتتأثر الإرادات التنفيذية بعد ذلك بالعواطفِ التي هَاجَها الباعث الإيماني ، فَتُحَدِّدُ الإراداتُ الْمُرَادَاتِ ، ثُمّ تُطْلِق طَاقاتِ العمل .

وقاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر وبما جاء عن الله من شريعةٍ ومنهاجٍ تُحَرِّكُ العواطف وتُطْلِقُ طاقات العمل في ظاهرتين :

الأولى : اقتحام العقبات الصاعدات ، المحفوفات بالمكاره .

الثانية : إلجامُ النفسِ عن المنْحَدَرَاتِ المحفوفاتِ بالشهواتِ .

ومهما خَبَتْ طاقات الإيمان ، أو حُجبتْ عن البثّ بضواغطَ نفسيّةٍ من الأهواء والشَّهَوَاتِ ، وغِشَاواتِ مُعَجَّل اللّذات ، أو حُجِبت بعواطف مَشْبُوبةٍ بهوىً غالب ، أو بضواغط خارجيّة ، فإنّها لا بُدَّ أن تتفجرّيوماً ما مُنْطَلِقةً ، باعثةً للعواطف والانفعالات والإرادات الواعيات إلى تحقيقِ ما تَقْتَضِيه من سلوك نفسيٍّ وظاهر .

يظهر هذا واضحاً في أمثلة لُجُوءِ المؤمنين العصاة إلى الاستغفار والندم وكَثْرةِ البكاء والدُّعاء والتضرُّعِ إلى البارى عزّ وجلّ ، حينما تبرد فيهم حرارةُ الأهواء والشهوات والعواطفِ النفسيّة المشبوبة ، وتنفتح مجاري النفس لانطلاق طاقات الإيمان ، ويَكُونُ هذا في الّذين لم يتعرّض أصل إيمانهم للضعف بالشُّكُوكِ والشُّبُهَات .

وتدلُّ التجاربُ على أنّ شِحْناتِ الطاقة الإيمانيّة في الإيمان الصحيح الصادق ذاتُ مَدَدٍ لاَ يَنْفَدُ ، وهي تزداد عطاءً كلّما ضعف الجسد ووهن العظم ، وهي تتفجّر من العمق بمدَدٍ رَبّانيّ ، على عكس شهواتِ الدّنيا التي ترشَحُ من سطوح النفس وحواشيها ، فإنّها تخبُو حتَّىٰ تتفحّمَ كُلَّما ضعف الجسد ووهن العظم ، باستثناء الحرص وطول الأمل ، اللّذين يظلاّنِ شابّيْنِ مع الشيْب ، كما جاء في بيانات الرسول ﷺ .

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

« لا يزال قلبُ الكبير شابّاً في اثنين : في حُبّ الدنيا ، وطول الأمل »

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ أنّه قال :

« يَهْرَمُ ابنُ آدم ويَشِبُّ فيه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر » ورواه مسلم وغيره عن أنس .

والسبب في أنهما يظلّان شابين مع الشيب ، أنّ الخوف من الحاجة مع الضعف يولّد الحرص على المال ، وأنّ الخوف من الموت مع حبّ الحياة يولّد طول الأمل .

وشِحْناتُ هذه الطاقة الإيمانية يُطْلِقُها المولّد الإيماني المستمدّ من قوّةٍ ربّانيّة غيبيّة ، تُدْرَك آثارها ، فهي شِحْناتٌ لا تنقطع ، لأنّها مَدَدٌ من الله وعطاءٌ من عطائه عزّ وجلّ . وهي في حركتها العاديّة التلقائية تنبعث كالتّيّار الكهربائيّ المستمرّ أو المتردّد ، الذي متى اتَّصَل بجهازٍ صالحٍ للتحرّك به حرّكَهُ بقدر استعداده ، وبقدرِ قُوّةِ الاتصال ومساحته .

مطالب النفس من الدنيا مع بواعث الإيمان :

وأُنبّه على أنّ بواعث الإيمان لا تتعارض مع مطالب النفس الحياتية ، فيمكن للشهوات والأهواء النفسيّة والجسديّة أن تحقّق ذاتَها ومطالبهامن خلال قنوات الإيمان والسلوك الإيماني ، الملتزم بشرائع الإسلام ، لأنّ الإسلام في أحكامه ملائمٌ للفطرة البشريّة في السُّلوك السَّوِيّ ، وهو يَضْبِطُهَا ويُحْسِنُ توجيهَهَا ، لا يمنعها ، ولا يَكْبِتُها ، ولا يُقْصِيها ، ولا يُخْصِيها .

فمع التزام شرائع الإسلام التزاماً تامّاً تُشْبِع النفس المؤمنة المسلمة حاجاتها من الدُّنيا إشباعاً كافياً ، وتَقْتَنِعُ به ، ولا يحتاج الإنسان معها أن يكُفّ إلاّ عن الزّيادات الضارّات ، ويَعِفّ عمّا لا خير فيه عاجلاً أو آجلاً ، ويُعْرِضَ عن أوهامٍ لو تتبَّعها لم يَجْنِ منها إلاّ النَّصَبَ والْقَلَقَ والحرمانَ من السَّكِينَةِ والطُّمأْنينة والسَّعَادةِ الحقيقيّة الدائمة .

المقولة الثالثة :

البدء ببناء القاعدة الإيمانية

جعل الله عزّ وجلّ سلوك الإنسان تابعاً لتوجيه إرادته ، ولم يجعله مجرد حركات غَرَزِيَّة ، أو أن الغريزة هي ذات التأثير الغالب عليه دواماً ، باستثناء مرحلة الطفولة ، وعوارض غيبوبة العقل .

بخلاف حال غير الإنسان من الحيوانات غيرِ المكلّفة في الحياة الدنيا ، إذِ الغريزةُ في حياتها هي ذاتُ التأثير الأكبر على سلوكها .

وإذْ جعل الخالق البارى الإرادةَ في الإنسان لتكون هي المسؤولة عن سلوكه ، لم يجعلْها مجرّدَ إرادة عمياء ، بل أضاف إليها في الإنسان جهاز التفكير والعلم ، والنظر في الأشياء ، وفي أنواع السلوك المختلفة ، ونتائجها ، وعوَاقبها ، وما تجرُّ إليه وما تجرّ وراءها ، ليُدْرِكَ بهذا الجهاز الحقّ والباطن ، والخير والشرّ ، والنفع والضرّ ، وليُدْرِكَ به التكليف ، ومسؤوليته في الحياة تُجَاه خالقه وبارئه ، ويدخل في ذلك تعامُله مع كلّ ما خلق الله ضمن منهج الله .

وما يقتنع به الإنسان السويّ عَبْرَ جهاز التفكير والعلم والنظر ، يحتلّ في داخله مركز الاعتقاد ، أو مركز الإيمان ، ثم يكون هو الموجّه للإرادة بحسب الترتيب السويّ ، ما لم تخضع هذه الإرادة لمؤثرات الأهواء والشهوات والانفعالات الثائرات التي تُغَشِّي على الرؤية الفكرية ، وتَضْعُفُ معها الإرادة ، وما لم تَتسَلَّلْ إلى مركز الاعتقاد مفاهيم وأفكار عن غير طريقها السَّوِيّ ، كالتقاليد العمياء ، والأوهام والظنون التي يُزَيِّنُها زُخْرُف أقوال المضلّين والمفسدين في الأرض ، من شياطين الإنس والجن ، ويُسَاعدها على هذا التَّسَلُّلِ اقترانُها ببعض الأهواء والشهوات .

وانسجاماً مع هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها اقتضت حكمةُ الرّبّ

الحكيم العليم في تأسيس الدِّين في الناس ، عبْرَ كُلّ رِسَالاته التي بعث بها رُسُله ، أنْ يَبْدَأَ ببناء القاعدة الاعتقادِيَّة الإيمانية ، التي يتبعها إعلان الإسلام لله في أحكامه .

وعلى أساس من القاعدة الإيمانية وما يَتْبَعِها من إعلان الإسلام لله في أحكامه ، يأتي التَّكليفُ الرَّبَّانيُّ بالأَمْر والنَّهي ، وعليه يكون سُلُوكُ المؤمن المسلم ، ويتفاوت الأفراد بعد ذلك في مقدار التزامهم بشريعة الله ، تَبَعاً لِعِدَّةِ عوامل ، منها ضعف القاعدة الإيمانية استقراراً أو فهماً ، ومنها قُوَّةُ الأهواء والشهوات ، ومنها الغفلات عن ذكر الله ، ومنها مُؤَثِّراتُ البيئة ، ومنها ضعفُ الإرادة التي دُرّبت منذ الطفولة على اتّباع الأهواء والشهوات ، إلى غير ذلك من عوامل . .

فبناء مطالب السلوك على القاعدة الإيمانية هو الترتيب المنطقيّ السليم ، ومخالفتُه تتنافىٰ مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

ولذلك نلاحظ أنّ معظم المرحلة المكيّة في عصر الرسول ﷺ قد كان الاهتمام فيها موجَّهاً لتأسيس القاعدة الإيمانية وما يتّصل بها مباشرة من سلوك .

ومن أجل ذلك أيضاً نُلاحظُ في القرآن المجيد أنّ مُعْظَمَ التّكاليف الشرعيّة السلوكيّة في السلوك النفسيّ والظّاهر مَبْنِيَّةٌ علىٰ تحقُّقِ القاعِدَةِ الإيمانيّة لدى المخاطبين بها . فمعظم التكاليف التي نستعرضُهَا في القرآن المجيد نَجِدُها مُصَدَّرة بنداء الله عزّ وجلَّ للّذين آمنوا ، وهذه النداءات مدنيّة .

أمّا الدعوةُ إلى الإيمان فالخطابُ فيها مُوجَّهٌ لمن يصلحُ للخطاب من جميع الناس عَبْرَ العصور المتعاقبة إلى أن تقوم السّاعة ، ولو كان النصّ قد نزل بمناسبة أشخاصٍ مُعَيَّنين إبَّانَ تنزيلِ القرآن .

ومن أمثلة نداء الله للذين آمنوا ما يلي :

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢] وهي أوّل سورة مدنية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ . . . ﴿١٧٨﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ . . . ﴿٢٦٧﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ . . . ﴿٢٨٢﴾ ﴾

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة [آل عمران/٣] وهي ثالث سورة مدنية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا . . . ﴿١١٨﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ . ﴿٢٠٠﴾ ﴾

(٣) وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة [النساء/٤] وهي سادس سورةٍ مدنية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ . . . ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ . . . ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ . . . ﴿١٣٥﴾ ﴾

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥] وهي السورة السادسة والعشرون من التنزيل المدني ، ومن أواخر العهد المدني :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ . . . ﴿١﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ . . . ﴿٦﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ . . ﴿٩٠﴾ ﴾

وهذه النداءات هي نيفٌ وثمانون نداءً في القرآن (٨٦ نداءً) كُلُّهَا مَدَنيّة .

أفليس لهذا دلالةٌ على أنّ بناء القاعدة الإيمانية في جماعةِ المسلمين هي الأساس ، وبها تُبْنَىٰ الجماعةُ المؤمنةُ المسلمة ؟!

* * *

المقولة الرابعة :

تفصيل البواعث الإيمانية المحرّضة داخليّاً على تطبيق الشريعة ومنهاج السلوك

بعد أن وضح لنا تأثير العقيدة (أو الإيمان) في السلوك بوجه عامّ باعتباره مُحَرِّضاً داخليّاً ذاتياً في عُمْق كلّ مُؤمن ، يَحْسُنُ بنا أن نبحث بحثاً تفصيلياً لاكتشاف البواعث الإيمانيّة المحرِّضة ذاتياً وداخليّاً على تطبيق شريعةِ الله لعباده والتزام منهاج السلوك الذي رسمه لهم .

وبالتأمُّل التحليليّ التفصيليّ يتبيّن لنا أنَّها ترجع إلى ستة بواعث :

الباعث الأول : باعث الإيمان بكمال الشريعة ، وأنّها أحسن الأحكام وأقومها .

إنّ من فروع الإيمان بالله عزّ وجل الإيمانَ بكمال صفاته ، ومن كمال صفاته إحاطةُ علمه بكلّ شيء ، وبما يلائمه ويُصْلِحه ، ومن ذلك شمول علمه تبارك وتعالى لكلّ ظاهرٍ وباطنٍ ممّا خلق ، ولكلّ خصائصه ولكل ما يلائمه ، ولكُلّ ما هو الأصلح له والأحسن والأفضل ، فعِلْمُه لا يغادر لطيفة من اللَّطائف الماديّة والمعنويّة والنفسيّة إلاّ هو يحصيها ، وهو الذي قَدَّرها قبل خَلْقِها ، وهو الذي خلقها وفق مقاديره ، وهو الذي يُحِيطُ بها علماً في كُلّ حركات أطوارِها بدءاً من أوّل إنشائها حتى آخرِ وجودها ، أَوْ ما لا نهاية له من وجودها .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [الملك/٦٧ مصحف/٧٧ نزول] :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

فبلطفه تبارك وتعالى ينفذ علمه إلى ألطف اللّطائف في خلقه ، وبعمله وبخبرته يعمل ما هو الأصلح لما خَلَق ولمن خلق ، إنّه سبحانه أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، وأولى بهم من أنفسهم .

ومن كمال صفاته سبحانه حكمته التّامة في الإرادتين :

١ - الإرادة التكوينيّة .

٢ - والإرادة التشريعيّة .

وذلك ضمن إطارٍ كلّيٍ شامل ، فهو بكمال حكمته خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وهو بكمال حكمته لا يختار للناس من الشريعة والمنهاج إلاّ ما هو الحقّ والأحكم والأصلح لتحقيق سعادتهم أفراداً ومجتمعات ، على أكمل وجْهٍ من الوجوه الممكنة ، التي تقع ضمن الإطار الكلّي الشامل للكون والحياة والناس جميعاً أفراداً وجماعات ، والشامل للمقصود من رحلة الناس في الحياة الدنيا ، والمصير الذي هم إليه صائرون بعد الموت والفناء والبعث ، وإلى هذا أشار الله عزّ وجلّ بقوله في سورة [التين/٩٥ مصحف/٢٨ نزول] :

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨ ﴾

ومن كمال صفاته عزّ وجلّ أنّه غنيٌّ عن العالمين ، فهو بغناه ينزّل الشرائع لعباده ضامنةً مصالِحَهُم ومنافِعَهم في دنياهم وأُخراهم ، حتَّىٰ الأحكامُ التعبُّديّة المحضة التي قد يستوي فيها ما اختير منها وما تُرِك ، قد جعلها الله عزّ وجلّ سهلةً ميسَّرَةً لَا حرج فيها ، وتشتمل على منافعَ جسديّةٍ ونفسيّةٍ فرديّةٍ واجتماعيّة ، مع ما فيها من اختبار عُبُوديّة العباد لربّهم ، والامتثال لأوامره ونواهيه ، وعبادته بما شرع لهم .

وأبان الله عزّ وجلّ لنا أنَّ كلماته تمَّتْ صِدقاً وعدلاً ، فقال تعالى في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝١١٤ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١١٥ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦ ﴾

فالمؤمن (ضمن مفاهيم العقيدة الإسلاميّة) هو على يقين من أنّ أحكام الله في منهاجه لعباده هي أعدل الأحكام وأكملها ، وهذا اليقين يُكَوّنَ فيه دافعاً قَوياً داخلياً باعثاً لتطبيق الشريعة الإسلامية ، والاستسلام لها ، والتزام منهاجها .

الباعث الثاني : باحثُ حقّ الله على عباده في أن يعبُدوه ولا يُشْركوا في عبادته أحداً ، لأنّه ربُّهم الذي خلقهم ، ويُمدُّهم دواماً بعطاءاته ، وبيده نفعُهم وضرّهم .

إنّ النفوس جميعاً تدرك بعقولها ووجداناتها حقّ المالك على مملوكه :

* فالذي يزرع شجرةً ويرعاها حتى تنمو في أرضٍ هي ملكه ، يرىٰ هو والناس جميعاً أنّ له فيها حقّ التصرّف الكامل ، ومثله الذي يَبْني داراً ، أو يصنع آلة ، أو يؤلّف مؤلفاً ، أو نحو ذلك .

* والذي يربّي إنساناً ويعلّمه ويُنَشّئه ، يرىٰ هو والناس معه أنّ له عليه حقّ الطاعة والامتثال والبرّ .

* والوالدان اللّذان كانا سبباً في وجود الولد ، لهما عليه حقُّ الطاعة والبرّ ، والانتفاع ممّا يكسب .

وكُلُّ هؤلاء ليسوا في الحقيقة مالكين للذّوات والأعيان والجواهر ، وإنّما كان لهم جَهْدٌ ما أو تَسَبُّبٌ ما في بعض الظواهر كالأشكال والصفات والأعراض .

فكيف بالخالق البارى المصوّر ، المنشى من العدم ، المالك لكلّ شيءٍ ، والّذي له مُلْكُ السّماوات والأرض ، وهو المانح لوجود الذوات والصفات ، ومُسَبّب كلّ الأسباب . إنَّهُ المالك حقّاً لِمَا بَدَأَ وبَرَأَ وأنْشأ وخلق وصوّر وأبدع وربّىٰ ومنح .

واستثارة لهذا الباعث المستقرّ في عُمْقِ النفوس والقلوب قال الله عزّ وجلّ

في سورة [يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول] :

﴿ ... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾

ثم أنزل قوله في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ﴾

وبهذا المعنى خاطب عيسىٰ عليه السلام بني إسرائيل إذ قال لهم كما جاء في سورة [آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول] :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١ ﴾

ونظيره ما جاء في الآية (٣٦) من سورة [مريم/١٩] وفي الآية (٦٣) من سورة [الزُّخرف/٤٣] .

إنّ بناء الأمر بعبادة الله على مفهوم أنّه هُو الربُّ الْخَالِقُ المالك المربّي يُحرّك الباعث الإيمانيّ الذّاتي المحرّض على تأدية واجب عبادته ، بالإيمان به ، فالإسلام له ، فطاعته فيما يأمُر به وفيما ينهىٰ عنه ، ومن ذلك التزام شريعته ومنهاجه ، وتطبيقهما .

وعبادةُ الله في الحكم بما أنزل لا يصحّ معها الشرك ، والشرك أول خطوة في حدود الكفر ، وقد أبان الله أنّ الحكم له وحده ، وأمر بأن لا نعبد إلاّ إيّاه ، وعقيدة توحيد الله في الحاكميّة هي عقيدة الأنبياء والرُّسُل جميعاً ، لأنّها من كبريات الحقائق عن الله عزّ وجلّ وعلا ، وهي متصلة اتصالاً مباشراً بكون الله هو الربّ الخالق المالك للكائنات كلّها ، أشيائها وأحيائها ، ما كان منها في عالم الشهادة ، وما كان منها في عالم الغيب ، ومن كان هو المالك للكائنات فهو الحاكم المطلق في كُلّ ما يملك ، تصرُّفاً بالإيجاد والإعدام ، والحياة والموت ، وتصرّفاً بالأمر والنَّهْي والتكليف .

وبمقتضَىٰ هذه الأسس العقليّة المنطقيّة احتج يوسف عليه السلام على صاحبيه في السجن ، إذْ دعاهما إلى عبادة الله وحده .

قال الله عزّ وجلّ في سورة [يوسف/١٢ مصحف/٥٣ نزول] :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٤٠) ﴾

فَدَلَّ بهذا على أنَّ مُستَنَدَ تَوحيدِ الله في العبادة ، توحيدُهُ في الحاكميّة ، إذْ هو وحْدَهُ الرَّبُّ الخالق ، فلا حُكْمَ لأحَدٍ غَيْرِ الله فيما لم يأذَنْ به الله ، وإذْ أَمَرَ سبحانه بأن لا نعبُد إلاّ إيّاه فقد وجَبَ أنْ نُفْرِده بالعبادة ، فلا نُشْرِك بعبادته أحداً ، ولا نَعبُدَ سواه .

وقصّ الله عزّ وجلّ علينا مقالة يعقوب عليه السلام لأبنائه ، فقال تعالى في سورة [يوسف/١٢ مصحف/٥٣ نزول] :

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾

وقرّر الله عزّ وجلّ لنا هذه الحقيقة مقترنَةً ببيَانِ أنَّهُ لاَ إله إلاَّ هو ، وأنَّ لَهُ كَمَالَ الْحَمْدِ في الأولىٰ وفي الآخرة وأنَّ النَّاسَ إلَيْهِ يُرْجَعُونَ ، ليحكُمَ بينهم ، وليجازيهم ، فقال تبارك وتعالى في سورة [القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول] :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٧٠) ﴾

وقال في آخرها :

﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٨٨) ﴾

فالحكمُ في المقادير والجزاءات والأقضية الكبرى الدنيوية لله وحْدَهُ ، لاَ يملك ذلك نبيٌّ ولاَ رَسُولٌ ، ولاَ مَلَكٌ ، وكذلك الحكْمُ يومَ الدّينِ في كُلِّ شيءٍ هُو لله وَحْدَهُ .

وقد دلّ على تَفَرُّدِهِ سبحانه في الحكم في الأولى ، قَوْلُ الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يَقُصُّ الحقَّ : أي : يتَتَبَّعُ غَايَةَ الْحَقِّ وَنِهَايَتَهُ بَدْأً بِأَوَائِلِهِ ، لِيَحكُمَ به سبحانه .

ودلّ علىٰ تفرُّدِه عزّ وجلَّ بالحكم في الأخرى يوم الدين ، قوله تعالى في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

الباعث الثالث : باعث شكر المنعم على نعمه .

وممّا فطر الله عزّ وجلّ النفوسَ عليه الشعورُ بواجب شكر المنعم على نعمه ، والمعطي على عطائه ، وهما الإنعام والعطاء اللّذان لا يكونان عوضاً عن شيءٍ ، على سبيل التبادل ، أو على سبيل المكافأة .

وهذا الشعور يولّد باعثاً ذاتياً مُحَرّضاً على شُكر المنعم على إنعامه ، والمعطي على إعطائه .

ويتّفق النّاسُ في شعور مشترك على أنّ من لم يشكر منْ أنعم عليه ، ولو على مقدار حال نفسه ، لا على مقدار الْمُنعِم ونعمته ، فهو جَحُودٌ كَنُودٌ ، ذو خُلُقٍ ذميمٍ ، وطَبْعٍ غير سليم .

ومن عقاب هذا الْجَحُودِ أن يَذُوق في أعماق قلبه ونفسه وخْزَ الضمير في آناتٍ متقارباتٍ أو متباعدات ، ما بقيتْ من إنسانيَّتِهِ بقيّةٌ لم يأكُلْها الدّاء .

فمن آمن بالرّب الخالق المنعم على عباده دواماً ، فلا بُدَّ أنْ تَمُرَّ في

تصوّراته مع أحداثِ الحياةِ وتقلُّبَاتِها ، ومَا يُذَكِّرُه مِنْها بربِّه ، أنّ نِعَمَ الله عليه التّي يُمِدُّهُ الله بِها في كُلّ لحظةٍ من لحظَاتِ حَيَاتِه نِعَمٌ عظيمةٌ وكثيرة ، فلو لَبِث كُلَّ حياته يَعُدُّهَا عدّاً بالتفصيل لم يَستَطِعْ إحْصَاءَها ، ما كان منها في حياته ، أو في بناء جسمه ، أو في رزقه ، أو في صحته وعافيته ، أو في إنسانيته ، أو في هدايته إلى سبيل نجاته وسعاته ، أو في ولده وأهله ، ومن يُحبّ وما يحب ، أو في المسخّرات في الكون من حوله ، فيما ظهر وفيما بَطَنَ من كُلّ ذَلِك .

وحين تحضُر هذه التصوّراتُ الإيمانية في نفس المؤمن فإنَّها تُوقظُ في أعماقِهِ فطرةَ الشُّعورِ بواجب شُكْر الرّبّ الخالِقِ على نعمه ، فيتحرّكُ هذا الباعث ، ويدفَعُ طاقته محرّضاً على تأدية واجب شكر الله على نعمه الجليلة الوفيرة الدائمة التجدّد .

ويبحث عمّا يشكر الله به ، فيدُلُّهُ إيمانُه على أنّ الله غنيٌّ بذاته في كُلّ شيء عن أيّ شيءٍ ، فهو غنيٌّ عن العالمين ، ويدلُّه إيمانُه على مَضْمُون مَا جَاءَ في الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم عن أبي ذرّ عن النبي ﷺ عن ربّه:

« يا عِبادي لو أنّ أوّلكم وآخِرَكم وإنْسَكُم وجِنّكم كانُوا علَىٰ أتقَىٰ قلب رجُلٍ واحِدٍ منكم مَا زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أفجَرِ قَلْبِ رجلٍ واحدٍ منكم مَا نقص ذلك من مُلكي شيئاً » .

فالله عزّ وجلّ وتقدّس وتَبَارَكَ وتَعالَىٰ له كُلُّ صفات الكمال ، وهو منزّهٌ عن كلّ صفات النقصان .

بعد هذا يتساءل : كيف إذن يَشْكُرُ الله علىٰ نعمه؟

وهُنَا تَدُلُّهُ شريعةُ الله لعباده على أنّ شكر الله على نعمه إنما يكون باستخدام ما أنعم الله به عليه فيما يُحبُّ الله ويَرْضى عنه ، وبعدم استخدامه فيما لا يحبُّ أو فيما لا يرضى عنه . وتدلُّه شريعة الله لعباده علىٰ أنّ الله يُحبُّ من عبده أن يستعمل ما أنعم به عليه فيما فيه نفع وخير له ولغيره من عباد الله ، وفيما فيه

إقامةُ الحقّ والعدل والبرّ والإحسان ، ويمقُتُ من عبده أن يستعمل ما أنعم به عليه فيما فيه ضُرٌّ وشرٌّ له أو لغيره من عباد الله ، وفيما فيه ظُلْم وبغيٌ وعدوان ، وإفسادٌ في الأرْض وفي الأنفس ، فقد جعلَ الله شُكْرَهُ منْ خلالِ الصالحات التي يفعلُها الإنسانُ من أجْلِ نَفْسِهِ ، أو من أجلِ ما خلق الله في كونه .

وتدُلُّه أيضاً نصوصَ الشريعة على أنّ الشكر مراتبُ ودَرجات :

فالمرتبة الأولى : مرتبة المتّقين ، وهي مرتبة تأدية الواجبات وترك المحرّمات ، وفيها درجات بحسب نسبة مفردات التقوى وحالة النفس في الإخلاص لله عزّ وجلّ .

والمرتبة الثانية : مرتبة الأبرار ، وهي مرتبة التوسُّعِ في فعل الخيرات والصالحات زيادةً على الواجبات ، والتوسّعِ في ترك ما دون المحرّمات من مكروهات وغير مستحبّاتٍ زيادةً على ترك المَحرّمات ، وفيها درجات بحسب نسبة مفردات البرّ ، وحالة النفس في الإخلاص لله عزّ وجلّ .

والمرتبة الثالثة : مرتبة المحسنين ، وفيها ارتقاءٌ كمِيّ وكيفي ، عبَّرَ عنْهُ الرسُول ﷺ بقوله : « أن تعبُد الله كأنّك تراه فإن لم تكُنْ تراهُ فإنَّه يراك » أي : أن تكون على حضور كامل بأنّ الله يراك في كلّ حركة من حركاتك .

وفي هذه المرتبة درجاتٌ أيضاً بحسب نسبة مفردات الإحسان ، وحالة النفس في الإخلاص لله عزّ وجلّ ومراقبته وابتغاء مراضيه والحضور معه . فكلّما تقرّبَ العبْدَ إلى ربّه بما يحبُّ من عباده من نوافل زيادةً على ما فرض ارتقىٰ في درجات الشاكرين ، حتّى يكون عبداً شكوراً ، من الأبرار أو من المحسنين .

وهذا ما دلّ عليه الرسول ﷺ بعمله ، إذْ كان يقومُ من اللّيل يتهجّد في صلاته حتى تتورَّم قَدَماه .

ودلّ عليه بقوله لمن سأله عن سبب تكليفه نفسَهُ هذا القيامَ الشّاقّ ، وقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، إذْ قال له : « أفلَا أكون عبداً شكوراً » .

بعد هذا لا بُدَّ أنْ نُلاحِظ أنّ من صُورِ شُكْر الله على نعمه تطبيقَ أحكام شريعته لعباده ، إذْ أمر بتطبيقها ، وحرَّمَ مخالفتها .

إذن : فباعث واجب الشكر من المحرّضات الداخليّة على تطبيق شريعة الله لعباده ، وهذا الباعث إنما يُوَلّده الإيمان الصحيح الصادق .

* * *

وقَدْ ذَكَّرَ الله عزّ وجلّ عباده بواجب شكرهم له على ما أنعم به عليهم في نُصُوصٍ عديدةٍ من القرآن المجيد :

١ - ففي سورة [النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول] يقول الله عزّ وجلّ في سياق تذكيره عبادَه بطائفةٍ من نعمه عليهم :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

٢ - وفي سورة [فاطر/٣٥ مصحف/٤٣ نزول] يقول الله عزّ وجلّ :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

٣ - وأنزل الله على رسوله قوله في سورة [الزّمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول] :

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

* فأمرَهُ بأن يَعْبُد الله وحْدَه تأْدِيةً لِحَقِّ الْخَلْقِ والملك .

* وأمرَهُ بأن يكون من الشاكرين ، تأديةً لواجب شُكْر الله على نعمه .

٤ - وأدرك سليمان عليه السلام وهو في قمّة مجده وسلطانه وظفره بما آتاه الله من وسائل إذ حضَر عنده عرشُ ملكة سبأ بأقَلّ من طرفَةِ عين ، قبل أن تصل إليه الملكة مسلمةً ، أنّه ممتحَنٌ مبتَلَىً أيشكُرُ أَمْ يكْفُرُ فقال كما أخبر الله عزّ وجلّ في سورة [النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول] :

﴿ . . . هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

فأعْلَنَ بهذا قضيّتَيْن :

الأولى : أنّ النّعَمَ منْ وَسَائِلِ امتحان الله لعباده .

الثانية : أنّ الله غَنِيٌّ بذاتِهِ وصفاته عَنْ شُكْرِ عباده له .

الباعث الرابع : باعثُ الرّغبة في الازدياد من نعم الله في الدنيا ، والوقاية من عقابه المعجّل ، ويمكن جعلهما باعثين لأن الخوف والطمع مختلفا القوة ، فالخوف قوة نافرة ، والطمع قوة جاذبة منجذبة ، وكلاهما في شيء واحدٍ يقعان على قطبيه الأقصيين ويتكاملان في الدفع تجاه المطمع .

إنّ من عناصر الإيمان بالله عزّ وجلّ وبما جاء في كتابه وبما جاء على لسان رسوله ﷺ تصديقَ وعْدِ الله بأنواعٍ من ثوابه المعجّل وتصديقَ وعيدهِ بصُوَرٍ من عقابِه المعجّل .

وقد جاء في البيانات القرآنية والبيانات النبويّة أنّ الشاكرينَ يزيدهم الله من نعمه في الحياة الدنيا ، وأنّ الْجَاحدين والكافرين بنعم الله عليهم قد يُنزل فيهم بعض عقوباته المعجَّلَة ، تذكيراً لَهُمْ وتطهيراً وموعظة ، كالجوائح ، والنقص في الأموال والأنفس والثمرات ، وكالأمراض والآلام المختلفة ، وكتسليط أعدائهم عليهم ، وضرب قلوب بعضهم ببعض . فمن هذه البيانات :

١ - قولُ الله عزّ وجلّ في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

٢ - وقول الله عزّ وجلّ حِكَايَةً لِمقَالَةِ موسى عليه السّلام لقومه ، في سورة [إبراهيم/١٤ مصحف/٧٢ نزول] :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾

تَأَذَّنَ : أي : أَعْلَم بشدَّةٍ . أو أقسم ، ففعل « تأذّن » يأتي في اللُّغَةِ بمعنَىٰ دعَىٰ مُنَادِياً ، أو أكثر الإعلام ، ويأتي بمعنَىٰ : « أقسم » .

* * *

الباعث الخامس : باعث الطمع والخوف من الجزاء يوم الدين ، ويمكن جعلهما باعثين كما سبق البيان في الباعث الرابع .

إنّ العقيدة الإيمانيّة في الإسلام تربط نفس المؤمن حتّىٰ عُمْق فؤاده بأمْرَين جليلين خطيرين عظيمين :

١ - فهي تربط رغباته وطُمُوحاته العظمىٰ باليوم الآخر ، وبما فيه من جزاء بالثواب الجزيل ، والنعيم المقيم ، في جنّاتٍ خالدات ، وأهلها فيها خالدون .

وثمن هذا الجزاء العظيم الإيمانُ بالله وطاعته ، والدرجات العليا في هذه الجنّات لمن عبد الله حقّ عبادته ، ومن فروع هذه العبادة تطبيقُ أحكام شريعته التي بعث بها رُسُله .

٢ - وهي تربط مخاوفه العظمى باليوم الآخر أيضاً ، وما فيه من جزاءٍ بالعقاب العادل على معصية الله في الدنيا ، ومن فروع هذه المعصية عَدَمُ تطبيق أحكام شريعته التي بعث بها رُسُله .

وقد دلّنا القرآن المجيد على أنّ الدّينَ الرّبّانيّ المشتملَ على العقيدة والشريعة ومنهاج السلوك ، هو صراط الله المستقيم ، وأنّ التحقُّق بعبادة الله يكون بسلوك هذا الصراط المستقيم فكريّاً ، ونفسيّاً ، وقلبيّاً ، وعمليّاً داخليّاً وعمليّاً جسديّاً ظاهراً . وأنّ هذا الصراط هو صراط الذين أنعم الله عليهم من النَّبيّين والصّديقين والشهداء والصالحين ، ودَلَّنا علىٰ أنّ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخرة هُمْ عَنْ هذا الصراط لناكبون .

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسُّنّة على الإطماع بوعد الله العظيم مقابل التزام شريعته ، وتطبيق أحكام منهاج السلوك الذي أبانه لعباده . وعلى الترهيب

من وعيد الله على معصيته بعدم التزام شريعته ، وعدم تطبيق أحكام منهاج السلوك الذي أبانَهُ لعباده .

ومن هذه النصوص الكثيرة :

١ - قول الله عزّ وجلّ في سورة [الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول] :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

٢ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة [آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول] :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

٣ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة [هود/١١ مصحف/٥٢ نزول] :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

٤ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة [الشورى/٤٢ مصحف/٦٢ نزول] :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

ويلحقُ بنصوص الوعد والوعيد ما ورد عن صور من الجزاء بعد الموت ، في البرزخ الفاصل بين الموت والبعث .

* * *

الباعث السادس : باعث الخوف من عقوبات السلطان المسلم الذي ينفّذ ويطبّق شريعة الله لعباده .

لقد كلّف الله عزّ وجلّ السلطان المسلم أن يرعى تطبيق منهاج السلوك الذي أبانه لعباده، وأن يكون حارساً لدينه ولعباده، وأن يراقب مرتكبي الجرائم، وأن يؤدّبهم بالحدود والتعازير ، وغير ذلك من عقوبات أذنَ له الشرع بها .

هذا الباعث ذو أثر فعّالٍ جدّاً لدى كثير من المسلمين . كالذين يمسُّهم داء النفاق ، والذين يضعُف إيمانُهم ، أو تكثر غفلاتُهم ، أو يتعَرَّضون لأعراض أمراض الأهواء والشهوات ، أو يعلّقون الالتزام الغالب بأحكام الدّين ، والاستقامة على صراط الله القويم ، إلى أواخِرِ حياتهم ، يغرُّهُم الأمل بالبقاء ، ويطمعون بعفو الله وغفرانه ، ويَعِدُونَ أنفسهم وخالقهم بالتوبة والندم ، متى أدركتهم الشيخوخة ، وضعفت قواهم ، وبَرَدَت حرارةُ أهوائهم وشهواتهم ، مع أنهم لا يَدْرُون متى تأتيهم آجالُهم ، وربما اخترمتهم مناياهم وهم في غمرات معاصيهم .

هذه البواعث الستة كُلُّها بواعث ذاتيّة داخليّة وعميقة ، وهي تدفع الإنسان المؤمن المسلم إلى تطبيق أحكام شريعة الله لعباده والتزام منهاج السلوك الذي كلّفهم أنْ يتقيّدوا به .

ولا نجد عالماً ذا فكر حصيف وتجارب واسعة ينكر أنّ أعظم البواعث الدافعة إلى سلوكٍ ما ، هي البواعث الذاتيّة الداخليّة النابعة من عمق القلْب والنّفس ، وقد سبق بيان هذا وتحليله نفسيّاً .

* * *

فالحكم بما أنزل الله ، وقبول الحكم بما أنزل الله ، والرضى القلبي به ، والتسليم التامّ له ، ثمرة من ثمرات الإيمان ، وأثرٌ من آثار بواعثه .

* * *

المقولة الخامسة :

بواعث عدم تطبيق أحكام شريعة الله لعباده

ترجع البواعث الّتي تدفع فرداً أو جماعةً من الناس إلى عدم تطبيق شريعة الله لعباده ، إلى ثلاثة جذور :

١ - الكفر .

٢ - الظلم .

٣ - الفسق .

فالجذر الأول : هو الكفر ، وأَخَفُّه الشرك ، وأشدُّهُ جحود الرّبّ الخالق عزّ وجل ، والإيمان بأنّ الوجود كلّه مادّة متطوّرة تطوراً ذاتياً ، ومع أن الكُفْرَ هُو ظُلْم وفسْقٌ من درجَةٍ قُصوَى إلاّ أنّه خُصّ بعنوان الكفر ، تمييزاً له عن سائر صور الظلم والفسق الّتي لا تصل إلى دركة الكفر المخرجِ من الإسلام .

* فالمنكر لوجود الله عزّ وجلّ لا يجد في داخله أيّ باعثٍ يدفعه أو يحرّضه على تطبيق ما يقالُ إنّه دين ، أو إنَّه شرع الله ، لأنّه لا يؤمن به .

* والكفرُ القائم على رفض طاعة الله لأيّ سبب من الأسباب ، مع الإيمان به ، حجابٌ يحجب البواعث الدافعة إلى تطبيق أحكام شريعة الله لعباده ، ومنهاج السلوك الذي جعله لهم .

والكفر باليوم الآخر وقانون الجزاء الرّبّانيّ ، يُضْعِفُ البواعث الأخرى الدافعة إلى تطبيق أحكام شريعة الله لعباده .

* والكفر برسالة محمد ﷺ ، يقطع الصلة بين بواعث الإيمان بالله عزّ وجلّ ، وبين أحكام الشريعة الّتي جاءت في الإسلام .

* والكفر القائم على الشّك في حكمةِ الله في أحكامه ، والشّك في أنّ الله أحكم الحاكمين ، وتصوّر أنّ الأحكام البشرية أعدل أو أصلح من أحكام الله في

شريعته لعباده ، حجابٌ أو مُثبِّط يجعل الإنسان غير مهتمّ بتطبيق شريعة الله لعباده ، ومنهاج السلوك الذي وضعه لهم .

* والكفر القائم على الشرك بالله الّذي يُعتبر أخفُّه أوّل خطوةٍ يَعْبُر بها الإنسان خارجاً من حدود الإيمان إلى منطقة الكفر ، يجعل لدى المشرك باعثاً مقارناً لباعث الإيمان بالله ، يدفع به إلى تطبيق أحكام من جعله شريكاً للرّبّ الخالق ، كالذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم ، شركاء لله يحرّمون عليهم ما لم يحرّمْه الله ، ويُحلِّون لهم ما حرّمَ الله ، ويضَعُون لهم من الأحكام ما لم يأذن به الله .

وينطبق على الذين يكون باعثهم الكفر من أيّ مستوى من مستويات الكفر قول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ . . . وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

ويغلب على الظنّ أنّ وضع القوانين العامّة المخالفة لأحكام الله في شريعته لعباده يدخل تحت هذا الجذر ، ما لم يكن بتأثير ضغوطٍ تضعفُ إرادةُ العصاة معها ، خوفاً على المصالح والمنافع والمطامع الدنيويّة الخاصة ، أو خوفاً على المناصب .

فإن كان بتأثير هذه الضغوط أو اتّباعاً لهوى خاصّ أو شهوة أو مصلحة مع عدم وجود أيّ ناقضٍ من نواقض الإيمان ، فهو من المعاصي الكبرى الواقعة على حافّة هاوية الكفر .

والجذر الثاني : هو الظلم ، والمراد منه ظلم الآخرين من عباد الله ، وهو الظلم الوسط الذي هو دون ظلم الكفر ، وفوق ظلم الفسوق ، وخُصَّ بعنوان الظلم تمييزاً لهذا النوع الوسط الواقع بين الكفر وبين الفسوق الذي ليس فيه ظلم للآخرين من عباد الله ، وإنّما يظلم الإنسان فيه نفسه .

ولهذا الظلم صور متعدّدة ، منها الصور التالية :

الصورة الأولى : رغبة الذي يحكم بغير ما أنزل الله في الحصول على ما ليس له به حقٌّ من حقوق الآخرين ، ظلماًوعدواناً .

الصورة الثانية : رغبة الذي يحكم بغير ما أنزل الله في أن ينتقم ممّن يكره ، انتقاماً دون حقٍّ ، في نفسه ، أو ماله ، أو أهله ، أو أنصاره وأتباعه ، أو قومه وقبيلته ، ونحو ذلك ظلماً وعدواناً .

الصورة الثالثة : رغبة الذي يحكم بغير ما أنزل الله في الانتصار لفريقٍ ضدّ فريقٍ آخر بدافعٍ من الدوافع النفسيّة ، كمصلحة ماديّة ، أو عاطفة قرابة ، أو صداقة ، أو نحو ذلك ، ظلماً وعدواناً .

الصورة الرابعة : وهي أخف الصور ، وهي الجنَفُ على صاحب الحقّ الغني القويّ، لأنّ الطرف الآخر فقير ضعيف، وهو ظلم تزينه وساوس الشيطان.

وقد اشار القرآن المجيد إلى هذه الصورة ، في قول الله عزّ وجلّ في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] :

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

فخاطبهم الله بوصف كونهم مؤمنين ، ونهاهم عن ظلم أصحاب الحقوق ، وأمرهم بأن يكونوا قوّامين بالقسط ، ولو كان الحقّ لغني ضدّ فقير ، وحذّرهم من عقابه ، بإشارة قوله : ﴿ فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ ولم يأت في الآية أيّ شيءٍ يشْعِرُ بأنّ هذه المعصية مع سلامة جذر الإيمان هي من المعاصي المكَفِّرَة .

وينطبق على الذين يكون باعثهم الدافع لهم إلى عدم تطبيق أحكام شريعة الله لعباده ، ما يفضي بهم إلى ظلم الآخرين من عباد الله ، قول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

والجذرُ الثالث : هو الفسق ، والمراد منه معصيةُ الله من درجةٍ لاَ تصل إلى مستوى ظلم الآخرين في حقٍّ من حقوقهم ، فضلاً عن أن تصل إلى مستوى الكفر .

وخُصّ هذا المستوى بعنوان الفسق تمييزاً له عن المستويين اللَّذين هما أشدّ منه ، مع أنّ الذي فوقه هو فسْقٌ من مستوى ظلم الآخرين . والذي فوقهما هو فسقٌ من مستوى الكفر ، وكلّ مخالفة لأمر الله فِسْقٌ ، لكن قد يقترن بالْفِسْقِ ظلم للآخرين من عباد الله فيميَّزُ بعنوان الظلم ، وقد يكون فيه ناقضٌ من نواقض الإيمان فيكون كفراً .

ومن أمثلة عدم تطبيق حكم الله في حدود مستوى هذا الجذر ما يلي :

١ - عدم تطبيق حدود الله في الزنا بتراضي الطرفين .

٢ - عدم تطبيق حدِّ الله في شرب الخمر .

٣ - عدم تطبيق أحكام الله في العقود المالية ، كعقد الربا .

٤ - عدم تطبيق أحكام الله في الزواج والنفقات والطلاق والعدّة ، ونحو ذلك من الأحكام التي ليس فيها هضم حقٍّ إنسان آخر ، وإنّما يظلم الناس فيها أنفسهم بمخالفتهم لأحكام الله ، ويعرّضون بذلك أنفسهم للعقوبات المعجلة والمؤجلة ، الّتي جعلها الله في سنن كونه نتائج غيرّ سارّة لمن يخالف أحكامه في شريعته لعباده ، ومنهاج السلوك الذي جعله لهم .

وينطبق على الذي يكون باعثهم الدافع لهم إلى عدم تطبيق أحكام شريعة الله لعباده اتّباعَ هوى أو شهوة ، أو نزعة نفسيّة ، أو نزغة من نَزَغَات الشيطان ، في أمرٍ لا ظُلْمَ فيه لأحدٍ من خلق الله ، ولم يقترن به ناقضٌ من نواقض الإيمان ، قول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وبهذا الفهم نلاحظ التكامل في دلالات النصوص .

إطلاقات وصف الفسق في القرآن :

استقراء النصوص القرآنية يدلّنا على أنّ الفسق هو بمثابة الجنس حسب تعريفات علماء المنطق ومصطلحهم ، وأن الظُّلم الذي فيه عدوان على حقوق الآخرين نوع منه ، وهذا الظلم هو بمثابة الجنس أيضاً لما هو أخصّ منه ، وهو الكفر بما يجب الإيمان به في الدين ، فهو نوع من الظلم الذي هو نوع من الفسق .

فالكفر نوع فوقه جنس أعمّ منه هو الظلم ، وهو نوع لجنس أعمَّ منه هو الفسق ، ونلاحظ أيضاً أنّ الفسق نوع لجنس أعمّ منه هو مطلق العصيان .

لذلك نلاحظ في القرآن أنّ كُلَّ لفظٍ من هذه الألفاظ الأربعة (العصيان - الفسق - الظلم - الكفر) ومشتقاتها يُطلَقُ علىٰ كلّ مَا ينضوي تحته من أنواع وأفراد .

فالعصيان : يطلق على كلّ مخالفةٍ ولو لم تصل إلى مستوى الفسق ، ويطلق على الفسق والظلم والكفر أيضاً ، لأنّها أنواع مندرجة فيه . وحين يُطْلق لفظ العصيان مقترناً بلفظ الفسق ، فيراد منه عصيانٌ من مستوى أخف من مستوى الفسق .

* فمن إطلاق العصيان على الكفر الذي هو نوع سافلٌ من أنواعه ، ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة [المزّمّل/٧٣ مصحف/٣ نزول] :

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) ﴾

* ومن إطلاق العصيان على مطلق المخالفة للأمر الذي تجب طاعته ، ما جاء في سورة [آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول] بشأن الرُّماة في غزوة أحد الذين عَصَوْا أمر الرسول ﷺ ، وهم من أصحاب الرسول ومؤمنون صادقون :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ

﴿ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

* ومن إطلاق العصيان على ما دون مستوى الفسوق حتماً ، ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة [الحجرات/٤٩] خطاباً للمؤمنين أصحاب الرسول :

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾

فالعصيانُ هُنَا هُوَ مُخَالَفَةٌ أخفُّ من مُسْتَوىٰ الْفِسْقِ .

والفسق : يُطْلَق على كلّ عصيان دخل في حدود كبائر الإثم ، أَوْ تجاوز حدود صغائر المعاصي ، وصار صاحبه عرضة للفساد ، أخذاً من أصل اشتقاق الكلمة . يقالُ لغةً : فَسَقَتِ الرُّطبةُ إذا خَرَجت عن قشرها . ومعلومٌ أنّها إذا خرجت عن قِشْرِهَا تعرَّضت للفساد ، حتى تكون غير صالحة للانتفاع بها . وفسقت الفأرة إذا خرجت عن جُحْرها . وهي إذا خرجت عن جُحْرِها أفسَدَت .

فهو يطلق على الظلم والكفر ، لأنهما نوعان مندرجان فيه ، ويطلق على ما دون الظلم وفوق مطلق العصيان ، أي على عصيان تجاوز حدود صغائر المعاصي ، ودخل في حدود كبائرها ، ولم يصل إلى مستوى الظلم ، الذي هو ظلم الآخرين .

(١) فمن إطلاق وصف الفسق على فسق هو من مستوى الكفر ، قول الله عزّ وجلّ في سورة [السجدة/٣٢ مصحف/٧٥ نزول] :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

فَهُؤُلاَءِ مُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ووصفهم الله بقوله : ﴿ وأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾

لكنّ فسقهم قد كان من مستوى الكفر .

وقول الله عزّ وجلّ بشأن إبليس ورفضه أن يطيع ربّه في أمر السجود لآدم في سورة [الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول] :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ . . . ﴿٥٠﴾ ﴾

لقد كانَ هذا الفسق من إبليس فسقاً من مستوى الكفر ، لأنّه رفض الطّاعة وأصرّ على رفضه ، واتّهَمَ الرَّبَّ في حكمته ، وقال له : أَنَا خَيْرٌ من آدم خلقتني من نارٍ وخلقته من طين .

(٢) ومن إطلاق وصف الفسق على الّذينَ فسقوا فسقاً هو من مستوى ظلم عباد الله في حقوقهم ما يلي :

* ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة [النور/٢٤ مصحف/١٠٢ نزول] :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾

* وما جاء في قول الله عزّ وجلّ خطاباً للذين آمنوا في آية المداينة من سُورةِ [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ . . . وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

* وما جاء في قول الله عزّ وجلّ خطاباً للّذين آمَنُوا في سورة [الحجرات/٤٩ مصحف/١٠٦ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

فأبان عزّ وجلّ أنّ فسق هؤلاء الذين يسخرون من غيرهم بغير حق ، أو يلمزونهم ، أو ينبزونهم بما يكرهون من ألقاب هو فسقٌ من مستوىٰ الظلم ، بدليل قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ ومَنْ لَمْ يتُبْ فأولئِكَ هُمُ الظّالمون ﴾ .

(٣) ومِنْ إطْلاَقِ وصْفِ الفِسْقِ على ما دُون فسق الكُفْرِ وفِسْقِ ظُلْمِ الآخَرِينَ في حُقُوقِهِمْ وَفوْقَ مطلق العصيان ، ما يلي :

* ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

إلاّ ما ذَكَّيْتُمْ : أي : إلاّ مَا أدرَكْتُموهُ قبل موته فذكيتموه ذَكَاةً شرعية ، بذبحه من أوداجه ، وذكر اسم الله عليه .

غير مُتَجَانِفٍ لإثْمٍ : أي : غير قاصِدِ الميلَ لارتكاب إثم .

فوصف الله عزَّ وجلّ الأكل من هذه المطاعم المحرّمة بوصف الفسق ، وظاهر أنّها معاصٍ ليس فيها عدوان على حقوق عباد الله ، وليس فيها كُفْرٌ ، فهي معاصٍ أخفُّ من مستوى الظلم ، وأشدّ من مستوى مطلق العصيان .

أمّا ما أهل لغير الله به فالآية لم تتعرّض لحكم الذبح لغير الله الذي هو من الشرك ، وإنّما تعرضَت للأكل من المذبوح لغير الله ، ولذلك جاء مقترناً مع الميتة والدّم وغيرهما من المطاعم التي جاء في الآية تحريمها .

* وما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى

ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

فمع أنّهم مؤمنون حجاجٌ أثنىٰ الله عليهم بأنّهم أُولوا الألباب نَهَاهُمْ في الحجّ عنِ الرَّفث ، وهُوَ مِنَ المباحاتِ في غير الإحرام ، وعن الفسوق وهُوَ يَشْتَمِلُ على محرّمات نهىٰ الله عنها دواماً ، فهي في الحجّ أشدّ حرمة ، كالزنا ، وكأكْلِ أو شربِ ما حرَّمه الله .

ويمكن أن يشمل أيضاً الظُّلْم ، لكنّ مؤمناً مسلماً حاجّاً لا يُتَصَوّرُ منه فِسْقٌ من مستوى الكفر .

ملاحظة حول كثرة استعمال وصف الكافرين في القرآن بالفسق وبأنهم فاسقون :

لمّا كانت رغبات الفسق الطاغية هي أكثر الدوافع الموصلة إلى مستوى الكفر لدى الكافرين ، وهم النسبة العظمى من البشر ، كان معظم ما جاء من لفظ « الفاسقين » ونحوه في القرآن إنما جاء وصفاً للكافرين .

وفي هذا تحذير ضمنيٌّ من التمادي في الفسق إذْ هو يستدرج صاحبه إلى الكفر ، وهو ما عناه المربُّون المسلمون الأقدمون إذْ قالوا : المعاصي بريد الكفر .

* * *

المقولة السادسة :

أمثلة واقعية من أثر الإيمان في تطبيق أحكام الشريعة

أمّا الشواهد من الواقع على أثر الإيمان في تطبيق أحكام الله عزّ وجلّ ، فهي كثيرة لا يستطيع الناس إحصاءها .

(١) وتقع في مقدّمتها قصة إبراهيم عليه السلام ، وولده إسماعيل عليه السلام ، في ابتلاء الله لهما ، بين ذابحٍ وذبيح .

(٢) وتبرز من روائع الأمثلة استجابة المسلمين السّريعة ، في عصر الرسول ﷺ ، في إراقة ما لديهم من خمور ، لمّا أنزل الله عزّ وجلّ بياناً صريحاً في تحريم الخمر .

* ففي أوائل العد المدني أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة [البقرة/٢] أوّل سورة مدنيّة :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . . ﴿٢١٩﴾ ﴾

فدلَّ بهذا ضمناً على أنّ ما إثْمُه أكبر من نفعه فعلى المؤمن المسلم أن يجتنبه ، ولكنّ النصّ ليس صريحاً في التحريم ، ولا واضح الدلالة عليه ، إذْ لم يكن المسلمون قد تدرّبوا على مفاهيم الشريعة القائمة علىٰ تحريم ما يكون ضَرَرُه أكبر من نفعه ، ولم يأذن الله لرسوله بهذا البيان ، لحكمة التدرّج في إنزال الأحكام ، ولتدريب المسلمين على إدراك أسس أحكام الدين .

وجاء في النصّ التعبيرُ بكلمة الإثم في مقابل كلمة النفع ، ليفهم المتدبّرون أنّ ما يجلُبُ استعماله الضّرر هو في حكم الشّرع إثم .

وإيجازاً في التعبير قابل الله عزّ وجلّ كلمة النفع بكلمة الإثم ، ونستطيع أن

نفهم أنّ تقدير الكلام هو على الوجه التالي :

قل : فيهما ضرر كبير ، فمرتكبهما مرتكب إثم كبير ، وضررهما الذي يجلبانه لمرتكبهما أكبر من نفعهما المقتضي إباحتهما .

* ثم بعد أن نزلت « الأنفال » و « آل عمران » و « الأحزاب » و« الممتحنة » وهي سور لم ينزل فيها عن الخمر شيء ، نزلت سورة [النساء/٤] سادس سورة مدنية ، وأنزل الله فيها عن الخمر قوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ . . . ﴿٤٣﴾ ﴾

أي : حتّىٰ تَصْحُوا من سُكْرِكُم تماماً وتعلموا ما تقولون ، وما تتلُون في صلواتكم ، فلا تخلطوا في تلاواتكم .

وكان هذا منعاً صريحاً من شرب الخمر إلى حدّ الإسكار ، في أوقات يطالَبُ فيها المسلم بالصلاة ، وإذا شرب الخمر فَسَكِرَ مَنَعَهُ سُكْرُه من أداء الصلاة المفروضة .

* ثم عقب عشرين سورة نزلت في المدينة بعد [النساء] وفي أواخر العهد المدني ، أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥] وهي سورة لم ينزل بعدها من القرآن إلاّ « التوبة » و« النصر » قوله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

وكان نزول آية « البقرة » جواباً لسؤال عن الخمر والميسر .

وكان نزول آية « النساء » عقب حوادث تخليط في الصلاة كانت من بعض أصحاب الرسول ﷺ بسبب السُّكْرِ .

ثم كان نزول آيتي « المائدة » عقب تشاجر وقع بين فريقين من المسلمين بسبب السكر .

وذكرت الروايات أن عمر بن الخطاب كان يتطلّع لبيان شافٍ في تحريم الخمر ، كي يمتنع الناس عن شربها . فقال في المدّة بين « البقرة » و « النساء » : اللّهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً . وقال في المدّة بين « النساء » و« المائدة » : اللّهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، حتّى نزل التصريح بالتحريم في سورة « المائدة » فلمّا تُلِيَ النصّ عليه ، وبلغ التالي قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُون ؟ ﴾ قال عمر : انْتَهَيْنَا .

ونادى منادي رسول الله ﷺ في المدينة : ألا إنّ الخمر قد حُرّمت ، فأسرع المسلمون إلى إهراق ما لديهم من خمور في سكك المدينة .

ويطالع الباحث في كتب السنة روايات متعدّدة[1] تدلّ على أنّ المسلمين قد استجابوا سريعاً أفراداً وجماعات ، بدافع إيمانهم ، لإهراق ما لديهم من خمور ، وأنّ الرسول ﷺ قد أمر بجمع ما لدى التجار والباعة من خمور ، فَفَزَر بيده قسماً من زقاقها وقِرَبها ، وقام من كان معه بإهراق سائرها .

فأيُّ باعثٍ غير باعث الإيمان كان الدافعَ للمسلمين أن يستجيبوا هذه الاستجابة السّريعة لتطبيق أحكام الشريعة الرّبانية .

* * *

(٣) وتبرز أيضاً من روائع الأمثلة استجابة المسلمات بدافع إيمانهنّ ، لتنفيذ ما نزل بشأن الحجاب .

ففي أواسط العد المدني ، في السنة الخامسة من الهجرة بعد غزوة بني المصطلق ، أنزل الله عزّ وجلّ سورة [النور/٤٢] وأنزل فيها قوله :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا

---

(١) انظر ما جمع ابن كثير في تفسيره من أحاديث حول هذا الموضوع لدى تفسير آيتي الخمر في سورة «المائدة ٥».

ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ . . . ﴿٣١﴾ ﴾ إلى آخر الآية .

الْخِمَارُ : غِطَاءُ الرأس . وجاء في بيانه أنّه ما يُخمَّرُ ، أي : يُغطّى به الرأس ، ومنه العمامة ، لأنّ الرجل يغطّي بها رأسه ، ويديرها تحت الحنك .

فلنستعرض بعض ما ورد من روايات حول استجابة المسلمات لهذا الحكم الشرعي [1] .

* روى البخاري بسنده عن عروة عن عائشة قالت : « يَرْحَمُ الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وليضرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهنَّ فاختمرن بها » .

المروط : جمع مِرْط ، وهو كساء من صوف ، أو خزّ أو كتان كان يؤتَزَرُ به ، وتتلفّع به المرأة ، فتديره على جسدها كله .

والخزّ : ما ينسج من صوف وأحسن الحرير ، الذي يقال له : الإبريسم .

* وروى البخاري أيضاً بسنده عن صفية بنت شيبة أنّ عائشة كانت تقول : « لمّا نزلت هذه الآية : ﴿ ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ على جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أُزُرَهُنَّ فشققنها من قبل الحواشي فاختَمَرْن بها » .

الإزار : ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن .

* وروى ابن أبي حاتم عن صفيّة بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة ، فذكرنَ نساءُ قريش فضلهنّ ، فقالت عائشة : « إنّ لنساء قريشٍ فضلاً ، وإنّي والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ، أشدّ تصديقاً لكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل ، لقد أنزلت سورة [النور] ﴿ وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ﴾ وانقلب رجالهنّ إليهنّ يتلون عليهنّ ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كلّ ذي قرابته ، فما منهنّ امرأة إلاّ قامت إلى مِرْطِها

---

(١) انظر ما أورد ابن كثير منها في تفسيره.

المرحَّل ، فاعتجرَتْ به تصديقاً ، وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات ، كأنّ على رُؤوسهنّ الغربان » .

المرحّل : الثوب المرحّل هو الموشّىٰ بِصُوَرِ الرِّحال ، وهو ما يوضع على البعير ويشدّ عليه ، للركوب والحمل .

معتجرات : الاعتجار هو لفّ نحو عمامة أو ثوبٍ على الرأس . يقال : اعتجر بالعمامة ، إذا لفّها وأدارها على رأسه ، وردّ طرفها على وجهه .

(٤) ويبرز أيضاً من روائع الأمثلة حرص الذين اعترفوا على أنفسهم باختيارهم ، بما اقترفوه من فاحشة الزنا ، ليتطهّروا بالحدّ الشرعي .

فقد ثبت في السنَّة أنَّ عدداً من المسلمين في عصر الرسول ﷺ قَدِموا إلى رسول الله ﷺ ، فاعترفوا على أنفسهم بأنّهم زَنَوا ، ليطهّرهم بالحدّ الشرعي ، وثبت أنّ الرسول لـم يستعجل في إقامة الحدّ ، حتى اعترفوا على أنفسهم اعترافاً صريحاً لا شبهة معه أربع مرّات تُعادل أربعة شهداء ، عندئذ أمر بإقامة الحدّ عليهم ، جلداً أو رجماً ، ومنهم : « ماعز بن مالك » والمرأة « الغامدية » .

وجاء عند مسلم بشأن الغامدية أنّ الرسول ﷺ قال : « لقد تابت توبةً لو قُسمت بين أهل المدينة لوسعتهم » .

فهل يوجد باعث في الناس غير الإيمان يجعل إنساناً يقدّم نفسه للقتل رجماً بالحجارة بُغْيَةَ أن يطهّره الله من الخطيئة .

هذا هو أثر الإيمان بالله وباليوم الآخر في قلوب المؤمنين .

(٥) ويبرز من روائع الأمثلة رجوع عمر بن الخطاب عن قراره السلطاني بشأن مهور النساء ، وهو الخليفة القويّ الشديد ، الذي كان يُرْهب الأقوياء والأشداء ، إذْ كان بدافع من إيمانه القويّ وقّافاً عند أحكام كتاب الله ، رجّاعاً إلى الحقّ .

وقد أورد ابن كثير لدى تفسيره قول الله تعالى في سورة [النساء/٤] :

﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا . . . ﴿٢٠﴾ ﴾ عدّة روايات لهذه الحادثة منها ما رواه الحافظ أبو يعلى بسنده عن مسروق ، قال :

(ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ، ثم قال : « مَا إكثارُكُم في صَداق النساء ؟ وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصَّدُقَاتُ فيما بينهم أربعمائة درهم ، فما دون ذلك ، ولو كان الإكثار في ذلك تقوىٰ عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها . فلأَعرفَنَّ ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم » .

قال : ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، نهيتَ الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم؟ .

قال : نعم .

فقالت : أما سمعت ما أنزل الله في القرآن .

قال : وأيّ ذلك؟

فقالت : أما سمعت الله يقول : ﴿ وآتيتم إحداهُنَّ قنطاراً ﴾ الآية .

فقال : اللهم غفراً ، كلُّ الناس أفقه من عمر .

ثمّ رجع فركب المنبر فقال : أيّها الناس ، إنّي كنت نهيتكم أن تزيدوا النّساءَ في صَدُقاتهنّ على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحبّ .

قال أبو يعلى : وأظنّه قال : « فمن طابت نفسه فليفعل ») .

قال ابن كثير : إسناده جيّدٌ قويّ .

(٦) وتبرز أيضاً من روائع الأمثلة ، أمثلةُ إقدام المقاتلين في سبيل الله إلى حيث مصارِعُهم ، مقبلين غير مدبرين ، صابرين محتسبين أجورهم عند الله .

* فمن ذلك ما رواه مسلم عن جابر قال : (قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قتلت؟

قال : « في الجنة » .

فألقى تمرات كنّ في يده ، ثم قاتل حتى قتل) .

« عن رياض الصالحين - كتاب الجهاد » .

* وما رواه مسلم عن أنس قال : (انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى سبقوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ :

« لا يَقْدَمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيءٍ حتّىٰ أكُونَ أنَا دُونه » فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ : « قُومُوا إِلَىٰ جَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ » .

قال : يقول عُمَيْرُ بن الْحُمَام الأنصاريّ : يا رسول الله ، جَنَّة عرضُها السماوات والأرض؟

قال : « نعم »

قال : بخٍ بخٍ .

فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟ »

قال : لا والله يا رسول الله ، إلاّ رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أهلها .

قال : « فإنَّكَ من أهلها »

فأخرج تمرات من قَرنِه ، فجعل يأكل منهنّ ثمّ قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنّها لحياة طويلة ، فرمىٰ بما كان معه من التمر ، ثمّ قاتلهم حتّى قتل) . (عن رياض الصالحين - كتاب الجهاد)

* وفي سيرة ابن هشام ضمن أحداث غزوة بدر :

وقال عوف بن الحارث ، وهو ابنُ عَفْراء : يا رسول الله ، ما يُضْحِكُ الرَّبّ من عَبْدِهِ ؟

قال : « غَمْسُهُ يَدَهُ في الْعَدُوِّ حَاسِراً » .

فنزع درعاً كانت عليه فقَذَفها ، ثم أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل .

* * *

المقولة السابعة :

بيانات قرآنية حول أثر الإيمان في تطبيق أحكام الشريعة

استعرض هذه البيانات القرآنية بحسب ترتيب نزولها .

أولاً : في المرحلة المكيّة :

البيان الأول :

بدأت سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] بقول الله عزّ وجلّ :

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾

فأبان الله في هذا النصّ أنّ القرآن ذِكرى . وكلمة « ذكرى » هي بمعنى « ذِكْر » أي : المطلوب بالنسبة إليه أن يُذْكر دواماً ، ومعلوم أنّه لا يكون ذكراً دواماً حتى يُعْلَم ابتداءً ، وتُفْهم أحكامه ومطالبه ووصاياه .

والمعنى : ينبغي لكلّ مُبَلَّغٍ بآياته أن يُنْصِتَ إليه ، ويَتَفَهَّمَ بياناته ، ثم يذكُرَهَا من حين لآخر ، ليتعظَ بها ، ويعمل بما تضمّنته من تكاليف .

ولكن هل هو ذكرى لكلّ مُبَلَّغٍ به؟

والجواب : لا ، بل هو ذكرىٰ للمؤمنين .

فالإيمان بالله وبرسوله وبكتابه وباليوم الآخر ، هو الدافع الداخليُّ في قلب ونفس المؤمن ، الذي يجعل القرآن مُعَلِّماً له ابتداءً ، ومُذَكِّراً له دواماً ، من آن إلى آخر .

وجاء في أواخر سورة [الأعراف : ٧] قول الله لرسوله :

﴿ . . . قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

فأبان الله عزّ وجلّ في خواتيم السورة ، ربطاً بأوائلها أنّ القرآن الذي يوحي الله به لرسوله ، والذي يجب على من تَبَلَّغَهُ أنْ يتذكره من آن إلى آخر ، يتضَّمنُ ثلاثة أُمَّهات كبرى :

الأولى : أنّه بصائر ، أي : بيانٌ تعليمي بحقائق مقرونة بحججها . فالتبصير التعليم ، والبصيرة الحجة ، والقرآن يقدِّم في آياته معارف دينيّة وحقائق ربّانية مقرونة بحججها .

الثانية : أنّه هُدىً ، أي : إرشاد ودلالة على التي هي أقوم ممّا فيه سعادة البشر وخيرهم ، في كلّ أمرٍ من أمور حياتهم .

الثالثة : أنّه رحْمةٌ ، أي : يتضمن ما فيه رحمةٌ من الله بعباده ، ففي البيان رحمة ، وفي الهداية رحمة ، وفي الترغيب والترهيب رحمة ، وفي شرائع الحدود والعقوبات رحمة .

ولكن هل هو بصائر وهدى ورحمة لكُلّ مُبَلَّغٍ به ؟ .

الجواب : لا ، بل هو بصائر وهدى ورحمةً لقومٍ يؤمنون ، أي : يُجَدِّدُون إيمانَهم حيناً بعد آخر ، باستبصار دلائل إيمانٍ جَديدة ، أو استعادة دلائل إيمان سابقة ، أو لديهم استعدادٌ إراديّ لأن يؤمنوا بالحقّ إذا بَصُروا به .

فهو لا يكون بصائر وهدى ورحمة لكلّ الناس ، إنما يكون كذلك لقوم يؤمنون بالله وبرسوله وبكتابه وباليوم الآخر ، أو لديهم استعدادٌ إراديٌّ لهذا الإيمان .

* * *

البيان الثاني :

بدأت سورة [النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول] بقول الله عزّ وجلّ :

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

فأبان الله تعالى في هذا النصّ أنّ القرآن له وصفان :

١ - أنّه قُرآن يُقرأ ويُتْلَىٰ مراراً وتكراراً لتدبُّر آياته .

٢ - أنّه كِتَابٌ مُبينٌ لمَا فيه خبر الناس وسعادتُهم في دنياهم وآخرتهم .

وأنّ آياته ذات وصفين :

أ - هُدىً ، أي : إرشاد ودلالة .

ب - بُشرَى بكل ما هو للناس سعادة وخير في الدنيا والآخرة . ولكن هل هو كذلك لكلّ مُبَلَّغٍ به؟

الجواب : لا ، بل هو هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزَّكاة وهم بالآخرة هم يوقنون .

فباعث الإيمان هو الدافع للاستبصار بما في القرآن والانتفاع بآياته ، فيكون لمن آمن وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأيقن بالآخرة هدى وبشرى .

وجاء قبيل أواخر هذه السورة قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

فآيتا اللّيل والنهار من الآيات الدالاّت على الربّ الخالق عزّ وجلّ ، وعلى طائِفَةٍ منْ صفاته وأسمائه الحسنى ، ولكن لا ينتفع بهما إلاّ متفكّرون لديهم الاستعداد الإرادي للإيمان بالرَّب الخالق وقدرته وعلمه وحكمته وإتقانه لكلّ ما خلق وذرأ وبرأ .

فالاستعداد للإيمان جذر ينجم عنه الإيمان متى ظهرت آياته .

* * *

البيان الثالث :

التوكّل على الله سلوك داخليٌّ وحركة قلبيّة مقارنة لاتخاذ الأعمال المادّيّة السببيّة .

وهُما لا يكونان معاً إلاّ ثمرة إيمانٍ بالله صادقٍ صحيح ، وإسلامٍ لأوامره ونواهيه ووصاياه .

فمن صحّ إيمانه علّق قلبه بالله متوكّلاً عليه ، ومن صحّ إسلامه قام بما كلّفه الله من اتّخاذ الأسباب في ظروف الحياة الدنيا .

فالإيمان باعث للتوكّل على الله في كلّ أمر ، وباعث للإسلام له وطاعته في أوامره ونواهيه .

لذلك لمّا أمر موسى عليه السلام من آمن به من بني إسرائيل وهم في مصر ، علّق تكليفه إياهم بالتوكُّل القلبيّ على الله ، وباتّخاذ الأسباب العمليّة، على تَحقُّقِ شَرْطَيِ الإيمان والإسلام .

وفي بيان ذلك قال الله عزّ وجلّ في سورة [يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول]:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

أي : وقال موسى لقومه : يا قومِ إنْ كنتم آمنتم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً فتوكَّلُوا على الله ، واتّخذوا الأسباب الّتي تُؤمَرونَ بها إنْ كنتم مسلمين .

فالإيمان هو الاعتراف والتصديق الإراديّ بالحقّ الذي جاء به المرسلون ، منزّلاً إليهم من ربّ العالمين ، وهو الباعث الجذريّ .

والإسلام هو إعلان الطاعة ، والبيعة على القيام بالتكاليف الشرعية ، المشتملة على الأوامر والنواهي والأحكام ، وهو يأتي ثمرة للإيمان، وتطبيق الشريعة يأتي ثمرَةَ الإيمان فالإسلام .

* * *

البيان الرابع :

الإيمان قرار إراديٌ قلبيٌّ ، يعبّر عنه مدّعيه بلسانه ، إذ يعلن الشهادتين ويعبّر عنه بتطبيقات إسلاميّة .

ولكنّ صدق الإيمان لا بدّ لكشفه من تقليب مدّعيه على عدّة وجوه مختلفة من الفتنة اللاذعة ، أي : من الامتحان بالمكاره .

وعند الامتحان بهذه الوجوه اللاذعات على خلاف ما تهوى الأنفس ينكشف صدق الإيمان ، أو مقدار صدقه وقوّته .

فمن كان إيمانه صادقاً أثبت في كلٍّ من السّرّاء والضرّاء بالتطبيق العمليّ ما يُبَرْهن به على صحة إيمانه وصدقه فيه ، لأنّه باعث قويٌّ لا بدّ أن يظهر أَثَرُهُ في السلوك .

وينكشف بهذا الاختبار المنافقُ ، وضعيفُ الإيمان ، والذي يعبُدُ الله على حرف ، إذْ لا يعبُدهُ إلاّ من أجل مطالبه من الحياة الدنيا ، فإن أصاب منها ما يريد اطمأنّ به ، وإن أصابته فتنة على ما يكره انقلب على وجهه خاسراً الدنيا والآخرة .

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ دعوى الإيمان لا يُكْتَفَىٰ بها دُون تقليب المدَّعِي على وجوه الامتحان ، وفتنته بالسّراء والضرّاءِ وواجباتهما ، فقال تعالى في سورة [العنكبوت/٢٩ مصحف/٨٥ نزول] :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

ومن الكاذبين من يَعْبُد الله على حرف ، أي : على طرف مصلحته الدنيوية من العبادة ، فهو طالب دنيا ، وليس مستقرّاً على قاعدةٍ إيمانيّةٍ راسخةٍ بالله واليوم الآخر ، يومِ الجزاء بالثواب أو بالعقاب ، وفي شأن هذا الصنف من الناس أنزل الله عزّ وجلّ في العهد المدنيّ قوله في سورة [الحجّ/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾

إنّه حين يُمْتَحَنُ بالمكاره يتوجّه شطر غير الله ، يتلمَّس دفع الضرّ أو جلب النفع ، فيدعو ما لا يَضُرُّه ، وما لا ينفعه ، ولا يدفع عنه ضرّاً ولا نفعاً .

* * *

البيان الخامس :

طالب المشركون بآيات وخوارق مادّيّة ، تعنُّتاً وتشهيّاً ، لا لأنهم بحاجةٍ فعلاً إلى برهان يدلّ على صدق الرسول ﷺ ، فآية القرآن برهان كافٍ شافٍ لمن لديه استعداد للاعتراف بالحقّ والإيمان به ، وبياناتُه وحُجَجُه ومواعظه وأحكامه وترغيباته وترهيباته رحمةٌ من الله أنزلها للنّاس ، ليعلموها وتكون لهم ذكرى ما تعاقب الزمن .

وإذا كان الأمر كذلك فليس من الحكمة الاستجابة لتعنُّتات المشركين وتَشَهِّيَاتهم ، وفي بيان ذلك قال الله عزّ وجلّ في سورة [العنكبوت/٢٩ مصحف/٨٥ نزول] :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

فالذين لديهم استعداد نفسي للإيمان بالحقّ ، يجدون في القرآن ما يكون باعثاً لهم إلى الإيمان ، فإذا آمنوا كان لهم رحمةً ، إذ يدفعهم إيمانهم للإسلام والطاعة والعمل بما جاء فيه وتطبيق أحكامه ، فيكون ذلك جالباً لهم سعادةَ الدنيا والآخرة .

ويدفعهم أيضاً إيمانهم وإسلامهم لمراجعة آيات القرآن من آن لآخر ، تلاوةً وتدبُّراً ، فيكون مُذَكِّراً لهم بعناصر الإيمان ، وشرائع الإسلام .

هذه المعاني جاء إيجازها البديع في قوله تعالى في هذا النّصّ :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

* * *

ثانياً : في المرحلة المدنيّة

البيان السادس :

في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] وهي أول سورة مدنية ، عرضَ الله عزّ وجلّ طائفةً من الوصايا والمواعظ والأحكام والبيانات ، ومنها أحكام في النفقة والقتال والخمر والميسر والنكاح والمحيض ومعاشرة الزوجات والأيمان والطلاق ، خطاباً للَّذِينَ آمَنُوا .

وجاء فيها قول الله عزّ وجلّ :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ . . . ﴿٢٢٨﴾ ﴾

أي : ولا يَحِلُّ لَهُنَّ أنْ يَكتمُن ما في أرحامهنّ ، وهُنَّ لا يَفْعَلْنَ ذلك إنْ كُنَّ يُؤْمِنّ بالله واليوم الآخِرِ إيماناً قويّاً مؤثراً حاضراً في تصوُّرِهِنَّ ، وذلك لأنّ إيمانهُنَّ يجعلُهُنَّ يخشيْنَ مِنْ عقاب الله الشديد ، فلا يكتُمْنَ ، إذْ إنَّ كِتْمَانَهُنَّ مَا فِي أَرْحَامِهِنَّ يُفْضِي إلى إلحاق الأجنَّةِ بآباءٍ غير آبائها .

وقد شدّد الله في هذا لأنّه من كبائر الإثم .

ثم قال الله عزّ وجلّ :

﴿ . . . ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

فدلَّ على أنّ الَّذِي يتأثّر بهذه الوصايا والأحكام والبيانات ويتَّعظ بها هو من كان يؤمن بالله واليوم الآخر .

فالقاعدة الإيمانيّة هي الباعثة والدافعة للتّأثّر بالوصايا الرّبّانية ، والاتعاظ بها ، والعمل بمقتضاها .

* * *

البيان السابع :

ظاهرات السلوك المتشابهة في الصورة ، قد تكون بواعِثُها النفسيّة ، ودوافعها القلبية مختلفة إلى حدّ التناقض ، وبذلك تكون غاياتها مختلفةً أيضاً إلى حدّ التناقض .

فالمؤمنون قد تلجئهم الضرورة إلى القتال فيقاتلون ، والكافرون قد تدفَعُهُم الحميّة أو المصلحة فيقاتلون أيضاً .

هذا قتال ، وهذا قتال ، إنهما بحسب الصورة متشابهان ، لكِنَّ الله عزّ وجلّ قد أبان أنهما مختلفان في الباعث وفي الغاية ، فقال تعالى في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

أي : فالذين آمنوا باعثهم الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وهم يقاتلون في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الحقّ ، ونشر العدل ، وإقامة شرع الله في الأرض .

والَّذِينَ كَفَرُوا بالله واليوم الآخر لهم بواعث أخرى كثيرة مختلفة ، كالحميّة ، والمصالح الدنيوية ، والأنانيات المختلفات ، والأفكار والمبادىء الضالة الفاسدة المفسدة . وهم يقاتلون في سبيل الطاغوت (لفظ يقع على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث ، ويشمل أئمة الطغيان وكلّ ما يطغي) والطاغوت الأكبر هو الشيطان وجنوده ، ومهما كاد فكيده ضعيف أمام معونة الله للمؤمنين ، إذ ينصرهم ويحبط مكايد أعدائهم ، ما اتخذوا الوسائل والأعمال السببيّة الّتي أوصاهم باتخاذها .

البيان الثامن :

تحكيم الرسول ﷺ فيما يحصل من شجارٍ بين المسلمين ، هو من ظواهر صدق إيمانهم به ، وبما أنزل الله عليه من حقٍّ وعدلٍ .

فإذا لم يُحكّموهُ ، بل لجؤوا إلى أحكام أهل الجاهلية ، كان ذلك دليلاً على أنّ إيمان هؤلاء مدخول بنفاق ، لأنّ رفض تحكيمه يتضمّن معنى عدم الإسلام لله ورسوله ، أو اتّهام أحكام الرَّسُول بالخروج عن الحق والعدل .

والأوّل كفر من نوع كفر من آمن ولم يسلم . والثاني ناقض لأصل الإيمان لأنّه يتنافىٰ معه .

لذلك قال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾

إنّ رفض تحكيم شريعة الله بصورة عامّة ، واللُّجُوء إلى تحكيم القوانينِ الوضعيّة ، صورة تَقْوىٰ مَعَها معاني ترجيح الأحكام الوضعيّة على أحكام الله ، والشعور بأنّها أكثر تحقيقاً لمصالح الناس ، وأكثر ضماناً للحقّ والعدل ، وهذه المعاني تتنافىٰ حتماً مع أصْل الإيمان ، إذْ إنَّ من عناصر الإيمان أنّ الله عزّ وجل أحكم الحاكمين ، وأن أحكامه هي أحسن الأحكام وأقومها وأعدلها .

ولذلك قال الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾

إنّ الله عزّ وجلّ هو أحكم الحاكمين ، وهو خير الحاكمين ، وأحكامه أحسن الأحكام ، يُدْرِك هذا ويطمئنّ إليه المؤمنون الموقنون بكمال صفات الله وأسمائه الحسنى .

* * *

البيان التاسع :

للإيمان حركة فاعلة في عمق القلب ، وهذه الحركة تجعل المؤمن يمرّ بخبراتٍ إيمانيّة يتذوّق فيها حلاوة مشاعر الإيمان ، وهذه الخبرات تأتيه فيها نفحات ربّانية يتذَوّق بها حلاوةً نابعةً من العمق ، وتكون غالباً لدى ممارسته لأنواعٍ من السلوك الإسلاميّ الباطن والظاهر .

* فمنها ما يأتيه عند التضرّع إلى الله عزّ وجلّ بالدّعاء ، واستجابة الله له .

* ومنها ما يأتيه عند سكينة قلبه ونفسه بصلاةٍ في جوف اللّيل والناس نيام .

* ومنها ما يأتيه حينما يبذل ماله سرّاً لذي ضرورة .

* ومنها ما يأتيه حينما يحمد الله على نعمه .

إلى غير ذلك من أحوال .

فإذا تكرّرت عليه هذه التجارب التذوّقيّة النّاتجة عن حسن عبادته لله ، وَصَلَ إلى درجة من إرهاف الحسّ الإيماني يُحسّ معها بخشوع القلب ، عقب ذكره لله ، أو تذكيره به ، أو استماعه لآيات الله تتلَىٰ .

والخشوع هو السكون ، ولا شكّ أنّ هذا الخشوع يدفعه إلى تطبيق شريعة الله بتسليم تامّ ورضى ، ولو كان على خلاف ما يهوى .

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة [الحديد/٥٧ مصحف/٩٤ نزول] :

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ومرحلة الخشوع هذه يسبقها مرحلةٌ يمرّ المؤمن فيها بمشاعر قُشعريرة الجلد ، من ذكر الله ، وبعد تكرار تَذَوُّق هذه المشاعر يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله ، دلّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة [الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول] :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾

وبعد مرحلة قشعريرة الجلود ، ثم لِينِ القلوبِ إلى ذكر الله ، تأتي مرحلة مشاعر الوجل ، لدى ذكر الله ، والوجل خوف يصاحبه حركة رجفة ، دلّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجل في سورة [الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول] :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾

ثُمَّ تَأْتِي مَرْحلةُ خشوع القلب لذكر الله ، إذا ارتقىٰ المؤمن في درجات الإيمان وصالح العمل والتزام الطاعة ، كما جاء في بيان سابق .

ثم تأتي فوقها مرحلة ذات مرتبة أرقى من مرتبة الخشوع ، ويمكن أن يرتقي المؤمن إليها ، إذا ارتقى في درجات الإيمان وصالح العمل وتوسّع في أعمال البرّ ، إنها مرحلة الطمأنينة القلبية بذكر الله ، والطمأنينة هي سكينة غير مصحوبة بتوتّر ولا شدّ عصبي ، فالمطمئنّ يشعر بتمام الراحة النفسيّة والقلبية ، ولا يشعر معها بأنّه مشدود الجملة العصبيّة شدّاً متعباً .

دلّ على مرتبة الطُمَأنينة هذه قول الله عزّ وجلّ في سورة [الرعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول] :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾

فمن آثار الإيمان في آخر مراحل التجارب التذوّقية ، مشاعر طمأنينة القلب بذكر الله ، ولا يصل إلى هذه المرتبة إلاّ قلّة من المؤمنين ، وهم الذين تجاوزوا مرتبة التقوى ، إلى مرتبة البرّ فالإحسان .

* * *

البيان العاشر :

الحق والباطل نقيضان فكريان ، لا يجتمعان ، فالذين آمنوا بالله وبما جاء من عند الله قد آمنوا بالله الحقّ ، الذي خلق السماوات والأرض بالحق ، وأنزل كتبه بالحق ، وهو يهدي إلى الحق ، فالمؤمنون حين يتّبعون ما يأتيهم عن ربّهم يتّبعون الحق .

والذين كفروا بالله وبما جاء من عند الله لا يجدون شيئاً آخر يتبعونه إلاّ الباطل ، وهو يجرّهم إلى فروع باطلة كثيرة ، وإن اختلطت بعناصر من الحق بحكم الاضطرار ، ولا بدّ أن تجتالهم الشياطين إلى متاهات الباطل بعيداً عن صراط الحقّ .

هذا ما دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في سورة [محمد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول] :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾

أي : مثل هذا البيان الوصفي يضرب الله للناس أوصافهم .

* * *

البيان الحادي عشر :

في سورة [الطلاق/٦٥ مصحف/٩٩ نزول] أبان الله عزّ وجلّ أحكاماً تتعلّق بالطلاق والعدّة وحقوق المطلقات ، وقال في أثنائها :

﴿ . . . ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾

فنبّه سبحانه وتعالى على أهميّة سلامة القاعدة الإيمانية للاتّعاظ بالوصايا والأحكام الرّبانيّة .

وظاهر أنّ الاتعاظ القلبي والنفسيّ هو الباعث على التطبيق العملي .

* * *

البيان الثاني عشر :

في سياق قصة الإفك يحذّر الله المؤمنين أن يعودواإلى إشاعة إفكٍ على أحد ، مثل إشاعة الإفك على أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فيقول عزّ وجلّ في سورة [النور/٢٤ مصحف/١٠٢ نزول] :

﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فَرَتّبَ سبحانه وتعالى توجيه تحذيره لهم على تحقّق شرط إيمانهم بقوله : ﴿ إنْ كنتم مُؤْمنون ﴾ .

فدلّ هذا على أنّ تحذير من لا يؤمن بما يُحَذَّرُ منه لا يؤثّر فيه ، أمّا المؤمن بما يحذّر منه فيتّعظ بالتحذير ، ويكون اتعاظُه باعثاً له على التطبيق ، والاستجابة للأمر والنهي .

ويقول الله عزّ وجلّ فيها بشأن جلد الزانية والزاني :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

فرتّبَ سبحانه توجيه النّهي على تحقُّق شرط الإيمان بالله واليوم الآخر ، ودلّ ذلك على أنّ سلامة القاعدة الإيمانية شرطٌ لتوجيه التكليف ، وعلى أنّها باعث للطاعة .

* * *

البيان الثالث عشر :

مُوادّة المؤمنين بالله واليوم الآخر لمُعَادي الله ورسوله ومحاربيهما ومعلني الحرب على المسلمين ، قضيّة تناقض الإيمان ، ولا تمشي معه في طريقٍ مشترك ، لأن من مقتضى الإيمان معاداة من عادى الله ورسوله وحارب

المسلمين ، فكيف يلتقي هذا المقتضى مع الموادّة والموالاة والمصادقة ، وهي تتضمّن تقويةً لأعداء الله ورسوله والمسلمين ، ومشاركةً لهم في حرب الإسلام .

وهذه قضيّة غير قضية معاملة الكافرين غير المقاتلين للمسلمين بالبرّ والقسط اللّذين لم يَنْهَ الله الذين آمنوا عنهما .

ولمّا كانت القضيّة الأولى لا تلتقي مع الإيمان الصادق السليم في طريق ، بل هي من الخيانة العظمىٰ للإسلام وللأمّة الإسلامية ، أبان الله عزّ وجلّ أنّه لا يجتمع قومٌ مؤمنون على مثل هذه الموادة ، أمّا الحالات الفرديّة فلم يتعرّض النصّ لبيانها ، وفي هذا البيان يقول الله عزّ وجلّ في سورة [المجادلة/٥٨ مصحف/١٠٥ نزول] :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أمّا القضيّةُ الثّانية وهي معاملةُ الكافرين غير المقاتلين للمسلمين بالبرّ والقسط فلا تتنافى مع الإيمان ، بل قد يسيران على طريق واحد ، إذْ قد تكون معامَلَتُهم بالبرّ والقسط وهم غير مقاتلين ولا محاربين سبباً لتأليف قلوبهم ، وتحبيبهم بالإسلام ، فيسرع ذوو الاستعداد منهم للإيمان ، فيُسلمون ، حُبّاً بالإسلام ، وبالأعمال التي يوصي بها أتباعه ، وفي بيان ذلك قال الله عزّ وجلّ في سورة [الممتحنة/٦٠ مصحف/٩١ نزول] :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

* * *

البيان الرابع عشر :

في سورة[المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول]نادى الله عزّ وجلّ الَّذِينَ آمَنُوا بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

فجاء في هذه الآية الأمْرُ بتقوى الله خطاباً لِلَّذِين آمنوا ، في موضوع نهي الله لهم عن اتّخاذ متَّخِذِي دينِهم هُزُواً ولَعِباً أَوْلياءَ مُرتَّباً على تحقُّقِ شرط الإيمان الصحيح الصادق .

فدلّ هذا على أنّ الإيمان بالله عزّ وجلّ ، وبرسوله وكتابه واليوم الآخر ، وما فيه من جزاء بالثواب أو بالعقاب ، قاعدةٌ في عُمْق القلب ، باعثةٌ على طاعة الله فيما أمر به وفيما نهى عنه ، مقترنين بما يدلُّ على أنّ المخالفة يترتب عليها استحقاق العقاب .

أي : فالمؤمن صحيح الإيمان يُحاول جَهْدَه أن يَتَّقِي عقابَ الله بالطاعة ، أو بالاستغفار والتوبة والنَّدَم إذا غلبه هواه فسقط في الخطيئة .

البيان الخامس عشر :

وفي سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] أيضاً خاطب الله عزّ وجلّ الذين آمنوا بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

فنبَّهَ الله عزّ وجلّ الَّذِينَ آمَنُوا في هٰذَا النَّصّ على أنّ قاعدة إيمانهم بالله من شأنها أن تكون باعثةً لهم على أن يتّقوه ، بطاعة أوامره واجتناب نواهيه .

وذلك لأنّ قاعدة الإيمان تشتمل على عنصر الإيمان بعدل الله وقهره وسلطانه وصدق وعده ووعيده ، وعلى الإيمان بكتابه وبكل ما جاء فيه ، وبرسوله وبما بلّغه عن ربّه وبيّنه .

وهذه العناصر الإيمانية في المؤمن من شأنها أن تكون باعثةً له على خوف عقاب الله ، واتخاذ الوقاية منه بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، وتطبيق أحكام شريعته لعباده ، ليقي بذلك نفسه من أن ينزل به عقاب الله الذي هو مؤمن به .

وإذا غلبه هواه فوقع في الخطيئة أسرع من قريب فاستغفر وتاب ، وندم ، وأتبع السّيئة الحسنة ، رجاء أن تمحوَهَا .

أمّا الكافر بالله وبجزائه ، والمكذب بيوم الدّين ، فإنّ توجيه الأمر له بتقوى الله لا يُحَرّك فيه خوفاً ، ولا يدفعه إلى اتخاذ وقاية من عذابه ، لأنه غير مؤمن به ، أمّا علمه بالله عن طريق الإدراك الذهني ، الذي لم يتحوّل إلى إيمانٍ إرادي ، فينزع فيه حيناً بعد آخر ، محدثاً في قلبه ونفسه قلقاً واضطراباً ، ووخزاً ولذعاً ، فتحرمُه من السعادة لدى استمتاعه بما حرّم الله ، وهذا من مُعجّل عقاب الكافرين .

بيد أنّ المؤمن السويّ ذا البصيرة ، الّذي لم تُغَشّ إيمانه عوارض الأهواء والشهوات ، والانفعالات الثائرات ، لا بدّ أن يضع في حسابه ومراقبته سخطَ الله وعقابه ، على المعاصي والمخالفات ، ورضوانَه وثوابَه على الطاعات والعبادات ، وذلك محرّض ذاتيٌّ من عمق القلب ، حيث مستقرّ العقيدة ، وهو باعث على تطبيق الشريعة ، بفعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه .

* * *

البيان السادس عشر :

عمران مساجد الله عمراناً معنوياً ، وما يلزم له من عمران مادّيّ يُقْصد منه العمران المعنوي ، لا يفعله إلاّ من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر ، أمّا الكافر فيتوجّه لعمران أشياء أخرى يؤمن بها من أمور الدنيا ، وحينما يعمر شيئاً من المساجد فإنّما يعمُرها عمراناً مادياً فقط ، نفاقاً ورياءً ، ولتحقيق مصالح دنيوية .

وفي بيان ذلك قال الله عزّ وجلّ في سورة [التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول] :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

فدلّ هذا النصّ بأسلوب الحصر على أنّ العمران الحقيقيّ لمساجد الله لاَ يَفْعلُه إلاّ من آمن بالله واليوم الآخر ، وأسلَم لله ، فأقام الصَّلاَةَ وآتَىٰ الزكاة ، وارْتَقَىٰ إلى مرتبة : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إلاّ الله ﴾ بتأثير قوّة إيمانه ، وبمداومته على إقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة ، والتزامه بأحكام شريعة الله لعباده .

* * *

البيان السابع عشر :

الاستغفار للمشركين عمل لم يأذن الله به في شريعته لعباده ، ولو كان هؤلاء المشركون أقرب الأقربين للمستغفرين .

وقد أبان الله هذا الحكم لعباده المؤمنين ابتداءً ، فقيّد بهذا البيان عموم النصوص التي وعد فيها بإجابة الدّعاء ، ولئلاّ يتعارض هذا الاستغفار مع بيان الله بأنه لا يغفر أن يُشْرَكَ بِه ، ويَغْفِر ما دون ذلك لمن يشاء .

فالاستغفار للمشرك يتضمَّنُ سؤال الله أنْ يغيّر قانونه العامّ بشأن المشركين ، وفي هذا تجاوز لحدود دائرة الدعاء ، وهو شبيه بطلب تغيير واقع حال المستحيلات العقليّة .

لذلك فليس من شأن المؤمن العالم بأركان الإيمان ، والعالم بنهي الله عن الاستغفار للمشركين ، فَمَنْ هُمْ أَشَدُّ كُفْراً ، أن يستغفر لمشرك ، أو أيّ كافر آخر .

وفي بيان ذلك قال الله عزّ وجلّ في سورة [التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول] :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾

والمشركون هم أخفّ الكافرين كفراً ، فذكرهم يدلُّ على الذين هم أشدّ منهم كفراً ، لأنّهم أولى بهذا الحكم ، وكذلك سائر النظائر في القرآن .

وهو نظير النهي عن أن يقول الابن لوالديه أو أحدهما كلمة « أف » الدالّ لزوماً عقليّاً على تحريم ما هو أشد من كلمة « أفّ » كالشتم والضرب ، ويفهم هذا بطريق الأولى ، لزوماً ذهنيّاً ، وقياساً عقليّاً ، وعُرْفاً لغويّاً .

وقول بَعْضِ الأقدمين : إنّ الشرك أكبر الذنوب أو أعظمها ، إنما قالوه بالنسبة إلى الذنوب الواقعة في دائرة الإيمان ، لأنّه أول خطوة مخرجة من دائرة الإيمان إلى مواقع الكفر ، وهو يقع عند الوجه الآخر لحدّ دائرة الإيمان ، لذلك بدأ الرسول ﷺ به لدى تعديده للموبقات ولكبائر الإثم ، وذكر بعده عقوق الوالدين وقتل النفس التي حرّم الله قتلها ، والسحر ، إلى سائر الكبائر .

ولذلك قال الله عزّ وجلّ محدّداً أوّل خطوات الكفر خروجاً عن دائرة الإيمان بقوله في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

وفي الآية [١١٦] منها : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾

أي : بعيداً عن حقوق مرتبة التقوى ، أو بعيداً عن دخول الجنة لأنّه محرومٌ منها .

* * *

المقولة الثامنة :

بيانات قرآنية حول أثر عدم الإيمان في السلوك المنافي لأحكام الشريعة

أستعرض هذه البيانات بحسب ترتيب نزولها :

أولاً : في العهد المكّي :

البيان الأول :

من آثار التكذيب بيوم الدّين قسوةُ القلب ، وجفاف العاطفة الإنسانية نحو الضعفاء ، فالمكذّب بيوم الدّين يدعُّ اليتيم ، ولا يحضّ على إطعام المسكين ، ويمنع الماعون ، ويرائي لكسب المصالح الدنيويّة بظواهر لا تكلفه جَهْداً ولا بذلاً ، كالصلاة .

أبان هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة [الماعون/١٠٧ مصحف/١٧ نزول] :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾

* * *

البيان الثاني :

الّذين لا يؤمنون بالآخرة وَما أعدّ الله فيها من جزاءٍ على ما يفترون ، يخبطون في المسائل الغيبيّة ذات الصلة بأمور الدين والعقائد الإيمانية من عند أنفسهم ، ويحكمون عليها بالأوهام والظنون الضعيفة التي لا يصحّ الاستناد إليها في معرفة .

أمّا المؤمنون بالله واليوم الآخر فهم يخافون عقاب الله ، فلا يحكمون على الغيبيّات ذات الصلة بأيّ أمرٍ من أمور الدين بالأوهام والظنون الضعيفة ، بل يتقيّدون بما جاءهم عن الله ورسوله في ذلك .

دلّ على هذه الظاهرة قول الله عزّ وجلّ في سورة [النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾

لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ : أي : لَيَصِفُون الملائكة بأنّهم إناث ، استناداً إلى ظنٍّ توهميٍّ لا قيمة له في مجال المعرفة .

وزادوا على ذلك بأن ادّعوا أنّ الملائكة بنات الله ، وهذا إفكٌ صريح لا يستند إلى أيّ ظنٍّ من الظنون الضعيفة ، ولا إلى أي توهّم ، وقد جرّهم إلى ذلك ادّعاؤهم أنّ الله انفصل منه جزءٌ ، فهو مولود لله ، وكانوا قد توهَّمُوا أنّ الملائكة إناث ، فقالوا : الملائكة إذن بناتُ الله .

فأنزل الله على رسوله قوله في سورة [الصّافات/٣٧ مصحف/٥٦ نزول] :

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

ثُمَّ أنزل قوله عزّ وجلّ في سورة [الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول] :

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

فمن ظواهر عدم الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء التجرُّؤُ على الغيبيّات ذات الصلة بالعقائد الإيمانية ، والحكم عليها بالأوهام والظنون الضعيفه ، وبالأكاذيب والافتراءات .

البيان الثالث :

من قوانين الله السببيّة الدائمة العامّة التي تتحقق نتائجها بخلق الله ، بحكم ما جعل في كونه من أنظمة وطاقات ، أنّ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، تستخفُّهم الشياطين من خلال أهوائهم وشهواتهم ، وتجتالهم دافعةً بهم إلى مواقع الإجرام والفسوق والفجور ، كما تجول الرياح بما خفّ وزنه على سطح الأرض .

ثم إنّهم يَسْتَحْلُون ما يصيبُونَ من شهوات ، وما يحقّقون من أهواء ، بإغواء الشياطين ، فيتخذونهم أولياء من دون الله .

دلّ على هذا القانون من قوانين الله السببيّة الّتي فطر الله عليها النفوس، ذات الإرادات الحرّة، قول الله عزّ وجل في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

أي : لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطانُ فيخرجكم عن صراط الله الموصل بكم إلى الجنّة ، كما فتن أبويكم آدم وحوّاء فأخرجهما من الجنّة ، إذ غرّر بهما فجعلهما يعصيان فيأكلان من الشجرة التي نهاهما الله عن أن يأكُلاَ منها .

إنّا جعلنا الشياطين أولياء للّذين لا يؤمنون : أي : جعلناهم أولياء للذين لا يؤمنون باليوم الآخر ، بما وضعنا في طبائع الأشياء والنفوس من أنظمة وقوانين سببيّة .

وهذا الجعل نظير جعل السمّ قاتلاً لمن أكله أو شربه ، ونظير جعل النار محرقة للموادّ التي تحترق بها إذا لامستها ، ونظير جعل السيف قاطعاً للرقاب بشفرته الحادّة ، إلى غير ذلك من أسبابٍ ومسبّبات .

* * *

البيان الرابع :

من آثار عدم الإيمان باليوم الآخر أن ينطلق هذا الكافر في أعمال الشرّ والفسوق والفجور والعصيان ، والظلم والبغي والعدوان ، وهو يراها مزدانةً حسنة ، بسبب انطماس بصيرته بالكفر ، فهو يتردّد حيران في مختلف سبل الحياة ، متنقّلاً مع الأهواء والشهوات ، غير مدرك طريق سعادته ، وغير شاعر بأنه يسير إلى مهالكه .

دلّ على هذه الظاهرة من السلوك الإنساني ، قول الله عزّ وجلّ في سورة [النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾

زَيّنّا لهم أعمالهم : أي : بما وضعنا من أنظمة وقوانين سببيّة في طبائع الأشياء والنفوس ذوات الإرادات الحرّة ، فكلّ من كفر بالآخرة وأبعد عن تصوراته الدينونة والجزاء ، وجد أعمال الإثم والشرّ الّتي له فيها شهوات وأهواء مزدانةً حسنة ، فهو بذلك لا يرى ما فيها من قبح وشرّ ، وشناعة وضرّ .

فهم يَعْمَهُون : أي : يَتَردَّدُون على سُبُل الضلال والشرّ حيارىٰ .

* * *

البيان الخامس :

عرض الله عزّ وجلّ في سورة [يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول] آياتٍ من آيات ربوبيّته في السماوات والأرض والأَنْفس ، مبيّناً أنّه لاَ ربّ غيره ، فلا إلٰه إلاّ هو .

وناقش فيها المشركين ، وعلّم رسوله والمؤمنين بعض أساليب مناظرتهم حول توحيد الرّبوبيّة المستلزم لتوحيد الألوهيّة .

وأبان لهم أنّ القرآن لا يمكن أن يُفترىٰ من دون الله ، لأنه معجزة البيان الخالدة ، وتحدّاهم أن يأتوا بسورة مثله .

وعرضَ فيها سبحانه أمثلة من عقابه للمكذّبين الأوّلين .

وقُبيل ختامها قال الله لرسوله ولكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من بعده :

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

أي : أبلغْهم ما يجب عليهم من النظر في آيات الله الكونيّة ، في السماوات والأرض ، الدّلاّت على أنّه لا ربّ إلاّ الله فلا إلٰه إلاّ هو ، وما يجب عليهم من النظر في آثار عقوبات الله الجزائية للمكذبين من أهل القرون الأولى .

ونُخبِرُك بظاهرة دائمة من ظواهر السلوك الإنساني ، وهي أنّ الّذين ليس لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا بعناصر القاعدة الإيمانية ، حتى لا يمنعهم الإيمان بها عن الانطلاق على رعونات أهوائهم وشهواتهم فاجرين ، لا تغنيهم الآيات البرهانية ، ولا النُّذُر القوليّة ، ولا دلائلها في آثار الأولين ، فلا تؤثر فيهم ، لأنهم محجوبون عن وعيها بغواشي رغباتهم الجامحةالجانحة .

هذا ما نفهمه من قول الله عزّ وجلّ في الآية :

﴿ وَمَا تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

* * *

البيان السادس :

الذين يُصْغُون من عمق أفئدتهم لزخرف أقوال التغرير الصادرة عن شياطين الإنس والجن ، فيتأثّرون بها ، ويَرْضَوْنَ مضامينها ، وبعد ذلك ينطلقون مقترفين ما تدعو إليه من آثامٍ وخطايا وجرائم ، هم الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من جزاء .

أبان هذه الظاهرة من سلوك الناس قولُ الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ

ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

زُخْرُف القول : هو القول المزَيَّنُ المحسَّنُ المموّهُ بزينات ذهبية اللّون من فنون الأدب ، والقول المقرون بالحجج الباطلة المشحونة بالفِرَىٰ والأكاذيب ، والمزَيّنة بما يوهم أنّها حجج صحيحة .

غروراً : أي : خدعاً بالأباطيل والأكاذيب ، وإطماعاً كاذباً بما لا مطمع فيه ، فشياطين الإنس والجنّ يوحي بعضُهم إلى بعض زخرف القول ، لأجل أن يَغُرُّوا به الذين يستمعون إليهم .

ولو شاء رَبُّك ما فعلوه : أي : ولو شاء ربُّك الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، وهو على كلّ شيءٍ قدير ، لسلب صانعي زخرف القول حرّيّاتهم ، أو لسلبهم قدراتِهم التي بها يصطنعون ما به يَغُرُّون .

لكِنَّ ذَلِكَ يُنافي حكمة الامتحان التي من أجلها خلق الله الموت والحياة ، فالامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا يستلزم حرّيّة الإرادة ، ويستلزم التمكين من استخدام المسخّرات للناس فيها ، في وجوه الخير أو في وجوه الشرّ .

إذن : ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ فهو من لوازم غاية الامتحان في ظرُوف هذه الحياة الدنيا ، وهو لا يؤثر على الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً .

ولِتَصْغَىٰ إلَيْهِ أفْئِدَةُ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنون بالآخِرَة : أي : ولتميل إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ، والأفئدة هي أعماق القلوب ، ومَيْلُها للباطل ميلٌ من مراكز العقيدة ، لا من سطوح شهوات النفوس ، وهذا أشنع الميل وأرذله .

والمصدر المؤوّل من ﴿ ولتَصْغَىٰ ﴾ معطوف على ﴿ غروراً ﴾ أي : لتغُرَّ الشياطين ، ولتصْغَىٰ إلى افتراءاتهم أفئدة الذين لا يؤمنون .

ولِيَرْضَوْه : بعد الاستحسان والميل ، تأتي حركة الرضى بالمضمون .

وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُون : اقترف الذنبَ ، أي : فعله ، والمعنى : وليقترفوا من الذنوب والمعاصي والقبائح والسيئات ما هم مقترفون .

وهذا الاقتراف يكون بعد الرضى ، بما زينه الشياطين ودعَوْا إليه .

فمن آثار عدم الإيمان باليوم الآخر ، إصغاءُ الأفئدة لأقوال الشياطين ، الذين يغرُّون بزُخْرُف القول المُفْتَرى ، فالرضى بمضامينها ، فالعملُ بما تدعو إليه من قبائح وجرائم ومُنكرات .

* * *

البيان السابع :

الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ضالّون من أعماق قلوبهم ، ويُريدُ الله بعدله في أحكامه أن يضلّهم ، أي : أن يحكم عليهم بأنّهم ضالُّون حكماً يستند إلى آثار كفرهم في أعمالهم .

وبمقتضىٰ قوانين الله وأنظمته السببيّة الّتي فطر عليها الأشياء ، والنفوس ذوات الإرادات الحرّة ، المخلوقة للابتلاء ، تتراكم على قلوبهم ونفوسهم بسبب عدم إيمانهم ، أرجاسُ رغبات الأهواء والشهوات مع ما يُثَبِّتُها وَيَكْدِسُها من وساوس الشياطين وتغريراتهم ، فتندفع بهم إلى ارتكاب أنواعٍ كثيرة من الظلم والبغي والطغيان ، والفسق والفجور والعدوان .

فهم بسبب ذلك لا يستجيبون للإسلام إلى الله في شرائعه وأحكامه الداعية إلى الخير والرحمة والفضيلة وسعادة الدارين .

إنهم يرفضون الاستجابة بمقتضىٰ قوانين الأسباب والمسبَّبَات ، الّتي جعلها الله عزّ وجلّ في طبائع الأشياء ، وطبائع النفوس ، فإذا أُمِرُوا أو أُلزموا بمخالفة أهوائهم وشهواتهم ، أو أُلزموا بأن يُسْلموا إلى شرائع الله ، باعْتِبَار أَنَّهُمْ نَافقوا فادَّعوا أنّهم قد آمنوا وهم في باطنهم غيرُ مؤمنين ، انقبضت صدورهم ، وضاقت ضيقاً شديداً ، لامتلائها بما يشبه الغيضة المتشابكة من الأهواء

والشهوات ، الّتي تداخل بعضُها في بعض ، فإذا اضْطُرُّوا أن يسيروا مع المسلمين في عمل إسلاميّ شاقٍّ على نفوسهم ، كالجهاد بالأموال والأنفس ، ساروا وهم كارهون ، يكادون يختنقون من ضيق صدورهم ، كالّذي يصَّعَدُ في السماء ، ويتناقصُ عليه أكسجين الهواء .

أمّا المؤمنون بالله واليوم الآخر فقد اهتدوا بالإيمان ، ويريد الله أن يهديهم ، فيحكم لهم بالهداية استناداً إلى آثار إيمانهم في السلوك ، فتتوجّه رغباتهم للظفر برضوان الله ، والظفر بثوابه العظيم .

فإذا دُعُوا إلى أعمالٍ إسلاميّة ، حتى مستوى بذل الأموال والأرواح في سبيل الله ، انشرحت لذلك صدورهم ، بمقتضى قوانين الأسباب والمسببات التي جعلها الله في طبائع الأشياء وطبائع النفوس ، وأقبلوا يمارسون مراضي الله سعداء ، كلٌّ بحسب قوّة إيمانه .

دلّ على هاتين الظاهرتين من ظواهر السلوك الإنساني ، قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾

فمن يردِ الله أن يَهْدِيَه : أي : بسبب أنّه قد آمن إيماناً صحيحاً صادِقاً بدليل ما جاء في آخر الآية ، مع ملاحظة التقابل العكسيّ .

يشرحْ صدره للإسلام : أي : يشرح صدره بمقتضىٰ قوانين الأسباب التي جعلها الله في طبائع الأشياء وطبائع النفوس المخيّرة الممتحنة ، لتطبيق أحكام شريعة الله لعباده ، وهذا هو الإسلام لله .

ومن يُردْ أن يُضلّه : أي : بسبب أنه قد كفر فتراكمت على قلبه ونفسه رجاسات الأهواء والشهوات ، ونسجت عليه وساوس الشياطين خيوطها .

يجعلْ صدره ضيقاً حَرَجاً : أي : يجعل صدره ضيّقاً شديد الضيق ، حين يُساقُ لعمل إسلامي ، حتّى كأنّه الْحَرَج . فلفظ الْحَرَج يأتي بمعنى شديد الضيق ، ويأتي بمعنى الغيضة المتشابكة التي لا مدخل فيها لداخل .

ويظهر أنّ هذه الآية تصف المنافقين ، لأنّهم هم الذين تضيق صدروهم حينما يُدْعَوْن للأعمال الإسلامية ، باعتبار أنَّهم بحسب ظاهرهم من المسلمين .

أمّا الّذي يُعْلِن كفره فهُو يُدعَىٰ إلى الإيمان أوّلاً ، فيرفض ، ولا يُكلَّف الأعمال الإسلامية ، فهو لا يُضطرّ لأن يتظاهر بها ، حتى يضيق صدره من ممارستها ، لأنّه لم يعلن إسلامه أصلاً .

كأنّما يصعَّد في السماء : أي : يجد نفسه حين إلزامه بعمل إسلامي ، غير مؤمن به ، كالذي يصَّعَّد في السماء ، فيشعر بالاختناق شيئاً فشيئاً ، بسبب تناقص الأكسجين في الطبقات العليا من الجوّ .

كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون : كذلك الرجس المحتقر البعيد عن أهل الإيمان ، الذي يتراكم على هذا الفريق المنافق ، حين يلزم بالأعمال الإسلامية ، يجعل الله بقوانينه السببيّة العامّة الرجس على كلّ الّذين لا يؤمنون ، سواء أكانوا منافقين أو غير منافقين ، إذ تضيق صدورهم بفعل الخير .

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ أثر عدم الإيمان في جلب الأرجاس المعنوية لنفوس الذين لا يؤمنون ، ومن هذه الأرجاس ضيق الصدور وحَرَجُها لدى الإلزام بفعل الخير ، وبذل المعروف ، دون ترقب مصلحةٍ دنيوية .

وهذا من سنن الله في كونه .

* * *

البيان الثامن :

من ردود أفعال قُلُوب المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة ، أَنَّهَا تشمئِزّ إذا

ذُكِرَ الله وحده ، فإذا ذُكر الذين من دونه من شركائهم مع ذكر الله أو دون ذكر الله إذَا هُمْ يستبشرون .

دلّ على هذه الظّاهرة من ظواهر ردود أفعال القلوب قول الله عزّ وجلّ في سورة [الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول] :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

اشْمأَزّت : أي : انقَبَضَتْ ، وتقلَّصتْ نُفْرَةً وَكراهية .

يستبشرون : أي : يُسرُّون ويَفْرَحون ، وذلك لأنهم يؤمنون بشركائهم وبمنافعهم الدنيوية عن طريقهم أكثر ممّا يؤمنون بالله خالقهم وبارئهم .

فمن آثار عدم الإيمان باليوم الآخر هذه الظاهرة .

* * *

البيان التاسع :

من آمن بالله وبرسوله وباليوم الآخر ، كان إيمانه باعثاً له ، يدفعه لتلاوة القرآن ، أو الإنصات إليه وتدبُّر معانيه ، والانتفاع به ، فيكون له هُدىً ، يَهْديه للّتي هي أقوم في كلّ أمْرٍ هو من خصائص بيانات الدين ومواعظه وإرشاداته . ويكون له شفاءً من داء الجهل بأهم ما يجب أن يعلمه الإنسان في الحياة الدنيا ، ومن داء القلق والحيرة والاضطراب ، ومن كلّ داءٍ نفسيّ يصيب الّذين لا يؤمنون بالله وبعظيم حكمته في قضائه وقدره ، ومن كلّ داء يصيب الذين لا يتقَيّدون بأحكام شريعته لعباده .

أمّا الذين لا يؤمنون بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر ، فإنّ عدم إيمانهم يقيم بينهم وبين القرآن حُجُباً، تحجُبُ عنه أسماعهم، وتحجُبُ عنه أبصارهم .

فإذا تُلِي القرآن عليهم كانت آذانهم في صَمَم عنه، أو فيما هو شبيه بالصَّمم، وهو الثقل الشديد في السمع ، وكلٌّ من الأمرين يقال له في اللّغة : « وَقْر » .

وإذا عُرِضَ القرآن على قُرّائهم مكتوباً لم يقرؤوه ، بل ربّما لم يشهدوا تفاصيل حروف المكتوب منه ، لانصراف نفوسهم وقلوبهم عنه انصرافاً كُلّياً ، وعدم رغبتهم في قراءته ، فيُصَابُون بالنسبة إليه بعَمَىٰ القراءة ، حتّى كأَنَّ القرآن هو عليهم عمىً .

وإذا نُودُوا لاستماع القرآن والانصات إليه لتدبّر معانيه ، لم يسمعوا من النداء إلاّ صوتاً ضعيفاً كأنّهم يُنَادَونَ منْ مكان بعيد .

هذه الصُّور الوصفيّة للّذين لا يُؤمنون قد أبانها الله عزّ وجلّ بقوله في سورة [فصلت/٤١ مصحف/٦١ نزول] :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

ثم إذا تَصَلَّبَتْ قلوبُ الكافرين على الكفر ، وصلوا إلى حالة يكونون فيها بالنسبة إلى دعوة الإيمان بمثابة الصُّمّ البكم العمي الّذين لا يعقلون ، ولذلك أنزل الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

أي : ومثل الداعي الّذي يدعو الذين كفروا كُفْراً تصلَّبَتْ عليه قلوبُهم كمثل الذي يَنْعِقُ (أي : يصيح صياحَ راعي الغنم) بما لا يَسْمَعُ إلاّ دُعَاءً ونداءً ، فهم لا يفهمون من الكلام شيئاً ، بيد أنّ أسماعهم تَسْمَعُ أصواتاً كما تسمَعُ الأغنامُ أصوات النّاعقين بها من رُعاتها .

* * *

البيان العاشر :

الكافرون بالرسل وباليوم الآخر يطالِبُون باستعجال العذاب الذي يُنْذِرُهم به

رسُلُهم ، وباستعجال السّاعة التي يكون بعدها يوم الحساب والجزاء ، والسّببُ في ذلك أنّهم غير مؤمنين بتحقّق ما يستعجلون به ، فهم يطالبون باستعجاله تعبيراً عن تكذيبهم بما أنذروا به .

دلّ على هذه الظاهرة من ظواهر عدم الإيمان بالرسل وبما أنذر به الرسل ، قول الله عزّ وجلّ في سورة [الشورى/٤٢ مصحف/٦٢ نزول] :

﴿ . . . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾

* * *

البيان الحادي عشر :

ربّما بدّل الله عزّ وجلّ آية قرآنيّةً مكان آيةٍ أخرى ، إبَّانَ تَنْزيل نجوم القرآن المجيد ، وذلك لعدّة حكم ، ندرك منْها ما يلي :

الحكمة الأولى : تربية الذين آمنوا على التسليم التامّ لله عزّ وجلّ فيما يُثْبتُ في كتابه ، وفيما يرفع منه .

الحكمة الثانية : امتحان المسلمين لتمييز صادقي الإيمان من الذين في قلوبهم مرض .

الحكمة الثالثة : تدريبهم على خلق التحسين والتجويد والتعديل والتبديل في أعمالهم التي يعملونها ، وقراراتهم التي يقرّرونها ، وأنظمتهم التي ينظمونها ، وأوامرهم ونواهيهم التي يصدرونها ، وتدريبُهُمْ علَىٰ أن يبتغوا دواماً الأصلح والأحسن والأجود ، فإذا رأوا أنّ الخير في التعديل والتبديل عدّلوا وبدّلوا ، دون أن تستكبر نفوسهم عن ذلك .

فالله عزّ وجلّ مع أنّه عليم بكلّ شيءٍ قد ينسخ آية ثم يأتي بخير منها أو مثلها ، ليعلّمنا هذاالخلُقَ ويُدرّبنا عليه .

لكنّ المتسلّطين المستكبرين أصحَاب العقول الناقصة يتوهمون أنّ التعديل والتبديل في أعمالهم يُشعر بأنّ أعمالهم وقرارتهم السابقة قد كانت غير حكيمة ، فهم يرفضون الاعتراف بذلك ، فيُصِرّون على مواقفهم السابقة عناداً واستكباراً ، وهذا يفضي إلى الجمود في مواقع النقص والتخلّف .

ويتّخذ الكافرون من هذا الأسلوب التربوي الرّبّاني الحكيم شبهة يتصيَّدونها للطعن في الرسول ﷺ ، واتّهامه بأنّه يفترى القرآن على الله ، وبأنه يضعُه من عند نفسه ، لذلك فهو قد يبدّل آية مكان آية ، زاعمين أنّ الله عزّ وجل لا يمكن أن يفعل مثل هذا التعديل والتبديل .

ولم يترك الله عزّ وجلّ شبهتهم هذه دون بيان ، بل عرضَها ، وردّ عليها في حينها ، وعلّم رسوله ماذا يقول لهم ، وأبان سبحانه وتعالى أنّ افتراء الكذب على الله منحصر في الّذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأنّ هؤلاء البعداء عن رحمة الله هم الكاذبون .

أمّا المؤمنون بآيات الله فهم مهديّون ، وليس من شأنهم أن يفتروا أيّ كذبٍ على الله .

وهذا أبلغ دفاع من الله عزّ وجلّ عن رسوله .

وفي سياق بيان هذه الحادثة يقول الله عزّ وجلّ في سورة [النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول] :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

أي : ما يفتري الكذب على الله بوضع أقوال من عنده وادّعاء أنّها من كلام الله إلاّ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُون بآيات الله ، ولا يخافون نقمة الله وعذابه .

ولدى قراءة ما في ظلال هذا النصّ نفهم أنّ الله عزّ وجلّ يقول لهم : قد انحصر فيكم وفي أمثالكم التجرُّؤ على الله ، بافتراء الكذب عليه .

فدلّ هذا على أنّ من آثار عدم الإيمان بالله وبآياته افتراء الكـذب علـى الله .

* * *

البيان الثاني عشر :

من آثار عدم الإيمان باليوم الآخر أن يتَنَكَّبَ الكافر به عن الصراط المستقيم ، الذي فيه الهدى والخير ، وأن يتخذ لنفسه سُبُلاً شتَّىٰ ، ومَتَاهاتٍ فيها ضلالات ومهالك .

دلّ على هذه الظاهرة قول الله عزّ وجلّ في سورة [المؤمنون/٢٣ مصحف/٧٤ نزول] :

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤ ﴾

الصراط : الطريق المستقيم الواسع الواضح .

لَنَاكِبُون : لمائلون ، متنحُّونَ عنه ، واقعون في متاهات السُّبُلِ المتفرّقة .

يقال لغة : نكبَ عن الطريق يَنْكُبُ إذا عدل عنه ، وتنكّبَ عنه تنكُّباً إذا مال وعدل عنه ، ويقال : تنكَّبَهُ إذا تجنّبه .

* * *

البيان الثالث عشر :

من آثار الكفر التجرُّؤ على الله بتحريم ما لم يحرّمه الله ، ونظيره تحليل ما حرّم الله .

ومن أمثلة ذلك تحريم أهل الجاهليّة من المشركين - كذباً على الله وافتراءً - بعض الأنعام التي تتصف بصفات تجعل لها كرامة عندهم ، فخصُّوها بأحكام تحريم ابتدعوها من عند أنفسهم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وهي الأصناف التي يسمّونها : (البحيرة - والسائبة - والوصيلة - والحام) .

وقد أنزل الله بشأن ذلك عدة نصوص في نجوم التنزيل ، منها مكيّ ، ومنها مدني ، وقد جاء في خاتمتها قول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

البحيرة : البحْرُ عند العرب هو شقُّ الأُذن ، فالبحيرة هي مشقوقة الأذن من الأنعام (فعيلة بمعنى مفعولة) .

وفي البحيرة المحرّمة عند أهل الجاهلية من المشركين ثلاثة أقوال :

القول الأول : قال الشافعي كان العرب إذا نُتِجَتِ الناقة عندهم خمسة أبطن إناثاً ، بُحِرَتْ أُذُنُها فحُرّمَتْ .

القول الثاني : كانوا إذا نُتِجت الناقة خمسة أبطن ، فإن كان الخامس ذكراً بحروا أُذنه ، فأكله الرجال والنساء ، وإن كان الخامس أنثى بحروا أُذنها ، وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها .

القول الثالث : كانوا إذا نُتِجتِ الناقة خمسة أبطن ، شَقُّوا أُذُنَها وحرَّمُوا ركوبَها ولبنها .

ولعلّ كلّ هذه الصور كانت عند العرب .

السائبة : هي الناقة أو البعير تُسيَّبُ بنَذْرٍ ينذره مالكها ، فلا يُحبَس عن رعي ولا ماء ، ولا يركبه أحد .

وقيل : هي الّتي تُسيَّب لله ، فلا قَيْد عليها ، ولا راعي لها .

وقيل : هي الّتي تابعت بين عشر إناث ليس بينهنّ ذكر ، فعند ذلك تُسَيَّب ، فلا يُركب ظهرها ، ولا يُجزُّ وبرها ، ولا يَشْرَبُ لبنها إلاّ ضيف .

الوصيلة : هي الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى . وقيل : هي الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهي لهم ، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى

قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر ويجعلونه لآلهتهم .

إلى غير ذلك من أقوال تتضمّن أحكاماً سخيفة حول المراد من الوصيلة .

الحامي : هو الفحل إذا ركب ولد ولده . ويُقال : هو الذي ينتج من صلبه عشرة أبطن قالوا : قد حمىٰ ظهره ، فلا يُركَبُ ولا يُمنع من كلأ .

وهكذا ابتدع المشركون محرّمات من الأنعام ، فحرّموا ما لم يحرّمه الله في دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

فدلّ هذا على أنّ من آثار الكفر تَحْرِيمَ ما لم يُحرّمه الله افتراءً على الله ، وغُلوّاً في الدين .

* * *

البيان الرابع عشر :

دعا الرسول ﷺ المسلمين للخروج معه إلى الغزوة التي عرفت فيما بعد باسم « غزوة تبوك » فرأى كثيرٌ من المنافقين أنّ هذه الدعوة دعوةٌ إلى سفر شاقّ ، ومواجهة صعبة غير مأمونةِ العواقب ، فأسرعوا يستأذنون الرسول ﷺ في التخلّف عن الخروج معه في هذه الغزوة .

فكشف الله ببيانه أنّ الّذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لا يستأذنون في التخلّف عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم ، دون عُذْرٍ حقيقيّ .

إنّما يستأذن في التخلّف عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم دون عذر حقيقي الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، مهما تواردت عليهم براهين الإيمان ، وتظلُّ قُلوبُهم في أقرب أحوالها إلى الإيمان مرتابة شاكّة فهم بسبب ذلك يتردّدون مذبذبين ، بين الاستقرار في عمق الكفر ، والاقتراب من حدود الإيمان . وحين يستأذنون يتسترون بالمعاذير الكواذب .

وفي بيان ذلك قال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة [التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول] :

﴿ لَا يَسْتَئْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

أي : ﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿ الَّذِين يُؤْمِنُونَ بالله وَالْيَوْمِ الْآخر ﴾ في التَّخَلُّفِ عَنْ ﴿ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ في سبيل الله ، دون عذرٍ حقيقي ﴿ والله عَلِيمٌ بالمتَّقِينَ ﴾ الذين تضطرهم أعذارٌ حقيقيّةٌ للاستئذان أو التّخلّف .

﴿ إنَّما يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ في التخلّف عن أن يُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله دون عُذرٍ حقيقي ﴿ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالله والْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إيماناً صحيحاً صادقاً ، وهم بين المسلمين منافقون ، ﴿ وارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ لأنّهم لم يستقرّوا في عمق الكفر ، فهم يتردّدون بين مواقع عُمْقِ الكفر والحدود الخارجيّةِ للإيمان .

والنصّ يتحدّث عن المنافقين المذبذبين ، لا الذين مردوا على النفاق ، وهم كافرون بتصميم لا مذبذبون .

ولمّا كان نفي الإيمان لا يستلزم الاستقرار في عمق الكفر ، جاءت جملة ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾ عطفاً على جملة : ﴿ لا يؤمنون ﴾ إذِ الارتياب احتمال ثالث بينهما .

فدلّ هذا النصّ على أنّ الإيمان باعث على الجهاد بالأموال والأنفس ، ومانع من الاعتذار عنه بالمعاذير الكواذب .

ودلّ على أن عدم الإيمان باعث على عدم الجهاد بالأموال والأنفس ، وعلى التستر بالمعاذير الكواذب .

* * *

الفصل التاسع

خصائص الشريعة الإسلاميّة

وفيه بيان سبع خصائص :

الخصيصة الأولى : كونها ربّانيّة .

الخصيصة الثانية : عالمية الرسالة الإسلامية وعالمية أحكامها الشرعية .

الخصيصة الثالثة : قابليتها لاستيعاب كلّ سلوك النّاس .

الخصيصة الرابعة : قيامها على الحقّ والعدل ، وفعل الخير ، وترك الشرّ ومقاومته ، وتربية الناس على ممارسة كلّ حسنٍ وجميل ، والابتعاد عن كلّ سَيّئٍ وقبيح .

الخصيصة الخامسة : يُسْرُ تكاليفها وواقعيّتُها وكونُها لا إصْرَ فيها ولا حَرَج .

الخصيصة السادسة : التَّعامُلُ بأحكامها تعامُلٌ بين العبد وربّه .

الخصيصة السابعة : التخفيف في تكاليفها والتجاوز عن إنزال بعض الأحكام رحمةً بالناس .



مقدمة

تمتاز الشريعة الإسلامية بخصائص تجعلها أفضل تنظيم أو تشريع أو تقنين يضمن مصالح الناس ، وأمنهم ، واستقرارهم ويضمن حقوقهم بالعدل ، ويُحقّقُ رفاهيتهم ، إذا التزموا بأحكامها في أفرادهم ، وجماعاتهم ، وأحكامهم ، وسياسيتهم ، وأقضيتهم فيما بينهم ، ويضمن طمأنينة قلوبهم وراحة نفوسهم ، وسعادتَهم في دنياهم وأخراهم .

وفي هذا البحث عرضٌ وشرحٌ لِأَهَمّ وأبرز خصائصها :

الخصيصة الأولى :

« كَوْن الشريعة الإسلامية رَبَّانِيَّةً » .

أي : هي ذات مصدر منزَّل من عند الله ربّ العالمين ، فهي تُفْهَمُ من النصوص الرّبّانيّة الموحَىٰ بها إلى خاتم الأنبياء والمرسلين صراحةً ، أو استنباطاً ، أو قياساً عليها .

وليس شيءٌ منها من أوضاع البشر ، وليس شيء منها خاضعاً لأهواء الناس ، ولا متأثراً بمصالح فئةٍ ، أو طبقةٍ خاصّةٍ ، أو قومٍ ، أو شَعْبٍ ، أو عنصرٍ من الناس .

أمّا اختلاف اجتهادات فقهاء المسلمين التي نتج عنها اختلاف في الأحكام الفقهيّة المعبِّرة عن الشريعة الإسلامية ، فهو يرجع إلى اختلاف فَهْمٍ للنُّصوص ، أو اختلاف إدْرَاكٍ لما يُسْتَنْبطُ منها ، أو يُقاسُ عليها ، أو اختلافِ مَنْهَجٍ أُصُوليّ

لاستنباط الأحكام الشريعة ، أو لعدم العلم بالنّص أو الحديث النبويّ الذي يشتمل على ما يُمْكِن أن يُفيد المجتهد للتوصُّل إلى معرفة الحكم الشرعي .

وكونُها رَبَّانيّة يُعْطي ما هو يقينيُّ منها أو مُجْمَعٌ عليه لدىٰ فقهاء المسلمين صفة الكمال ، لأنّ الله العظيم العليم الحكيم الكامل في كلّ صفاته لا يصدر عنه إلاّ مَا يُلائم صفة كماله .

ومعنى كمال الشريعة الإسلاميّة أنَّها أحْسَنُ ما يمكن أن يُختار من تشريع لواقع أحوال المجتمع البشري ، ذي الأهواء والأغراض والمصالح والْعَلاقات المتشابكات .

فكمال شيءٍ لشيء آخر هو أحسن ما يلائمه ويَصْلُح له ، وليس كمالاً مُطلقاً ، إنّ أكْمَل حُلَّةٍ يُفصّلها وَيَخِيطُها خياطٌ ماهر لجسم فيه عيوبٌ أو تشويهات أن تكون هذه الْحُلَّة ملائمَةً تَماماً للحالة الخاصة لِهَذا الجسم ، ولن تكون هذه الحلَّةُ هي الأجمل ولا الأحسن بين سائر الْحُلَلِ المعدَّة لأجسامٍ كاملة التناسق ، ليس فيها عُيُوبٌ ولا تشويهات .

إنّ الرَّبّ العليم الحكيم القدير ليس له غرضٌ خاصٌّ ممّا يَشْرَعُه لعباده من شرائع وأحكام ، وليس له هوىً خاصٌّ ببعض عباده حتَّىٰ يجعله هذا الهوىٰ يُوجِّه تشريعاته لما يخدم منافع ومصالح هذا الفريق الخاصّ من عباده، إنّه سبحانه خالق جميع الناس، وربُّ العالمين جميعاً، كلُّهُمْ خَلْقُه، وكلُّهم عبيده بنسبةٍ سواء ، فهو لا يراعي مصالح قومٍ منهم، أو شَعْبٍ، أو سلالة، أو عرق ، أو أهل لغة، ضِدَّ مصالح الآخرين، بل كلُّهم بالنسبة إليه عبادٌ ممتحنون على مقادير ما يَمْنَح كُلَّ فَرْدٍ منهم، وقواعد تشريعاته لهم قواعد كليَّةٌ عامّة، تتناول الأوصاف، والأعمال، والمكتسبات الإرادية، ولا تختصُّ بالأشخاص ولا بالسُّلالات أو الأعراق أو الألوان .

أمّا تفضيله في الهبات التكوينيّة ، فإنَّ لها حِكماً تَدْخُلُ في عموم أنظمة التنويع في الْخَلْق ، وَلَو استوت الهبات لكان الكون كلُّهُ نَموذجاً واحداً مكرَّراً ، ولما ظَهَرت فيه آيات الله المختلفات .

إنّ الله عزّ وجلّ عليم بما يصْلُح لعباده من تشريعات وأحكام ، وعليم بما يمنحهم سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، فهو بحسب علمه بصفاتهم النفسيّة ، والفكريّة ، والجسدية ، وعلمه بحاجاتهم وأهوائهم وغرائزهم وطبائعهم التي طبعهم عليها ، وعِلْمِه بما ينتج عن علاقاتهم الاجتماعية ، يختار ما هو الأحسن والأفضل لهم من تشريعاتٍ وأحكام .

هذه الحقيقة تدخل في عموم قول الله عزّ وجلّ في سورة [الملك/٦٧ مصحف/٧٧ نزول] :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

بخلاف واضعي القوانين والتشريعات من البشر ، فإنَّك لا تكاد تجد واحداً منهم له أو لمن يحبّ علاقةٌ ما بما يَضَعُ من قانون أو تشريع ، إلاَّ وينحاز في تقنينه وتشريعه محابياً نفسه أو من يحبُّ ، أو الفئة التي هو منْها من فئات الناس .

وهذا ما ظهر في التشريعات البشرية ، والقوانين الوضعيّة ، فواضعو الأنظمة والقوانين من الرأسماليين كانت معظم قوانينهم وتشريعاتهم مما يخدم مصالح الرأسماليين . وواضعو الأنظمة والقوانين من فئة العمال في الناس كانت معظم قوانينهم وتشريعاتهم مما يخدم مصالح طبقة العمال ، ويظلم طبقة أصحاب الأموال . وهكذا .

أمّا الشريعة الرّبّانيّة فإنها ملائمة للحق والعدل أينما كانا ، فلا تُحابي فرداً على فرد ، ولا تُحابي فئة ضدّ فئة ، ولا أمّة ضدّ أمّة .

والشريعة الإسلاميّة لا تسمح بمحاباة النّفس أو الأقربين ضدّ حقوق الأبعدين ، ولا بمحاباة الفقراء ضدّ حقوق الأغنياء ، وفي بيان هذا خاطب الله عزّ وجلّ الذين آمنوا بقوله في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] :

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ

﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾

وكون الشريعة الإسلاميّة ربّانيّة يُحَقِّقُ لها أمرين عَظِيمَيْن :

الأمر الأول : تحقيق أوفى قَدْرٍ ممكن متكامل متوازن من مصالح الناس في الحياة الدنيا ، وتحقيق أوفىٰ نصيبٍ يمكن تحقيقه من الأمن الاجتماعي ، والطمأنينة النفسية والاستقرار، على ما جاء في البيان السابق، مع ما ينال المؤمنون بالله واليوم الآخر من سعادةٍ آخرويّة ثواباً لهم على التزامهم شريعة الله لعباده .

الأمر الثاني : اسْتجابة القلوب المؤمنة للعمل بها ، والرضا بأحكامها استجابة تامّةً فِي السِّرّ والْعَلَن ، لما لِلأُمور الرّبّانيّة من سلطانٍ على قلوب المؤمنين ، وهيمنةٍ على نفوسهم ، إذْ هِي مقترنة بثلاثة مؤثرات داخليّة : « الاقتناع بالحق - الرغبة بنيل ثواب الله - الخوف من عقاب الله » .

وهذا ما جعل المؤمنين يُريقون في سكك المدينة خمورهم لمّا نزل تحريم الخمر ، وأمَرَ الله باجتنابها. وجعل المؤمنين يُنْهُونَ تعاملهم بالرّبا ، لمّا نادى الرسول ﷺ بوَضعْهِ ، واقتصر المؤمنون على المطالبة برؤوس أموالهم غير ظالمين ولا مظلومين ، إلى غير ذلك من طاعة لأوامر الله ونواهيه ، بعد أَنْ رسخت في قلوبهم القاعدة الإيمانية ، ولا سيما ركنا الإيمان بالله واليوم الآخر .

* * *

الخصيصة الثانية :

« عالمية الرسالة الإسلامية ، وعالمية أحكامها الشرعية » .

أي : كونها عامّة للنّاس أجمعين في كل الأمكنة والأزمنة مهما توالت العصور ، دون تمييز ولا تخصيص ، ودون تفريق بين أمّةٍ وأمّةٍ ، وشعب وشعب .

النوع الإنساني كُلُّهُ ذو طبيعة واحدة ، لا تختلف خصائصه الإنسانيّة الفطريّةُ العامّة ، مهما تعدّدَت شعوبُه ، وأُمَمُه ، ولُغَاتُهُ ، وألْوانُه ، ومهما تعاقبت الأجيال منه ، نظراً إلى أنّه سُلالَةُ نفسٍ واحدة ، خلق الله منها زوجها ، وبثّ منهما كُلَّ شعوب الأرض ، ضمن برنامجٍ تكوينيٍّ واحد ، تختلف أفراده في نسب العناصر التكوينيّة الّتي تَسِير ضمن المورِّثات واحتمالاتها ، دون حذف ولا إضافة في أصول هذه العناصر .

أمّا اختلاف بعض الظواهر الإقليمية أو العرقيّة لدى الشعوب فإنّما هي عاداتٌ مكتسبات ، لا ينتج عنها تغيير جوهريٌّ في صفات النوع الإنساني وخصائصه ، أو وفْرَةُ ظُهُور بعض الصفات في الأفراد كالذكاء وأضداده ، وكالطول والْقِصَر وقوة الجسم وضعفه بتأثير اجتماع المورثات ، أو تأثيرات البيئة .

فمن الملاحظ أنّ الظواهر الإنسانية الّتي قصّ الله علينا في القرآن المجيد قِصَصَها ، ضمن ما قصّ علينا من أحوال أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى حتى عيسى فمحمّد عليهم الصلاة والسلام ، مَا هي إلاّ ظواهر سلوكٍ إنساني متشابهة ، وهي بمجموعها باستثناء اختلاف الوسائل والأساليب مشابهةٌ تماماً لأحوال السلوك الإنسانيّ المشهود في عصرنا الحاضر .

وقد دلّنَا الْقُرآن المجيد على تشابه العوامل الباطنيّة في الناس مع اختلاف عصورهم ، بقول الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ ﴾

إنَّ تشابه قلوبهم مع تباعُدِ عصورهم آلاف السنين دليلٌ علَىٰ أنّهم ذَوُو طبيعة واحدة في أصل التكوين الفطري .

وبقوله عزّ وجلّ في سورة [الذاريات/٥١ مصحف/٦٧ نزول] :

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

إنّ تَشَابَهَ الظّواهر يدلُّ على تشابه التكوين الفطري لما طُبع عليه الناس .

لذلك كان من الحكمة الرّبّانيّة أن يختم الله رسالاته للناس أجمعين بدين واحد ، يشتمل على شريعة ذات أحكامٍ وتنظيمات مُلائمات لكلّ هذا النوع الإنسانيّ في أُسُسِها ، ومفاهيمها ، وأحكامها .

سواءٌ ما كان منها يتعلّق بالعقائد والإيمانيّات ، أو يتعلّق بالعبادات ، أو يتعلّق بالأخلاق والآداب الظاهرة والباطنة ، وأنواع السلوك الفردي والاجتماعي ، أو يتعلّق بعلاقات الناس بعضهم ببعض ، في المعاملات المادّية وغير المادّية ، إلىٰ غير ذلك .

فالحاكم المسلم مكلّف أن يحكم بين غير المسلمين إذا ترافعوا في قضاياهم إليه ، بأحكام الشريعة الإسلامية ، إذا شاء أن يحكم بينهم ، ولا يحكُمُ بينهم بمقتضىٰ قوانينهم وأنظمتهم ، لأنّها في مفهوم الإسلام أحكامٌ مرفوضة لا يتبنّاها حاكم مسلم .

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] بشأن طائفة من اليهود :

﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وقال تعالى له فيها :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ . . . ﴿٤٨﴾ ﴾

وقال أيضاً فيها :

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

لقد جاء اليهود إلى الرسول طامعين بأن يحكم بينهم بغير ما أنزل الله عليه ، وبغية أن يفتنوه عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فيما يتعلّق بشؤونهم ، فشدّد الله في النصّ على رسوله ، والغَرَضُ تحذير حُكّام المسلمين بَعْدَه من أن يحكموا بغير ما أنزل الله ، ولو كان المتقاضون إليهم من غير المسلمين ، فالمسلم الملتزم بشرائع الإسلام لا يَحْكُمُ إلاّ بما أنزل الله ، وله في الإسلام سَعَةٌ في أن يُعْرِض عن غير المسلمين فلا يحكم بينهم .

والدليل القاطع الدالّ على أنّ فطرة النوع الإنساني فطرةٌ ثابتة لاَ تبديل لها ، وأنّ دين الله الشامل للعقائد والأخلاق والشرائع والأحكام وغيرها هو الدين الملائم ملاءمة تامّة لهذا النوع ، قول الله عزّ وجلّ في سورة [الروم/٣٠ مصحف/٨٤ نزول] :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

أمّا الأدلة على عالمية الرسالة الإسلامية من النصوص فكثيرة منها ما يلي :

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول] خطاباً لرسوله ﷺ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة [سبأ/٣٤ مصحف/٥٨ نزول] خطاباً لرسوله :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] خطاباً لرسوله :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . . ﴿١٥٨﴾ ﴾

إنّ كون الرسول محمد ﷺ رحمة للعالمين يستلزم عقلاً كون رسالته رحمة للعالمين .

وكون هذه الرسالة التي اشتملت على الشريعة الإسلاميّة رحمةً للعالمين أَمْرٌ يدلُّ باللّزوم العقلي على أنّها تتضمّن ما يرعىٰ مصالح العباد ، وما يدرأ المفاسد عنهم .

* * *

الخصيصة الثالثة :

« قابلية الشريعة الإسلامية لاستيعاب كلّ سلوك الناس بالأحكام المأخوذة من مصادرها بالنصّ الصريح ، أو عن طريق الاستنباط الدقيق الذي يتأهَّلُ له نُخْبَةٌ ممتازون من أهل العلم المجتهدين ، أو عن طريق القياس الذي يقوم به هؤلاء المؤهلون ، أو نحوِ ذلك من أصولٍ متفقٍ على بعضها ، ومختلفٍ في بعضها لاستخراج الأحكام الفقهية الشرعية » .

إنّه ما من عَمَلٍ أو سُلُوكٍ ظاهر أو باطن للفرد أو للمجتمع إلاّ لَهُ في الشريعة الإسلاميّة حُكْمٌ من الأحكام الشرعية الخمسة : « الوجوب - التحريم - الندب - الكراهة - الإباحة » وتتفاوت درجات الوجوب في الواجبات ، والتحريم في المحرّمات ، والندب في المندوبات ، والكراهة في المكروهات ، بحسب القِيَمِ الّتي تشتمل عليها ضمن المفاهيم الإسلامية .

من أجل هذا نجد في الواجبات ما تركه من الكبائر الكُبْرىٰ ، ومنها ما هو دون ذلك ، ومنها صغائر ، وهي على درجات .

إنّ إعلان الشهادتين لِمَنْ هو قادر على النطق بهما ، وهُو حرّ الإرادة

واجب تركه من الكبائر العظمىٰ المكفّرة ، وأركانُ الإسلام الأخرى تركها من الكبائر العظمى ولو لم يَكُنْ تركُهَا مكفراً ، وفي المراتب الدنيا من الواجبات ردّ السلام ، وغضّ البصر عمّا حرّم الله النظر إليه .

وإِنَّ الشرك من الكبائر المحرّمة العظمىٰ ، وهو ذنبٌ لا يغفر الله لمن مات دون أن يتوب منه ، أمّا ما دون الشرك فقد يغفر الله منه ما شاء الله لمن شاء ولو كان من الكبائر ، وتوجَدُ في المحرّمات صغائر ، ككشف العورة التي أمر الله بسترها ، وكالنظر إليها ، وبعض الصغائر أخف من بعض .

والمندوبات على درجات متفاوتات ، والمكروهات على درجات متفاوتات .

أمّا المباحات فهي ساحة متروكة لحرّيّة الإنسان ، يختار منها ما يشاء بشرط أن لا يؤدي اختياره إلى ضرر له أو لغيره .

فمن شمول أحكام الشريعة الإسلاميّة أنّها تتناول بأحكامها ما يلي :

(١) تصرُّف الإنسان تجاه نفسه ، وحقوق ذاته عليه ، فليس من حقّ الإنسان أن يأكُلَ أو يشرب أو يعمل عملاً يَضُرُّه من أجل إرضاء شهوته ، وليس من حقّه أن ينتحر ليتخلّص مما يضايقه أو يُؤْلمه في الحياة الدنيا ، إلاّ إذا أذن الله بذلك في أحكام شريعته لعباده ، فذاتُ الإنسان أمانَةٌ لديه ، والمستأمَنُ شيْءٌ هُوَ في دَاخل ذاته ، وهي هُوِّيَّتُه الداخليّة المكَّلفَةُ المسؤولة التي تَمْلِكُ التصرُّفَ بالأعمال الظاهرة والباطنة .

(٢) تصرّف الإنسان تجاه حقوق خالقه ، وما يجب عليه نحوه .

(٣) تعامل الإنسان مع غيره من النّاس ، أفراداً وجماعات .

(٤) تعامل الدول المسلمة مع شعبها المسلم ، ومع غيره من مواطني دولتها ، أو مع الدُّول الأخرى ورعاياها .

(٥) تعامل الإنسان مع الأحياء غير البشرية ، ومع النباتات ومع

الأرض ، ومع سائر ما في الكون من ظاهر وباطن .

(٦) تعامل الإنسان مع الكائنات الغيبيّة كالملائكة والجنّ ، ومع الموتىٰ ، وأَزْوَاجِهِمْ في عالم الغيب ، فالمسلم يدعو للموتىٰ ويذكر محاسِنَهم ويكفّ عن مساويهم ، ويتصَدَّقُ عنهم ، وقد يحجّ عنهم وقد يصوم ، ويصلّي ويسلّم على الأنبياء والمرسلين .

فهل فوق هذا الشمول لأحكام الشريعة الإسلاميّة شمول .

اختلاف الآراء الاجتهادية في الأحكام الفقهيّة

قد يقول قائل : إنّ فقه الفقهاء هو المعبّر عن أحكام الشريعة الإسلامية ، وفي هذا الفقه اختلافات كثيرة في الأحكام ، فما هو الممثل الحقيقي منها للشريعة الإسلاميّة ؟

الجواب : أنّ فقه الفقهاء المجتهدين الموثوق بهم لدى جماهير أهل السنة والجماعة يشتمل على قضايا وأحكام أصول مجمع عليها ، وهذه القضايا والأحكام هي لُبُّ الشريعة الإسلامية وخُطُوطُهَا العريضة .

* فالصلاة مثلاً هي من أركان الإسلام الأولَىٰ عند جميع المسلمين ، ولا خلاف في عدد ركعاتها وهيئة ركوعها وسجودها ووجوب قراءة القرآن فيها ، واشتمالها على ذكر الله .

أما ما حصل فيه خلاف كقبض اليدين على الصدر وكيفيته ، وتلاوة المأموم للقرآن ، والقنوت في بعض الصلوات وموطنه ، والجهر بالبسملة وعدم الجهر بها في الصلوات الجهريّة ، فأمْرٌ لاَ يُؤَثّر في جوهر الصلاة شيئاً ، والله عزّ وجلّ يقبل عبادة الجميع ما دامت النصوص غير قاطعة في الدلالة على وجْهٍ مُعَيَّنٍ من وُجوه الخلاف .

* وصيام رمضان هو من أركان الإسلام عند جميع المسلمين ، وهو من طُلوع الفجر إلى غروب الشمس في بلدان الحضارة القديمة وما حولها ،

ويجتهد المجتهدون بالنسبة إلى البلاد التي يقلّ فيها طلوع الشمس ، أو يقل فيها غياب الشمس أو ينعدم .

أمّا ما حصل فيه خلاف كقياس بعض الأشياء على المفطّرات الثابتة في القرآن والسنة واعتبارها ملحقة بالمفطّرات التي هي الأكل والشرب وقضاء شهوة الفرج عمداً ، وكطريقة العلم بدخول شهر رمضان اعتماداً على رؤية الهلال فقط ، أو جواز الاعتماد على الحسابات الفلكيّة ، فأمْرٌ لا يؤثرّ في جوهر عبادة الصيّام ، وباستطاعة الحاكم المسلم أن يعتمد من الآراء الاجتهادية المقبولة ما يُحَقِّقُ به المصلحة العامّة ، وَوَحْدَةَ المسلمين ، وما هو الأقرب لتحقيق مقاصد الشريعة .

* وفريضة الزكاة هي من أركان الإسلام عند جميع المسلمين ، ويجب أداؤها عند حصاد الزرع إذا كانت زكاة زورع وثمار. وعند استخراج الركاز، إذا كانت زكاة ركاز.

وإذا حال حول كامل إذا كانت الزكاة زكاة الأموال النقدية ، أو أموال التجارة ، أو أموال الأنعام .

وأمّا ما حصل فيه خلاف كإعفاء الخضراوات الموسميّة من الزكاة ، وإعفاء حُلِيّ النساء الْمعَدّ لزينتِهِنَّ المباحة من الزكاة ، فأمْرٌ لاَ يُؤَثر في جوهر عبادة الزكاة .

وباستطاعة الحاكم المسلم أن يحسم أمر الخلاف باعتماد الرأي الذي يراه أكثر تحقيقاً لمصالح المسلمين العامّة ، وأقرب إلى تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية .

وكذلك الحجّ وسائر العبادات .

* والرّبا من كبائر المحرّمات عند جميع المسلمين ، والجميع متفقون على أنّ المسلم الدائن ليس له إلاّ رأس ماله كما جاء في نصّ القرآن المجيد .

وأمّا ما حصل من خلافٍ في بعض الفروع فهو لا يؤثر على جوهر تحريم الرّبا ، الذي ينشأ عنه استغلال وظلم .

وللحاكم المسلم أن يحسم الأمر بترجيح أحد وجوه الخلاف المعتبرة إذا رآه هو الأقرب إلى تحقيق العدل وقطع الظلم ، وأقرب إلى تحقيق مقاصد الشريعة .

* وعلى نظير ما سبق نقول بالنسبة إلى أحكام المعاملات المختلفة ، وأحكام العقود ، وأنظمة الأحوال الشخصيّة .

فما هو مجمعٌ عليه أمْرٌ لَا مجال لمخالفته ، وما هو مختلف فيه اختلافاً يستند إلى أدلّة تتكافأ أو تتقارب في قوتها ، فالأمْرُ فيه يسير .

وباستطاعة الحاكم المسلم أن يَحْسِمَ الأمر باعتماد ما يراه أقرب إلى تحقيق العدل وقطع الظلم ، وأقرب إلى تحقيق مقاصد الشريعة الإسلاميّة .

هل الحق يتعدّد بتعدّد المقبول من الاجتهادات الفقيهة ؟

هنا طرح الباحثون من علماء أصول الفقه الإسلامي وأهل الاجتهاد سؤالاً ظهر من نتيجة اختلاف آراء الفقهاء في بعض ما استنبطوه من الأحكام الشرعية ، هذا السؤال نُعبّر عنه بالقول التالي :

هل الحقّ عند الله واحد ، أو هو متعدّد ، بمعنىٰ أنّ ما يَنْتَهِي إليه المجتهد المأذون له بالاجتهاد شرعاً يعتبر هو حكم الله في القَضيّة ، وبهذا يكون الرأيان المختلفان أو الآراء المختلفة كُلُّها موافقة لأحكام الله في هذه القضيّة ، وعلى هذا نعتبر اختلاف المذاهب المقبولة في المسائل الخلافية داخلاً في عموم أحكام الشريعة الإسلاميّة الرّبّانية .

أقول : هذا الموضوع يحتاج إلى تحليلٍ وتحريرٍ ، ورجوعٍ إلى بيانات الشارع ، ولا يصحُّ إلقاء الكلام فيه جزافاً اعتماداً على مجرّد بادي الرأي .

إنّ القضايا الّتي يُبْحَثُ عن حكم الشرع فيها ليست كلّها من جنْسٍ واحد ،

أو نوع واحد ، أو صنف واحد ، بل إذا نظرنا إليها بمنظارٍ تَحْلِيليّ وجدناها مع شيءٍ من التأمّل تنقسم إلى صنفين :

فالصنف الأول : هو ما يتردّد بين الحقّ والباطل ، دون أن يكون بينهما وسيط ، والحقُّ هو ما طابق الواقع العلميّ في الوجود ، والباطل هو ما خالف الواقع العلميّ .

ففي العقائد نلاحظ أمثلة كثيرة من هذا الصنف : إنّ كون الخالق للوجود واحداً أمْرٌ حقٌّ لا شك فيه ، ويقابل هذا الحقّ فِكْرَةُ تعدّد الربّ الخالق ، وهذه الفكرة باطلٌ لاَ شَكَّ فيه ، وليس بين الفكرتين وسيط ، وبهذا نلاحظ أنّ تعدُّدَ الحقّ في قضايا من هذا النوع أمر باطل بداهة .

وفي العبادات نلاحظ أنّ العبادة هي حقٌّ للرّب الخالق وَحْدَه لاَ شريك ، فعبادة غير الله مع الله أو على سبيل الانفراد أَمْرٌ باطل لا شَكَّ فيه ، وليس بين الفكرتين وسيط ، وبهذا نلاحظ أنّ تعدُّد الحقّ في قضايا من هذا النوع أمْرٌ باطلٌ بداهة .

وفي المعاملات نلاحظ أنّ أكل أموال النّاس عن تراضٍ منهم حقٌّ ، إذا خَلاَ هذا التراضي عن غشٍ وخداع وَإكراه لباطنِ الإرادة ، ولم يكن في هذا المال حقٌّ آخر معارض يُلاَحَظُ تسديدُه ووفاؤه ، كحَقِّ الزكاة . وفي مُقَابل هذا يأتي أكْلُ أموال الناس بغير حقٍّ شرعي ، وهذا أمْرٌ باطل حتماً ، ومن الصَّعْبِ أن نستخرج وَجْهاً يُقَالُ بشأنه هو حقٌّ في أكل أموال الناس الَّتي اكتسبوها بطريقة مشروعة ، دون رضاً منهم ، ودون أن يكون قد تعلَّق فيها حقٌّ آخر مُعَارِضٌ يَلاَحظُ تَسْدِيدُه ووفاؤه .

وفي مجال الحكم الإداري نلاحظ أن الوصول إلى سُدَّة الحكم بِبَيْعَةٍ شرعية حَقٌّ . وفي مقابل هذا يأتي الاستيلاء عَلَى السلطة بالتزوير ، أو بالْقَهْر عن طريق القوة العسكرية فهو باطل ، ومن الصَّعْبِ أن نستخرج وجهاً من الحقّ للاستيلاء على سُدّة الحكم بالتزوير ، أو بالقهر ، دون بَيْعةٍ شرعيّة .

هذه القضايا وأشباهها لا يتعدّد الحقّ فيها حتماً ، والخلاف فيها مشاحنة في أمور هي من البدهيّات .

وينطبق على هذا الصنف ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة :

« إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَان ، وإِذَا حَكَمَ فاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ » .

وما جاء في حديث وصيّة الرسول ﷺ لكُلِّ أمير يؤمّره ، الذي رواه مسلم عن بُرَيْدَة ، فقد جاء فيه :

« وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ الله فَلَا تُنْزِلْهُمْ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ الله أَمْ لَا؟ » .

فقد فرَّقَ الرَّسُولُ ﷺ بين الإذن بالاجتهاد ، وبين كون الحكم في ذاته صَواباً أَوْ خَطَأً ، مُوافِقاً حُكْمَ الله أَوْ غَيْرَ مُوافِقٍ .

وبهذا نلاحظ أنّ الوسيلة الاجتهاديّة قد تكون وسيلةً مأذوناً بها ، لأنّها صحيحة المنهج ، لكِنَّ النتيجة قد تكون صواباً وقد تكون خطأً .

فإذا كانت النتيجة صواباً فَهِيَ حقٌّ ، ولمن توصّل إليها باجتهاده أجران :

* أجرُ اتخاذ الوسيلة المأذون بها .

* وأجْرُ إصابة الحقّ ، لأنّه بالَغَ في البحث والتحرّي ، وتجرّد من كلّ العوامل النفسيّة تجرّداً كاملاً ، بغية الوصول إلى الحقّ قدر مستطاعه ، وحمّل نفسه من المشقة ما يدعو إليه البرّ والإحسان .

وإذا كانت النتيجة خَطَأً فهي باطل ، لكنّ صاحِبَها المأذون له بالاجتهاد معذور عند الله في أنْ يَحْكُمَ بها ، لأنَّه قد كان مأذوناً شرعاً باستخدام الوسيلة ، وله باجتهاده أجْرٌ واحد فقط ، هو أجر اتّخاذ الوسيلة ضمن حدود الإذن

الشرعي ، وضمن الشروط الّتي تأمر بها موجبات التقوىٰ .

فالحقّ في هذا الصنف هو واحد حتماً ، غير متعدّد ، وحُكْمُ الله لو بلّغَهُ الرَّسُول بعبارة نَصِّيَّةٍ صَرِيحة هو حُكْمٌ واحد .

ولكن لما وَسَّعَ الله الْأَمْرَ عَلَىٰ النّاسِ ، أَذِنَ لِذَوي الاستنباط منهم وأهل العلم والاجتهاد ، بأن يجتهدوا في حدود طاقاتهم البشريّة ، من مرتبة التقوىٰ ، أو من مرتبَتَيْ البرّ والإحسان ، وأعطاهُمُ الْعُذْر إذا أَخْطَؤُوا .

وهنا لا يُقَالُ: إنّ الحكم الذي أخطَؤُوا فيه هو حُكْمُ الله في القضيّة حتَّى لا يلْزَمَ من ذَلِكَ تَعَدُّدِ الْحَقّ.

الصنف الثاني من القضايا : ما يكون جانب الحقّ فيه يشتمل على عدّة احتمالات وصُوَر بَعْضُها أَحْسَنُ من بعض ، وفي المقابل قد يكون جانب الباطل فيه يشتمل على عدّة احتمالات وصُوَر ، بعضُها أخفُّ شرّاً وضُرَّاً مِنْ بعض .

ويظهر هذا في أمثلة كثيرة :

* منها ما يدخل في احتمالات تحديد الوسيلة الّتي يَتِمُّ بها تحقيق الحق ، على ما يبدو للحاكم أو القاضي المسلم ، ضمن قدرات فهمه لمختلف وسائل تحقيق الحق .

* ومنها التّردّد بين التزام ظاهر النصّ ، وبين العمل بمقصد الشارع منه .

ومن الأمثلة ما يلي :

المثال الأول :

ترافع خصمان إلى داود عليه السلام ، أحدهما جانٍ ، والآخَرُ ، مَجْنِيٌّ عليه ، فالْجَانِي تَرَكَ غنمه ليلاً تدخُلُ في زرع المجنيّ عليه ، فأكلتْ وأفسدتْ ما لم تأكل .

إنّ الحقّ الكامل في هذه القضيّة أن يعطي الجاني عوضاً للمجنيّ عليه

مكافئاً لقيمة ما أتلف غنمه من زرع .

لكن تقدير القيمة على وجه الدقّة أمْرٌ صعْبٌ في حدود الاستطاعة البشرية .

هنا نظر داود عليه السلام في قيمة الزرع ، ونظر في قيمة الغنم ، فرأىٰ أنّ الغنم الجانية تعادل تقريباً قيمة الزرع الذي أتلفته ، فحكم لصاحب الأرض بأن يأخذ الغنم التي أتلفت زرعه عوضاً عنه ، ولعلّه رأىٰ أنّ صاحب الغنم لا يملك غيرها حتَّىٰ يُكلِّفَهُ أن يُعوّض عليه من غيرها ، والشرع الرّبّاني يأذن بالتقدير التقريبي للقيم عند صعوبة التحديد .

لكنّ سليمان بن داود عليهما السلام آتاه الله فهمْاً آخر أكْثَر دقَّة ، وفتح عليه بأن يقضي بحكم أحْسَنَ من حكم أبيه .

لقد نظر إلى حالة صاحب الغنم فرأى أنّه سيخسر كُلَّ مالِه ، ولا يبقىٰ لديه شيء ، مع أنّ بالإمكان تكليفه تسديد الحقّ ، مع الرّفق به في أن تبقى غنمه له متَىٰ سَدّد الحقّ الذي عليه .

فكان اجتهاد سليمان عليه السلام أن تُسَلَّم الغنم لصاحب الأرض يستفيد من ألبانها وأصوافها ، وأن تُسَلَّم الأرض لصاحب الغنم كي يَزْرَعَها وَيُصْلِحها ، فإذا بلغ الزرع مثل ما كان عليه عند الإتلاف تسلَّم صاحب الأرض أرضه ، وتسلَّم صاحب الغنم غنمه .

إنّ الحكمين كليهما يقعان ضمن احتمالات صور تسديد الحقّ ، لكنَّ حكم سليمان على حداثة سنه ، وقلّة تجربته كان أحْسَن في هذه القضيّة من حكم أبيه .

هذه القصّة أشار الله عزّ وجلّ إليها في القرآن ليبيّن لنا احتمال تعرّض قضيّةٍ لصورتين من وسائل تحقيق الحقّ ، إلاّ أنّ إحداهما أحْسَنُ من الأخرى .

فقال الله عزّ وجلّ في سورة [الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول] :

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْم : أي : رعَتْ فيه ليلاً فأفسدتْهُ على أصحابه .

وجاء في بيان واقعة قضائهما ما رواه الطبريُّ بسنده عن ابن مسعود قال :

كَرْمٌ قَدْ أَنْبَتَ عَنَاقيدَهُ ، فأفسدته ، أي : الغنم . قال : فقضىٰ داوُد بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبيّ الله ، قال : وما ذاك؟ قال : يُدْفَعُ الكرْم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتّىٰ يعود كما كان ، وتُدْفَعُ الغنم إلى صاحب الكرْم فَيُصِيبُ منها ، حتى إذا كان الكرم كما كان دَفَعْتَ الْكرْم إلى صاحبِهِ ، ودفَعْتَ الغنم إلى صاحبه .

وروي عن ابن عباس رواية أخرى .

فقال داود لابنه سليمان : قد أَصَبْتَ ، القضاء ما قضَيْتَ .

وقول الله عزّ وجلّ : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ هو من التفهيم الّذي قد يحصُل نظيره لغير الأنبياء ، وليس هو تفهيماً عن طريق الوحي ، وهذا يشير ضمناً إلى أنّ حُكْمَ سُلَيْمَانَ هُو الحكم الْأَحْسَنُ في هذه القضيّة .

المثال الثاني :

ما رواه البخاري بسنده عن عبد الله بن عُمر أنَّ النبي ﷺ قال يوم الأحزاب (أي : بعد أن رجع الأحزاب وانتهت مشكلة المسلمين معهم) :

« لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَة » فأدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ في الطريق ، فقال بعضُهُمْ : بَلْ نُصَلِّيَ ، لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ . فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِداً منهم .

هذه الحادثة أَخَذَ فيها بعض الصحابة بظاهر النصّ الذي تضمّن أن لا يُصَلِّي

أحَدٌ من المسلمين العصر إلاّ في بني قريظة .

وأخذ بعضهم بالمقصد من هذا الأمر ، وذلِكَ لأنَّ القضيّة لا تتعلّق بصلاة العصر لذاتها ، بل الغرض الإسراع ، وتَرْكُ كُلِّ شاغل ، بغية المباغتة بالحصار لبني قريظة الذين نقضوا العهد ، واتفقوا مع الأحزاب على حرب الرسول والمسلمين في المدينة ، قبل أن يَبْلُغَهُمُ الخبر فيتخذوا لأنفسهم مَهْرَباً .

فمن أخذ بظاهر النصّ وأخّر صلاة العصر لَمْ يُعَنِّفْهُ الرَّسُول ﷺ ، لأنّه قصد الطاعة .

ومن أدرك أن الغرض الإسراع وقد حقّقه وفق الطلب ، وصلّىٰ العصر حينما أدركته ، ووصل إلى بني قريظة في الوقت الذي أراد الرسول من المسلمين أن يصلوا فيه إليها ، لم يعنّفه الرسول أيضاً .

فريق عمل بظاهر النصّ ، وفريق آخَرُ عمل بالمقصد من التكليف ، وبدهيٌّ أنّ تأخير صلاة العصر لم يكن أمراً تعبّديّاً ، وإنّما كان أمراً من أجْلِ تحقيق غرضٍ عسكري ، وقد تحقَّق مع أداء الصلاة في وقتها .

ونظير هذا ما جاء في بيان الرسول ﷺ حول دخول شهر رمضان وانتهاء رمضان ودخول شهر شوال ، إذْ ربطه الرسول ﷺ برؤية الهلال ، فقال : « صُومُوا لرؤيته ، وأفطِرُوا لرؤيته ، فإنْ غُمَّ عليكم فأكمِلُوا عِدَّة شعبان ثلاثين » .

وعلّل الرسول هذا الربط برؤية الهلال رؤيةً بصريّة بقوله : « إنَّا أُمَّةٌ أُمّيّة » .

وبدهيٌّ أنّ الربط بالهلال ليس أمراً تعبُّدِيّاً لخُصُوصِ رؤية الهلال ، بل هو وسيلة لمعرفة دخول الشهر .

فإذا توصَّلْنَا إلى وسيلة أخرى نعرف بها دخول الشهر ، فإنَّنا نكون بهذا قَدْ حقَّقْنَا مَقْصِدَ الشارع ، إذِ الوسيلةُ ليسَتْ مقصودةً لذاتها ، إنّما ذُكِرَتْ للتَّيْسِير على الأمّةِ الَّتي كانَتْ أُمِّيَّةً إبّانَ التنزيل ، لكنّ الله أراد أَنْ يجعل منها أمّة تقرأ

وتكتُبُ وتَحْسُبُ ، فأمرها بالقراءة التي تستلزم الكتابة ، ووجَّهَهَا لأن تتعلّم بالقلم ، ووجَّهها لأنْ تتعلّم عدد السنين والحساب ، وقد كان الحساب يُطْلَق على معرفة أنظمة الشهور والسنين ومطالع القمر ، وما يتعلّق بالفلك .

فمن أخذ بمبدأ معرفة دخول الشهر وولادة القمر عن طريق الحساب فقد عمل بمقصود الشارع من النصّ ، كالذين صَلّوا العصر حين أدركتْهم ، فَهْماً منهم بأنّ طلَبَ التأخير لم يكن لذاته ، وإنّما كان من أجل الإسراع بالخروج إلى حصار بني قريظة ، وقد حقَّقُوه .

بهذا التحليل نلاحظ أنّ هذا الصنف من القضايا صنف تردَّدَ فيه الحكم بين حَسَنٍ وأحْسَن من وسائل تحقيق الحقّ . أو بين أخذٍ بظاهر النصّ ، وعَمَلٍ بمقصود الشارع فيه .

وفي كلا الأمرين لا نستطيع أن نقول : إنّ الحقّ قد تعدّد ، إنّما الذي تعدّد وسائل إحقاق الحقّ بين حسنٍ وأحْسَن في المثال الأول ، أمّا في الثاني فالذي تعدّد هو فهم المراد من النصّ ، مع تحقيق المقصود في كُلٍّ منهما ، هذا أسرع وأخّر الصلاة ، وهذا أسْرَع وقَدَّم الصلاة ، وكلٌّ منهما حقَقَ المقصود وهو الإسراع ، والعذر في تأخير الصلاة مع العمل بظاهر النصّ عُذْرٌ واضح لا مجال للمناقشة فيه ، بل هو من الطاعة .

وفي كلّ ذلك لا نلاحظ أنّ الحقّ قد تعدّد .

وقد يقول قائل : إنّ الشارع نفسه قد ينسخ حُكْماً شرعِيّاً بحكم شرعي آخرَ ، أفليس هذا من تعدّد الحقّ؟ .

وفي الإجابة على هذا أقول : إنّ صورة التكاليف الشرعية التعبديّة لا تنضوي تحت مبدئي الحقّ والباطل ، بل هي تندرج تَحْتَ عنوانين آخرين ، فهي :

* إمّا صُوَرٌ متماثلة ، من الاحتمالات الممكنة .

* وإمّا صُورٌ بعضها أَحْسَنُ من بعض .

ولله أن يكلّف عباده بما شاء من تكاليف ، سواءٌ أكانت أفعالاً يؤدّونها ، أو أفعالاً يتركونها ، والغرض منها امتحان طاعتهم ، مع ما قد يكون فيها من منافع ومصالح لهم .

وفي التنبيه على هذه الحقيقة قال الله عزّ وجل في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ . . . ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

واشتمال الشريعة الإسلامية على قضايا ليس فيها نصوصٌ قاطعة ، تبيّن أحكامها الشرعيّة ، بل جعلها الله عزّ وجلّ مجالاً لاجتهاد المجتهدين المؤهلين لاستنباط الأحكام ، ومجالاً لاحتمال اختلاف الآراء حولها ، هو من تكريم الله للفكر الإنساني في هذا الدين الخاتم ، إذْ هو يشجعه على أن يبذل طاقاته تفكيراً وبحثاً واستنباطاً لمعرفة الحق والباطل ، والخير والشر ، ومصالح الأفراد والجماعات في المجتمع البشري ، بالاستناد إلى كليّات الشريعة الإسلامية الدستورية الثابتة في مصادرها ، وبالقياس على أحكامها الثابتة ، ولا سيما إذا لاحظنا أنّ صور علاقات الناس تزداد عصراً بعد عصر ، فهي بحاجة إلى اكتشاف أحكام الشريعة فيها ، استناداً إلى كليّات الإسلام الدستورية .

كما أنّ أشياء كثيرة ستكتشف عصراً بعد عصر ، من مأكولات ، ومشروبات ، ومشمومات ، ومسموعات ، ومبصرات ، ومركوبات ، وملبوسات ، وأشياء أخرى تتعلّق بالأجساد والحياة ، كزراعة الأعضاء ، وأطفال الأنابيب ، وتربية الأجنّة ضمن آلات صناعية ، وتغييراتٍ في الغدد الهرمونية ، وغير ذلك ، فكلُّ صنف منها بحاجة إلى استنباط ما يلائمه من حكم شرعي ، بالنظر إلى صفاته وتأثيراته ، ومنافعه ومضارّه ، فمنح الشريعة الإسلاميّة المؤهلين للاجتهاد صَلاحيّة استنباط الأحكام هو من تكريم الله للإنسانيّة في هذا الدّين الخاتم .

الخصيصة الرابعة :

« قيامها على الحق والعدل ، وفعل الخير وترك الشرّ ومقاوَمتِه ، وتربية النّاس على ممارسة كلّ حسن وجميل ، والابتعاد عن كلّ سَيّيء وقبيح » .

بالنَّظْرَة الفلسفيّة إلى الأسس الجذور التي تقوم عليها أحكام الشريعة الإسلامية نلاحظ أنّها تقوم على ثلاثة أسس كبرى :

الأساس الأول : إحقاق الحق وإبطالُ الباطل ، والحقّ يلازمه الْعَدْلُ دَواماً ، والباطلُ يلازمُه الظلم دواماً .

الأساس الثاني : فعل الخير ونشره في المجتمع البشري ، وتركُ الشرّ ومقاومته في المجتمع البشري ، ومن الخير البرُّ والإحسان ، وهما عطاء اختياريّ فوق الحقّ .

الأساس الثالث : تربية الناس وحثُّهم على ممارسة كلّ حسَن وجميل ، والابتعاد عن كلّ سَيّيء وقبيح .

لمّا خلق الله الإنسان الأول وشاء أن يضعه وذرّياته موضع الابتلاء (الامتحان) منحَهُ الفكر الذي يُدْرِك به الحقّ والباطل ، والخيرَ والشر ، والجمال والقُبْح ، ومنحه إلى جانب الفكر الحسَّ الوجداني الذي يُمَيِّز الحقّ والخير والجمال ويأنَسُ بها ويحبُّها ، ويُمَيّز الباطل والشرّ والقبح وينفر منها ويكرهها .

ومنحه الإرادة الحرّة الّتي تُوَجِّه مَسِيرَة أعماله حسْبَ اختياراته ، ما ظهر منها ومَا بطن .

ورتَبَ الله عزّ وجلَّ بحكمته على الإيمان بقضايا الحقّ الكبرى الدينيّة ، وعلى العمل بما أمر به من خير وفضائل حسنةٍ ، ثواباً عظيماً يوم الدين ، وقد يثيب على بعضها ثواباً معجّلاً في الدنيا كالنصر والتأييد والعون والتوفيق ترغيباً ، ودليلاً على أنّه لا بُدَّ من تحقيق قانون الجزاء بالثواب يوم الدين ،

ورتّبَ بحكمته على معصية الواجب عقابا بالعدل يوم الدين أيضاً ، على أنه قد يجازي ببعض أنواع العقاب المعجّل في الدنيا ، كالهزيمة وضيق الصدر وضنك العيش والكوارث أحياناً إنذراً ، ودليلاً على أنّه لا بّد من تحقيق قانون الجزاء بالعقاب يوم الدين ، إذا لم يغفر الله للعاصي بمقتضى حكمته .

بَيْدَ أنّ الأصل في قانون الجزاء الرّبّاني هو أنه مؤخر إلى يوم الدين .

هذه الأسس قد أبانتها نصوص من القرآن المجيد والسنّة الشريفة .

أوّلاً ففي بيان إحقاق الحقّ وإبطال الباطل قال الله عزّ وجلّ في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾

* فالله وحده هو الحقّ الأزليّ الأبديُّ في ذاته وفي صفاته ، لذلِكَ كان في رأس أركان الإيمان في أحكام الشريعة الإسلامية الإيمان به .

* والله لا يقول إلاّ الحقّ ، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

أي : الْحَقُّ الكامل الذي لا باطل فيه هو قوله تبارك وتعالى ، لذلك كان من أركان الإيمان في أحكام الشريعة الإسلاميّة الإيمان بما أنزل من قول على رُسُلِه ، متىٰ ثَبَتَ لَدَيْنَا ذَلِكَ بطريقٍ يقينيٍّ قاطع .

* والله عزّ وجلّ يُحِقُّ الْحَقَّ ويُبْطلُ الباطل ، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في سورة [الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول] :

﴿ . . . وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

* والله عزّ وجلّ يَقُصُّ الحقَّ ، أي : يَتَتَبَّعُ عَناصِرَ الْحَقِّ فِي كلّ موضوع حتَّىٰ غايَتِها وَأَقْصاها ، فَيَفْصِلُ بِالْحَقِّ ، وهو خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ، ويَحْكُمُ بالْحَقِّ وهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في سُورةِ [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ . . . إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

* والله عزّ وجلّ يَقْضِي بالْحَقّ ، في كلِّ أَمْرٍ يستدعي قضاءً فاصلاً بين الْحَقّ والباطل ، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في سورة [غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول] :

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

* ووعْدُ الله حقّ ، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في سورة [فاطر/٣٥ مصحف/٤٣ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾

* وأنزل الله عزَّ وجَلَّ كتابَهُ بالْحَقِّ ، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في سورة [الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول] خطاباً لرسوله :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

* وأرسل الله رسوله بالْحَقّ وبدين الحقّ ، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في سورة [التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول] :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

الإلزام بإقامة العدل لإحقاق الحق

العدل : هو إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقَّه دون زيادة ولا نقصان . وقد كلّف الله رَسُولَهُ وجميع الحكّام من المسلمين أن يحكموا بين الناس بالعدل ، على مقدار

استطاعتهم البشريّة ، وما يتيسّر لدى الناس من أدلة إثبات كافية لإعطاء غلبة الظّن .

وذلك لأنّ الْحُكّام عاجزون عن أن يثبتوا الحقّ بيقين لأصحاب الحقوق ، ليحكموا بين الناس بالعدل المستند إلى يقين قاطع ، في معظم القضايا التي تُعْرَضُ عليهم .

فهم مضطرون أن يصدروا أحكامهم القضائية استناداً إلى ما تقدّمه الأدلة من غلبة الظنّ .

فالمطلوب في الشريعة الإسلامية من الحكام المسلمين والقضاة أن يحكموا بما يَرَوْنَ من عدلٍ ، استناداً إلى ما تقدّمه الأدلة من غلبةِ ظَنٍّ إذا لم تكن لديهم أدلّة يقينيّة .

والحكم بالعدل هو إحقاق للحقّ ، لكن حُكْم الحاكم المسلم أو القاضي لإنسانٍ ما بشيء لا يُعْفِي المحكوم له من المسؤولية عند الله ، إذا كان يعْلمُ من نفسه أنّه غير صاحب حقّ ، وإذا كان يعلَمُ أنّ القاضي إنما حكم له استناداً إلى ما ظهر له من الأدلة .

وهذا ما حذّر منه الرسول ﷺ حتّى لو كان الحاكم الرسول نفسه .

فعن أمّ سلمَة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ سَمِعَ جَلَبَةً بباب حُجْرَتِهِ فخرج إليهم فقال :

« إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِن حَقِّ أَخِيهِ فَلاَ يَأْخُذَنَّهُ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّار » .

جَلَبة : أصوات ناس يتراجعون الكلام في خصومة أو غيرها .

أَلْحَنَ بحُجَّتِهِ : أيْ : أَفطَنَ لها ، وأقْدَر على تزيين كلامه لتصوير أنَّه صاحب الحقّ .

وفي الإلزام بالحكم بالعدل بين الناس جاءت عدّة نصوص من القرآن والسنة ، فمنها ما يلي :

* قول الله عزّ وجلّ في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] :

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾

* وأمَرَ الله بالعدل في القول فقال عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ . . وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ . . . ﴿١٥٢﴾ ﴾

أي : ولو كان من تريدون محاباته بقولٍ مائلٍ عن الحقّ ذا قُربَىٰ .

* وخاطب الذين آمنوا بقوله في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

* وأثنَىٰ الله عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ أُمَّةِ محمد ﷺ بقوله في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] :

﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

ثانياً : وفي بيان الدّعوة إلى فعل الخير واجتناب الشرّ وهو الأساس الفلسفيّ الثاني ، نجد طائفةً من النصوص منها ، ما يلي :

* قول الله عزّ وجلّ في سورة [الحجّ/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾

* وقول الله عزّ وجلّ في سورة [المزمل/٧٣ مصحف/٣ نزول] :

﴿... وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

ثالثاً : وفي بيان ما يدخل في الأساس الثالث ، وهو تربية الناس وحثُّهُمْ على ممارسة كلِّ حسنٍ وجميلٍ من الأخلاق والآداب ، والابتعاد عن كلِّ شيءٍ قبيح وسيّئٍ ، نجد طائفة من النصوص ، منها ما يلي :

* قول الله عزّ وجلّ في سورة [النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول] :

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

* وقول الله عزّ وجل في سورة [الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول] :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ... ﴿٥٣﴾﴾

الضروريات والحاجيات والتحسينيات

هذه الأسس الفلسفية التي قامت عليها أحكام الشريعة الإسلاميّة كما أوضحت آنفاً ، واستعرضت طائفةً من الأدلة عليها ، قد نظر إليها علماء أصول الفقه بمنظار جلب المصالح ودرء المفاسد للعباد ، وظهر لهم باستقراء الأحكام الشرعيّة أنَّها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الضروريّات .

القسم الثاني : الحاجيّات .

القسم الثالث : التحسينيَّات .

* **فالضروريات** هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها ، وقد ذكَرُوا أنَّها خمسة أصول :

١ً - ما يكون به حفظ الدين ، وقد شرع لحفظ الدين العبادات وشرع لنشره وحمايته الجهاد وعقوبة المرتد ، وزَجْرَ من يفسد على الناس عقيدتهم ، إلى غير ذلك من أحكام .

٢ً - ما يكون به حفظ النفس ، وقد شُرِعَ لبقاء النوع الزواج ، وشُرع لحماية الأنفس من العدوان القصاص ، وتحريمُ إلقاء النفس في التهلكة ، ووجوبُ دفع الضرّر عن النفس ، ولو كانت نفس صاحبها .

٣ً - ما يكون به حفظ العقل ، وقد شُرِع لحفظه تحريم الخمر ، وعقوبة شاربها ، ويقاس على الخمر كلُّ ما فيه إضرار أو إفسادٌ للقوّة الفكريّة في الإنسان ، كالمخدّرات بأنواعها المختلفات .

٤ً - ما يكون به حفظ العِرْض والنسل ، وقد شرع لحماية هذا الأصل حرمة الزنا ، وحرمة القذف ، وعقوبتهما ، وحرمة إجهاض المرأة الحامل إلاّ عند الضرورة ، إذَا دَبَّتِ الروح في الجنين .

٥ً - ما يكون به كسب المال وحفْظُه ، وقد شرع لكسبه أنواع الاستنتاجات ، والاستخراجات ، والتصنيعات ، وأعمال الخدمات الخاصّة والعامّة ، وأنواع المعاملات كالبيوع والشركات وغيرها .

وشُرِعَ لحمايته تحريم أكل أموال الناس بالباطل ، وتحريم الرّبا ، والسّرقة والسلب والنهب ، وعقوبةُ السارق ، وعقوبة قطاع الطُّرُق ، وغير ذلك من أحكام .

* **والحاجيات** : هي التي يحتاج إليها الناس ليعيشوا بِيُسْرٍ وسَعَة ، وبدونها يَقَعُ الناس في ضيقٍ وحرَج ، ومَرْتَبَتُها دون مرتبة الضّرُوريات .

وقد اشتملت أحكام الشريعة الإسلامية على أحكام رُوعِيَ فيها مصالح الناس في الحاجيّات .

فمن أَجْلها شُرِعَتِ الرُّخص عند المشقة ، كالفطر في شهر الصوم للمريض

والمسافر ، وشُرِعَ بَيْعُ السَّلَم (وهو بيع المعدوم الموصوف بالذمة) دفعاً للضيق والحرج عن الناس ، وأجاز الحنفيّة عقد الاستصناع وهو عقد على صنع شيءٍ موصوف بالذمّة ، كصُنْع حذاء أو ثوب أو آلة ، مع أنّ الأصل منع بيع المعدوم لكنّ التيسير اقتضىٰ الرُّخصَة في مثل هذا ، لحاجة الناس إلى مثل هذه المعاملات ، ومن أجل الحاجة شُرِع الطلاق للخلاص من حياة زَوْجيّة أمْسَتْ لا تُطاق ، بسبب عدم الوفاق .

* **والتحسينيّات** : هي التي ترجع إلى محاسن العادات والآداب ، ومكارم العلاقات الاجتماعية ، كإفشاء السلام ، وعيادة المريض ، وزيارة الإخوان في الله ، وإكرام الضيف ، وحُسْن المعاشرة والملاطفة ، وعدم استعمال الألفاظ الفاحشة ، وآداب الطعام والشراب والمشي ، إلى غير ذلك من أمور كثيرة .

ومن أجل التحسينيات شرعت الطهارة للبدن والثوب ، وشرع سَتْرُ العورة ، وأخذ الزينة عند كلّ مسجد .

الخصيصة الخامسة :

« يُسْرُ التكاليف في الشريعة الإسلاميّة وواقعيتُها ورَفْع الإِصْرِ والْحَرَجِ الَّذِي كان في الشرائع السابقة » .

من الظاهر في التكاليف الشرعية الإسلامية أنّها مبنيّة عَلَىٰ الْيُسر ورفع الحرج ، وعلى ملاءمتها للطاقة الإنسانيّة المعتادة ، وملاءمتها لدوافع الفطرة .

وقد خصّ الله هذه الرّسالة المحمّديّة الخاتمة بهذهِ الخصيصة ، إذْ شاءت حكمته أن تكون هي الرسالة العامّة لكلّ الناس ، وهي الرسالة الخاتمة المحفوظة من التحريف والتبديل .

فحين بشّر الله بني إسرائيل على لسان موسَىٰ عليه السلام بالنبيّ الأمّيّ الذي يختم به رسالاته للناس ، قال كما أبان لنا في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] :

﴿ ... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

الإِصْرُ : هو الْعَهْدُ الثَّقِيل ، والتكليف الثقيل الشديد ، والعقوبَاتُ الشّديدة على الذنوب الّتي لها صفة الحدود .

الأَغْلال : جمع « غُلّ » والْمُرَادُ التكاليف الشاقّة ، ولفظ الأغلال كنايةٌ عَنها .

ونُطَالع في أسفار التوراة مع مَا فيها من تحريف فنجد فيها أمثلة من التكاليف والعقوبات الشاقة التي كانت على بني إسرائيل ، منها ما يلي :

(١) جاء في الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر الخروج :

« ٢ سِتَّةُ أيّام يُعْمَلُ عَمَلٌ . وَأَمّا الْيَوْمُ السّابعُ فَفِيه لَكُمْ سَبْتُ عُطْلَةٍ مُقَدَّسٌ لِلرَّب . كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ فِيهِ عَمَلاً يُقْتَلُ . لاَ تُشْعِلُوا ناراً فِي جَمِيعِ مَسَاكِنِكُمْ يَوْمَ السَّبْت » .

(٢) وجاء في الإصحاح الرابع من سفر اللآويّين أنَّ مَنْ أَخْطَأَ سَهْواً في جَمِيعِ مَا نَهَىٰ الرَّبُّ عنه ، فجزاؤُهُ أَنْ يَذْبَحَ ثَوْراً صَحيحاً للرَّب ذبيحةَ خطِيّةٍ ، ثُمَّ تُحْرَقُ هٰذِهِ الذبيحةُ عَلَىٰ حَطَبٍ بالنّار ، ضِمْنَ طُقُوسٍ وأعمالٍ مَرْسُومَة .

وهنا نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ قد رفع في الإسلام الحرجَ عمّا يفْعَلُ المكلّف مخطئاً غير عامد ، أو ساهياً ، أو ناسياً ، أو مُكْرَهاً .

ففي الحديث عن الرسول ﷺ قوله :

« وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطأُ والنِّسْيَانُ ومَا اسْتُكْرِهوا عَلَيْهِ » وفي رواية « رُفِعَ » بَدَلَ « وُضِعَ » . رواه البيهقيّ عن ابن عمر .

(٣) وَجَاءَ في الإِصْحَاحِ الحادي عشر من سفر اللاويّين أَنّ لَحْمَ الْجَمَلِ كانَ مُحَرَّماً عليهم ، وأنّه كان نجساً لهم ، وكذلك وَبَرُهُ .

(٤) وجاء في الإصحاح العشرين من سفر اللاويّين :

« ٩ كُلُّ إنسانٍ سَبَّ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ ، قد سَبَّ أباه أو أُمَّهُ دَمُهُ عليه

١٠ وإذا زنَىٰ رجُلٌ مع امرأةٍ فإذا زنَىٰ مع امرأةِ قريبه فإنَّهُ يُقتَلُ الزَّاني والزّانية . .

١٤ وإِذَا اتَّخذَ رَجُلٌ امْرأةً وَأُمَّهَا فَذَلِكَ رَذيلَةٌ بالنَّارِ يُحرِّقُونَهُ وَإِيَّاهُمَا لِكَيْ لاَ يَكونَ رَذِيلَةٌ بيْنَكُمْ . . .

٢٧ وإذا كان في رجُلٍ أو امرأةٍ جَانٌّ أَوْ تَابِعَةٌ فإِنَّهُ يُقْتَلُ بالحجارة يرجمونَهُ . دمُهُ عليه . » .

(٥) وجاء في الإصحاح « التاسع عشر » من سفر العدد :

« ١١ مَنْ مسَّ مَيْتاً مَيْتَةَ إِنْسَانٍ مَّا يَكُونُ نَجِساً سَبْعَةَ أيامٍ .

١٢ يَتَطَهَّرُ بِهِ (أي : بماء خاصٌ أُعِدَّ بمراسِيمِ ذَبْح بقَرَةٍ وإحراقِها وجَمْعِ رَمَادِها خارج المحلّةِ في مَكَانٍ طاهر) في الْيَوْمِ الثَّالثِ وَفِي الْيَوْمِ السّابِعِ يكونُ طاهِراً . وإِنْ لَمْ يَتَطَهَّرْ في الْيَوْم الثّالثِ ففي الْيَوْمِ السّابع لا يكون طاهراً .

١٣ كُلُّ مَنْ مَسَّ مَيْتاً مَيْتَةَ إِنْسَانٍ قَدْ مَاتَ ولَمْ يَتَطَهَّرْ يُنَجِّسُ مَسْكنَ الرَّبّ ، فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ إسْرَائِيلَ . لأنَّ مَاءَ النَّجَاسَةِ لَمْ يُرَشَّ عَلَيْهَا تَكُونُ نَجِسَةً نَجَاسَتُهَا لَمْ تَزَلْ فِيهَا .

١٤ هٰذِهِ هِي الشريعة . إذا مَاتَ إنْسَانٌ فِي خَيْمَةٍ فَكُلُّ مَنْ دَخلَ الْخَيْمَةَ وَكُلُّ مَنْ كَانَ فِي الْخَيْمَةِ يَكُونُ نَجِساً سَبْعَةَ أَيَّام .

١٥ وكُلُّ إِنَاءٍ مَفْتُوحٍ لَيْسَ عَلَيْهِ سِدَادٌ بِعِصَابَةٍ فإنَّهُ نَجِسٌ .

١٦ وَكُلُّ مَنْ مَسَّ عَلَىٰ وجْهِ الصَّحْراءِ قَتِيلاً بالسَّيْفِ أَوْ مَيْتاً أو عَظْمَ إِنْسَانٍ أَوْ قَبْراً يَكُونُ نَجِساً سَبْعَةَ أَيَّامٍ .

١٧ فَيَأْخُذُونَ لِلنَّجِسِ مِن غُبَارِ ذَبِيحَةِ الْخَطِيَّةِ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ مَاءً حَيّاً فِي إِنَاءٍ ١٨ وَيَأْخُذُ رَجُلٌ طَاهِرٌ زُوفَا وَيَغْمِسُهَا فِي الْمَاءِ وَيَنْضَحُهُ عَلَىٰ الْخَيْمَةِ وَعَلَىٰ جَمِيعِ الأَمْتِعَةِ وَعَلَىٰ الأَنْفُسِ الّذِينَ كَانُوا هُنَاكَ وعَلَىٰ الَّذِي مَسَّ الْعَظْمَ أَوِ الْقَتِيلَ أَوِ الْمَيّتَ أَوِ الْقَبْرَ ١٩ ينْضَحُ الطَّاهِرُ عَلَىٰ النَّجِسِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَالْيَوم السَّابِعِ ويُطَهِّرُهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ فَيَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَرْحَضُ بِمَاءٍ فَيَكُونُ طَاهِراً في الْمَسَاء » .

هذه بعض أحكام النجاسة والتطهير منها عند أهل التوراة ، فَلْنُقَارِنْ بينها وَبَيْنَ الأَحْكام الميسَّرَةِ التي لا إصْرَ فيها وَلاَ مشقَّة في الإسْلاَم ، مع ما في أحكام النجاسة والطهارة في الإسْلاَمِ من مَعْقُوليَّةٍ ومنطقيَّةٍ ومُلاءَمَةٍ للمصلحةِ والْجَمَالِ والذَّوْقِ الرفيع .

(٦) وجَاءَ فِي سِفْرِ التَّثْنِيَة (الإصحاح الثاني والعشرين) :

« ٢٣ إِذَا كَانَتْ فَتَاةٌ عَذْرَاءُ مَخْطُوبَةٌ لِرَجُلٍ فَوَجَدَهَا رَجُلٌ فِي الْمَدِينَةِ واضْطجَعَ معها ٢٤ فَأَخْرِجُوهُمَا كِلَيْهِمَا إِلَىٰ بَابِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَارْجُمُوهُمَا بِالْحِجَارَةِ حتَّىٰ يَمُوتَا الْفَتَاةُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا لَمْ تَصْرُخْ في الْمَدِينَةِ والرَّجُلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَذَلَّ امْرَأَةَ صَاحِبِهِ ، فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكَ . . . » .

أَيْنَ هَذا ممَّا جاءَ في القرآن المجيد ، في سورة [النور/٢٤ مصحف/١٠٢ نزول] بشأن الزانية والزاني غير المحصنين :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾

لهذا امْتَنَّ الله علَىٰ الأُمَّةِ الإسْلاَمِيَّةِ في القرآن بما اشتملت عليه الشريعة الإسلاميّة من يُسْر ورَفْعِ حَرَج .

* فقال الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] ضِمْنَ شَرَائِعِ أحكام الصّيام الميسّرة :

﴿ . . . يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ . . . ﴿١٨٥﴾ ﴾

* وقال الله عزّ وجلّ في سورة [الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ . . . ﴿٧٨﴾ ﴾

إنَّ الله اجتبَىٰ هٰذِهِ الأمَّةَ الإسلاميّة ، أي : اختارَهَا واصطفاها من دون سائر الأُمَم السّابقة ، ومن اجتبائها أنّه جَعَلها أمَّةَ دَعْوَةٍ إلى دين الله تَشْهَدُ على الناس بتبليغ رسالة الله كما أنزلها غير محرّفة ولا مُبَدَّلَة ولا منقوصة ولا زائدة ، ومن اجتبائها أنَّهُ جعل الشرائع المنزلة إليها والتكاليف التي كلّفها إياها مُيَسَّرَة لا حرج فيها .

* وقال الله عزّ وجلّ بشأن العجزة وذوي العاهات في سورة [النور/٢٤ مصحف/١٠٢ نزول] :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ . . . ﴿٦١﴾ ﴾

* وفي معرض تكليف المؤمنين أن يتوضَّؤُوا للصلاة أو يتيمموا عند العذر قال الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] :

﴿ . . . مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

* وعلَّمَنَا الله أَنْ نَدْعُوَهُ بالدُّعَاءِ الذي جاء في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ . . . رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

لقد نزلت سورة [البقرة] مع أوائل العهد المدني ، الذي بدأت فِيه شرائعُ الأحكام تَنْزِلُ تباعاً ، فَدَعَا المسلمون بهذا الدُّعَاءِ الّذي علّمَهُمُ الله إيّاه ، واسْتَجاب لهم ، فلم يحمل على المسلمين في هذا الدين إصْراً كَمَا حَمَلَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهم ، ولم يُحَمّلْهُمْ مَا لا طاقَةَ لَهُمْ به .

مَا لا طاقة لهم به : أي : فوق ما يستطيعون فِعْلَهُ بِمَشَقَّة ، وهذا من الأدب مع الله ، لأنّ القتال في سبيل الله ممّا يُسْتَطَاعُ فِعلُهُ ولكِنْ بمَشَقَّة .

ظواهر الْيُسْر ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية

لدى استقراء أحكام الشريعة الإسلامية لمعرفة جوانب يُسْرِها ، ورفع الحرج عنها ، ومُلاَءَمِتِها للطاقة الإنسانيّة المعتادة ، وملاءمتها لدوافع الفطرة ، تتكشّف لنا الظواهر التفصيليّة التالية :

الظاهرة الأولى : أنّ التكاليف في الشريعة الإسلامية تدخُلُ جميعها ضمن حدود الطاقة الإنسانيّة المعتادة ، مع مراعاة أحوال العجزة والمرضى وأهل العاهات والمعرّضين للمشقات كالمسافرين باستثناءات خاصة .

الظاهرة الثانية : رفع المسؤوليّة في أحوال النسيان والخطأ والإكراهِ التي لا يَمْلِكُ الإنسانُ دفْعَها .

الظاهرة الثالثة : مراعاة مطالب الفكر والنفس والجسد الإنسانيّة ، وعدم إهمالها ، وذلك ضمن حدود طريق الحقّ والخير والفضيلة وما تقتضيه جماليّاتُ الحياة .

الظّاهرة الرابعة : مراعاة واقع أحوال المجتمع الإنساني على اختلاف شعوبه ، نظراً إلى تفاوت الأفراد في استعداداتهم وخصائصهم .

الظّاهرة الخامسة : مراعاة واقع حال الضَّعْفِ البشري بوجه عامّ ، وواقع حال النفس الإنسانيّة المفطورة على حُبِّ المخالفة ، والنزوع إلى الشذوذ ، والمغامرة بامتحان المسالك الوعرة ، وذلك بفتح باب الغفران ، وتهيئة أفضل الوسائل وأيْسَرِها للتّخلُّص من الإثم ، ومن أثقال الأوزار .

الشرح :

(١) إنّ التكليف ضمن حدود الطاقة يظهر لنا حينما نلاحظ أنّ المسؤوليّة في الشريعة الإسلامية ترتفع بمقدار ارتفاع نسبةِ الخصائص والهبات ، وتنخفض بمقدار انخفاضها .

فمسؤولية العاجز والضعيف دون مسؤولية القويّ الصحيح ، ومسؤولية البليد الغبيّ دون مسؤوليّة ذي الهمّة الذكيّ ، ومسؤولية الأعمى والأعرج والمريض دون مسؤولية البصير والسليم ، وهكذا .

قال الله عزّ وجل في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ . . . لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ (٢٨٦) ﴾

وقال في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] :

﴿ . . . لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ . . . (١٥٢) ﴾

وجاء نظير هذا في أربعة نصوص قُرْآنية أخرى .

ولمّا كان الحجّ يتطلّبُ سَفراً فيه مشقة بالنسبة إلى الآفاقيين ، ويتطلَّبُ مالاً للنفقة ، قال الله عزّ وجلّ في سورة [آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول] :

﴿ . . . وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ (٩٧) ﴾

(٢) ورَفْعُ المسؤوليّة في أحوال النسيان والخطأ والإكراه الّتي لاَ يَمْلِك الإنسان دفْعَها ، جاء بيانُهُ في عدّة نصوص ، منها ما يلي :

* ما جاء في الآية (٢٨٦) من سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول] :

﴿ . . . رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا . . . ﴿٢٨٦﴾ ﴾

* وما جاء من إعفاء المكره على الكفر إذا كان قَلْبُه مطمئناً بالإيمان ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة [النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول] :

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وما جاء في قول الرسول ﷺ :

« وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ والنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ » .

والخطأ المعفوّ عنه هو مجانبةُ الصواب مع قصْدِه ، أو عَدَمُ إصابةِ الهدف المرجوّ ، أو إصابة غير الهدف المقصود ، في العمل ، أو في الفكر ، أو في اللّسان ، بثلاثة شروط :

الأول : أن يكون تصدّي الإنسان للأمر قد كان بعد تحقُّق غلبة الظّنّ بأنّه كفْءٌ له بحسب الأعراف العامّة عند الناس .

الثاني : أن يتخّذ الوسائل والاحتياطات ضمن حدود الاستطاعة الّتي من شأنها أن تدفع عنه احتمالات الخطأ ، أو تخفّف منها قدر المتسطاع .

الثالث : أن لا يكون في العمل تقصير ولا تفريط .

(٣) ومراعاة مطالب الفكر والنفس والجسد الإنسانيّة تظهر في أنّ الشريعة الإسلاميّة لم تَحْرِمِ الإنسانَ من تلبية مطالب نفسه وفكره وجسده إذا سلك سبيلاً سَوِيّاً ، يضمن تحقيق العناصر الخمسة التالية :

العنصر الأول : تلبية المطالب باعتدال دون إفراطٍ ولا تفريطٍ مُضِرَّيْن .

العنصر الثاني : الموازنة بين مجموعة الميول والدوافع والغرائز الفطريّة ومطالبها ، وواجبات الإنسان في الحياة ، ثُمَّ إعطاء كلٍّ منها ما يناسبه ويُصْلحه

بالعدل ، دون أنْ يطغَىٰ بعضُها على حقوق بعض ، أو على حقوق سائرها .

العنصر الثالث : ربط تلبية المطالب النفسيّة والجسدية بالأُسُس الإيمانيّة ، وتصعيد غايات النفس وأهدافها ، بأن لا يكون هدف الإنسان مجرّد تلبية مطالب الميول والدوافع ، وإنّما يهدف مع ذلك إلى أُمُور أسْمَىٰ ، تتّصل بتحقيق رضوان الله ، والعمل لنَيْل السعادة الأبدية ، كالأكْل للتقوّي على طاعة الله ، والزواج لتربية أسرة إسلاميّة صالحة ، وكسب المال لإعفاف النفس عن المسألة والبذل منه في سبيل الله .

العنصر الرابع : الالتزام بحدود أحكام الشريعة الإسلاميّة التي حدّها الله عزّ وجلّ لعباده .

العنصر الخامس : توجيه الصفات النفسيّة ذات المظاهر المتضادّة كالحبّ والكراهية ، والشجاعة والجبن ، والطمع والخوف ، لما يُحقّق أكبر مقدارٍ من الخير ، كتوجيه عاطفة الحبّ نحو الله والحقّ ، والخير والفضيلة والمؤمنين الصالحين ، وتوجيه عاطفة الكراهية نحو الباطل والشرّ والرذيلة ودُعاة هذه الموبقاتِ من شياطين الإنْسِ والجنّ .

(٤) ومراعاة واقع حال المجتمع الإنساني بما فيه من تفاوتٍ في استعدادات أفراده وخصائصهم ، تظهر في اشتمال الشريعة الإسلامية على صنوف من مخاطبة الناس على مقادير عقولهم ومفاهيمهم ، إذْ فيها ما يلائم خطاب الأذكياء ، وفيها ما يلائم خطاب كبار العلماء ، وفيها ما يلائم خطاب العامّة ، وفيها أيضاً ما يلائم خطاب من هم دون أولئك ، فيأخذ كلّ ذي مستوىً منها ما يلائم مستواه .

إنّ بعض الناس لا تتسع مداركهم إلاّ لممارسة العبادات العملية ، وترديد الأذكار ، وفي الناس من يصْلُح للتفكّر والتدبّر ، وفيهم من يَصْلُح للبحث العلميّ والصبْرِ على متابعة التحليل لبلوغ غاية الدقائق ، وفيهم من يصْلُحُ للاستنباط وفهم دقائق الأمور باللّمح ، إلى غير هؤلاء .

ونصوصُ الشريعة الإسلاميّة فيها ما يتّسِعُ للجميع على اختلاف مستوياتِ الناس .

(٥) ومراعاة واقع حال الضعف البشري في المحاسبة والجزاء ، تظهر في النصوص الكثيرة في القرآن والسنة التي تفتح للمذنبين أبواب العفو والغفران وإصلاح النيّة والعمل ما دام الإنسان على قَيْدِ الحياة .

فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة [الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول] :

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

* * *

الخصيصة السادسة :

« التعامل بأحكام الشريعة الإسلامية هو تعامُلٌ بين العبد وربّه مباشرةً دون وساطة من الناس » .

هذه الخصيصة تخالف ما عليه التحريف الكنسيّ عند النصارى ، الأمر الذي أدّى إلى استغلال الوساطة الدينيّة المبتدعة عندهم لتحقق مطالب شهوات الوسطاء وأهوائهم ، والحصول على مكاسب ماليّة واسعة ، حتّىٰ صار رجال الكنيسة يبيعون ما يشاءون من الجنّة لعامّة النصارى مقابل أموال يقبضونها منهم ، ويبيعون صكوك الغفران لكلّ الذنوب ما سلَفَ منها وما سيَحْصُل مستقبلاً .

وقد حمَىٰ الله الإسلام وأحكام الشريعة الإسلامية من هذه البدعة الخبيثة ، التي من شأنها أن تُلْغِي كُلَّ أحكام الشريعة وضوابطها .

ولا يؤثر على هذه الخصيصة وجود نظام الحسبة ، أو وجود جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولا تكليف الحاكم المسلم مراقبة تطبيق

أحكام الشريعة ، وتنفيذ العقاب الشرعيّ على المذنبين .

فنظام الحسبة نظام مراقبة ، لا نظام مسؤوليّة عن حساب وجزاء ، ومؤاخذة أو إعفاء .

والأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر نظام تذكير وتوجيهٍ ومراقبة فقط .

والحاكم المسلم مكلّف كغيره من المسلمين بما يشترك فيه مع سائر المسلمين من أعمال وتكاليف ، ومكلّفٌ أيْضاً أنْ يطبّق أحكام الشرع ويقيم الحدود والعقوبات ، على وفق ما يقرّر القضاء الشرعي ذو السلطة المنفصلة .

وليس مفوّضاً بإعفاء من يشاء ، ومعاقبة من يشاء ، ولذلك لم يقبل الرسول ﷺ وساطةً في رفع حدٍّ شرعي ، لأنّ ذلك أمْرٌ لا يملكه .

فالحاكم المُسْلِمُ مُلْزَمٌ بتنفيذ أحكام الله ، دون أن تكون له أيّة صلاحيّة خاصّة ، وحكم الشريعة الإسلامية ذو سلطان على الجميع محكومين وحكاماً ، والجميع يعاملون ربَّهُمْ بأحكام شريعته معاملة مباشرة دون وساطة وسطاء من الناس .

* * *

الخصيصة السابعة :

« التخفيف في التكاليف والتجاوز عن إنزال بعض الأحكام رحمةً بالناس » .

وتبدو هذه الخصيصة في عدّة أمور دلَّتْ عليها جملة نصوص :

(١) منها ما سبق بيانه في « الخصيصة الخامسة » من رفع الإصر الذي كان على الأمم السابقة .

(٢) ومنها التخفيف في عدد الصلوات من خمسين صلاة إلى خمس صلوات في اليوم واللّيلة ، كما جاء في حديث المعراج .

(٣) ومن مظاهر التخفيف تنزيل تكليف المسلمين في القتال من مواجهة عشرة أمثالهم إلى مثلَيهم فقط ، كما جاء بيانه في سورة [الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول] فقال تعالى فيها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

فدَلَّتْ هاتان النسبتان على أنّ مستوى الإيمان الأعْلَىٰ والإسلام الصادق يَغْلِبُ مَعَهُ المؤمنون المسلمون عشرة أمثالهم من الكافرين .

وأنّه لا يصحّ أن تقل نسبة الإيمان والإسلام في المجموع عمّا يؤهّل لانتصار المؤمنين المسلمين على مثلَيْهم وغلَبتهم لهم .

(٤) وممَّا يدلُّ على هذه الخصيصة قول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول] وهي من أواخر سور القرآن نزولاً :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

أي : لَا تسألُوا عن حُكْمِ أشياءَ إبَّانَ تنزيل القرآن على الرسول ﷺ ، أي : في حياة الرسول ، لم يتعرّض لها البيان القرآني ولا البيان النبويّ لا على سبيل التفصيل ولا على سبيل الإجمال ، فإنَّكُمْ إذا سألْتُمْ عنها كان من الحكمة عندئذ بيان حكمها وفق المنهج الأمثل ، فإذا وجدتُمْ حُكْمَها ممّا يشُقُّ عليكم تطبيقه سَاءَكُمْ ذَلِك ، وهِيَ أحكام عفَا الله عنها ، أي : تجاوز عن بيان أحكامها رحمةً بعباده ، وتخفيفاً عنهم . ولا تفعلوا كما فعل بعض أتباع الرُسُل السابقين من قبلكم ، إذْ كانوا يُكثرون سُؤَالَ رُسُلِهم ، فتنزل البيانات والتكاليف التي يشُقُّ

عليهم القيام بها ، ثمّ يعصونها ، ثُمَّ يكفرون بها .

ونعلم من تاريخ بني إسرائيل أنَّهم شدَّدُوا على أنفسهم في المسائل فَشَدَّدَ الله عليهم ، ثُمَّ كفرُوا بكثيرٍ من شرائعهم .

ولهذا حذّر الرّسُولُ ﷺ أصحابه عن أن يسألوا عن أحكام أشياء أو أعمال لم يُبَيِّنْها لهم .

فقد روى البخاري عن سعْدِ بْنِ أبي وقّاص ، أنّ النبي ﷺ قال :

« إِنَّ أَعْظَمَ الْمُجْرِمِينَ جُرْماً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ » .

وروىٰ البخاريّ عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال :

« دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُؤَالُهُمْ واخْتِلاَفُهُمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوه ، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .

وأبان الرسول ﷺ الحكمة من مَنْعِ السُّؤال في عصْرِ تَنْزِيلِ الأحكام ، فقد روىٰ الدارقطنيُّ وغيرُه عَنْ أَبي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيّ ، عن النبيّ ﷺ قال :

« إِنَّ الله فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوها ، وَحَدَّ حُدُوداً فَلاَ تَعْتَدُوها ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوها ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ مِنْ غير نسيان فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا » . قال النووي في أربعينه : حديث حسن .

فَلاَ تَـنْـتَهِكُوها : أي : لا تفعَلُوها عاصين الله بها .

هذه الأحاديث النبويَّة تُبيّن وتشرح النصّ القرآني الذي سبق الاستشهاد به .

أمّا بعد عصر التنزيل ، فإنّ السؤال عن أحكام الأشياء الّتي لم يأتِ بيان صريحٌ حولَهَا في القرآن أو في السنة أَمْرٌ مطلوب ، لأنّ أهل الاجتهاد من فقهاء المسلمين يستخرجون أحكامها من مصادر التشريع استنباطاً أو قياساً ، فمن

مقاصد سكوت الشارع عمّا سكَتَ عنه من أحكامٍ تَرْكُ استخراج الأحكام لاجتهاد المجتهدين من هذه الأمّة ، تكريماً لها ، ولِتَسْتَنْبِط الأحكام لكل الأمور الَّتِي تَجِدُّ في حياة النّاس ، وليس أهل الاجتهاد من فقهاء المسلمين مشرّعين ، بل هم يستنبطون كما أذن الله لهم .

* * *

خاتمة

هذا ما فتح الله به عليّ في هذه المنظومة الفكرية المستخرجة ابتكاراً من نصوص القرآن والسّنّة ، والّتي تكشف الشجرة الحكميّة الرّبّانيّة الّتي تمّ بمقتضى أصولها وفروعها ترتيبُ خِطَّة خَلْقِ الناس .

إنّ هذه المنظومة الفكريّة تُمثِّلُ عناصر فكريّة تجيب عَلى أسئلة مهمّة حول حكمة الله من خلق الناس ، في ابتلائهم في ظروف الحياة الدّنيا ، لمحاسبتهم ومجازاتهم يوم الدين ، مع منحهم شروط هذا الابتلاء ، وتهيئة لوازمه في عناصر الخلق ، وحول الربط بين مفاهيم ربوبيّة الله وإلهيته ، وعبوديّة الناس الجبريّة والاختياريّة لله عزّ وجلّ ، ومطلوب الله من عباده في رحلة ابتلائهم من إيمان وإسلام ومقتضياتهما من عبادات .

والحمد لله على ما فتح وألْهَم ، ويسَّر وتمَّم ، وصلى الله وسلّم على سيّدنا محّمد وعلى سائر المرسلين والنبيّين وآلِ كُلٍّ وصَحْبِ كُلٍّ أجمعين ، ومن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يوم الدّين .

اللّهم أدم النفع بهذه المنظومة الفكريّة التي اشتمل عليها هذا الكتاب ، واجعله خالصاً لوجهك الكريم ، وزدني من فضلك ولا تنقصني ، واكتب لمن ينشر ما فيه من عِلْمٍ ثواباً عظيماً ، واجْزِ عَنّي خيراً كلَّ من يُهْدِي إليّ نُصْحاً أو تصويباً .

مكة المكرمة في ١٣ جمادى الأولى ١٤١٤ هجرية

و ٢٨ تشرين الأول ١٩٩٣ ميلادية

قُرب منتصف ليلة الجمعة .

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

آثار المؤلـف

أوّلًا: في سلسلة أعداء الإسلام

(١) مكايد يهودية عبّر التاريخ ٤٤٠ صفحة

(٢) صراع مع الملاحدة حتّى العظم ٥٠٠ صفحة

(٣) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها
«التبشير والاستشراق والاستعمار» ٦٨٠ صفحة

(٤) الكيد الأحمر
«دراسة واعية للشيوعية» ٤٠٠ صفحة

(٥) غزوٌ في الصميم
«دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسّلوكي في مجالات التعليم المنهجي والتثقيف العامّ» ٣٣٤ صفحة

(٦) كواشف زيوف في المذاهب الفكريّة المعاصرة ٧٥٠ صفحة

(٧) ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ. مع دراسة شاملة للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين مجلدان ١٣٠٠ صفحة

ثانيـاً: في طريق الإسلام

(١) العقيدة الإسلامية وأُسُسها ٨٠٠ صفحة

(٢) الأخلاق الإسلامية وأُسُسها مجلدان ١٥٠٠ صفحة

(٣) براهين وأدلّة إيمانية (مع ديوان آمَنْتُ بالله) ٥٠٠ صفحة

(٤) الصّيام ورمضان في السّنة والقرآن
«دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسّنة» ٤٨٠ صفحة

(٥) أسس الحضارة الإسلاميّة ووسائلها ٤١٢ صفحة

(٦) روائع من أقوال الرسول ﷺ

«دراسة لغوية وفكرية وأدبيّة» ٥٧٥ صفحة

(٧) الأمة الرّبّانية الواحدة ١٢٢ صفحة

(٨) ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة ٤١٦ صفحة

ثالثاً: دراسات قرآنية

(١) قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ ٨٠٠ صفحة

(٢) تدبّر سورة (الفرقان) في وحدة موضوع ٤٥٠ صفحة

(٣) تفسير سورة (الرّعد) في وحدة موضوع ٢٩٠ صفحة

(٤) أمثال القرآن وصُورٌ من أدبه الرّفيع ٤٠٠ صفحة

(٥) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد
«دراسة في طريق التفسير الموضوعي» ٣٧٢ صفحة

رابعاً: سلسلة من أدب الدعوة الإسلاميّة

(١) مبادىء في الأدب والدّعوة ١٧٧ صفحة

(٢) ديوان «آمنت بالله» شعر ٨٠ صفحة

(٣) ديوان «ترنيمات إسلامية» شعر للنشيد ١٢٥ صفحة

(٤) ديوان «أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدعاة» ٢٥٥ صفحة

(٥) البلاغة العربيّة
«أسسها وعلومها وفنونها وصُورٌ من تطبيقاتها»
بهيكل جديد من طريفٍ وتليد مجلّدان

خامساً: كتب متنوعة

(١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ٤٧٠ صفحة

(٢) بصائر للمسلم المعاصر ٤٥٥ صفحة

وغير ما ذكر من متفرّقات